



القرآن والملحدون

محمد عزة دروزة

دار قتيبة
دمشق

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

الطبعة الأولى

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

الطبعة الثانية

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

مقدمة الكتاب

- ١ -

منذ مطلع هذا القرن بل وقبله أخذت أصوات عربية ترتفع ضد الأديان . متأثرة بموجة الاتحاد التي أخذت تنتشر بخاصة في أواسط القرن السابق في الغرب نتيجة لما اكتشف وظهر من نظريات فنية وعلمية وكونية وخلقية مبينة لما في الكتب والتقاليد والأذهان الدينية . وبخاصة المسيحية ومتأثرة كذلك بما كان من نهضة مادية صناعية تقدم بها الغرب وتفوق على الشرق الذي كان متخلفاً عنه في ذلك وعرضة لمطامعه وهيمنته واستغلاله . وغازية هذا التخلف والضعف الى الدين ، وداعية الى وجوب الانصراف عنه ، وأخذ ما عند الغرب من علم ووسائل فنية مادية . وكان من أوائل من حمل الدعوة الى ذلك من العرب الدكتور شبلي شميل اللبناني المقيم في مصر ، وسلامه موسى المصري القبطي .

غير أنها كانت أصوات أفراد أولاً ، ثم أخذت تصبح تياراً في المتعلمين في ديار الغرب وفي من يتلقى العلم منهم من ناشئة مدارسنا الحكومية وغير الحكومية دون أن يصبح تياراً شاملاً قوياً ، وظل الأمر كذلك مع ضعف غير منكر في الروابط الدينية والالتزامات الدينية في قطاع كبير من المتعلمين والمثقفين . نتيجة لضعف التربية الدينية والتوجيه الديني ، والفهم الصحيح للدين في المدارس ، وعدم المبالاة بذلك ، وبلغ الأمر ذروته بعد نكبة حزيران ١٩٦٧ التي وجد الملحدون العرب من شيوعيين وغير شيوعيين فيها وسيلة لتشديد

الحملة على التخلف العربي الذي كان سبباً رئيسياً للنكبة والزعم بأن ذلك من آثار العقائد والتقاليد والذهنية الغيبية . ولتقديم البديل عنها وهو التكنولوجيا والعلمية .. وأضاف بعضهم الى هذا البديل المادية الماركسية اللينينية . وآخر ما قرأناه لهم في هذا الصدد كتاب (نقد الفكر الديني) لصادق جلال العظم الذي طبع في بيروت عام ١٩٦٨

- ٢ -

وواضح من هذه الخلاصة المقتضية أن الاتحاد لم يأت عن طريق الثورة الاشتراكية الشيوعية بدءاً ، وأن موجته بدأت قبل ذلك ، واستمرت مؤثرة في أذهان جماعة من مثقفي العرب الذين لم يعتقدوا الشيوعية أيضاً . وإن كان من الحق أن يقال إن الدعوة اليه صارت في ظل الاحزاب الشيوعية العربية ذات تأثير أقوى متناسب مع التنظيم الحزبي ومع اتساع نطاق الشيوعية وقوة أحزابها ونشاطها في حين لم يكن للملحدين غير الشيوعيين مثل هذا التنظيم .

- ٣ -

ومن عجيب المفارقات أن الشيوعيين العرب المتسمين بالماركسية واللينينية يدعون الى نبذ الدين في حين أن الاتحاد السوفياتي الذي يمثل هذه الماركسية واللينينية يطبقها ويتسم بها نظاماً وحياة شاملة يضم طوائف كبيرة ماركسية المذهب والتطبيق كنظام اقتصادي ، وفي نفس الوقت محتفظة بأديانها الاسلامية والمسيحية واليهودية ، لها مساجدها ومعابدها وكنائسها ، ولها تشكيلاتها الطائفية ، وعلمائها ومفاتيها وبطاركتها وقسيسها وأخاموها وتقوم بكل طقوسها الدينية بحرية ودون ممانعة من السلطات الحكومية ، ويشغل كثير من أبنائها مراكز هامة في السلطات الحكومية المركزية والمحلية والتمثيلية وغير التمثيلية على

اختلاف مستوياتها . حيث يبدو من هذا أن الماركسية اللينينية اعتبرت بالدرجة الأولى نظاما اقتصاديا ، وليس من الضروري أن يكون معتقوها ملحدون في البلد الرسمي الذي هو أمها وحامل علمها ، وأن علماء الأديان ورجالهم البارزين بدورهم أساغوا هذا النظام على ذلك الاعتبار ووجدوا له مسوغاً شرعياً ، وهذا المظهر قائم في بلدان شيوعية ماركسية لينينية أخرى أيضا ومنها الصين الشعبية ويوغوسلافيا والباينا وبلغاريا ورومانيا وهنغاريا وشكسولفاكيا وبولونيا الخ .

وقد يكون مر ظرف على الاتحاد السوفياتي والبلدان الشيوعية الماركسية اللينينية حوربت فيه الاديان ، غير أن الواقع الآن هو الصورة التي ذكرناها بحيث يكون الملحدون العرب في اصرارهم على محاربة الدين قد جمدوا على حالة تجاوزها الاتحاد السوفياتي والبلدان المماثلة له واساغوا الصورة الواقعة . ولا بد من انهم وجدوا لها مسوغا ايديولوجيا ... (١)

(١) في مجلة روز اليوسف العدد ١٤ تشرين الاول ١٩٧٠ حديث لشيخ الأزهر الدكتور محمد الفحام على أثر عودته من زيارة قام بها لبلاد الاتحاد السوفياتي . ذكر فيه أن الدين والتدين حران في هذه البلاد وأن المساجد والكنائس والكُنىس كثيرة عامرة وأن المتدينين من المسلمين والنصارى واليهود يؤمنونها ويمارسون طقوسهم وعاداتهم الدينية بكل حرية . وأن المسلمين في تزايد . وحالتهم المادية والمعنوية حسنة من كل ناحية . ومما جاء في حديثه أنه اطلع على قرار صادر من الحكومة السوفيتية في سنة ١٩١٧ - أي سنة إعلان الثورة ونجاحها موجه الى المسلمين يقول لهم فيه : أن عقائدهم وعاداتهم ومؤسساتهم الدينية والقومية حرة مقدسة وأنهم يستطيعون أن ينظموا حياتهم بحرية وفي جو خال من العقبات وأن يكونوا على يقين من أن حقوقهم محمية من الثورة شأن حقوق جميع شعوب روسية حيث يبدو من هذا أن الذين قاموا بالثورة الشيوعية لم يتوخوا منذ البدء هدم الدين ومحاربه . واعتبروا حركتهم حركة اقتصادية اجتماعية سياسية وحسب . وفي مجلة الوعي الاسلامي الكويتية عدد شوال ١٣٩٠ بيان عن حالة المسلمين في الصين الشعبية ذات النظام الشيوعي الماركسي اللينيني جاء فيه أن عددهم يبلغ خمسين مليوناً وإنهم من أكثر المسلمين تدبناً . ويتمتعون بحريتهم الدينية وتشكيلاتهم الطائفية والوفقية . ومساجدهم عامرة منتشرة في مختلف أنحاء البلاد التي يكترون فيها وهي الأقسام الشمالية الغربية . وأن لهم مشاركة في الحكم المركزي والمجالس الشعبية العامة والمحلية فضلا عن أنهم يتمتعون في المناطق التي يتكاثفون فيها باستقلال ذاتي . وهي مناطق كاسو وتنسجباخوس ويونان وزنشوان .

وكذلك من مفارقاتهم العجيبة رفعهم لشعار الامة واعتبارهم دعوة القومية العربية عنصرية أو حسب تعبيرهم (شوفينية) لانها مخالفة لذلك الشعار ، ويحملون على دعائها . مع أنها دعوة تمثل حضارة باذخة لأمة كبيرة تمتد من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي . ومع أن الاتحاد السوفياتي يضم العديد من القوميات ، ويسمح لكل منها الاحتفاظ بلغته وخصائصه ومظاهره ومقوماته دونما حرج ، ومع ان هذا قائم في الدول التي تدين بالماركسية اللينينية الاخرى كالصين وكوبا وفيتنام وكوريا والمانيا وهنغاريا والبنانيا ويوغوسلافية وبلغاريا ... بل منهم من يسخف فلا يندمج في هدف ازالة دولة اسرائيل التي هي قمة العنصرية ويقول بوجوب الاعتراف بواقعها ، وكل ما يوافق عليه ممثلو هذا السخف اسقاط الحكم اليميني في الدولة الاسرائيلية وقلبه الى نظام اشتراكي ، وعودة النازحين الى منازلهم ليعيشوا في ظل هذه الدولة متعامين عن أن هذه الدولة سواء أكانت يمينية أم صارت يسارية انما قامت على اشلاء العرب وأنقاضهم وأراضيهم وأملأهم وثوراتهم اغتصابا وعدوانا بقوة الحديد والنار والتأييد الاستعماري .

ولما كانت أكثرية العرب الساحقة مسلمة فيكون الاسلام هو الهدف الرئيسي في حملة الملحدين العرب ونقدهم وتجريحهم وتهديمهم مدى وغاية. والقرآن هو الممثل الاول للاسلام فيكون بدوره الهدف الرئيسي للنقد والتجريح والتهديم بطبيعة الحال .

ومع أن الملحدين لا يجهلون أن كثيرا مما عليه العرب المسلمون لا يمت الى القرآن وسنة رسول الله ﷺ التي هي الممثل الثاني للاسلام ولا الى الصدر الاسلامي الاول الذي عاش في ظل القرآن والسنة ، ولا يجهلون ما كان عليه المسلمون الاولون في هذا الصدر من قوة وعزة وحضارة في ظل السلطان العربي الاسلامي ، فان هذا لم يجعلهم يخفون من

حملتهم ونقدتهم وتجريحهم وتهديمهم للاسلام والقرآن الذي يمثله بدعوى ان الذهنية الاسلامية الراهنة التي يبدو أصحابها متخلفين ضعفاء تستمد على كل حال منه .

وفي كتاب صادق جلال العظم الذي ذكرناه قبل نقاط كثيرة من ذلك يسوقها في سبيل اثبات هذا الزعم ، وتسويغ تلك الحملة فضلا عن ما يسوغها به من مزاعم تصادم الدين تصادما شديدا مع الحقائق العلمية والفنية . وهي مزاعم لا تثبت على أي تمحيص ومنطق وواقع وتاريخ الصدر الاسلامي الاول .

ولقد أمعنا النظر في جميع ما ساقه صادق العظم من مسوغات واتكأ عليه من نصوص وأقوال . فظهر لنا إنه ارتكس ارتكاسا شديدا معيبا في التعسف والمجازفة وسوء الفهم والتأويل ، وعدم الاستيعاب . والاتكأ على أقوال وتفسيرات ومواقف لا يتحمل القرآن والاسلام مسؤوليتها . وهذا فضلا عن عدم تورعه عن مس شعور المسلمين وإيذائهم في تطاوله على الله ورسوله وقرآنه توهينا أو تجريحا وسخرية . وهو في كل ذلك يمثل كل أو جل الملحدين من ماركسيين وغير ماركسيين حيث يلمح أنهم يهاجمون الاسلام بخاصة دون فهم واستيعاب لمبادئه وأحكامه وتلقيناته (١) .

(١) قرأنا بحثا لواحد منهم أثناء كتابتنا هذه المقدمة فيه من الهراء والتناقض والمفارقة وارسال الكلام على عواهنه والغباء والجهل المطبق بخصائص الدين الاسلامي ما يثير العجب وقد جاء فيه (ان النظام الاقطاعي الاستقراطي لا يمني البشر بملذات الحياة الدنيا بل يحيلهم الى حياة أخرى . يرون فيها كل ما يشتهون ، أكان هذا حالاً أم حراماً في الحياة الدنيا . وكل هذا ينالونه فقط بالطاعة والعبادة ولا شيء آخر . في الحياة الدنيا تفرقة في الحسب والنسب ، بين الغني والفقير ، بين الفرسان والرعاع . في الحياة الاخرية تفرقة بين الكافر والمؤمن ، والمطيع والعاصي . بين الزاهد والمتكالب على سقاسف الحياة ، سيان في هذا أكان المرء ملكاً فيهم أم عبداً ، فارساً أم فلاحاً ، وبينما تبدو التفرقة في الدنيا تفرقة من قبيل الصدفة تأتي التفرقة الاخرية مقصودة ومبررة ، في الحياة الدنيا تكون الامكانات والادوار الاجتماعية محددة ومعروفة مسبقاً . الاقطاعي هو ابن الاقطاعي . أو قريبه أو صديقه ، أو هو المقرب من الملك ، الفارس هو ابن الطبقة الاقطاعية . ابن الفلاح فلاح . وابن الملك أمير وهكذا . اما في الجهة المقابلة فكل انسان يستطيع ان يجدد مكانته في الهرم الاخروي . أن يجدد بنفسه مكانه في سلم الامتيازات ، وهكذا نرى الطبقة الاقطاعية جماعة مغلقة على نفسها ونرى المجتمع الاقطاعي مجتمعا جامدا ليست فيه حركة طبقية الا مائلا ، ونرى الفرد حسب الايديولوجية السائدة للطبقة السائدة موجهها تمام التوجيه نحو عالم آخر غير الذي يعيش فيه ...

ولقد كنا قرأنا لمبشر مسيحي سمي نفسه (الاستاذ الحداد) كتابا بعنوان «دروس قرآنية» ارتكس فيها ارتكاسا شديدا معينا في كل ما ارتكسه العظم مع تعدد لذلك فكتبنا ردا عليه هو كتابنا (القرآن والمبشرون) .

ولقد كتبنا قبل ذلك كتابا آخر كرد على ما أخذ يرتفع من أصوات عربية داعية الى الماركسية اللينيه سميناه (الاسلام والاشتراكية) شرحنا فيه مبادئ الاسلام التي يمكن ان تكون أحسن وأفضل وأوفى بديل عنها تضمن بها العدالة الاجتماعية والاقتصادية أفضل ضمان مع ضمان انسانية الانسان وكرامته وحرية وروحانيته ، وليس فيها استغلال ولا استعلاء ولا استقطاب ثروة فقر ولا طبقات متصارعة بسبب ذلك ، ويتكافأ الناس في ظلها في الفرص ، ويتساوون في الحقوق والواجبات بدون أي تمايز طبقي أو حسي ، ويتفادى بها ما في تلك الماركسية من مصادمة مع غرائز البشر ومصالحهم وطمايناتهم وما تثيره من احقاد تؤدي الى حمامات الدم عبر صراع الطبقات ، ويفقد الانسان فيها انسانيته وحرية . ويصبح مسمارا في عجلة الدولة وحسب وكل ما يكون من أمره أنه يعيش عيشة مادية فيها بعض اليسر تعوزها الروح والحرية والانطلاق بالنسبة للجمهور الاعظم فرأينا أن نكتب هذا الكتاب أيضا كرد على تخرصات جلال العظم بخاصة وعلى الملحدن العرب ماركسيين وغير ماركسيين بعامة عن الاسلام والقرآن ومداهما ، وما يقعون فيه من سوء فهم وسوء تأويل وتعسف ومجازفة بسبيل إثبات أفكارهم ودعاواهم وترويجها في مناسبة صدور كتاب صادق العظم المذكور لتتقد فيه كل ذلك ، وثبت ما في نسبة التخلف العربي الى الاسلام والقرآن وهو ما كان بيت قصيد كتاب صادق العظم من كذب وتجن على الحق والحقيقة ، وما في المسوغات التي يسوغ الملحدون بها دعوتهم الالحادية ضد الدين من وهن وتهافت .

والملاحدون العرب يتظاهرون بأن مصلحة أمتهم وعزتها وقوتها هي قصدهم وأمنيتهم ، ويزعمون أن دعوتهم هي من اجل ذلك ايضا ، ويغفلون وهم يدعون عبر ذلك الى نبذ الاسلام والقرآن عن أنهم يدعون أمتهم من حيث يدرون أو لا يدرون الى قطع صلاتها بترائها الباذخ الذي صارت وظلت به وحده أمة واحدة ذات رسالة انسانية خالدة ، والذي برزوا به وحده بين الامم بحضارة لا تزال آثارها تشهد على ما وصلت اليه من شأو بعيد في كل ميدان ومجال لتصبح بين الأمم مجردة من أية هوية وميزة ، سائرة في فلك غيرها ، واهنة مستضعفة ، مما لا يمكن ان يدعو اليه مخلص لقومه وانسانيته . وتكون هذه الدعوة والحالة هذه عوناً للمستعمرين والصهيونيين ومقاصدهم ، لانها ستؤدي لو تفاقمت لا سمح الله الى تحلل أمتهم من كل قيمة ، وضياعها أو على الاقل الى بث اللبلة في صفوفها وتبديد طاقتها ، وكبت مطامحها وتطلعاتها ، وإضعاف الحمية والامل والحيوية فيها . دون ان يكون لهذه الدعوة فائدة أو ضرورة ما قومية أو اجتماعية أو انسانية من حيث ان القرآن والاسلام كما قلنا يضمنان لأصحابها وللعرب الذين أكثرتهم الساحقة مسلمة كل أسباب السعادة والنجاح والنشاط والحيوية والتقدم وليس فيها أي عائق دون أي شيء من ذلك .

ومن الجدير بالتأمل المثير للعجب ان المبشرين والملاحدي العرب يلتقون في ميدان واحد في الحملة على الاسلام والقرآن . ولقد قلنا في كتابنا الذي ردنا فيه على تخرصات المبشرين وذكرناه قبل : ان المبشرين هم على الأرجح عملاء مأجورون متآمرون مع الاستعمار الغربي الذي طرده الاسلام والقرآن من الشرق قبل أربعة عشر قرناً . وظلا يقفان في وجهه كلما حاول العودة الى الشرق لاستعماره ثانية ، وسينجحان في النهاية كما كان الشأن في الحروب المسماة بالصليبية ، ثم في حقبة القرنين الأخيرين الحديثين الذين ناضل فيها العرب الذين أكثرتهم الساحقة مسلمة ضد ذلك الاستعمار وطرده من بلادهم

فصارا عدويه الاكبرين للذين يترسم القضاء عليهما وهدمهما ، فليس من الجنف أن يقول قائل : ان ملحدي العرب بتهجمهم على الاسلام والقرآن ومحاولتهم تهديمها هم ادوات أخرى لذلك الاستعمار من حيث يدرون أو لا يدرون ، تم للصهيونية المتحالفة معه بل وانهم لأشد نكاية وأثرا على امتهم وبلادهم من المبشرين ، لان سخافة المبشرين لا تلبث أن تظهر وهم في كل حال متلبسون بالغرض والحقد في حين أن الملحدين يزوقون ويلفون كلامهم بالعلم والعقل والمنطق ، ويساعدتهم على ذلك تيارات التحلل الواردة من بلاد الغرب عبر أجهزة البث السماعية والمرئية والتصويرية وعبر المجلات والروايات والكتب الهدامة والخليعة والسخيفة المستندة يوما بعد يوم والتي أصبحت متغلغلة في ناشئتنا حيث صار لذلك أثره الكبير في ما نراه من مواقف التحلل والتمرد واللامبالاة والسخرية بكل القيم والروابط الاخلاقية والاجتماعية والروحية في كثير من مدارسنا وناشئتنا واساتذتهم . حتى أصبحت البيوت والآباء بل والحكومات شبه عاجزة عن حده فضلا عن فمعه . ومما جعل أمتنا وبلادنا عرضة لمحنة أو كارثة رهيبة .

- ١٠ -

ومما يلحظ في ما يكتبه الملحدون الماركسيون العرب بخاصة من كتب ومقالات ونشرات انهم يشندون في محاربة الحكومات العربية التي تسير على اسلوب الاشتراكية المعتدلة المتسقة مع التعاليم الاسلامية ، لانهم يرون في ذلك سدا لنمحللاتهم ودعاباتهم من حيث إن نجاح هذا الاسلوب يضمن توزيع الثروات توزيعا عادلا ومنع الظلم الاجتماعي والاستغلال والاستقطاب للغني والفقر ، وضمان التوجيه والاشراف الصالح العام مع ضمان حرية النشاط الفردي المعتدل والحياة الفردية المعتدلة . مما هو من صميم مقضيات لغرائز الانسانية ، ومع انعدام الضرورة لصراع الطبقات ذلك الصراع الدموي الرهيب ... ومن الجدير بالتأمل أن الاستعمار يستند في محاربة هذه الحكومات أيضا . وهذه الحكومات

وزعماءها يقودون حركة النضال ضد الاستعمار والصهيونية بكل قوة وصلابة بحيث لو تسنى للماركسيين العرب النجاح في حريهم ضد هذه الحكومات وزعمائها لكان في ذلك انتصار ساحق للاستعمار والصهيونية . الذين يتظاهر الماركسيون الملحدون في محاربتها ...

ومن عجيب المفارقات ان الاتحاد السوفياتي والصين الشيوعية وجميع الدول الشيوعية الماركسية تعضد هذه الحكومات وزعماءها بكل قوة ، وتقدمهم بالتأييد المادي والسياسي بسبب مواقفهم من الاستعمار والصهيونية .

وقد صاروا يهضمون ذلك الاسلوب ، ويرون فيه طريقة من طرق تطبيق الاشتراكية ، لأنها تضمن الهدف الجوهرى للاشتراكية وهو العدل الاجتماعى لجميع الناس .

- ١١ -

والقرآن يمثل الاسلام بالدرجة الاولى . ولقد انفرد بأمور كثيرة عن غيره من الكتب المنسوبة الى الله والأنبياء ، فهو الوحيد الذي وصل إلينا كما بلغه رسول الله عن وحي الله حيث كان يدون حال ما ينزل ، وظل محفوظا في الصحف والصدور كما نزل في حين أن هذا لم يتسن لغيره من الكتب السابقة التي ضاعت أصولها ، وشيب ما دون منها في كتب متأخرة عن زمن نزولها بكثير من الشوائب على ما شرحناه في كتابنا (القرآن والمبشرون) .

والقرآن بعد يمثل الدين الذي رشحه الله ليكون دين الانسانية جميعها ، وأنزله الله على خاتم أنبيائه ليكون خاتمة كتبه ، وهو من أجل ذلك جاء دينا متكاملا عقيدة ونظاما واجتماعا وسياسة وأخلاقا وسلوكا . هاديا لكل الناس في كل ظرف ودور ومكان وجنس ولون ، ضامنا لهم كل أسباب السعادة والسلامة والعزة والكرامة والطمأنينة والعدل والتقدم والنشاط والحياة ، منفردا بذلك كله عن غيره من الاديان السماوية وغير السماوية التي هي إما محلية وإما عنصرية وإما طائفية وإما روحية لا تهتم بشؤون الدنيا ...

وقد احتوى شهادة حية مستمرة نافذة الى أعماق القلوب والعقول على صحة ما قرره من عقائد وأركان ومبادئ كما احتوى حلا لكل مشكلة وجوابا لكل سؤال ، وإزالة لكل إشكال ، واستجابة لكل حاجة ومطلب روحي واجتماعي وسياسي وسلوكي واقتصادي على أحسن وأفضل ما يكون ، ودحضا لكل فرية . وسدا لكل تمحل على ما سوف يقرؤه قارئ هذا الكتاب قويا ساطعا لا يمكن الا أن يقنع به اذا كان حسن النية ، صادق الرغبة في الحق والحقيقة والتزامها . فتصدي الملحددين العرب له هو من جهة تصد لدين الله الذي ارتضاه لأمتهم ولأمم الارض قاطبة ، ومن جهة تصد للمبادئ والخوافز السامية التي تضمن لأمتهم ولأمم الارض كل أسباب السعادة والنجاة والنجاح والقوة والكرامة والتقدم . مما فيه عدااء غبي لئيم للصميم من مصلحة أمتهم ومصلحة الانسانية وخيرهما . ولسوف يرى القارئ في الكتاب الى هذا دحضا حاسما لكل تمحل يتمحلون به وردا شافيا على كل نقد واعتراض يوردونها . وفضحا لسوء فهمهم وتأويلهم وتعسفهم وأدبهم فيحق الحق ويعلمو ، ويزهق الباطل ويخبو ، ولسوف يرتدون خاسئين خاسرين عن قصدهم الغبي اللئيم ، ولسوف يظل الله موفيا لوعده للصالحين من عباده المسلمين بالنصر والتأييد والتمكين . ولسوف يظل طوائف من هؤلاء العباد على الحق معتززين بهذا الدين يجاهدون في سبيله كل من تصدى له ، ولسوف يوفي الله بوعده ووعدده الحق بأنه سوف يظهره على الدين كله . (يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ . هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة : ٣٢ ، ٣٣) والله المستعان على ما يصفون . ومنه نستلهم العون والسداد .

هذا ونريد في الختام أن ننبه على أمر في صدد فصول الكتاب . فالكتاب وان كان كتب للرد على تمحلات الملحددين وتعسفاتهم ، فاننا أردنا أن يكون في الوقت نفسه مفيدا لسواد

المسلمين ، ومن جملتهم اللامبالين بالدين منهم من غير الحاد وتصميم بل ولذوي النيات الحسنة والرغبة في الحق والحقيقة من غير المسلمين عامة ، فتوسعنا في الكلام في صدد الدعوة الاسلامية وأثرها ومداهها ، وفي مسائل قرآنية عديدة يحاول ذوو النيات السيئة من الملحدون والمبشرين التماس المآخذ فيها تعسفاً وتحلاً لبيان وجه الحق والحكمة فيما احتواه القرآن من مختلف الفصول والمواضيع والاساليب وآثار الدعوة الاسلامية فيمن شاهدوا اعلام النبوة المحمدية عياناً من آلاف الناس على اختلاف فئاتهم ليكون في ذلك رد على ذوي النيات السيئة وسد لذرائعهم وتحلاتهم .

ونقطة أخرى يحسن أن نشير إليها ، وهو أن الاتحاد العلمي ما يزال ضيق الدائرة . وإنما هناك الحاد بالممارسة أن صح التعبير أخذ بالتغلغل ويشمل قطاعاً كبيراً من الناس رجالاً ونساءً ومثقفين وغير مثقفين على السواء وبخاصة في فئة الشباب والناشئة من الجنسين وينتج عنه كثير من الموبقات والانحرافات الاخلاقية والاجتماعية والسلوكية ويعود بالضرر العظيم على الافراد والجماعات ونعني به تلك اللامبالاة بالدين وفكرته واخلاقياته وواجباته وتلقيناته وعدم خشية الله وانعدام الطمأنينة بذكره . فنأمل أن يجد هؤلاء في ما احتواه الكتاب ما ينبههم من غفلتهم ولا مبالاتهم ويثبت فيهم الايمان وقوة الفكرة الدينية ويحميهم من الارتكاس في الموبقات والانزلاق في متاهات الاوهام والأهواء والضيايع النفسي . والله الهادي الى سواء السبيل والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين والحمد لله رب العالمين .

دمشق الشام ٩ صفر ١٣٩١ ٤ نيسان ١٩٧١

المؤلف

الفصل الأول

- ١ -

ليس الملحدون المحدثون ومنهم ملحدو العرب أول المتصددين الذين يتهمون على القرآن الكريم والدين الاسلامي الذي يمثله (١)

ليس الملحدون ومنهم ملحدو العرب أول المتصددين والمتهمين الذين يتهمون على القرآن الكريم والدين الاسلامي الذي يمثله ، فقد تعرضا لكثير من التهجمات والتخرصات والوقاحات من مختلف الفئات الحاكمة والجاحدة في مختلف الظروف بقصد إطفاء نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (٢) فصمدا لهم جميعا ، وردهم القرآن خاسئين خاسرين . وقد تكسرت قرونها الواهية على صخرته الصلبة العظيمة ، واستمر يهدي به الله مع اتباع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم (٣) لأنه كلام الله الأزلي الأبدى الخالق البارىء المدبر الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٤) .

(١) تساءل بعض الافاضل عن سبب تأخيرنا انكار الملحدين لله والبدء بهذا الفصل . ونحن انطلقنا بما فعلناه من فكرة إن وجود الله تعالى وصفاته الكاملة وقدرته وعظمته ووحدانته ووجوب عبادته وحده كل ذلك من بليغات النبي ﷺ اسنادا الى تليغات الوحي القرآني المنزل من الله تعالى . وصار من الأولى اثبات صدق نبوة النبي وصدق الوحي لرأى لرباني . لان في ذلك اثباتا لصدق تلك التليغات وبالتالي لا نبات وجود الله وقدره وعظمته ووحدانته .

(٢) جاء هذا في آيات سورة التوبة ٣٢ و ٣٣ وآيات سورة الصف ٨ ، و ٩

(٣) جاء هذا في آية سورة المائدة (١٦)

وعظمه صمود القرآن والدين الاسلامي الذي يمثله تظهر قوة رائعة بل ملحمة عظمى
بخاصة إذا ما تذكرنا أن التهجمات والتخرصات عليه بدأت على مختلف المستويات
وبمختلف الاساليب في العهد الذي أنزله الله على رسوله ﷺ ، ووجهت إليه مواجهة ، وأن
حكمة التنزيل لم تخرجنا من تسجيل كل ذلك في القرآن ثم لتنبري لتفنيده اقوى وأروع
وانفذ تفنيد ، ثم لتستمر قدما في التنزيل لتحقيق ما قررته من صفات الهدى والحق والرحمة
والشفاء للناس للقرآن الذي يمثله . مما يحمل في كل آية وفصل من الاعجاز السبكي
والايماني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي والسلوكي البرهان القوي الذي لا
يمكن ان يتحمل مرء ممن حسنت نيته ، وصفت نفسه ، ورغب في الحق والحقيقة في أنه
وحي رباني نزل على من اصطفاه الله لتبليغه للناس وأنه لا يمكن أن يكون من عقل
بشري مهما بلغ من قوة وصفاء وإحاطة (١) . والقرآن بين ايدي جميع الناس ، وسوف يرد في
هذا الكتاب من امثلة على ذلك ما فيه الشفاء والمقنع .

وتستعرض فيما يلي صورا من هذه التهجمات والوقاحات ومواقف القرآن منها . ولقد
بدت من اصحابها منذ اوائل العهد النبوي الملكي واستمرت طيلة هذا العهد على ما تفيد
الصور التي احتوتها سور نزلت في مختلف ادوار هذا العهد من اوله الى اخره .

١ - (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
وَإِنْ يَرَوْا كُتُبًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
إِلَّا أسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) . (الانعام ٢٥) .

(١) وفي سورة بونس هذه الآيات التي ترد على أي دعوى خلاف ذلك (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق
الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه فل فاتوا بسورة منله وادعوا من استطعتم من دون
الله . إن كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين
٢٦ - ٣٩ .

٢- (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) (الأنعام ١٢٤) .

٣- (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا) (الاسراء ٤٧)

٤- (مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَاءَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ . قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) (الانبيا ٥-٢) .

٥- (وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَئِنْ كَانُوا إِلَّا لَأَخَذُوا بِهِمْ بِقُلُوبِهِمُ فَإِنْ تُكَذِّبُوا لَهُمْ نُسَخَاتُ الْعِلِّمْ . وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْجَةً انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَئِنْ رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْجَةً انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَئِنْ رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْجَةً انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا) (الانبيا ٣٦) .

٦- (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَّالٌ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ . وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ . أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (المؤمنون ٦٨-٧٣) .

٧- (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا) (الفرقان ٦-٤) .

٨- (وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ

تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا . أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (الفرقان ٦-٩) .

٩- (وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مَبِينٌ) (سبا ٤٣) .

١٠- (وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذَرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آلِهَةِ الْأَخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اِخْتِلَاقٌ . أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابٍ) (ص ٤-٨) .

١١- (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ) .. (الزخرف ٣٠-٣٢) .

١٢- (فَذَكِّرْهَا أَأَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ . قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ . أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ . أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْنَسُوا بِحَدِيثِ مَثَلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) .. (الطور ٢٩-٣٤) .

١٣- (ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مُمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَبْيَكُمُ الْمَفْتُونُ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . فَلَا تَطْعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَذُوا لَوْ تَذَهْنُ فَيَذْهَبُونَ . وَلَا تَطْعِ كُلَّ خَلَافٍ مَّهِينٍ . هَمَّا زِمْشَاءٌ بَنِمِيمٍ . مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُلِيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ

الأُولَيْنِ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ...) (القلم ١٦-١٧)

١٤- (وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا . إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ...) . (الزمل ١٠-١٢)

١٥- (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مُمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ . فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ...) . (المدثر ١١-٢٦) .

١٦- (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ . إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْجَأُ . أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهَدَىٰ . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) . (العلق ٦ - ١٩ (١)) .

وكما سجل القرآن بدون أي حرج مواقف الجاحدين وأقوالهم مسجلا بذلك عظمة صموده لهم مع الرد القارع الرادع عليهم ، ثم استمر ينزل بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات الى النور سجل بدون أي حرج تحذيرات أخرى منهم للنبي والقرآن . ولقد كانت هذه التحذيرات متنوعة ، منها بطلب الإتيان بالخوارق والمعجزات لإنبات نبوة النبي وصلته بالله ، ومنها بطلب استئزال الملائكة لنفس القصد ولتأييدهم له ، ومنها بالاستعجال بالعذاب الموعود في القرآن لهم حيث كان الوعيد بذلك منذ عهد مبكر جدا ، أو

(١) هذه أولى الصور حيث تحكي تصدي الطاغية للنبي حينما أخذ يدعو بدعوته ويصلي صلاته الجديدة ، وفيها تثبيت قوى للنبي ، وإنذار قارع رهيب للطاغية . ونكتفي بما تقدم ، ويستطيع المتصفح للقرآن ان يرى صورا مماثلة في معظم السور المكية .

بعبارة أخرى منذ السور والفصول المبكرة جداً في النزول ثم استمر في مختلف أدوار التنزيل .

والآيات كثيرة مبثوثة في مختلف السور وبخاصة المكية ، وسنقتصر على إيراد بعض الأمثلة من كل نوع .

فمن صور النوع الأول ما في هذه الآيات :

- ١ - (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَاءِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الأنعام : ٣٩) .
- ٢ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ . وَتَقَلَّبُ أَفْنِدَتُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ . وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْنِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ) (الأنعام : ١٠٩ - ١١٣) .
- ٣ - (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ) (يونس ٢٠) .

- ٤ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ

(٢) في الآية تقرير بكون الهدى هو لمن يرغب وينيب الى الله ولا يتوقف على معجزة . وبذلك يزول ما يظهر من إشكال في جملة (يضل الله من يشاء) .

هَادٍ (الرعد ٧) .

٥- (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَرَادَ . . الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَ (الرعد : ٢٧-٢٩) .

٦- (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا . وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا . أَوْ تُكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ يُرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ..) (الاسراء ٩٠-٩٤) .

٧- (وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ . وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .) (العنكبوت ٤٩-٥٢) .

ومن صور النوع الثاني ما في الآيات التالية :

(١) من المحتمل ان يكون المسلمون كانوا يتمنون ان يستجاب طلب الكفار وان جملة (وما يتعركم) هي خطاب لهم . والآيات تقيد ما تفيدها سابقاتها ويحسن ان يلحظ الذيل السابق بالنسبة اليها ايضا وفي نصها مع ذلك ما يزيل ما يبدو من اشكال ظاهري فيها .

١ - وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ - لَا يَنْظُرُونَ ..
(الأنعام ٨ (١) .

٢ - (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (هود ١٢)
٣ - (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ) (الحجر ٦ - ٨) .

٤ - (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا .) الفرقان ٧

ونرى من المفيد أن تنبه استطرادا على ما يلحق في الردود القرآنية من تعليقات حكيمة . بل نرى ذلك متناسبا مع موضوع الكتاب وجوهره ، وإنه ليتضح من الأمثلة التي أوردناها - من كل نوع ، ومالم نورده من أمثاله الموثقة في السور القرآنية التي يسهل على القارئ أن يقرأها في المصحف أن موقف القرآن من تجدي الكافرين كان سلبيا ومعللا بالتعليقات الحكيمة المتنوعة التي يمكن تلخيصها بما يلي :

١ - إن الله قادر على إنزال الآيات ولكن الدعوة التي يبلغها رسوله هي من قبيل التذكير والتبشير والانذار ، وليس هو وكيلا ، أو مسؤلا عن الناس .

٢ - إن سنة الله تعالى جرت إذا ما أنزل آية ولم يؤمن الناس أن يهلكهم . وفي هذا جواب ضمنى آخر وهو أن حكمة الله لم تقتض ذلك بالنسبة للكفار بنبوة محمد ﷺ وإنما شاءت حكمته إهلاكهم لأجل مسمى ، وهذا الجواب ورد أيضاً جواباً على تحديهم

(١) تفيد الآية أن الله سبحانه جرت عادته أن ينزل الملائكة بالعذاب إذا ما جحدوا وأفسدوا . وإن حكمة الله اقتضت أن يتأخر ذلك بالنسبة للكافرين السامعين . وهذا المعنى تكرر في آيات أخرى .

بالإتيان بالعذاب واستعجالهم إياه ، وفي سور النحل والكهف وفاطر آيات فيها هذا المعنى أيضا كما ترى فيما يلي :

١ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) (النحل ٦١) .

٢ - (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا . وَتِلْكَ الْأَقْرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) (الكهف ٥٨ و ٥٩) .

٣ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا .) (فاطر ٤٥)

ولقد آمن كثيرون ممن كفروا في بدء الدعوة ، أو في العهد المدني ، وحسن إسلامهم حيث تلمح حكمة الله تعالى في إهمالهم وعدم التعجيل في هلاكهم حينما وقفوا موقف الجحود واستعجلوا العذاب الموعود .

٣ - وإن الله تعالى قادر على أن ينزل ملكا ، ولكن سنته جرت على أنه لا ينزل الملائكة إلا بقضاء الله الحق ، وعذابه الساحق ، وعلى عدم انظار الكفار بعد نزولهم . وهو ما لم تشأ حكمته ذلك بالنسبة لمن أرسل إليهم النبي محمد ﷺ .

٤ - وإن في القرآن معجزة تصديقية لما في الكتب الأولى الثابت نزولها من الله . وفي هذا كفاية لمن أراد أن يهتدي .

٥ - وإن في القرآن الذي أنزله الله على رسوله ، ويتلى على الناس المعجزة الكافية التي فيها الرحمة والذكرى لمن أراد الهدى والايان والتذكر .

٦ - وإن الله تعالى يعلم أنه مهما أنزل من آيات حتى ولو سيرت بها الجبال أو قطعت بها الأرض وكلم بها الموتى حتى ولو أنزل عليهم الملائكة فإن ذلك لن يكون سببا لايمانهم ،

لأن ذلك منوط بمشيئته ، ولأنه إنما يهدي من أناب إليه ، ورغب في الهدى ، فهذا هو الذي يطمئن قلبه بذكر الله .

وننبه على أن في هذا الجواب الأخير الذي قررته آيات سورة الرعد ٧٢ و ٢٨ تفسيراً لكل ما جاء مطلقاً من مشيئة الله تعالى بهداية الناس وضلالهم .

وفي سورتي الأنعام والحجر آيات تحكي ما سوف يتمحل به الكفار لو أظهر الله آية حتى لا يكونوا ملزمين بالايان كما ترى فيما يلي :

١ - (وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ..) . (الأنعام ٧)

٢ - (وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ .) (الحجر ١٤ و ١٥)

حيث ينطوي في هذه الآيات سبب من أسباب عدم استجابة الله تعالى لتحديهم .

٧ - وإن الذين يجحدون بدعوة الله ونبيه وكتابه ، ويتحدون رسوله هم ممن بيتوا العداء لهم ، وصار ديدنهم أن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول حتى يشبوا على عدائهم وجحودهم . والذين يسمعون لهم هم الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يرغبون في الهدى ، وهؤلاء ينضمون إلى أولئك في طلب الآيات من قبيل التعجيز .

٨ - ولقد كان الكفار يتخيلون النبي فوق البشر وقادراً على كل شيء ، فردت عليهم آيات سور الاسراء والانبياء والفرقان بأن الله قد جرت سنته على إرسال رسله للبشر من البشر ، وأمرت النبي بأن يقول لهم ذلك .

٩ - ولقد كان النبي يتخرج كثيراً من تحديهم فعابته آية سورة هود (١٢) قائلة له إنما أنت نذير والله على كل شيء وكييل ، ويتضمن هذا الالهاة به لعدم الاهتمام بتحديهم . وهذا ما احتوته آيات عديدة أخرى من الآيات التي أوردناها .

١٠ - وآيات الأنعام ٣٣ - ٣٦ تفيد ان النبي نفسه كان يحرص على ظهور آية على يده ردا على تحدي الكفار ، وأملاً بايمانهم ، فنبهته على ان إيمانهم غير مرهون بالآيات ، وأن تحديهم هو من قِبل ما كان من امثالهم من قبلهم نحو رسلهم الذين كذبوهم وأذوهم مع أنهم جاؤوهم بالآيات على ما جاء اليه من انبائهم ، وان عليه أن يصبر كما صبروا ، وأن الذين يحبون سماع الحق فقط هم الذين يؤمنون ولا يتوقف إيمان هؤلاء على الآيات . وتأتي بعد هذه الآيات ٣٧ و ٣٨ التي فيها تقرير بأن الذين يكذبون هم كالصم البكم المرتكسون في الظلمات الذين لا يسمعون الحق ولا يؤمنون به .

١١ - والفقرة الاخيرة من آية سورة الأنعام (١٠٩) قد تفيد ان المؤمنين ايضا كانوا يحرصون ان يستجاب الكفار الى تحديهم ، ويظهر الله آية فنبهتهم الى ما نبهت الآيات السابقة النبي ﷺ .

١٢ - وفي سورة الاسراء آية مهمة في بابها ، هذه :
(وَمَا مَنَعْنَا أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَأَتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا. وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) (الاسراء ٥٩) .

حيث تضمنت ايذاناً بأن الله تعالى امتنع عن انزال الآيات على النبي محمد ﷺ ردا على تحدي الكفار ، لأنه انزل آيات على انبيائه السابقين فكذبها أقوامهم ولم يؤمنوا . ومن جملة ذلك ثمود الذين أظهر الله لهم معجزة الناقة بينة لا يمكن ان يكابر فيها أحد ، ولكنهم ظلموا وكذبوا ، وإن الله تعالى لا ينزل الآيات إلا للتخويف والأنداز ، وليس لأجل حمل الناس على الايمان ، لأن الذين يرغبون في الهدى يهتدون بدون آيات حين يسمعون الحق وبينات الهدى .

والردود والتعليلات القرآنية قوية مفحمة مقنعة من كل جانب من جوانب القضية ، وهي موجهة الى العقول لتتدبر وإلى القلوب لترعوي ، ومقررة صراحة وضمناً أن الدعوة

القرآنية إنما هي دعوة إلى الله وحده والأقرار له بالعبودية ، ونبذ ما سواه ، والتزام الأعمال الصالحة التي تشمل كل ما هو نافع وخير وواجب وحسن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحل الطيبات ، وتحريم الخبائث ورفع الإصر والاغلال السابقة ، وتحذير من الكفر والشرك والإثم والفواحش والمنكرات والبغي . وإن مثل هذه الدعوة لا تحتاج إلى معجزات مؤيدة ، وإنما إلى ترو وإذعان ونية حسنة وطوية نقية ، ورغبة في الحق والهدى والخير والصلاح ، وعزوف عن الخبث والخبائث والمنكرات ، وتجرد عن سوء النية والعناد واللجاج . ويرى المرء البرهان على صحتها وقوتها في الكون وما فيه من آيات باهرة ، وحكمة بالغة ، ونواميس دقيقة ، وفي ما تدعو إليه من مكارم الأخلاق والفضائل ، وتبيحه من الطيبات الحلال ، وترفعه من التكاليف الشديدة السابقة ، وتنتهي عنه من الإثم والبغي والفواحش والطغيان والعدوان ، والتكبر والتجبر ، وتأمُر به من المعروف . ومثل هذه الدعوة لا تحتاج إلى معجزات . وتنطوي على ما يحمل الذين حسنت طواياهم ونياتهم وصدقَت رغباتهم في الحقيقة والحق والهدى على الإرعواء والاذعان والاستجابة بدون معجزات . أما الذين خبث طواياهم ، وساءت نياتهم ، وفسدت أخلاقهم ، وتنكبوا طريق الحق والعدل والانصاف ، وانعدمت فيهم الرغبة في الحق والحقيقة والهدى ، فلن يؤمنوا مهما رأوا من الآيات والمعجزات .

وهكذا تنفرد الدعوة القرآنية والرسالة المحمدية عما سبقها من حيث أنها لم تقم على الخوارق استجابة للتحدي ، إنما قامت على خطاب العقل والقلب ، والبرهنة بما في الكون من ابداع ونظام وعظمة على وجود الله عز وجل ، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه ، وبطلان الشرك والوثنية وسائر التقاليد والعقائد المتناقضة مع ذلك ، وبما انطوى في كتاب الله وحكمة رسوله وسنته من مبادئ الحق والخير والبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحلال الطيبات ، وتحريم الخبائث والفواحش والآثام ما ظهر منها وما بطن .

والحث على التضامن والتعاون والتواصي بالحق والصبر والرحمة ، والنهي عن البغي والظلم ومنعهما ، ومنع الاستعلاء والاستغلال ، وإقامة مجتمع انساني عام يتساوى فيه الناس في الحقوق والواجبات ، ويتكافلون فيها ، ويسود الحق والعدل والحرية والاخوة والمعروف والبر والخير .

وقد يصح أن يضاف الى هذا من حكمة الله الملموحة في عدم الاستجابة الى تحدي الكفار ان الانبياء السابقين قد جاؤوا لقومهم وان المعجزات التي حكى القرآن أنه أظهرها على أيديهم هي لاقتناع جيل هذه الاقوام الذي خوطب بالدعوة . في حين أن الله سبحانه قد شاء ان تكون رسالة محمد ﷺ لجميع الاجيال ، ودين الانسانية العام في جميع الأزمنة والأمكنة على ما قررته آية سورة التوبة هذه :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (٣٣) وآية سورة الفتح (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا) (٢٨) وان الخوارق لو ظهرت واثرت فإن ظهورها وتأثيرها سوف ينحصران في من شاهدها دون الاجيال في حين أن في الكتاب الذي أنزله على نبيه المعجزة الكافية والدائمة بدون انقطاع لمن يريد أن يؤمن كما جاء ذلك في آية سورة العنكبوت (٤٨) .

ونستدرك أن ما قلناه لا يعني ان النبي ﷺ لم تظهر على يديه معجزات ، أو لم ير معجزات ربانية ، أو لم يؤيد الله رسوله والمؤمنين بمعجزات ، ففي القرآن وفي الاحاديث الصحيحة ما يؤيد ذلك . والمعجزات هي في نطاق قدرة الله تعالى ويجب على المسلم الايمان بكل ما أخبر به القرآن ، وثبت عن النبي ﷺ وفي عهده ، وإنما الذي يعنيه هو أن القرآن وقف موقفا سلبيا من طلب الكفار وتحديهم النبي بالاثبات بالمعجزات . ونقول هذا ونحن نعرف ان آية سورة القمر الاولى تذكر انشقاق القمر ، وان هناك احاديث مؤيدة لوقوع

(١) في سورة الصف آية ماثلة وهي الآية (٩)

ذلك فعلا في زمن النبي بناء على طلب الكفار ، وأن ذلك لما وقع قالوا إن محمدا قد سحرنا ، غير ان هناك من فسر آية سورة القمر بأن الانشقاق سيكون عند وقوع الساعة ونهاية الدنيا ، وتوقف في صحة الاحاديث . وآية سورة الاسراء التي تذكر صراحة أن الله امتنع عن ارسال آية في عهد النبي قد تلهم احتمال صواب ذلك . والله تعالى أعلم .

ومما يجدر التنبيه عليه أن موقف القرآن كان سلبيا من ناحية الاجابة بالايجاب على التحدي ، وأنه ليس سلبيا الا من هذه الناحية وحسب ، مع التعليل القوي المقنع الحكيم ، وانه من ناحية الحجاج والبرهنة والتدليل والتنبيه الى اهداف الدعوة ايجابي كل الايجابية .

وهذه نقطة جديرة بالتنويه في صدد الرسالة المحمدية وخصائصها ، ففي سياق الرد على جحود الجاحدين لوجود الله ووحدته وإشراك غيره معه في الاتجاه والعبادة والخضوع والدعاء ووجوب وجوده ، واتصافه بصفات الكمال ، وفي سياق الحملة على الكفار والتنديد بهم بسبب عقائدهم المشركة والوثنية الاخرى ، كعقيدتهم ببنوة الملائكة لله ، وفي سياق اثبات حقيقة الحياة الاخرى ونعيمها وعذابها ، وقدرة الله على إعادة الخلق الذي بدأه ، وما ينطوي في هذه الحقيقة من حكمة الحق والعدل والتنزه عن العبث ، وفي سياق الدعوة إلى الأعمال الصالحة ، وتقبيح الأعمال المنكرة السيئة على انواعها وكون ذلك هو لصالح الانسانية وخيرها وسعادتها ، وبعبارة واحدة في سياق الدعوة الى اهداف الرسالة المحمدية المتنوعة وتقريرها قد ورد في القرآن آيات كثيرة جدا فيها من قوة الحجة ، ونصاعة البيان ، واستحكام البرهان واسلوب الخطاب الموجه الى العقل والقلب معا فيه كل الايجابية ، وما لا يسع أي منصف حسن النية والرغبة في الحق والحقيقة ، غير متعمد للعناد والمكابرة الا ان يسلم به ، وأن يلمح منه الحكمة السامية المنطوية في موقف القرآن السلبي من التحدي ، وعدم رهن صدق الدعوة المحمدية بالآيات والمعجزات الخارقة .

والمناسبة تسيع الاستطراد الى زعم حديث من بعض المبشرين والمستشرقين حيث يصل

فيهم الهذيان الى القول : إن محمداً قد تلقى القرآن من ورقة بن نوفل أو بحيرا الراهب ، أو من حبر من أحبار اليهود (١) . ولقد قال كفار العرب شيئاً من ذلك حيث حكته عنهم آيات سورة الفرقان (٦٤) التي أوردناها قبل وروته عليهم ، ولقد فند غير واحد من كتاب المسلمين وعلمائهم هذا الهذيان (٢) . ونقول إضافة الى ذلك : إنه كان على هؤلاء الزاعمين الهاذين أن يتورعوا عن هذيانهم لو كان فيهم عقل وإنصاف وإذعان للحق بعد حكاية القرآن ورده ، والقرآن نفسه يكذب هذا الهذيان أشد تكذيب بما فيه من صور كثيرة جدا لسيرة النبي بعد نبوته وتطور الدعوة وأحداثها ، ومواقف الناس على اختلافهم منها وحالة العرب وغيرهم في بيئة النبي قبل الاسلام مما لا يمكن أن يصح في حال ألا أن يكون قد أوحى اليه بعد النبوة وفي مناسبات الاحداث والوقائع .

- ٦ -

ولقد سجل القرآن جولات أخرى بين النبي صلى الله عليه وسلم والمجاهدين في صدد القرآن بالاضافة الى ما حكاه عنهم من زعمهم بأنه افتراء وأساطير الأولين استكتبها وحفظها باملائها عليه ، وأعانه عليه قوم آخرون وبأنه قول بشر وسحر وكهانة وشعر يوحى به الشياطين وبأن الله لم ينزل على البشر شيئاً على ما أوردنا أمثلة منه قبل ، وما ورد في القرآن من أمثلة مماثلة أخرى . حيث سجل القرآن قولهم : إنهم لو شاؤوا لقالوا مثله ، وأنه لو كان حقاً من الله لكان الأولى أن ينزل على زعيم معروف مسموع عند الناس بدلاً من أن ينزل على غير زعيم مسموع واقتراح بأن يأتي بقرآن غيره أو يبدله ، أو بأن يأتي به جملة واحدة أو بلغة غير عربية ، وسجل توأصيهم فيما بينهم بالتشويش عليه حينما يتلوه على الناس حتى تكون لهم الغلبة وبهجره ، وعدم الاصغاء له كما جاء ذلك في الآيات التالية :

(٢١) انظر الجزء الاول من كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزرقاني وكتاب الاسلام في قفص الاتهام لشوقي أبو خليل .

١- (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (الأنفال ٣١) .

٢- (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي . إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) . (يونس ١٥ و ١٦) (١)

٣- (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ .) (النحل ١٠٠-١٠٥)

٤- (قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُصُونَ . مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ . أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ) (المؤمنون ٦٦-٦٩) (٢)

٥- (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ) (٣) وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ..) (الفرقان ٣٠-٣٢) .

(١) الآيات تأمر النبي بأن يذكرهم بأنه لبث فيهم عمرا قبل أن يتلو القرآن فلم يفعل من نفسه . فهو يتبع ما يوحى اليه من ربه ولا يمكنه ان يبدل أو يغير فيه .

(٢) في هذه الآيات شيء مما في آيات سورة يونس حيث تذكرهم بأنهم يعرفون النبي ويعرفون صدقه ، وأنهم مع ذلك كانوا حينما اتلوا القرآن ينكصون على أعقابهم هجرا له كأنما هو سامر قصاص .

(٣) انظر الجزء الأول من كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزرقاني . وكتاب «الاسلام في قفص الاتهام» لشوقي أبي خلیل .

٦- (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ) (فصلت

٢٦) .

٧- (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ) (فصلت ٤١-٤٤) (١) .

٨- (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (الزخرف ٣٠-٣٢) (٢)

٩- أَلَمْ يَكُنْ لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ . ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِثْلُنَا (الدخان ١٣و١٤) .

ولما قال قائلهم : إنه لو شاء لقال مثل القرآن وإن القرآن مفترى ، وإنه ، أساطير الأولين أخذ القرآن يتحداهم بالاثبات بمثله ، أو بشيء منه أو بحديث أو بسورة أو سور ، ولهم أن يستعينوا على ذلك بشركائهم وشهادتهم ومن يستطيع مساعدتهم على ما جاء في الآيات التالية :

١- (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة ٢٣) .

٢- (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (يونس ٣٨) .

(١) في الآيات ما يلهم أنهم طلبوا نزول القرآن بغير اللغة العربية من قبيل التمجيز فردت عليهم

(٢) أي كان ينبغي أن ينزل على أحد عظماء مكة أو الطائف .

٣- (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُقْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَطْعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (هود ١٣) .

٤- (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ . قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ..) القصص : ٤٩ و ٥٠

٥- (أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ..) الطور : ٢٣ و ٢٤

وقد وقفوا عاجزين أمام هذا التحدي كما تفيده هذه الآيات التي جاءت بعد تلك الآيات مباشرة :

١- (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ..) البقرة : ٢٤

٢- (بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ (١) وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ..) يونس : ٣٩

٣- (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ..) هود : ١٤

٤- (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ..) القصص : ٥٠

وآية البقرة مدنية ، ومن أوائل القرآن المدني ، وفيها إخبار عن عجزهم بالنسبة للعهد الملكي أيضا فضلا عن تقرير عجزهم البتة .

وهذا العجز المطلق البات سجل بأسلوب قوي رائع في سورة الاسراء على كل مخلوق

(١) كذبوا به اعتباطا وجزافاً وبدون أن يستوعبوه ويفهموا مداه . وهذا شأن الملحدين واللامبالين .

من جن وإنس مهما تظاهروا وتعاونوا كما ترى في هذه الآية .
(قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ
كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ..) الاسراء : ٨٨

وهكذا انتصر كتاب الله ورسوله هذا الانتصار الرائع المفحم على الجاحدين في الصراع
الهائل المديد الذي نشب بينهم وبين رسول الله حول القرآن ، وثبت نصاً وعقلاً وحجاً
أنه لا يمكن إلا أن يكون من وحي الله ولا يمكن أن يكون صادراً عن عقل بشري .
ونقول استطراداً : إن المؤولين والمفسرين وقفوا تجاه هذا العجز المطلق الذي سجله
القرآن على الجاحدين مواقف متنوعة ، فمنهم من قال : إن الله صرفهم عن الاتيان بمثله
مع قدرتهم عليه ، ومنهم من قال : إنه أعلى من أفهامهم وأساليبهم ، ومنهم من جمع بين
التنويه ببلاغة القرآن وروعة نظمه وسمو طبiquته ، وبين ما احتواه من المبادئ والأسس
والتلقينات التي فيها هدى ورحمة للعالمين في كل ظرف ومكان ومن الروحانية النافذة الى
الأعماق في كل ذلك وهذا هو الحق والصواب ، وبه كان القرآن معجزة الله الكبرى لنبيه
محمد ﷺ التي اكتفى بها عن إظهار معجزات خارقة استجابة لتحدي الكفار على ما
قرره آيات سورة العنكبوت (٥٠ و ٥١) التي أوردناها قبل .

- ٧ -

وهناك جولة طويلة سجلها القرآن بين النبي ﷺ والجاحدين حول الحياة الأخروية ،
لعلها أطول وأشد الجولات الجدلية بينه وبينهم ، وإثباتها هنا والتنويه بها مهمان في صدد ما
نحن فيه من الرد على الملحدين ، لأن إنكار هذه الحياة والجدل فيها من أهم معالم
الجاحدين .

ولقد كان الانذار القرآني بالحياة الآخوية التي اقتضتها حكمة الله تعالى ، والتي هي في نطاق قدرته على ما سوف نشرحه في مناسبة اخرى آتية ، وما سوف يكون فيها من محاسبة للناس على أعمالهم في الحياة الدنيا وثوابهم وعقابهم وفاق ذلك من أوائل ما نزل من القرآن استهدافا لحمل الناس على الاستجابة الى دعوة الله والاعمال الصالحة ، وانصرافهم عن الشرك والأعمال المنكرة ، وحثاً على ذلك بالاضافة الى حقيقتها الايمانية ، ثم استمر نزول ذلك في مختلف ادوار التنزيل حتى شغل حيزاً عظيماً في القرآن وبخاصة في السور المكية . فقابل الجاحدون هذه الحياة والوعيد بها بالانكار الشديد والسخرية والتحدي المستمر ، فكان ذلك مما أدى الى شغل هذا الموضوع ذلك الحيز العظيم ، ولقد صمد القرآن لهم ورد عليهم ردوداً متنوعة ، ثم استمر ينزل بالهدى ودين الحق والانذار بالحياة الآخوية دون أي تخرج من إنكارهم وسخريتهم ، ومن تسجيل ذلك حيث تظهر في ذلك عظمة صمود القرآن أيضاً في هذا الموضوع .

وآيات هذا الموضوع كثيرة جداً ، ومبثوثة في معظم السور ، ونورد فيما يلي صوراً من مواقف الجاحدين فقط ، وردود القرآن عليهم لأن هذا هو موضوع النبهة .

١ - (وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَاهُمْ مَاءٌ كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ . وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَزِرُونَ . (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) سورة الانعام : ٢٧ - ٣٢

٢ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) هود : ٧

٣ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . لَيَبْيُنَنَّ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلَيَعْلَمَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ . إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) النحل : ٣٨ - ٤٠

٤ - (وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَيْسَ لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَنْغَضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) الاسراء : ٤٩ - ٥١

٥ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَآؤُنَا أَلَيْسَ لِمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ) النمل : ٦٧ - ٧٣

٦ - (وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ . قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ . وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ) السجدة : ١٠ - ١٢

٧ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمْزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي

الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ . أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .
إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ سبأ : ٧ - ٩

٨ - (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا
الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا
فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ
مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .
فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .) يس : ٧٨ - ٨٣

ونكتفي بما تقدم من الآيات التي لها أمثال كثيرة في سور عديدة أخرى .
ومن الجدير بالتأمل أن البعث الأخروي من الأمور الرئيسية التي يجادل فيها الملحدون
وينكرونها ، فيكونون بذلك ليسوا أول من يفعلون ، وقد سبقوا بمن فعلوه في مواجهة من
أنزل عليه القرآن ، فتلقوا الرد القرآني الزاجر الرادع .
وننبه على أمر وهو أن ما أثبتناه في البنود السابقة هو في صدد المواقف الجحودية المطلقة
التي هي بالدرجة الأولى في صدد مواقف المشركين والجاحدين العرب دون أهل الكتاب
الذين لا يعتبرون من وجهة النظر الموضوعية ملحدين ، وإنما كانت مواقف المناوئين
والمهاجرين منهم من القرآن والنبي ﷺ مواقف كيد وجحود لنبي الاسلام ، ورسالته وقرآنه
وحسب . وقد شرحنا هذا الامر في كتابنا «الرد على المبشرين» .

- ٧ -

ويلحظ أن كل الآيات التي تمثل مواقف الجحود المتنوعة باستثناء الآيات التي تمثل
مواقف المنافقين هي مكية ، ويستتبع هذا القول : إن هذه المواقف كانت في العهد المكي
في الدرجة الأولى .

وفي القرآن ما يفيد أن أصحاب هذه المواقف كانوا من الأكابر والزعماء والاعنياء والوجهاء . وأن الجمهور تبعهم بقوة تأثيرهم وتحريضهم كما ترى في الآيات التالية :

١ - (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَنَىٰ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .) الأنعام : ٥٢ - ٥٣ (١)

٢ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيُقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ .) الأنعام : ١١٣ ، ١١٤

٣ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارًا مُجْرِمِينَ لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يُجْعَلُ رِسَالَتُهُ سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ) الأنعام : ١٢٣ - ١٢٤

٤ - (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيَائِهِمْ قَالُوا مَا أَعْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ . أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ) الأعراف : ٤٧ و ٤٨

٥ - (وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَلَيْنَا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ) إبراهيم : ٢١

(١) كان الزعماء يطلبون من النبي إبعاد فقراء المؤمنين عنه ، حتى يجلسوا إليه ويستنهضون بهم قائلين ما حكته الآية .

٦ - (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) (١) النحل : ٨٨

٧ - (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) (٢) الكهف : ٢٨

٨ - (وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً) (٣) مريم : ٧٣

٩ - (وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَُمُ النَّارِ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (١) الحج : ٧٢

١٠ - (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) المؤمنون : ٥٥ و ٥٦

١١ - (قَالَ أَحْسَبْتُمْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) المؤمنون : ١٠٨ - ١١١

١٢ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمَجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيّاً وَنَصِيراً)

(١) يكفرون ويمنعون غيرهم من الايمان .

(٢) كان النبي يحرص على هداية الزعماء والأغنياء ، لانه كان يرى تأثيرهم على الجمهور حتى كان يشغل نفسه أحيانا بهم عن المؤمنين ، فنبهته الآية الى ما هو الأولى .

(٣) كان الاغنياء والزعماء من الكفار يتباهون أمام المؤمنين بما لهم وجاههم اللذين يتفوقان بها عليهم كأنما يريدون أن يقولوا : نحن أحظى منكم عند الله بل هذا ما قالوه كما حكته آيات سورة المؤمنين ٥١ و ٥٢ وآية سورة سبأ (٣٥) التي تأتي بعد . (١) لا يفعل هذا الا الزعماء الاقوياء .

- ١٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (١) العنكبوت : ١٢
- ١٤ - (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا) الأحزاب : ٦٧ و ٦٨
- ١٥ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا أَنْحُنُ صَدَقَاتُكُمْ عَنْ أَهْلِى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوِ الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ) سبأ : ٣١ - ٣٥

- ١٦ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا . اسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرُ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) فاطر : ٤٢ و ٤٣
- ١٧ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) يس : ٤٧
- ١٨ - (وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا

(١) لا يقول هذا الا الزعماء .

سَمِعْنَا بِهِذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا إِخْتِلَاقٌ ، أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا (١)
ص : ٦ و ٨

١٩ - (وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ . اتَّخَذْنَاَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ .) ص : ٦٣ و ٦٤

٢٠ - (وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمُ يُقْسِمُونَ رَحْمَةً رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سِخْرِيًّا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (٣) الزخرف : ٣٠ و ٣١

٢١ - (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ .)
الواقعة : ٤٥ - ٤٦

٢٢ - (وَلَا تَطْعُ كُلَّ حَلَّافٍ مُهِينٍ . هَازِمْشَاءَ بَنَمِيمٍ . مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عَتَلْ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ . أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .)
القلم : ١٠ - ١٥

٢٣ - (وَدَرَسِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا .) المزمّل : ١١
٢٤ - (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا .) المدثر : ١١ - ١٦
٢٥ - (أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِي . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى .) عبس : ٥ و ١٠

(١) هذا قول الزعماء حيث كانوا يرون أنهم الأولى أن ينزل الله عليهم القرآن إن كان حقا وينكرون أن يكون الله اصطفى محمداً غير الزعيم وغير الغني عليهم .

(١) استنكروا أن ينزل القرآن على محمداً ولم ينزل على رجل عظيم في مكة أو الطائف ، فردت عليهم الآيات أن تفاوت المراكز المادية بين الناس في الدنيا نظام اجتماعي لتبادل المنافع في الحياة ، وإن النبوة رحمة واصطفاء من الله لمن هو أهل لها بأخلاقه وسيرته .

٢٦ - (أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ .) التكاثر : ١ و ٢

٢٧ - (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ .) الهمزة : ١ و ٣

وقد تقصدنا الاكثار من الآيات ، لتبدو قوة الدلالة التي أردنا إبرازها .
ولقد كان للزعامة دور خطير في بيئة النبي ﷺ ، والمجتمع العربي بعامه ، حيث كان الزعماء وخاصة الزعماء الأغنياء - وكثيراً ما كان التلازم متحققاً بين الغنى والزعامة في هذا المجتمع - يتمتعون بنفوذ قوي ، يأمرهم فيطاعون ، ويدعون فيستجابون ، ويسنون فيتبعون ، وتكون لهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والمواقف والقضايا ، فلما أخذ النبي ﷺ يدعو بدعوته ، ويبلغ عن ربه ، ولم يكن بعد قد تجاوز سن الشباب كثيراً ، ولم يكن كذلك بارزاً في مجال الزعامة والثروة ، بغتوا ، وعظم عليهم أن يكون داعية يستجاب ، ومرشداً يهتدي به الناس ، ولواء ينضوون إليه من دونهم ، وكانوا هم أنفسهم من المدعوين المراد انضواؤهم الى هذا اللواء أسوة بسائر الناس ، فاستكبروا الأمر واستنكروه ، وقالوا : إنه لو كان حقاً لكانوا هم المنتدبين للدعوة ، والمكلفين بالمهمة ، لأن الناس اغما يستجيبون إليهم . وتساءلوا كيف ينزل القرآن عليه من دونهم ، وقالوا : لن تؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله ، أو ينزل على كل منا كتاب من الله ، وهزئوا بالنبي واستصغروا شأنه ، على ما جاء في بعض الآيات التي أوردناها .

- ٨ -

ولقد كانت الدعوة القرآنية دعوة ثورية شاملة لكل شيء حيث دعت أولاً الى الله وحده عبادة ودعاء واتجاها ، وحاربت كل أنواع مظاهر الشرك والوثنية التي كانت سائدة في العرب بما في ذلك عقيدة كون الملائكة بنات الله وشفعاءهم لديه حرباً شديدة مما يتمثل في الآيات التي أخذت تنزل من أول العهد المكي وتستمر ، ومنها هذه المجموعة التي لها أمثال كثيرة مبثوثة في مختلف السور وبخاصة المكية :

- ٤٠ -

١ - (وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) البقرة :

١٦٣ و ١٦٥

٢ - قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْتُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) الانعام ١٩

٣ - (أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ . وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصراً وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ، وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) الاعراف : ١٩١ - ١٩٤

٤ - (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُو الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ .) يونس : ٣ و ٤

٥ - (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ .) يونس : ١٨

٦ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ، لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ .) الانبياء : ٢٦ - ٢٩

٧ - (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ .) الزمر : ٣

٨ - (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ . فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ) فصلت : ٣٧ و ٣٨

٩ - (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ . وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) .

وحيث نددت : ثانيا بكنير من عادات الجاهلية المنكرة ، وبينت ما فيها من شذوذ وتعسف ، مثل وأد البنات ، والطواف في حالة العري والتحليل والتحرير الجاهليين للأنعام في بعض الظروف ، والتفاخر بالأنساب ، والاسراف في الثارات كما ترى في الامثلة التالية :

١ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ . وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيَرُدُّوهُمْ وَلِيلِيسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْتُ حِجْرًا لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ . وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمَحْرَمٌ عَلَىٰ أَرْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ

إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمْ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ . (الأنعام : ١٣٦ و ١٤٠

٢ - (يا بني آدم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ) (١) الاعراف : ٣١

٣ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أُذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ . وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ .) (يونس : ٥٩ و ٦٠

٤ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ، يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .) (النحل : ٥٨ و ٥٩

٥ - (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَا يَتَسَاءَلُونَ فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ .) (المؤمنون : ١٠١ و ١٠٣

٦ - (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا) (الاسراء : ٣٣

٧ - (وَإِذَا الْمَوْدَّةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ .) (التكوير : ٨ و ٩

وحيث أخذت الآيات القرآنية ثالثاً : تدعو منذ بدء نزول القرآن وتستمر الى إطعام المساكين ، والبر بالفقراء والضعفاء ، والرحمة والعناية بالأيتام وحقوقهم ، وعق العبيد ، وإداء زكاة المال ، والتصدق به ، والتعامل بالعرفو والحسنى ، والامر بالمعروف ، والنهي عن

(١) المفسرون والروايات متفقون على أن هذه الآية في صدد منع الطواف بالعري .

المنكر ، وتنعى على حب المال وكنزه ومنعه والاستغراق في الشهوات ، والاسراف والتبذير والكبر والخيلاء والبخل ، وتنهى عنه وعن الفواحش والاثم والبغي الخ كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .) الاعراف : ٣٣

٢ - (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .) الاعراف : ١٥٧

٣ - (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ . وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيَاطِينِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .) الاعراف : ١٩٩ و ٢٠٠

٤ - (وَاتِذَا ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْنًا كَبِيرًا . وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْىَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . وَلَا تَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ

أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئَلًا . وَلَا تَمْسِرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
الْجِبَالَ طُولًا . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (الاسراء : ٢٦ - ٣٨)

٤ - (وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَلَا
تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلِيٌّ حَمِيمٌ .) فصلت : ٢٢ و ٣٣

٥ - (فَاعْرُضْ عَن مَّنْ تَوَلَّى عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .) النجم : ٢٩
٦ - (وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظُلٍّ مَّنْ
يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ . إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ . وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ
الْعَظِيمِ .) الواقعة : ٤١ و ٤٦

٧ - (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ .
عَنِ الْمُجْرِمِينَ ، مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ
الْمَسْكِينِ . وَكُنَّا نَحْضُضُ مَعَ الْخَائِضِينَ .) المدثر : ٣٨ و ٤٨

٨ - (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ .) القيامة : ٢٠ و ٢١
٩ - (كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ
الْثَرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا .) الفجر : ١٧ - ٢٠

١٠ - (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي
مَسْعَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ . ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرِّحْمَةِ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ .) البلد : ١١ و ١٨

١١ - (فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ
بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِّيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى . وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى .
إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى . وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى . فَأُنْذِرْكُمْ نَارًا تَلْظَى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا

الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى . وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا أَتْبَعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . (لَيْل : ٥ - ٢١)
١٢ - (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ .)

الضحى : ٩ - ١١

١٣ - (إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ . أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ . وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ . إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ .)

العاديات : ٦ - ١١

١٤ - (وَيَلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَةٌ . الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) . الهمة

١٥ - (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَٰلِكَ الَّذِي يُدْعُ الْيَتِيمَ . وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) . الماعون

فكان ذلك كله بالاضافة الى كون النبي محمد ﷺ من غير الزعماء مما جعل الزعماء والاغنياء ، يرون في بعثته وقرآنه ، ودعوته خطرا على مراكزهم وتقاليدهم وثرواتهم ، وينبرون لمناوئته ، وتأليب الجمهور ضده ، فكانت تلك الجولات المتنوعة التي أوردنا صورها القرآنية العديدة بينه وبينهم . ولقد ظل القرآن يسجل ما يسجل من مواقف المجاهدين رغم ما فيها من تحد ووقاحة وسخرية وسوء أدب وإحراج وتعجيز ومكابرة ، ويرد عليها ، ثم يأمر النبي ﷺ بأن يدع المجاهدين لضائرتهم وعقولهم ومصائرتهم دون أبوه بموافقتهم ، هاتفا به بما جاء في هذه الآيات :

١ - (قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) . الأنعام : ١٠٤

٢ - (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ .) يونس : ٤١ - ٤٣

٣ - (وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .) يونس : ٦٥

٤ - (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ .) يونس : ١٠٨ و ١٠٩

٥ - (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .) النحل : ١٢٥ - ١٢٨

٦ - (فَاصْبِرُوا عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ .) طه : ١٣٠

٧ - (قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ .) طه : ١٣٥

٨ - (فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ . إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذْ وَلُّوا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .) النمل : ٧٩ - ٨١

٩ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ .) الروم : ٦٠

١٠ - (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ .) فاطر : ٨

١١ - (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .
وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .) ص : ٨٦ - ٨٨

١٢ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا
يُضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ .) الزمر : ٤١

١٣ - (وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ . فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ) . الزخرف : ٨٨ ، ٨٩

١٤ - (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَ
مَا يُوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ .
الأحقاف : ٣٥

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ .) ق :
٤٥ (١)

١٥ - (وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ
وَمَهْلُهُمْ قَلِيلًا .) المزمل : ١٠ و ١١

١٦ - (فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ .) الغاشية : ٢٠ و ٢١
١٧ - (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا
أَنَا عَابِدُ مَا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ .) سورة
الكافرون

ثم يستمر في النزول عليه ليستمر في دعوته مبشرا منذرا ، تاليا على الناس ما ينزل
عليه من آيات الحق والهدى والامثال والحكمة والعبرة ، داعيا الى الله وحده ، والعمل
الصالح محذرا من الكفر والشرك والمنكرات . حيث تبلغ عظمة الصمود القرآني الذروة
تجاه الجاحدين والملحدين والمنكرين والمتحيلين والمتوافحين .

(١) ليست هذه كل الآيات من بابها ففي القرآن المكي خاصة آيات كثيرة اخرى .

ولقد انتصرت دعوة الله ورسالة رسوله ، واستجاب إليها مختلف الفئات في حياة النبي
ثم من بعد في مشارق الارض ومغاربها على ما سوف نشرحه بعد ، فتحقق بذلك إعجاز
الانبياء القرآني الذي اختوته آيات الروم ٦٠ ، وص ٨٦ - ٨٨ وغيرها مما لم نورد .
ولقد علم الله أن مواقف الجاحدين والمنكرين والمتوابعين تثير في نفس رسوله أزمات
وهموما وهو الحريص على أن تستجاب دعوته ، ويهتدي الناس جميعا بهدي الله وقرآنه .
فاقتضت حكمته تسليته ، وتهذئة روعه ، وايدانه بأن دعوته تستجاب من قبل ذوي
النيات الحسنة والرغبة الصادقة في الحق والهدى ، وفي الآيات السابقة أمثلة عديدة لذلك ،
وفي ما يلي أمثلة أخرى :

١ - (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ^(١) وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ
يَجْحَدُونَ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا
مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَائِنِ الْمُرْسَلِينَ . وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ
أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى
الْهُدَى^(٢) فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ . إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ) الانعام : ٣٣ - ٣٦

٢ - (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا . إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى
الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .) الكهف : ٦ و ٧
٣ - (وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ
عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ
فُرْطًا . وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا

(١) العبارة قد تفيد والله أعلم أنهم لا يقولون لك كذاب لانهم يعرفون عنك الصدق ، ولكنهم غير مؤمنين أصلا بآيات الله .

(٢) العبارة قد تفيد والله قادر على أن يقسرهم على الهدى . ولكن حكمته اقتضت ترك الناس لتمييزهم واختيارهم ليستحقوا
الثواب والعقاب رفاق ذلك .

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . (الكهف : ٢٨ - ٣٠)

٤ - (فَإِنَّمَا يَسِرَّتْهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا .) مريم : ٩٧

٥ - (طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى) طه : ١ - ٣

٦ - (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .) الشعراء : ٣

٧ - (إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَتَى وَلَا تَسْمَعُ الْصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ .) النمل : ٨٠ ، ٨١

٨ - (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ .)

يس : ١١

٩ - (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنذِرَ مَن كَانَ

حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ .) يس : ٦٩ ، ٧٠

١٠ - (عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى . أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ

الذِّكْرَى . أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى فَآنتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى . وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى . فَآنتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلَّا إِنَّمَا تُذَكِّرُهُ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرُهُ .) عبس : ١ -

١٢

وفي القرآن في سياق الجدل والحجاج حيناً ، وبأسلوب تقريرى مطلق حيناً مجموعتان من الآيات ذواتا مغزى هام في صدد الوحي القرآني وكتاب الله وهدفه ، وفي واحدة منها تأكيد بأن القرآن منزل من الله على رسوله لينذر به الناس والعالمين ، ويخرجهم من الظلمات الى النور ، وانه كتاب حكيم مبين الآيات والفصول ، وفيه هدى وشفاء ورحمة ، وفي الأخرى

(١) هناك آيات كثيرة من باب هذه الآيات فاكتفينا بما أوردناه . اقرأ أيضاً آيات الانعام ٥٦ و ٧٠ والاعراف ١ و ٢ ويونس

٩٩ وهود ١٢ و ١١٩ - ١٢٣ والرعد ٢٧ و ٢٨ و ٣٦ و ٣٢

إِهَابَةً بِالسَّمْعِينَ بَأْنَ يَتَفَكَّرُونَ وَيَتَرَوْنَ وَيَتَدَبَّرُونَ مَا يَتْلَى عَلَيْهِمْ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَتَقْرِيرَاتِهِ ،
وَبَأَنَّهُ أَنْزَلَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَيَعْقِلُونَ وَيَسْمَعُونَ وَيَتَفَكَّرُونَ ، وَلَاجَلَ أَنْ يَتَدَبَّرُوا وَيَتَذَكَّرُوا .
وهذه طائفة من المجموعة الأولى :

- ١ - (الْم . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ .) البقرة : ١ و ٢
٢ - (الْمَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ . وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ .) آل عمران : ١ - ٣

٣ - (لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً .) النساء : ١٦٦

- ٤ - (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .)
المائدة : ١٥ و ١٦

٥ - (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ .) سورة الانعام ١٩

- ٦ - (وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ) الانعام : ٩٢
٧ - (أَفَعَيِّرَ اللَّهُ أَتْبَغَى حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ .) الانعام : ١١٤

٨ - (المص . كِتَابُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ .) الاعراف : ١ و ٢

٩ - (الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ .) يونس : ١ و ٢

١٠ - (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ .) يونس : ٣٧

١١ - (الر . كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .) هود : ١

١٢ - (الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .) يوسف : ١ و ٢

١٣ - (الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .) الرعد : ١

١٤ - (الر . كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .) ابراهيم : ١

١٥ - (الر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ . رَبُّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ . ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .) الحجر : ١ - ٣

١٦ - (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .) النحل : ٨٩

١٢٧ - (وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ .) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥

١٨ - (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ .) الواقعة : ٧٥ - ٧٩

ومن المجموعة الثانية :

١ - (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .) البقرة : ٢١٩

٢ - (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .) البقرة : ٢٤٣

٣ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ..) الأنعام : ٩٧ و ٩٨

٤ - (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .) الأعراف : ٣٢

٥ - (إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كِهَاءِ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .)

يونس : ٢٤

(١) هناك آيات كثيرة أخرى من باب ما أوردناه ، فاكثفينا بما تقدم ، اقرأ إذا شئت آيات سورة النحل ١٠١ و ١٠٢ ، والاسراء ٨١ و ٨٢ ، والكهف ١ و ٢ والفرقان ١ ، والنمل ١ ، ٢ ، والعنكبوت ٥٠ - ٥٢ ، ولقمان ١ - ٣ ، والسجدة ١ - ٣ ، ويس ٦٩ و ٧٠ ، الزمر ٢١ و ٢٣ ، وفصلت ١ و ٢ و ٤١ و ٤٢ ، والذخرف ١ - ٤ ، والدخان ١ - ٨ ، والنجم ١ - ٤ ، والحاقة ٣٨ - ٤٢ ، والتكوير ١٥ - ٢٧ -

٦ - (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .) الرعد : ١٧

٧ - (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .) إبراهيم : ٢٥

٨ - (يُنَبِّئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذْكُرُونَ .) النحل : ١١ و ١٣

٩ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَاللُّوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْشِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .) الروم : ٢٠ - ٢٤

١٠ - (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .) ص : ٢٩

١١ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .) الزمر : ٢٧ و ٢٨

(١) والآيات ليست كل ما في القرآن من بابها ، ففيه آيات كثيرة أخرى ، اقرأ أيضا آيات النحل ٤٤ والقصص ٤٦ ، والعنكبوت ٤١ و ٤٤ ، والجاثية ١٣ ، والحديد ١٧ ، والحشر ٢١

وهذا بالاضافة الى أن في القرآن آيات فيها تعظيم لجرمة الافتراء على الله بسبيل توكيد كون النبي لا يمكن أن يرتكب هذه الجريمة ، وأنه صادق كل الصدق في التبليغ عن الله كما ترى في الأمثلة التالية :

١ - (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ .)

الأنعام : ٩٣

٢ - (أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ .)

الأعراف : ١٨٤

٣ - (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي

هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .)

الأعراف : ٢٠٣

٤ - (وَإِذْ تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ

بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مَنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ

لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ .) (١٧) يونس : ١٥ و ١٧

٥ - (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ .) النحل : ١٠١ و ١٠٢

(٢) الآيات تأمر النبي بأن يقول لهم : إنه لم يكن يتصدى لهم قبل وهم يعرفون أخلاقه وعدم فضولته . وهذا وحده يكفي ليعرفوا أنه صادق ، وأنه يبلغهم وحى الله ، ويقف عنده ، ويخاف إن عصاه ، ويعرف أنه ليس من إجرام أعظم من الافتراء على الله .

٦ - (إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ .)
النحل : ١٠٥

٧ - (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَآكَثَرَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .)^(١)
المؤمنون : ٦٨ - ٧٠

٨ - (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلِتَعْلَمَنَ نَبَأُهُ بَعْدَ حِينٍ .) ص ٨٦ - ٨٨

١ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَخُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ .) الشورى : ٢٤
١٠ - (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .) الأحقاف : ٨
١١ - (فَلَا أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ . وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ . وَإِنَّهُ لَتَذْكُرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ . وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ .) الحاقة : ٣٨ و ٥١

١٢ - (فَلَا أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ . الْجَوَارِ الْكُنُوسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .) التكوير : ١٥ - ٢٧

(١) في هذه الآيات ما في آيات يونس ، فانهم يعرفون النبي ويعرفون أخلاقه وصدقه ولا يمكن أن يكون به جنة .

وفي سورة القيامة آيات ذات دلالة عظمت في الوحي الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم وهي :

(لَا تَحْرِكُ بِهِ لِسَانِكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ .) القيامة : ١٦ و ١٩

فهذه الآيات جاءت معترضة بين آيات متصل قبلها بما بعدها اتصالاً موضوعياً ، واتصال خطاب ونظم ، في حين أنها غير متصلة بهذه الآيات لا موضوعاً ولا خطاباً ولا نظماً كما يبدو حين قراءة السياق بطوله ، وهذا ما جاء قبلها منه :

(لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ . أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِيَ بَنَانَهُ . بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجَرَّ أَمَامَهُ . يُسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ . كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ . يُنْبَأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ .) القيامة : ١ - ١٥

وهذا ما جاء بعدها :

(كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ . وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ . وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ . تَظُنُّ أَنْ يَفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ .) الخ

ولقد روي في مناسبتها حديث يستفاد منه أنها نزلت على النبي ، لأنه كان حينما يتلقى وحي القرآن يحرك شفتيه بما ينزل على قلبه خشية نسيانه ، ووجود الآيات في موضعها يلهم بقوة أنها أوحيت للنبي في أثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها ، ولا يصح فرض غير هذا فيما نعتقد لفهم حكمة وجودها في السياق . ولا مناص من فرض ثان ، وهو أن النبي أمر بتدوين آيات السورة فور وحيها ، وأملى على الكاتب هذه الآيات في سياق إملائه

آيات السورة الأخرى ، لأنها أوحيت اليه مع آيات السورة ، مع أنها كانت خطاباً خالصاً له ، وبقصد تعليمه كيفية تلقي الوحي ، فدونت كما جاءت بين الآيات التي قبلها والتي بعدها .

وفي هذه الآيات في موضعها ملهات أخرى عظيمة الخطورة أيضاً في صدد القرآن ، فهي تقف أمام أي شك حتى من أشد الناس تشككاً بأن ما كان يبلغه النبي من آيات القرآن إنما كان وحياً يشعر به في أعماق نفسه ، ويدركه ويستمتع اليه باذن بصيرته ، ويعيه بقلبه ، وانه شيء منفصل عن ذاته غير نابع من باطنه كما يظنه بعضهم ، وتبين مقدار شدة حرصه على ان لا يفلت منه اية كلمة او حرف او معنى مما كان يوحى اليه به قرآناً ، فكان يسارع الى ترديده وإملائه على كتابه حتى يبلغه تاماً كاملاً لا تبديل فيه ولا زيادة ولا نقصان ، ولا تقديم ولا تأخير . وهي تقرر معنى من معاني العصمة النبوية في صدد ما يبلغه النبي من وحي القرآن الرباني في توكيدها بأن الله يثبت في قلبه وذاكرته ما يلقي عليه ، ويجعله يحيط به ، ويلهمه فهمه وبيانه ، فالنبي بهذا قد عصم من الغلط والنسيان والخطأ ، والتقديم والتأخير والزيادة والنقص في القرآن . فكل ما بلغه منه هو وحي رباني ، وقد بلغ كل ما أوحى اليه بتمامه وحرفيته ، ولعلها تقوم قرينة على أن لا محل ولا معنى للقول : إن القرآن نزل على النبي بالمعنى لا باللفظ أيضاً ، وهذا مؤيد بآيات سورة الشعراء هذه :

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .) ١٩٢ - ١٩٥

وقد يلحظ ان نص الآيات قد يفيد ان الله سبحانه وتعالى هو الذي كان يقرأ القرآن على النبي ﷺ مباشرة .

غير أن آية سورة البقرة. هذه (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ٩٧) وآية سورة النحل هذه (قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا هدى وبشرى للمسلمين ١٠٢) وآيات سورة الشعراء ١٩٢ - ١٩٣ التي اوردناها آنفا تفيد ان القرآن كان يبلغ للنبي ﷺ او يوحى اليه به او ينزل عليه بواسطة ملك الله جبريل الروح القدس الروح الأمين . وهناك حديث يرويه البخاري والترمذي في صدد آيات سورة القيامة التي تحقق في صدها عن ابن عباس جاء فيه (كان رسول الله ﷺ اذ أنزل عليه الوحي وكان مما يحرك به لسانه وشفثه فيشتد عليه وكان يعرف منه فأنزل الله الآيات فكان اذا أتاه جبريل اطرق فإذا ذهب قرأه كما وعد الله) .

كذلك فان هذه الآيات تفيد أن ما كان يوحى به الى النبي كان يبادر الى الامر بتدوينه وتسجيله حتى ولو كان موضوعه خاصاً به ، وبصدد تعليمه تلقي الوحي واستيعابه . وأن النبي ﷺ قد جرى على هذا منذ أوائل نبوته ، لأن هذه السورة من أوائل القرآن نزولاً . وهذا المعنى عظيم من وجهة عصمة النبي في تبليغ كل ما كان ينزل على قلبه من وحي الله قرآناً بما في ذلك من خطرات النفس ، وأسلوب تلقي القرآن ، والتصرف الشخصي ، أو الحركة الشخصية اللاشعورية . وهو مؤيد بآيات عديدة حيث أمر بتسجيل كل ما نزل عليه في شؤونه الخاصة ، وفي بعض تصرفاته التي كانت خلاف الاولى في علم الله ، وعوتب عليها . وفي سورة «طه» آية فيها مشهد مماثل للمشهد الذي حكته آيات سورة «القيامة» في معناه وظروفه وهي :

(فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ

زِدْنِي عِلْماً .) ١١٤

والظاهر والله أعلم أن النبي ﷺ ، كرر حركته بسبيل استذكار ما أوحى به اليه في احدى المرات ، فاقتضت حكمة التنزيل تنبيهه مرة اخرى .

وكل ما تقدم يبعث أقوى اليقين بالله والنبي والوحي الرباني للنبي بالقرآن في كل شخص ذي ضمير حي ، ورغبة صادقة في الحق والهدى مهما كانت ثقافته ونحلته . وإذا كان الملحدون بعد ذلك كله ، لا يرفعون عن غيهم ، ولا يثوبون الى رشدهم وضائرتهم ، فلن يضير ذلك الحق والحقيقة والايمان والدعوة الاسلامية في شيء . ولقد حكى القرآن مواقف عديدة عن أمثالهم ، أصروا على مواقفهم وهواهم رغم كل ما سبق من المواقف ، ويستمر بالنزول بالهدى والحق ليهتدي بهما من حسنت نيته ، وطابت سريرته ، ورغب بالحق والهدى مما أوردنا أمثلة كثيرة منه في النبد السابقة . ونضع مع ذلك بعضها امام القاريء في لحظته هذه :

١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .) البقرة : ٦ و ٧
٢ - (وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .) الانعام : ٢٥

٣ - (وَأَنْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .) الاعراف : ١٧٥ و ١٧٦

٤ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّالِمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرِ لَجْئٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ

يَدُهُ لَمْ يَكْذِبْهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ . (١) النور : ٣٩ و ٤٠

- ١٥ -

وقد يسائرنا بعض الملحدون فيقولون : إن محمدا ﷺ لم يتعمد الكذب حين كان يقول : إن القرآن يوحى اليه من الله وحيا ، وإنما كان متوهما متخيلا منفعلا انفعالا عصبيا نتيجة لما يعرفه من أخبار الأنبياء ولما كان يشعر به في داخله من انفعال وجيشان وإيمان بالله ورغبة في الدعوة اليه ومحاربة الشرك ، وتقاليد الجاهلية ، واصلاح الانسانية وسعادتها بدءا بالمجتمع العربي والحجازي. ونقول أولا إن القرآن يذكر موقفا للمشركين مماثلا حيث يقرر في آية من سورة الانعام إنهم لا يقولون إن النبي كذاب في اعتقاده بان الله يوحى اليه ولكنه مخطيء في هذا لأنه ليس هناك وحي رباني وآيات ربانية كما ترى في هذه الآية (قد تعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ٣٢) ثم اخذ القرآن يسلي النبي ويشبته في الآيات التي جاءت بعد هذه الآية وهي (ولقد كذب رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبي المرسلين . وإن كان كبر عليك اعراضهم فإن استطعت ان تبغى نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبغتهم الله ثم إليه يرجعون ٣٣ - ٣٦) .

وثانيا إن من المشركين من قال إن بالنبي جنة وإنه يتلقى ما يقوله من الشياطين وإنه مجنون في معرض ردهم على انه وحي من الله تعالى . وقد سجل القرآن أقوالهم هذه بدون أي تخرج ورد عليها وأكد ان القرآن وحي من الله تعالى كما جاء في آيات عديدة نافذة الى أعماق القلوب والعقول والضائر كما ترى فيما يلي :

(١) صبغة الآيات اسلوبية بسبيل تقرير سدة إصرار الكفار المسبق على الكفر والجحود والتكذيب . وفي آيات النور بخاصة تمثيل لما سوف تصير أمورهم اليه من خيبة وضياح ومواجهة لعذاب الله الرهيب .

- ١ - (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ .) الاعراف : ١٨٤
- ٢ - (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ . إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .) الحجر : ٦ - ٩
- ٣ - (أَفَلَمْ يُدَبِّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَالٌ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثَرَهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .) المؤمنون : ٦٨ - ٧٠

٤ - (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيْطَانُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ .) الشعراء : ٢١٠ و ٢١١

٥ - (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ .) الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣

٦ - (ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ . مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ . وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مُمْنُونٍ . وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ . فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيْكُمْ أَلْفَتُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .) القلم : ١ - ٧

٧ - (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ . الْجَوَارِ الْكُنُوسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ . مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْأَمِينِ . وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ . إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .) التكويد : ١٥ - ٢٧ .

٨ - وفي سورة سبأ آيات فيها رد من جهة ، وفيها من جهة خطاب نافذ الى القلوب والعقول من شأنه ان يهز الضمائر ، ويبعث أقوى اليقين حيث يهيب بالسامعين بأن يتروا ، ولا يؤخذوا بالتهويز الذي يكون في الاجتماعات الصاخبة ، ويتفكروا في ما جاء اليهم به

واحدًا واحدًا ، او اثنين اثنين فقط ، وحينئذ يرون أنه ليس في صاحبهم جنة ، ولا يريد أجراً ، وأنه نذير لهم ، وان الله شهيد على ذلك ، وانه الحق الذي يدحض الباطل . وهي : (قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفٍ ثُمَّ تَذْكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ .) سيا : ٤٦ و ٤٩ .

٩ - وفي سورة الجن آيات اخرى ذات معنى رائع في صدد رسالة الرسول ﷺ ، تبعت هي الاخرى اقوى اليقين بصحة الرسالة والوحي القرآني ايضا وهي :

(قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا . قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا . إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا . حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضَعُفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا . قُلْ إِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا . عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا . لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا .) الجن : ٢٠ و ٢٨ .

ومع تقرير كون النبي ﷺ ، قد اتجه منذ شبابه نحو الله وحده ، وأنف مما كان عليه قومه من شرك وتقاليد جاهلية ، وأخذ يقوم باعتكافات روحية مفكرا في آلاء الله وعظمته ، فان في القرآن آيات تقرر أنه لم يكن مطلعاً الى نبوة ورسالة وكتاب ينزل عليه من الله ، ولم يكن يُبدي أي فضول ونشاط بسبيل الدعوة الى أن شاءت حكمة الله فاصطفاه للرسالة

لما كان عليه من اخلاق عظيمة (١) تؤهله لذلك

وتم الاتصال بينه وبين الله عز وجل ، وتبلغ أمر مهمته كما ترى في الآيات التالية :

١ - (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ ، وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .) يونس : ١٦ .

٢ - (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَن هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ .) القصص : ٨٥ و ٨٦ .

٣ - (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ . وَلِتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ .) ص : ٨٦ و ٨٨ .

(١) أما اخلاقه العظيمة ، فقد اتى عليها الله في القرآن ومن ذلك في آية سورة القلم هذه : (وإنك لعل خلق عظيم) . وأما اهليته للرسل فقد قرر الله في القرآن ان الله اعلم حيث يجعل رسالته ، فجعلها فيه لاهليته لها ، وأما اتجاهه نحو الله واعتكافاته الروحية ، والتفكير بآلاء الله ، فقد جاء في ذلك أحاديث صحيحة ، منها أول نزول الوحي عليه . روي عن عائشة قالت : (أول ما بدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث - أي يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم ارسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم ارسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم ..

فرجع بها النبي يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوتي فزملوه حتى ذهب منه الروح . فقال لخديجة واخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، أنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرء قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ما شاء الله ان يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي . فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . قال : ماذا ترى يا ابن أخي ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بما رأى فقال له ورقة : يا ابن أخي هذا الناموس الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيها جذعا ، ليتني اكون حيا اذ يخرجك قومك . فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي ، وإن يدركني يومك انصرك نصرا مؤزرا . ثم لم يلبث ورقة ان توفي) .

٤ - (وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ . وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .) الشورى : ٥١ - ٥٣ .

ففي هذه الآيات جواب أيضاً على ما قد يقوله الملحدون مسaire من ان النبي كان منفعلاً بما عرفه من الانبياء ، وبما انبثق في نفسه من جيشان ورغبة في الدعوة إليه مثلهم . والذي يؤمن بوجود إله حكيم مبدع للكون ومدبر له ، لا يصح ان ينكر مهما بلغ من العقل والتحفظ جواز اتصال الله عز وجل بأفراد يصطفيهم من خلقه مؤهلين لذلك إيماناً وخلقاً وحيوية ليوحي اليهم بدعوة البشر اليه ، وعبادته والاتجاه اليه وحده ، وبيان افضل الاساليب والمبادئ والقواعد الايجابية والسلبية التي يجب عليهم ان يسيروا عليها ، ويلتزموها لضمان خيرهم وسعادتهم وصلاحهم ونجاتهم مما يعلم الله ان عقول البشر قد لا تهتدي اليها بجهدا . ويكون في مصدريتها الالهية من قوة التأييد والالزام الايمانين ما لا يكون لما يضعه البشر . باجتهداهم من قوانين وتقاليد ، وقواعد مما هو متمثل في كل آيات القرآن وفصوله ، لا يمكن لعاقل منصف يرغب في الحق والحقيقة ان يماري فيه .

- ١٦ -

ونصل الآن الى مواجهة الملحدون في إنكار وجود ذلك الاله الذي هو أساس إلحادهم وإنكارهم لكل ما يصدر عنه ، وللنبوة والوحي بالتبعية . وحين تسألهم عن علة الكون الاولى ، أو أصل الكون ومصدره لا يستطيعون الاجابة إجابة جازمة ، ويقرون بالجهل مع تجريدهم العلة الاولى ، أو المصدر الاول للكون من أي عقل وإرادة وحكمة ، وبكلمة أخرى يقولون : إن الكون المادي أو السديم الاول صدر عن تلك العلة المجردة من ذلك

- ٦٥ -

بالصدفة العمياء ، وظلت تسير كذلك . والمؤمن وإن كان بدوره يجهل كنه الله تعالى ، فإنه على الأقل - ونقول هذا للمساجلة - يكون في موقف الم مطمئن بوجود خالق بارئ مصور مبدع حكيم عليم خبير مدبر قوى محيط أزلي أبدي وراء هذا الكون ، يراقبه ويلاحظه ، ويجعله يلتزم حدود الحق والعدل والخير مطلقاً ، في حين ان الملحد يكون في فراغ وضياح ، متحلاً من أي التزام لا يلزمه إياه مقياس نفعه وضرره الخاص ، مادياً كان أم أدبياً ، والذي هو على الاعم الاغلب عابر متحول . وليس في موقف المؤمن - ونقول هذا للمساجلة ايضاً - أي ضير على الانسانية وخيرها وصلاحها إذا لم يكن فيما يعتقده ما يتعارض مع ذلك ، أو يؤدي الى الشلل والجمود ، وعدم الانطلاق العقلي والعلمي والفني والحضاري والمعاشي والعمراني ، والتطور في كل ذلك الى أبعد الحدود . وهذا ما تكفلت به تعاليم القرآن المحكمة خاتم كتب الله الذي صار به الدين الاسلامي الذي جاء به خاتم انبياء الله رب العالمين فريداً مختلفاً كل الاختلاف عن غيره من حيث إنه دين نظام وعقيدة وتنظيم شامل لكل الشؤون على اختلاف نواحيها من روحية وسياسية واقتصادية ومعاشية واجتماعية وشخصية واخلاقية ، وسلوكية واسروية ، وفكرية وعلمية على أحسن الوجوه واقومها وأفضلها ، مستجيباً لكل مطلب ، حالاً لكل مشكل ، مستهدفاً لمصلحة الانسانية وصلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة ، ودعوة مفتوحة للجميع ، ومرشحة بكل ذلك لتكون دين الانسانية العام على اختلاف اجناسها والوانها ومراكزها وعلى قدم المساواة التامة بدون أي اختصاص وتميز وطبقات ، وفيه الدليل الذي لا يدحض على انه لا يمكن ان يصدر عن عقل بشري مهما بلغ من رقي وصفاء وإحاطة ، ولا يمكن إلا أن يكون صادراً عن الله عز وجل الحكيم المدبر العليم الخبير خلافاً لما يظنه بعضهم والملحدون منهم بسبب ما في القرآن من آيات متشابهة يسيئون فهمها وتأويلها ، وبسبب اقوال واجتهادات ووقائع واحداث ومواقف شاذة عن جوهر تعاليم القرآن المحكمة لا تتحمل هي مسئوليتها على ما سوف يأتي شرحه ، بل فيه كل الخير مادياً ومعنوياً من حيث إن المؤمن يكون

مطمئن النفس بحكمة الله برقابته عليه في جميع افعاله مؤملاً برحمته ورعايته وعونه مما يجعله ممثلاً بالامل والرجاء وحسن العاقبة مستمداً من ذلك نشاطه وحيويته متأثراً بذلك في الانكماش عن الشر والضرر والسوء والمنكر والاذى والانانية والنفعية المفرطة قولاً وفعلاً حيث يكون له من تدينه وازع عن كل إثم ، وحافز على كل خير لذاتها ، في حين يكون الضياع والفراغ واليأس ، وفقدان الوازع والحافز لذاتها إذا ما حزبت الامور من صفات الملحد .

على ان هناك مئات من اساطين العلم المعاصرين الذين صاروا اصحاب اختصاصات وشهرة عالمية في مختلف العلوم الرياضية والفلكية والنباتية والحيوانية والطبيعية والنفسية والذرية والجيولوجية والبيولوجية والفيزيولوجية والكيميائية والفيزيائية ، والذين نال كثير منهم جوائز عالمية على بحوث متفوقة لهم في اختصاصاتهم ينكرون كل الانكار ان يكون هذا الكون المذهل في سعته وكائناته البديع المتقن في نظمه وانسجامه وتركيبه وتوازنه ، بدءاً من الذرة والخلية والاحماض والعناصر البسيطة الى اصل الحياة ونشئها وبدايتها وتطورها الى الاحياء المتنوعة النباتية والحيوانية الى السماوات وما فيها من مجرات وشموس وكواكب وحركاتها الى الكهرباء والمغناطيس الى العضويات وغير العضويات والرياح والسحاب ، والوراثات والغرائز المذهلة في مظاهرها الثابتة في القوانين التي تسير عليها سيرا ثابتاً عجيباً ، حتى ليعرف بها ما كان وسوف يكون من مشاهدتها لمئات آلاف السنين الماضية والآتية ، وحتى امكن ان تعرف بها ثغرات سلسلة العناصر البسيطة التي لم تكن اكتشفت ثم اكتشفت في المركز المخمن لها في السلسلة ، قد جاء صدفة عمياء ، ومظهراً عشوائياً بدون تدبير محكم من مدبر حكيم ، وخالق مبدع غير حادث .

وقد جاء هذا في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» لحرره وجامعه جون كلوفرمون والذي ترجم الى العربية من قبل الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ، وروجع وعلق عليه من قبل الدكتور جمال الدين الفندي . ثم كتاب «العلم يدعو الى الايمان» لمؤلفه ،

كريس موريسون الذي ترجم من قبل الاستاذ محمود صالح الفلكي ، وصدره الاستاذ الشيخ حسن الباقوري ، وقدمه الدكتور أحمد زكي .

وهناك عشرات الكتب والابحاث والمقالات العربية وغير العربية التي كتبها علماء في مختلف العلوم المادية ، تحتوي تقارير مماثلة .

وفي القرآن آيات كثيرة جدا ، فيها تنبيهات نافذة الى اعماق القلوب والعقول بأسلوب يفهمه أوساط الناس فضلا عن متعلميهم واذكيائهم على آيات الله في كونه الدالة على وجوده وحكمته ، وبديع تدبيره وتقديره ، وإحاطته وعظمته . نكتفي منها بالأمثلة التالية :

١ - (وَالْهَکْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ .) البقرة : ١٦٣ و ١٦٤ .

٢ - (وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) الأنعام : ٥٩

٣ - (إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَسَى مِنَ الْمَيْتِ وَمُخْرِجُ الْمَيْتِ مِنَ الْحَسَى ذَلِكَ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبُرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ

إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (الأنعام : ٩٥ و ٩٩

٤ - (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ . وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَخَيْلٌ صَيَّوَانٌ وَغَيْرُ صَيَّوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفُضْلٌ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الرعد : ٢ - ٤

٥ - (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَاللَّيْلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَبْتَنَّا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ . وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ . وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ . (الحجر : ١٩ - ٢٢ .

٦ - (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ يَقِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . (الانباء : ٢٩ - ٣٣ .

٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ . وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ مِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . (النور : ٤٢ - ٤٦ .

٨ - (وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوُأْنِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ . وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . (الروم : ٢٠ - ٢٤ .

٩ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ . (فاطر : ٣٧ و ٣٨ .

١٠ - (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوَكُمْ فِيهِ لَبَنٌ ذَلِيذٌ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ . لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . (الشورى : ١١ و ١٢ .

١١ (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ . وَيُلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ . مَن وَرَأَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يُعْصِي عَمْرًا مَا

كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ . (الجاثية : ٣ - ١١)

١٢ - (وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا . وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١) .) الشمس : ١ - ١٠

ففي كل ما تقدم ما يكفي لجعل الملحدّين واللامبالين إذا لم يكونوا متعمدين المكابرة والعناد والتصامم عن سماع كلمة الحق ، ووعي الحق يشوبون الى رشدهم ، وينتهون عن مواقفهم ، ولن يضير الدين والمؤمنين إصرار المكابرين والمعاندين على المكابرة والعناد ، ولقد كان هذا موقف فريق من أمثالهم في عهد النبي ﷺ على ما شرحناه في الفقرات ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٦ و ٧ وأوردنا شواهد القرآنية ، وما كان من ردود القرآن على مواقفهم وتحدياتهم ومكابرتهم . ولقد وصفهم القرآن بهذا الوصف في آيات سورة البقرة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .) البقرة : ٧ وفي آية سورة الأنعام . (وَمَنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) ما أوردناه من الأمثلة على كثرة ليس كل ما في القرآن من بابها . ففيه آيات كثيرة أخرى . اقرأ إذا شئت آيات سورة آل عمران ١٨٩ - ١٩١ ، والأنعام ١ - ٤ ، ويونس ٤ - ٦ و ٢١ - ٣٥ ، والرعد ٨ - ١٥ ، والنحل ٣ - ١٨ ، والحج ٦٣ - ٦٦ ، المؤمنون ١٢ - ٢٢ ، والنمل ٦٠ - ٦٥ ، والروم ٤٨ - ٥١ ، ولقمان ١٠ و ١١ و ٢٥ - ٢٩ ، والسجدة ٤ - ٩ ، وسبأ ٣ - ٦ ، وفاطر ١ - ٣ و ١١ - ١٤ ، ويس ٣٣ - ٤٢ ، وص ٢٧ - ٢٩ ، والزمر ٥ و ٦ و ٢١ . وفصلت ٩ - ١٢ ، والزخرف ٩ - ١٢ ، وق ٦ - ١١ ، والرحمن ١ - ٢٠ ، والحديد ١ - ٦ ، والملك ١ - ١٤ ، ونوح ١٤ - ٢٠ ، والتبأ ٦ - ١٦ ، والنازعات ١٧ - ٢٢ ، وعبس ٢٤ - ٢٩ ، والانشقاق ١٦ - ١٩ ، والطارق ٥ - ١٢ ، والاعلى ١ - ١٥

إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) سورة الانعام : ٢٥

تعبيراً عن إصرارهم على المكابرة والعناد . ولقد أوحى الله لرسوله الآيات التي أوردناها في الفقرات ٩ و ١٠ وأمثالها ، والتي يأمره بها بعدم الأبوه لمواقفهم ، وتحدياتهم وعنادهم ، والمضي قدماً في تبليغ رسالته ودعوته لذوي الرغبات الصادقة والقلوب الحية حتى حقق الله وعده الذي وعده في آيات عديدة منها هذه الآيات :

١ - (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً .) الفتح : ٢٨

٢ - (وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً .) النور : ٥٥

فاظهر دينه على الدين كله ، وصارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، ومكن الله للمؤمنين في الارض . ولقد بدأ ذلك في حياة النبي ﷺ ، فلم يتوفه الله إلا وعمت دعوته ، وساد الاسلام وسلطانه جميع انحاء جزيرة العرب على اختلاف منازل أهلها وثقافاتهم ونحلهم وأجناسهم ، وأخذت تتسرب الى خارجها على ما سوف نشرحه في الفصل الثاني . ثم اتسع نطاق ذلك حتى عم مشارق الأرض ومغاربها ، وفي هذا تعليم وتطمين لنا ولسائر المؤمنين ، ورد على المكابرين والمعاندين المحدثين . وليستمرن الله في تحقيق وعده ونصره . والله لا يخلف وعده ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

الفصل الثاني

أثر الدعوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم

ننبه اولاً على أن هذا الفصل ليس للتاريخ ، وإنما هو متصل بموضوع الكتاب من حيث إنه يتضمن الشهادات العيانية للآلاف المؤلفة من الناس على اختلاف مراكزهم وثقافتهم ونحلهم الذين سمعوا النبي ﷺ والقرآن مواجهة ، وآمنوا بهما .

فإنه برغم مواقف الزعماء والاغنياء الجحودية الحجاجية المعاندة ، وتأليبهم الجماهير منذ بدء الدعوة في مكة ، فإن هذه الدعوة بقوة ما انطوى فيها من عناصر الاستجابة التي احتواها كثير من السور المبكرة في النزول مثل الفاتحة والأعلى والليل والشمس والعصر والماعون والفجر والبلد والاخلاص وص ويس والأعراف وغيرها وغيرها من دعوة الى الله وحده وعبادته وحده ، والتحرر مما سواه بأي اسلوب وصورة والايان بنبوة رسوله ، والتزام مكارم الأخلاق ، وأحسن الصفات والأفعال من بر ورحمة وتعاون ورفق وصبر وصدق وعدل ، وحق وإحسان ، واجتناب المنكرات والفواحش والظلم والبغي والتقاليد المنكرة والكذب والرياء والبخل والفساد ، أخذت تجذب إليها فئات عديدة في مكة أولاً وبمقياس ضيق ، ثم اتسع النطاق بعد هجرة النبي ﷺ منها إلى المدينة حتى عمّت سائر أنحاء الجزيرة العربية ، وأخذت تتسرب الى خارجها في حياة النبي ﷺ ، وقد تم هذا بخاصة بعد أن يسر الله لرسوله فتح مكة حيث أسلم جميع أهلها بما فيهم الذين بقوا أحياء ، من الذين وقفوا موقف الجحود من الزعماء والجماهير في المرحلة الاولى . حيث كانت مكة إماماً وقدوة وحاجزاً . وقد عبّرت سورة النصر التي نزلت في أواخر حياة النبي ﷺ عن ذلك تعبيراً قوياً ، حيث جاء فيها :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا .)

ولقد كان المنضوون الى الدعوة في مكة يمثلون مختلف الفئات والطبقات ، من شباب وكهول وشيوخ ، ورجال ونساء ، وقرشيين ذوي أحساب وأنساب ، وأغنياء وفقراء وأرقاء ، وعرب وعجم ، وببيض وسود وسمر ، ومشركين وثنيين وكتابين نصارى ويهود وصابئين (١) بحيث يمكن القول إنهم كانوا يمثلون جميع أنواع البشر والنحل ، وصار الاسلام بهم مصداقاً لما رشحهُ الله ليكون دين الانسانية جميعاً كما جاء ذلك في آيات التوبة (٣٣) والفتح (٢٨) والصف (٩) التي أوردناها في مطلع الكتاب . وظلت هذه الظاهرة مستمرة في العهد المدني .

ولقد سجل القرآن مشاهد عيانية رائعة لايمان بعض الذين آمنوا بالنبى والقرآن من ذوي العلم وأهل الكتاب وشهاداتهم بصدق وحي الله وفرحهم به في العهد المكي أولاً ، ثم في العهد المدني . وهذه تسجيلات ذلك في السور المكية :

١ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .) الأنعام : ٢٠

٢ - (أَفَغَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَىٰ حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ .) الأنعام : ١١٤ .

٣ - الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ

(١) رجحنا في كتابنا عصر النبي ﷺ ، وبيئته قبل البعثة أن الصابئين هم الذين تركوا دين وتقاليد المشركين ، واتجهوا نحو الله وحده من العرب . وأيدنا ترجيحنا بأحاديث عديدة . انظر الطبعة الثانية ٦٩٦ - ٧١٩ .

(٢) المتبادر انهم كانوا يشهدون أيضاً بصدق دعوى النبي ﷺ لانهم عرفوا أنها حق ، وعرفوا أنه صادق كمعرفتهم أبناءهم .

- وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . (الأعراف : ١٥٧)
- ٤ - (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .) هود : ١٧
- ٥ - (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ^(١)) . الرعد : ٣٦
- ٦ - (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ^(٢)) . الرعد : ٣٤
- ٧ - (قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ^(٣)) . الأسراء : ١٠٧ - ١٠٩
- (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ لَأِكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ .) العنكبوت ٤٩

(١) ما دام أنهم يفرحون فقد استبشروا وصدقوا وآمنوا .

(٢) الآية تتضمن أن الذي عنده علم الكتاب مستعد للشهادة إيجاباً وهذا يستتبع كونه آمن بالقرآن والنبى .

(٣) في العبارة تأكيد لما ذكرته آية سورة الاعراف ١٥٧ من أن النصارى واليهود يجدون صفات النبى مكتوبة عندهم في التوراة والانجيل ، ويجب عليهم ان يتبعوه . فلما بعث قالوا : إن بعثته هي تحقيق لوعده الله السابق المذكور في كتبهم . وفي سورة الصف هذه الآية :

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ..) الصف : ٦

وفي آية الانعام (١٩) صراحة أنهم عرفوا النبى وصدق دعواه كما عرفوا أبناءهم . وفي سورة البقرة هذه الآية :

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَأْتُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ .) البقرة : ٨٩

ففي هذه الآية تصديق قرآني مدني لما ذكر في آية سورة الاعراف المكية بالاضافة الى الصراحة التي في آية سورة الصف . حيث جاء فيها هذه الآية :

(وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ..) يتبع

٨ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤْنَ بِالْحَسَنَةِ الْسيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا تَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ .) القصص : ٥٢ - ٥٥ .

٩ - (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .) الأحقاف : ١٠

وهذه تسجيلات لايمان أهل الكتاب بالقرآن والنبي في العهد المدني :

١ - (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ .) البقرة : ١٢١ .

ونقول من باب المساجلة : إنه لا يعقل أن يذكر القرآن ذلك الا ان يكون هناك تصديق إيجابي من أهل الكتاب اليهود والنصارى على السواء . وقد آمن بالقرآن والنبي يهود ونصارى في مكة ثم في المدينة كما سجل ذلك القرآن على ما جاء في الآيات التي أوردناها في المتن ، فكان ذلك التصديق يقيناً قاطعاً . وصادق العظم في كتابه (نقد الفكر الديني) . يصف محاولة المسلمين إثبات ذكر النبي في إنجيل برنابا سخافة . ونحن نعرف أن النصارى ينكرون هذا الانجيل غير أن إثبات كون صفات النبي محمد مذكورة في الكتب التي يتداولها اليهود والنصارى غير مرهون بذكر برنابا بذلك . فالقرآن قد ذكر ذلك . وكان يتلى علناً ، وأهل الكتاب آمنوا وصدقوا ، فظهر الحق وزهق الباطل . وصار ما أراد صادق العظم نفيه ووصفه بمحاولة سخيفة هو سخر متهافت لامتني ولا محل ولا طائل له . وجحود طوائف من اليهود والنصارى لبنوة النبي في عهده وبعده لا ينقض ما قلناه وله أسباب أخرى دنيوية . ومع ذلك ففي نصوص بعض أسفار العهد القديم والجديد اشارات وبشارات عديدة بنوة النبي محمد ﷺ على ما استنبطه بعض باحثي المسلمين قديما وحديثا فقد ذكر السيد رشيد رضا في تفسيره (المنار) ثماني عشرة بشارة وأورد النصوص المستنبطة منها : وقد ذكر عدداً من الاشارات أو البشارات الامام ابن قيم الجوزية في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» أستنباطا من هذه الأسفار .

(١) الآيات تلهم أن المذكورين المؤمنين فيها ليسوا من أهل مكة وأنهم كانوا في حالة حسنة اجتماعيا وخلقيا وماليا . وأن كفار مكة أو زعماء كفارها وبخوهم على ايمانهم بالنبي فلم يبالوا وتبتوا على ايمانهم .

(٢) أشير قبل هذه الآية الى القرآن ، وأشير اليه في آية بعدها فيكون ضمير (به) راجعا اليه .

(٣) قبل هذه الآيات آيات فيها اشارة الى النبي والقرآن فيكون ضمير (به) عائدا إليهما .

٢ - (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ .) آل عمران : ١١٣ - ١١٥

٣ - (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .) آل عمران : ١٩٩ .

٤ - لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (٤) النساء : ١٦٢ .

٥ - (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ . فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ .) المائدة : ٨٢ - ٨٥

٦ - (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً وَرُهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ .) الحديد : ٢٧

(٤) الآية من سياق في صدد اليهود .

وهذا فضلا عما احتواه القرآن من إشارات عديدة الى المؤمنين المحسنين المخلصين بصورة عامة ، وتنويهات بإيمانهم وتقواهم وصالح أعمالهم ، منها ما جاء في صدد المؤمنين في العهد المكي عامة ، ومنها ما جاء في آيات مدنية في صدد المؤمنين في العهد المدني عامة ، أي : تشمل المؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم ، فمما جاء في القرآن المكي :

١ - (وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّهُمْ يَتَّقُونَ . وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ . وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ . وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) الأنعام : ٥١ - ٥٤

٢ - آية سورة الأعراف ١٥٧ التي أوردناها قبل قليل

٣ - (إِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .) يونس : ٩ و ١٠

٤ - (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .) يونس : ٢٦

٥ - أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .) يونس : ٦٢ - ٦٤

٦ - (الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ .) الرعد (١) : ٢٠ - ٢٢

٧ - (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا بَ .) الرعد : ٢٨ و ٢٩

٨ - (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .) النحل : ٣٠ - ٣٢

٩ - (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لِنَبَوِّئَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .) النحل : ٤١ و ٤٢

١٠ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .) النحل (١) : ١١٠

١١ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا . أُولَئِكَ

(١) هذه الآيات وإن كانت تذكر الصفات التي يجب أن يتصف بها المؤمنون إلا أن روحها يلهم بقوة أنها تتضمن وصف حالة المؤمنين في العهد المكي .

(٢) هذه الآية في حق فريق تعرضوا لضغط الكفار حتى أجبروهم على الارتداد ولكنهم اغتنموا فرصة ففروا وهاجروا وعادوا الى الاسلام صابرين مجاهدين في سبيله .

لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يَحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَعًا (١) الكهف : ٣٠ و ٣١

١٢ - (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ حَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ أَتَّبَعَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢) (١) المؤمنون : ١ - ١١١

١٣ - (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٣) (٢) المؤمنون : ٥٧ - ٦١

١٤ - (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يُبَيِّتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى

(٢) ما قلناه ذيلًا على آيات سورة الرعد ١٩ - ٢٤ يقال أيضا : في صدد هذه الآيات .

(١) ما قلناه ذيلًا على آيات سورة الرعد ١٩ - ٢٤ يقال أيضا في صدد هذه الآيات .

اللَّهُ مَتَاباً . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُومِ مَرُّوا كِرَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمَقَامًا (٣) . الفرقان : ٦٣ - ٧٦

١٥ - (طس) . تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ . هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٢) . النمل : ١ - ٣

١٦ - (يا عبادي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإَيَّايَ فَاعْبُدُونِ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرٌ لَالْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ .) العنكبوت : ٥٦ - ٥٩

١٧ - (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ . لِيُوقِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) فاطر : ٢٩ و ٣٠

١٨ - (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ .) الزمر : ١٧ و ١٨

١٩ - (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ .) الزمر : ٢٣ .

٢٠ - (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا

(١) و (٢) وما قلناه في صدد الآيات السابقة يقال في صدد هذه الآيات .

تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ .
فصلت : ٣٠ - ٣٢

٢١ - إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . (الذاريات : ١٥ - ١٩)

٢٢ - إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلَّا الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ . وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّمَ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ أَتَعَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (١) . (المعارج : ١٩ - ٢٥)

٢٣ - (إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا . يُوفُونَ بِالْإِذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَشُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبَّوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا) . (الانسان : ٥ ، ١١)

ومما جاء في القرآن المدني في وصف واقع المؤمنين والتنويه بهم :

١ - أَلَمْ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

(١) في هذه الآيات وصف لواقع المؤمنين أيضا مثل سابقاتها .

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١) .
البقرة : ١ - ٥

٢ - (وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) .
البقرة : ٢٠٧

٣ - (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . البقرة : ٢١٨

٤ - (الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) . البقرة : ٢٧٤

٥ - (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) .
البقرة : ٢٨٥ و ٢٨٦

٦ - (قُلْ أُؤْتِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مَطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ) . آل عمران : ١٥ - ١٧

٧ - الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ

(١) هذه الآيات من أوائل ما نزل في العهد المدني بحيث يمكن أن يكون فيها وصف لواقع المؤمنين في العهد المكي أيضاً .

وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ
إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . فَاقْبَلُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءُ
وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ .) آل عمران : ١٧٢ - ١٧٤

٨ - (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلُ
النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ . رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ
آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا
مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ . فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ
أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا
وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ .) آل
عمران : ١٩١ - ١٩٥

٩ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ
الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ
فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ .) الانفال : ٧٤ و ٧٥

١٠ - (أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ .) التوبة :

١٩ - ٢١

١١ - (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ

اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .) التوبة : ٧١

١٢ - (لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .) التوبة : ٨٧

١٣ - (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرُّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .) التوبة : ٩٩ و ١٠٠

١٤ - (فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .) النور : ٢٥ - ٢٨

١٥ - (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا . مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا بَدِيلًا .) الأحزاب : ٢٢ و ٢٣

١٦ - (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِي مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا .) الفتح : ٢٩

١٧ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ

أَجْرُهُمْ وَنَوْرُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . الحديد : ١٩
 ١٨ - (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُّونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .) الحشر : ٨ - ١٠

١٩ - (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَقَرِّضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) المزمل : ٢٠

ولقد تقصدنا الاكثار من النصوص لتبدو دلالتها قوية للقارئ غير المسلم أيضا .
 ونلفت النظر الى ما احتوته من صور قوية تعبر أقوى تعبير عن قوة إيمان و يقين
 المستجيبين للدعوة بصدق الرسالة النبوية ، وصلتها بالله عز وجل ، وما احتوته من سمو
 المبادئ الايمانية والاجتماعية والاخلاقية والانسانية ، ومن شدة استغراقهم فيها .

(١) هذه الآية مدنية ، ولقد كان النبي وأصحابه في مكة يجتهدون في عبادة الله في الليل كما وصفتهم آيات سورة الذاريات .
 (كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ . وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ .)

وواظبوا على ذلك بعد هجرتهم الى المدينة ، وأراد المؤمنون الجدد أن يحذوا حذوهم . وقد علم الله أن المؤمنين قد كثروا وصارت
 لهم مشاغل وأعداد متنوعة ، وأنهم لا يقدرّون على الاستمرار في ذلك ، فخفف عنهم في هذه الآية .

ولقد كان النبي ﷺ في مكة ضعيفا من حيث عدد اتباعه وقوته المادية ، وكان اعداؤه هم الاكثر والاقوى بحيث ينتفي أي ظن بأن الذين آمنوا به من أهل الكتاب والعلم ومشركي العرب وملحديهم ووثنيهم قد آمنوا بضغط وإكراه ، بل كانوا يؤمنون به وينضون اليه وهم يعلمون أنهم يخاطرون بأنفسهم ويعرضونها للملامة والتوبيخ والخطر . وفي آية سورة القصص هذه :

(وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ .)

التي هي من آيات سورة القصص (٥٢- ٥٥) التي أوردناها قبل في صدد ايمان بعض أهل العلم والكتاب دليل على أن ذلك وقع على هؤلاء ، وفي آية أخرى في سورة الفرقان تعبير مماثل فيه دلالة على أن اللوم والتوبيخ كان يشمل مختلف فئات المؤمنين وهذا نصها :

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا .)

٦٣

ولقد اشتد الأذى والمضايقة والخطر ومحاولات الارغام على كثير من شباب الأسر القرشية الذين انضوا الى دعوة الله ورسوله نابذين الشرك وتقاليد الجاهلية من قبل الزعماء والاغنياء والآباء والأعمام ، فأذن الله ورسوله لهم بالهجرة الى الحبشة أولا ، فهاجروا فارين بدينهم ضارين بذلك أروع الامثلة على التضحية بالمال والوطن والأقارب والمصالح في سبيل الدين الحق الذي اهدوا اليه معربين بذلك عن شدة اسغراقهم فيه وتمسكهم به ، وقد أشارت آيات سورة النحل هذه الى هذا الحادث :

(وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ^(١)) النحل : ٤١ و ٤٢

ولقد استطاع الطغاة أن يرغموا بعض الضعفاء الذين لم يتمكنوا من الهجرة على الارتداد عن دينهم ، غير أنهم بادروا الى اغتنام فرصة سنحت لهم ، فهاجروا بدورهم ، وعادوا الى دينهم والجهاد في سبيله على ما تفيد آيات سورة النحل هذه أيضا :

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْنَاهُمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ . ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . النحل : ١٠٥ - ١١٠

وفي هذا الموقف نفس الصورة القوية من التضحية والتمسك التي نبهنا عليها ، والآيات قد تفيد أن بعض المرتدين ظل مرتدا طمعا بالسَّلامة والاغراء ، ولكن هذا ليس من شأنه الاخلال بالصورة . ولقد بدأت فتنة المؤمنين عن دينهم أي ارغامهم على الارتداد في وقت مبكر ، وشملت النساء والرجال معا على ما تفيد آية في سورة البروج التي هي من السور المبكرة في النزول وهي :

(إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ .

(١) في أذهان بعض الناس أن الذين هاجروا الى الحبشة هم من الفقراء والارقاء والضعفاء . ولكن الواقع أن كلهم أو جلهم من أبناء الاسر القرشية البارزة بل ومنهم من أبناء زعماء وفادة المعارضة للنبي ورسالته . وقد هاجر المتزوجون منهم هم وزوجاتهم اللاتي هن الاخريات من بنات الاسر القرشية البارزة . انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٢٢-٣٣٠

ثم استمرت على ما تفيدته آيات قرآنية أخرى كما ترى فيما يلي بالاضافة الى آيات سورة النحل التي أوردناها قبل :

١ - (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١) . البقرة : ١٩٠ و ١٩١

٢ - (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعُوا (٢) . البقرة : ٢١٧

٣ - (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَانَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (٣) . آل عمران : ١٩٥

ولقد اشتد الاذى والضغط على الذين لم يهاجروا الى الحبشة ، واستطاعوا ان يصمدوا مدة اخري ، فأذن الله ورسوله لهم بالهجرة الى المدينة بعد ان انضوى فريق من زعماء يثرب (المدينة المنورة) من الاوس والخزرج الى دين الله ، ورحبوا بهجرة النبي ﷺ واصحابه اليهم ، ووعده بالنصر والدفاع ، فهاجروا فريق بعد فريق ورجال ونساء مكررين الصورة المشرقة بالتضحية بالمال والوطن والاقارب والمصالح في سبيل دين الله معبرين بذلك عن شدة تمسكهم به ، واستغراقهم فيه كما فعل رفاقهم من قبل ، مما عبرت عنه آية

(١) الآية كذلك مدنية وبعد الهجرة . وتعبر (اخرجوا) يعني : انهم التجؤا على الخروج نتيجة للأذى والضغط .

سورة الحشر هذه تعبيراً قوياً .

(لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصَرُّونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ .) الحشر : ٨

وقد أشارت الآية التالية لهذه الآية الى ايمان زعماء الاوس والخزرج وأقاربهم قبل الهجرة وترحيبهم بالمهاجرين من مكة بهذه العبارة التوثيقية القوية :

(وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .) الحشر : ٩

ولقد احس زعماء الكفار من قريش بالخطر بعد ذلك ، فتأمروا على النبي ﷺ على ما تفيد آية سورة الانفال هذه :

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (١) ٣٠

فأذن الله حينئذ لرسوله بالهجرة بدوره مما اشارت اليه آية التوبة هذه :

(إِلَّا تَنْصَرُوا فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .) ٤٠

وفي سورة الممتحنة آيات أخرى تشير الى اضطراب النبي ﷺ واصحابه الى الهجرة نتيجة لأذى الكفار وهي هذه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ

(١) تأمروا على النبي صلى الله عليه وسلم فمنهم من أشار بحجسه ، ومنهم من أشار

بنفيه ، ومنهم من أشار بقتله ، والروايات تذكر أن الاتفاق قد تم على قتله ، فأخبره الله

بذلك وأذن له بالهجرة .

كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوْدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا
أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَتَّقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً
وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ . (المتحنة ١ - ٢)

وقد تعذر على بعضهم الهجرة مع النبي والمؤمنين إلى المدينة فظلموا تحت الضغط
والأذى ، ومنهم من اضطر الى كتم إسلامه على ما تفيد هذه الآيات

١ - (وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا . النساء ٧٥ .

٢ - (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ
فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ
وَسَاءَتْ مَصِيرًا . إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا
يَهْتَدُونَ سَبِيلًا . فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا . وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١) . النساء
٩٧ ٩٩

٣ - (هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ
وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ
عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) .
الفتح ٢٥ ٢٦

(١) الآيات تفرق بين من يستطيع الهجرة ولو مجازفة ، وبين من لا يستطيع ، فتلوم الاولين وتغشم ، وتعذر الآخرين .

(٢) في الآية اشارة الى اناس مؤمنين رجال ونساء في مكة يكتُمون اسلامهم ، وهم على الارجح الذين لم يستطيعوا الهجرة

وعذرهم الله .

وفي سورة الممتحنة إشارة إلى صورة مشرقة قوية أخرى حيث تفيد ان بعض المؤمنات اللاتي تعذر عليهن الهجرة ، وكن زوجات للكفار ، اغتنمن فرصة سانحة ، فتركن أزواجهن ووطنهن ومصالحهن وهاجرن إلى المدينة ملتحقات بالنبي ﷺ وأصحابه ضاربات بذلك المثل الرائع الذي ضربه الرجال ، وقد جاء ذلك في الآية التالية (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ) . الممتحنة ١٠. (١)

وفي كتب السيرة ما يفيد أن من المؤمنين الذين تعذر عليهم الهجرة إلى المدينة من كان محبوساً مقيداً بالاغلال منعاً له من الهجرة (٢) .
والرعييل الاول من الانصار (اهل المدينة من العرب) قد آمنوا قبل هجرة النبي ﷺ إليهم على ما تفيد آية سورة الحشر هذه :

(وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

حتى لقد روت كتب السيرة أنه لم يكن بيت في المدينة لم يدخله الاسلام قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة (٣) .

(١) كان ذلك بعد صلح الحديبية الذي كان من شروطه ان يرد النبي من يأتي اليه من مكة ولو كان مسلماً ، فجاء أزواج النساء المؤمنات الفارات أو أهلهم يطلبون الوفاء بالشرط ، فأمر الله بعدم إعادتهن ، لأنهن اصبحن محرمات على أزواجهن الكفار ، وأمر بالتعويض على هؤلاء الأزواج حلاً للأمر . أنظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٧٥ وبعدها . مطبعة حجازي بالقاهرة .
(٢) نظر سيرة ابن هشام ج ص ٣٥٥ وبعدها .
(٣) ابن هشام ج ص ٣٨ وبعدها مطبعة حجازي .

وكل هذا يؤيد ان إيمان الذين آمنوا في مكة ، ثم في المدينة قبل هجرة النبي إليها كان بحافز الرغبة في الايمان بأنفسهم لما رأوه من اعلام صدق نبوة النبي ﷺ ، ومبادئ الدعوة السامية التي دعا بها .

ولقد كان من هؤلاء أهل كتاب وعلم وجدل وحجاج ، ومنهم من ثبتت عبقرية عقولهم وحكمتهم وحنكتهم القيادية ، وثاقب بصائرهم ، وقوة شخصياتهم وقدرتهم على استيعاب الامور والنفوذ إليها ، ولا يمكن أن يكونوا قد خدعوا أو توهموا ، ولا بد من ان يكونوا قد تيقنوا بما لا يتحمل أي ريب من صدق تلك الاعلام فضلا عما كان من قوة مبادئ الدعوة وأهدافها الاصلاحية والانسانية والاجتماعية والسلوكية والروحية . وعدد هؤلاء كبير ، فيكون أمر صدق صلة النبي ﷺ بالله ووحيه يقيناً ثابتاً بالمشاهدة العيانية ، وإنكار ذلك بعدهم هو إنكار تعسفي لحادث مشهور مشهود متيقن منه ، شاهده وتيقن به ، واخبر به جمهور كبير من مختلف الفئات ، وفيهم العلماء والنبهاء والاذكياء والخبراء ، ومنهم ما لا يصح أن يفرض أنه كان مخدوعاً أو متوهماً ، ويكون ذلك الانكار متهافتاً وجزافاً من دون ريب .

وتبدو قوة الشهادات والمشاهد العيانية عظيمة إذا ما لوحظ أنها وردت أيضاً في القرآن الكريم الذي هو يقطع النظر عن قدسيته عند المسلمين وثيقة مسلم بها من كل الناس بأن ما فيها من احداث واخبار ومشاهد وشهادات قد دون تأخر ، ودون أن يشاب بشائبة من خيال ومبالغة وتناقض وروايات متعددة أو متأخرة مما هو فريد بالنسبة لما هو من بابه من أخبار الانبياء السابقين .

وإذا نحن قلنا : إن أي ظن بأن إسلام الرعيل الاول من المكين أو المدنيين الذين ساهم القرآن (السابقون الاولون من المهاجرين والانصار) كان بالضغط أو التهويش أو الخداع غير وارد البتة ، فان هذا لا يعني أن ذلك وارد بالنسبة للذين آمنوا من بعدهم في العهد المدني وبعد هجرة النبي ﷺ الى المدينة ، فالدعوة استمرت وفق توجيه القرآن

الذي تمثله آية سورة النحل هذه :

(أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . ١٢٥ .

ومن لم يؤمن كان يترك وشأنه إلى أن يرعوي فيؤمن أو يموت كافراً حسابه عند الله ما دام مسالماً لا يد يده للإسلام والمسلمين بأذى ، اتباعاً لتوجيه القرآن كذلك في آيات كثيرة مكية ومدنية معاً منها هذه الآيات

١ - (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . لقرة ٢٥٦ مدنية .

٢ - (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . آل عمران ١٩ و ٢٠ مدنية .

٣ - (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . آل عمران ٦٤ مدنية .

٤ - (إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً . لساء ٩٠ مدنية .

٥ - (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ . لأعراف ١٥٨ مكية . .

٦ - (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . لتوبة ١٢٨ و ١٢٩ مدنية .

٧ - (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُضِّكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ . ونس ١٠٨ و ١٠٩ مكية .

٨ - (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا . وَذَاعِبًا إِلَى اللَّهِ بِأَذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا . وَلَا تَطْعَمْ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا . لاحزاب ٤٥ - ٤٨ مدنية .

٩ - (إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ .) الزمر ٤١ مكية .

١٠ - (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ . فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدَ .) ق ٤٥ مكية .

١١ - قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (١) .) سورة الكافرون : مكية .

ويلفت النظر إلى التساوق والانسجام البارزين في التوجيه القرآني بقطع النظر عن اختلاف العهد ، وتبدل مركز القوة إلى جانب النبي ﷺ والمسلمين في العهد المدني ، بل إن القرآن قد حث في هذا العهد - والنبي ، والمسلمون في مركز القوة - على البر بمن يسالم المسلمين من الكفار والاقساط إليهم كما جاء في آية في سورة الممتحنة التي نزلت بين يدي

بلوغ النبي والمسلمين شأواً كبيراً في القوة ، جعلهم يتحفزون إلى الزحف على مكة ذلك الزحف الذي أدى إلى فتحها وهي هذه

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ .) الممتحنة : ٨ .

وكل ذلك يبلغ الذروة والجلال واليقين بأن الدعوة هي إلى الحق والصالح وخير الانسانية وسعادتها ، وقد كانت تسير في نطاق الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وترك الناس بعد ذلك لعقولهم وتمييزهم واختيارهم ، وكل دعوى خلاف ذلك هي داحضة باطلة .

ولقد ظل ينضوي إلى الاسلام بعد الرعيل الاول من الانصار من مختلف فئات الناس من مشركين ووثنيين وكتابين وعرب وغير عرب طوائف بعد طوائف استجابة للدعوة التي ظلت تسير في هذا النطاق مما يمثله جملة (والذين اتبعوهم بأحسان) في آية سورة التوبة هذه

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ .) التوبة : ١٠٠ .

وآية سورة الحشر هذه :

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .) الحشر : ١٠ .

التي جاءت بعد ذكر الرعيل الاول من المهاجرين والأنصار في الآيتين (٨ و ٩) حتى عم سائر أنحاء الجزيرة مما مثله سورة النصر هذه التي نزلت في أواخر حياة النبي ﷺ :

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا .)

وأخذ يتسرب إلى خارج الجزيرة ، ويدخل فيه أناس من المشركين والكتابين في بلاد الشام والعراق والحبشة على ما ذكرته روايات السيرة الوثيقة ، وقد يكون بعض طوائف دخلت في الدين الاسلامي رغبة وطمعاً أو تقية ، وأن لا يكون الايمان قد تمكن من قلوبها ، وهذا مما تؤيده نصوص قرآنية عديدة كما ترى فيما يلي :

١ - (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ . يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ .) البقرة : ٨ و ٩ .

٢ - (وَيُخْلِفُونَ بِاللّٰهِ مِنْهُمْ لِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنْهُم مِّنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَّفْرُقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَّوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ .) التوبة : ٥٦ و ٥٧ .

٣ - (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسَّيْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَّنَ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا) الفتح : ١١ و ١٢ .

٤ - (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِتَأْكُذِبُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَّنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَاثِرُوا بِأَعْيُنِهِمْ إِقْلِيلًا .) الفتح : ١٥ .

٥ - (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .) الحجرات : ١٤ .

وقد كان الله ورسوله يقبلون منهم هذا الموقف لأنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام ، ويخلفون أنهم من المسلمين كما جاء في آيات سورتي البقرة والتوبة التي أوردناها قبل

قليل ، ولأنهم كانوا يصلون ، ويؤتون الزكاة ولو بكسل ورياء على ما ذكرته آيات أخرى كما ترى فيما يلي :

١ - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا .) النساء : ١٤٢ .

٢ - (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ .) التوبة : ٥٤ .

وذلك على احتمال توبتهم ، وكان القرآن بحثهم دائماً على ذلك كما ترى في هذه الآيات :

١ - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ صَوِيحًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا .) النساء : ١٤٥ و ١٤٦ .

٢ - (يَخْلَفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .) التوبة : ٧٤

ولقد سجل القرآن صورة متطورة للأعراب ، فقد جاء في سورة التوبة فصل عنهم انتهى بهذه الآيات :

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .) التوبة : ٩٧ - ٩٨ .

ثم جاء بعد ذلك هذه الآية :

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيَدْخِلُهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ .
التوبة ٩٩ .

ولقد تطير اليهود في المدينة حينما هاجر النبي ﷺ إليها لأنهم رأوا في هجرته خطراً على ماكان لهم من مصالح ومراكز ، فأخذ معظمهم موقف المناوئ المتآمر . ولقد كان عبد الله بن أبي زعيم عشيرة قوية من الخزرج مرشحاً للملك على قومه قبل هجرة النبي ﷺ الى المدينة ، فحالت هذه الهجرة دون مطمحه فحقد ونافق (١) . وتعصب له بعض أفراد عشيرته ، فقامت حركة النفاق في المدينة ، وسارع اليهود الى التحالف معهم والوسوسة لهم ، وتحريضهم فكانت المواقف المتنوعة التي ذكرها القرآن ، وندد بأصحابها واندركهم (٢) . فلما أجلي النبي ﷺ اليهود عن المدينة ، أخذت هذه الحركة تضؤل ، وثاب كثير من المنافقين الى رشدهم ، وتابوا الى الله ، ولم يستمر على نفاقه إلا أفراد قليلون ماتوا أو مات جلهم في حياة النبي ﷺ . ولم تروأية رواية أن النبي طاردهم أو أمر بقتل أي منهم ، والمتبادر أنه لم يعتبرهم أعداء خطرين على الاسلام والمسلمين ، فوسع الصدر لهم ، ولاسيما أنهم كما قلنا : كانوا يظهرون الاسلام ، ويقىمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة .

وما كان من أمر قرآني بالقتال ، أو عمل نبوي حربي وتأديبي وتنكيلي ضد المجاحدين إنما كان بسبب أنهم لم يبقوا في نطاق الجحود والمحاكة الكلامية والجدلية ، بل تجاوزوا هذا النطاق الى الأذى والعدوان ، ومصادرة حرية الدعوة ، وتهديد سلامة المسلمين ، والاعتداء

(١) انظر سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٣٣٤ - ٣٣٥

(٢) اقرأ إذا شئت آيات سورة البقرة ٨ - ١٦ ، وآل عمران ١٥٦ و ١٦٦ و ١٦٧ ، والنساء ٦٠ - ٩١ و ١٣٧ - ١٤٦ ، والمائدة ٥٢ و ٥٣ ، والانفال ١٩ ، والتوبة ٤٢ - ١١٠ و ١٢٤ - ١٢٨ ، والنور ٤٨ - ٥٤ ، والاحزاب ١ - ٢٠ و ٥٧ - ٦٣ ، ومحمد ٢٠ - ٣٠ ، والمجادلة ٨ - ٩ و ١٤ - ٢٢ والحشر ١١ - ١٥ ، والمنافقون ١ - ٨ .

عليهم بالقتال مع عدم العدوان ، وعدم تجاوز الحد في التأديب والمقابلة بالمثل ، ودفع الأذى والخطر مما احتوت تقريره آيات قرآنية عديدة منها هذه الآيات :

١ - (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ . فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينَ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ . الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَانْقُتِلُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . وَانْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ .) البقرة : ١٩٠ - ١٩٥ .

٢ - (سَتَجِدُونَ أَخْرَيْنَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَارَدُوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا .) النساء : ٩١ .

٣ - (قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ . وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعِمَّ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ .) الأنفال : ٣٨ - ٤٠ .

٤ - (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبُيُوعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ

اللَّهُ لَقَوِيَّ عَزِيزٌ (١٠) . الحج : ٤٠ و ٤١ .

ولقد لقي مسلمون بعض الناس ، فألقى هؤلاء السلام ، أو أظهروا أنهم مسلمون أو مسلمون ، فلم يصدقهم المسلمون ، وقتلوهم وغنموا ما معهم اجتهدا أنهم من الكفار الاعداء ، فغضب رسول الله ﷺ ، فقالوا له : إنهم كانوا كاذبين مخادعين ، فقال لهم : هلا شققتم عن قلوبهم . وانزل الله هذه الآية الرائعة :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) . النساء : ٩٤ .

ولقد كان يقبل من الاعراب أن يقولوا : أسلمنا ولو لم يدخل الايمان في قلوبهم أملا بأن ذلك سيكون بالقدوة والممارسة على ما تتضمنته آية سورة الحجرات هذه :

(قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . ١٤ .

وفي سورة الانفال آيات تأمر النبي بالجنوح للسلم إذا جنح اليها العدو حتى ولو كان قد نقض العهد قبل أو كان متوقعا منه الخداع وهي :

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فِيمَا تَشَقَّقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدُ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ . وَلَا يُجَسِّسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ . وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ .

(١١) هذه الآيات أول ما نزل بالاذن للمسلمين بقتال أعدائهم الكفار الذين كانوا يعتدون عليهم باللسان واليد والقتال .

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزُ حَكِيمٌ (٥٥ - ٦٣ .

والوقائع الحربية التي جرت في زمن النبي ﷺ سواء التي قادها بنفسه أم عهد بقيادة المسلمين فيها الى قواد عينهم كانت في نطاق هذه التوجيهات . وما يقال ويروى ويفسر خلاف ذلك لا يثبت على تحييص .

ولو كان في الملحين حسن نية ورغبة في الازعان للحق وضمير حي ، لتأثروا بدون ريب بما احتوته الآيات التي أوردناها في جميع النبد السابقة النافذة الى الأعماق الباعثة لأقوى اليقين في النفس الصافية بأنها لا يمكن أن يكون النبي ﷺ فيها كاذباً ومفترياً ومتوهاً ومتخيلاً ، ولا بد من أن يكون قد تم اتصال بينه وبين مبدع الكون الحكيم ، وتلقى وحياً منه بتبليغ رسالته الى خلقه ليخرجهم من الظلمات الى النور ، ويهديهم الى صراط مستقيم ، وبأن آلاف الآلاف من الناس الذين رأوا النبي ﷺ ، وسمعوا منه مواجهة ، وآمنوا به ، وكان منهم كثيرون من أهل الكتاب ، ومن الراسخين في العلم ، ومن ذوي العقول الراجحة والنباهة والذكاء والاطلاع والشخصيات القوية ، ومنهم وافدون عليه من خارج الجزيرة لاستطلاع أمره والسماع منه ، إنما آمنوا تأثراً بذلك وتيقناً منه ، وفي ذلك شهادات عيانية لا يماري فيها إلا مكابر عنيد متعسف ولن ينقض هذا أن يكون طوائف أو أفراد من الذين اسلموا من بدو قد اسلموا رغبة وطمعاً أو تقية ونفاقاً على ما شرحناه آنفاً ، فان إيمان الرعيل الاول والذين اتبعوهم باحسان ، والذين هم متصفون بالصفات التي ذكرناها يظل شهادة عيانية لا يمكن أن تدحض .

وليس ما تقدم هو كل حجتنا عليهم ، ففيما يأتي المزيد المقنع لمن يريد أن يقنع ويدعن للحق .

الفصل الثالث

النظرة الاعتبارية الجرافية
والعواصم منها
والطريقة المثلى لفهم القرآن

- ١ -

يقع الملاحظون فيما يقعون فيه من سوء فهم وتأويل وتمحل ، ويجرؤون على ما يجروون عليه من تخرص وتنطع في صدد محتويات القرآن بسبب كونهم ينظرون فيه نظرة اعتبارية وجرافية ، ويتعسفون في فهمه تعسفاً متناقضاً مع اللغة والتاريخ والوقائع والحقائق والمنطق العام . وكثيراً ما يأخذون آية بل جملة من آية ، أو فصلاً من سورة فيما حكوا ، ويتمحلون فيه دون أن ينتبهوا ، أو يهتموا ، أو يستوعبوا لما في بقية الآية أو سياقها السابق أو اللاحق ، أو السور الأخرى من تنمات واستدراكات وتوضيحات في حين أن الواجب والمنطق والحق والعلم معاً يقضي بأن يؤخذ القرآن ككل متكامل ، يفسر بعضه بعضاً ، ويوضح بعضه بعضاً ، ويتم بعضه بعضاً بحيث يقال يحزم : إنه لا يوجد آية فيها وهم تعارض وتباين وإشكال إلا وفي سياقها أو في آية أخرى ما يزيل ذلك الوهم ، ويظهر وجه الحق والحكمة والصواب مما هو من معجزات القرآن العظيمة الخالدة .

وكثيراً ما يتجاهلون أو يجهلون ، أو لا ينتبهون الى الصلة الوثيقة بين القرآن والبيئة التي نزل فيه ، وبين القرآن والسيرة النبوية ، فينظرون في آياته وفصوله نظرة منعزلة عن ذلك وغير متسقة مع ظروف نزولها وبواعثها وأسبابها وجوها ، وكثيراً ما يكونون جاهلين للغة التي نزل بها القرآن ، وأساليبها الخطابية ، فيتعسفون في تأويل لغة القرآن ، وكثيراً ما يتمسكون بجوانب متشابهة من القرآن ، ويهملون ما فيه من محكمات حاسمة فيها تفسير

لهذه الجوانب . وفي كتاب «نقد الفكر الديني» لصديق جلال العظم نماذج كثيرة من هذه المسائل مما سوف نعرض له بعد .

ومن المؤسف أن كثيرا من المسلمين ، بل ومن علمائهم وباحثيهم ومفسريهم قديما وحديثا وقعوا في كل ذلك بقطع النظر عن حس نية هؤلاء وسوء نية أولئك ، فكانوا مع ذلك فيما يقولون ويكتبون ويؤلفون تكأة للملحدين أيضا فيما يقولون ويكتبون ويؤلفون ويتخرصون ويتحجبون ، وقد استند العظم على كثير من ذلك فيما ساقه وتحجج به .

ولو تروى الناظرون في القرآن من الفريقين ، لأمكنهم أن يصححوا كثيرا من الأخطاء التي يقعون فيها ، ويفهموا القرآن على وجهه الحق . وفيما يلي شرح وتوضيح .

ولقد اطلنا الشرح في مباحث هذا الفصل حتى صار أطول فصول الكتاب ، لأن هذه المباحث مهمة جدا في فهم القرآن ، واستيعاب محتواه وأهدافه بصورة عامة للمسلمين وغيرهم ، ولأن صادق العظم وهو يمثل الملحدين قد تصدى في كتابه «نقد الفكر الديني» لكثير من محتويات القرآن التي تدخل في نطاق هذه المباحث ، فصار من المفيد والواجب التصدي والرد عليه ، ووضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله . ولا سيما أننا نرى في ذلك الطريقة المثلى لفهم القرآن .

القرآن وسيرة النبوية

إن التروى في القرآن يظهر أنه من اعتبار ما سلسلة تامة للسيرة النبوية وتطورها منذ

بدئها الى نهايتها ، متصل بعضها ببعض ، ومفسر بعضها لبعض (١) ففي كل سورة من سوره ومجموعة من مجموعاته ، أو فصل من فصوله صورة لموقف من مواقف النبي ﷺ من أهل بيئته من العرب وغير العرب ، ومن المشركين والوثنيين والكتابين ، أو صورة لموقف من مواقفهم منه ومن دعوته ، أو صورة من صور مواقف النبي ﷺ من الذين استجابوا للدعوة ، أو من مواقفهم منه ، أو من مواقف الكفار منهم ، أو مواقفهم من الكفار ، أو صورة لتطورات جميع هذه المواقف دعوة وتبiana وبرهنة وتدليلا وعظة وتنبيه وتبشيرا وإنذارا ووصفا وتشبيها ، وقصصا وأمثالا ، وترغيبا وترهيبا ووعدا ووعيدا ، وجدالا وحجاجا ، وتحديا وعنادا ، ومكابرة وأستكبارا وأذى وتديدا ، وتنويعا وتسليية وتشبيها وتطمينا وتصيرا وسؤالا وجوابا وجهادا وتشريعا وتسجيلا لواقع وقت النزول إلخ الخ ، وكل صورة معطوفة على صورة سابقة ، أو مرتبطة بصورة لاحقة في اتساق وانسجام تأمين ، وضمن نطاق واحد مما يتضح لكل من ينعم النظر في القرآن ، ويقرأ سوره خاصة وفق تتابع النزول المعروف أو المخمن بقدر الامكان . وملاحظة ذلك مهمة جدا في فهم مواضع القرآن وتقريراته ومداه وروحه ، وفي جعل الناظر فيه لا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث ، ولا يأخذ ما يقرأ منعزلا عن ملابساته ، وهذه الملاحظة تعصم من التورط في التخمينات والتزيدات والمجذليات وتحميل العبارات القرآنية مالا تتحملة .

ففي القرآن مثلا ما يفيد أنه جرى تبديل بعض الآيات ببعض ، وأن بعض آيات أو أمور مأمورة نسخت بغيرها ، وأن ذلك أثار إشكالا بين المسلمين ، وأن الكفار من أهل

(١) نقول من قبيل الاستدراك : إننا لا نعني أن القرآن قد احتوى جميع صور السيرة النبوية ، أو ما احتواه منها قد جاء قصداً لها بالذات ، فهناك من دون ريب أحداث وصور كثيرة من السيرة النبوية لم ترد في القرآن ، كما أن ما جاء منها فيه إنما جاء في الحقيقة عرضا وبسبيل الدعوة أو الموعظة أو التذكير أو التشريع أو الامر والنهي ، أو التوضيح أو الاجابة على سؤال ومشكل مما افتضته الحكمة ليكون مصدر إلهام وإيحاء وتوجيه ومرجع تشريع وتلقين في جميع العصور ، وليس محصورا بأهل عصر النبي ﷺ وبيئته كما يفيدده الاسلوب الذي جاءت به والذي صار بذلك فريدا معجزا ومرشحا له وللشريعة القرآنية والرسالة الاسلامية للخلود والابدية .

الكتاب والمشركون استغلوا ذلك فانبروا للتشويش ، كما يستفاد من الآيات التالية :

١ - (مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعُ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .) البقرة : ١٠٥ - ١١٠ .

٢ - (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ مُبِينٌ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ .) النحل : ٩٨ - ١٠٥ .

وفي القرآن مثلاً ما يفيد أن أحكاماً وأوامر وتشريعات ، عدلت أو نسخت ، أو تطورت كما تدل عليه الآيات التالية :

١ - (وَاللَّاتِ يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ

شَهِدُوا فَاَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُم فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ ثَوَابًا رَحِيمًا .
النساء : ١٥ و ١٦ .

٢ - (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُم عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُم مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ .
الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُم وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُم مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ
وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُم أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .) الانفال : ٦٥ و ٦٦ .

٣ - (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١) .
النور : ٢ .

٤ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ .) المجادلة : ١٢ و ١٣ .

وفي القرآن مثلاً تنوع في الخطاب للناس عامة مسلمين وغير مسلمين ، سواء أكان ذلك في صدد الدعوة أم في صدد المواقف أم في صدد التبشير والانداز والتمثيل والتشريع والهداية والضلال والكفر والايان والاحسان والاساءة حيث يكون الخطاب شديداً ميثساً حيناً ، وليناً مؤملاً حيناً ، وجانحاً حيناً إلى تقرير كون الهداية والضلال والكفر والايان والاحسان والاساءة من مكتسبات المرء ، وتقرير التبعية عليه فيها حسنة أم سيئة نتيجة

(١) في الآتة تعديل لبعض أحكام آيتي سورة النساء ١٥ و ١٦ المذكورتين في الرقم - ١ -

لذلك ، وجانحنا حيننا الى تقرير كون ذلك من تقديرات الله ومشئته المطلقة التي لا ينفع فيها أنذار ولا تبشير مما هو مبثوث في مختلف السور والفصول في القرآن ، ومستغن عن التمثيل هنا .

وفيه مثلا تقريرات شديدة وميثة بالنسبة للكفار والمنافقين ، كما جاء مثلا في الآيات التالية :

١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .) البقرة : ٦ و ٧ .

٢ - (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَّ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .) التوبة : ٦٧ و ٦٨ .

٣ - (إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ . وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .) يس : ٨ - ١٠ .

٤ - ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ أَتْلَهُمُ اللَّهُ أُنَّى يُؤْفَكُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ . سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .) المنافقون : ٣ - ٦ .

وقد تضمنت هذه الآيات تقريراً جازماً بمصير رهيب محتوم لهؤلاء بعدم الايمان باستحقاق الخلود في النار مع أن آيات عديدة اخرى فتحت للكفار والمنافقين على اختلاف فئاتهم

باب التوبة ، وآيات أخرى سجلت إيمان بعضهم ، واثنت عليهم . وهذه آيات فتح فيها لهم باب التوبة :

١ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .) البقرة : ١٦٠

٢ - (كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .) آل عمران : ٨٦ - ٨٩ .

٣ - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا .) النساء : ١٤٥ - ١٤٧ .

٤ - (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .) المائدة : ٣٣ - ٣٤ .

٥ - (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا إِلَيْكَ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .) التوبة : ٧٤ .

٦ - (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ

وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . (الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

وهذه آيات سجل فيها انضمام طوائف منهم الى المؤمنين بعد كفرهم أو نفاقهم وارتدادهم مع التائب والتوبة :

١ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ (١) . الانفال : ٧٥ .

٢ - (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ (٢) . التوبة : ١٠٠ .

٣ - (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) . التوبة : ١١ .

٤ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤) . النحل : ١١٠ .

٥ - (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (٥) . الحشر : ١٠ .

(١) كان التوارث قد منع بين المؤمنين وأقربائهم الكفار . وجعل بين المتأخين من الانصار والمهاجرين ، فلما آمن الأقرباء عدل ذلك ، وعاد التوارث الى حالته الطبيعية وهي أولوا الارحام بعضهم أولى ببعض .

(٢) جملة الذين اتبعوهم باحسان تعني كما هو المتبادر : الذين آمنوا بعد وحسن إسلامهم .

(٣) هذه الآية في صدد أشخاص ارتدوا من الاسلام تحت ضغط الكفار وإغرائهم ثم فروا فعادوا الى الاسلام ثانية .

(٤) من الامور البقينية أن من هؤلاء من تاب وآمن ودخل الاخوة الاسلامية .

وهناك أمثلة كثيرة أخرى من هذا الباب لا تفوت المدقق في الآيات القرآنية ، فاكثفينا بما تقدم لأن فيه الدلالة التي نريد أن ننبه عليها .

ولقد كانت هذه المسائل وما تزال مثار جدل وحيرة حول ما إذا كان يصح على الله المحيط بما كان ويكون ، والازلي العلم والارادة البداء أي الرجوع عما انزله وقرره وأمر به وشاءه وأراده ، ونسخه ، وتعديله وتبديله ، وتنويع مفهومات الاحتمالات والنصوص فيه . في حين أن ملاحظة الوحي القرآني الوثيقة بالسيرة النبوية ، وأحداثها على تنوع وتطور صفحاتها وظروفها تجعل الناظر في القرآن يندمج في الوقائع والمقتضيات ، ويجد أن كثيرا من الآيات والفصول القرآنية إنما كانت تنزل حسب حوادث السيرة وظروف الدعوة ، وتسجيلا للواقع عند النزول ، وأنه لما كانت هذه الحوادث متحركة متكررة متجددة متطورة ، فإن ذلك يجعله يرى الحكمة واضحة في التعديل والتكرار والتبديل ، والنسخ والتنويع والشدة واللين في الخطاب ، ويجعله يرى أن الجدل في ذلك النطاق لا محل له ولا طائل من ورائه ، لأن التطور والتنوع في الأحداث والظروف والأذهان والمواقف متسقان مع طبائع الامور والحياة ونواميسها التي فطر الله الكون عليها ، فلا بدع أن تقتضي حكمته أن يكون ذلك في التنزيل القرآني اتساقا مع هذه الطبائع والنواميس .

والمدقق في الآيات القرآنية التي تفيد ذلك يجد القرآن يورد القرارات المقتضية حسب الاحداث والظروف وتنوعها وتطورها على أسلوب الحكيم ، فلا يدخل في نقاش جدلي إلا بمقدار الضرورة المتناسبة مع الموقف الواقعي المتحرك ، فيعلمنا بذلك الطريقة المثلى لفهم القرآن وروحه ومداه ، وظروف تنزيله وتنوعه وأسلوبه ، وكون المهم فيه هو الاصلاح والتوجيه الى خير الوجهات لظروف قائمة وأذهان وفئات ومواقف متفاوتة ، ومتنوعة ومتطورة .

ثانياً : القرآن والبيئة النبوية

إن المدقق في القرآن يجد الصلة وثيقة بين ما كانت عليه بيئة النبي ﷺ وعصره من تقاليد وعادات وعقائد وأفكار ومعارف ، وبين محتويات القرآن (١) . وهذه الصلة واضحة :
أولاً - من جهة أن الدعوة الإسلامية والوحي القرآني بوجه عام إنما اقتضتها حكمة الله بسبب ما كان عليه الناس - وأهل بيئة النبي ﷺ في مقدمتهم وهم المخاطبون الاولون - قبل البعثة من ضلال في فهم وإدراك وجوب وجود الله وكمال صفاته وتنزهه عن الشريك والولد ، واستغنائه عن الولي والمساعد ، ومطلق تصرفه في كونه ، واستحقاقه وحده للعبودية والخضوع والاتجاه ، ووجوب نبذ ما سواه . ومن انحراف عن طريق الحق والخير والعدل والفضيلة . ومن اختلاف عظيم في المذاهب والعقائد والطقوس ، سواء في ذلك كله العرب وغيرهم ، والكتايبون والمشركون ثم بسبب أن ذلك ناشئ عما كان من تقاليد وأفكار ومعارف وأهواء وتأويلات ومفاهيم عند الناس وفي بيئة النبي ﷺ في المقدمة ، اقتضت حكمة الله نسخها أو تعديلها .

وثانياً - مما احتواه القرآن من فصول الجدل والتنديد والتفريع في صدد هذه التقاليد والعادات والأفكار والمعارف والاهواء والتأويلات والمفاهيم ، فيها إشارات كثيرة إلى كثير من صورها المتنوعة ، وفيها ربط بينها وبين مواقف أهل بيئة النبي ﷺ من الدعوة النبوية . يضاف الى هذا المظهر القرآني العام نصوص قرآنية خاصة في هذا المعنى ، وردت في مواضع عديدة وبأساليب متنوعة إذا تعمق القارئ فيها ظهرت له هذه الصلة ظهوراً

(١) الاستدراك الذي أوردناه في صدد صلة القرآن بالسيرة النبوية وارد بنامه في صدد الصلة بين القرآن والبيئة النبوية ، فنكتفي بهذا التنبيه دون التكرار .

جليا (١) . ونزيد بالايضاح بالأمثلة التالية :

١ - في القرآن الكريم آيات كثيرة جدا في مختلف أحوال الملائكة . وهذه الآيات مما يدخل في عداد المتشابهات من حيث أن بعضها يتحمل وجوها عدة من التأويل ومن حيث أن تأويل بعضها لا يعلمه الا الله تعالى ومن حيث أن الواجب المنطوي في آيات آل عمران (٧ - ٩) يقضي بالوقوف منها عند ما وقف القرآن عنده وقرره بدون تزيد والقول آمنا به كل من عند ربنا مع استشفاف حكمة وردودها على ما سوف يأتي شرح أوفى له في النبذة الرابعة من هذا الفصل . وبسبيل ذلك نقول إن المفهوم مما تردده الآيات الكثيرة من واقع عقائدي وديني في صدد الملائكة هو أن أهل بيته النبي ﷺ كانوا يعتقدون بوجود الملائكة وأنهم بنات الله ويسمونهم تسمية الأئمة وأنهم ذوو حظوة لدى الله ينفذون أوامره و يؤيدون أنبياءه . وكان المشركون تأسيسا على ذلك يتحدثون النبي الذي كان يقول إن الملائكة ينزلون عليه بالوحي الرباني باظهارهم جهاراً عياناً لتأييده : وكانوا الى اعتقادهم بأن الله خالقهم ورازقهم ورب السموات والأرض وما بينهما على ما تلهمه آيات قرآنية عديدة (١) يعبدون الملائكة أيضا وبتعبير أدق يشركونهم في العبادة مع الله تعالى بقصد الشفاعة والحظوة والقربى اليه وضمان مطالبهم منه على ما تلهمه آيات عديدة قرآنية أيضا (٢) . ويتفرع من هذا ما في القرآن من نفي متكرر لاتخاذ الله ولدا في معرض الرد على

(١) الآيات كثيرة . فرأينا ان نكتفي بذكر أرقام المهم منها وسورها للرجوع اليها في المصحف عند قراءة هذه النبذة . سورة البقرة ٨١- ٨٥، ١٠٧، ١١٦، ١٢٥، ١٢٩، ١٥٨، ١٥٩، ١٩٧، ٢٠٣، ٢١٩، ٢٤٧، ٢٧٥، ٢٨٣ . سورة آل عمران ٥٩ - ٦٠، ٧٧، ٧٨، ٩٣، ٩٧، سورة النساء ٢ - ١٢، ١٩، ٣٤، ١٥٢، ١٦١، سورة المائدة ١ - ١٢، ١٩، ٧٢، ٨٠، ٩٠ - ٩٧، ١٠١ - ١٠٤، سورة الانعام ٥١ - ٥٣، ١١٩ - ١٢١، ١٣٦ - ١٤٤، سورة الانفال ٣٤، ٣٥، سورة التوبة ١٦ - ١٩، ٣٥، ٣٧، ٨٩، ٩٧، سورة النحل ٥٣ - ٦٤، سورة الانبياء ٢٧ - ٣٩، سورة الشعراء ٢١٠ - ٢٢٣، سورة لقمان ٢١ .

(٢) انظر آيات سورة يونس ٣١ - ٣٥ وآيات سورة المؤمنون ٨٤ - ٩١ وآية سورة الزخرف ٩، ٨٧ مثلا

على المشركين والتنديد بهم . والقصد من ذلك عقيدتهم بكون الملائكة بنات ربهم عز وجل وكلمة (ولد) تطلق على البنت والصبي .

فهذا كله يمكن أن يفهم ويفسر بيسر حكمة احتواء القرآن الكريم من الآيات الكثيرة جدا في الملائكة . ولقد احتوى كثير منها - وهذه من تلك الحكمة أو مقاصدها - تقارير بكون الملائكة عبيدا لله وكونهم لا يستكبرون عن عبادته ويخافونه ويفعلون ما يأمرهم به ولا يعصون له أمرا ولا يجراؤون على دعوى الألوهية وكونهم هم أنفسهم يبتغون إليه الوسيلة والتقرب بالطاعة والخضوع والعبادة والتسبيح والتقديس له حتى أنه يأمرهم بالسجود لآدم فيسجدون له أمثالا لأمره . وبكونهم لا يشفعون إلا لمن أذن به ورضى عنه على ما هو مثبت في آيات كثيرة . وفي ذلك الحجة القرآنية البالغة التي هي من مقاصد تلك الحكمة بأن الله تعالى هو الاوحد المستحق للعبادة والتقرب والوسيلة إليه بالطاعة وصالح العمل والتقديس والتسبيح وان من السخف والضلال اشراك عبيده وخدمه ومنفذي أوامره ، وطالبي الحظوة لديه معه لأنهم لا يملكون ذلك لأنفسهم ومن باب أولى لا يملكونه لغيرهم على ما تحكيه آيات كثيرة .

ولقد كانت فكرة الاستشفاع بالملائكة والتقرب بهم الى ربهم تعالى لضمان قضاء مصالحهم ومطالبهم ورغباتهم ودفع الأذى وجلب النفع راسخة في أهل بيته النبي ﷺ فانعكس ذلك في آيات كثيرة فيها نفي لنفع الشفاعة بدون رضا الله وأذنه . ولقد حكى آيات كثيرة في سياق حكايتها لمشاهد الآخرة تتصل الملائكة من ذلك واعلانهم أن الله وحده وليهم تقوية لتلك الحجة .

ولقد كان المشركون يحاجون النبي ﷺ في اشراكهم الملائكة في العبادة ويقولون إن الله لو لم يشأ ذلك لما فعلوه على ما ذكرته بعض الآيات (١) فاوحى الله بآيات فيها رد مفحم عليهم .

(١) انظر مثلا آيات سورة الانعام ١٤٧ - ١٥٠ والزخرف ٢٠ - ٢٥

وكل ما تقدم يعكس صلة البيئة النبوية بالتنزيل القرآني وبساعد على فهم القرآن الكريم . ولقد كان كل هذا ورسوخه في أهل بيئة النبي ﷺ من أسباب استمرارهم في الشرك واستمرار المعركة القرآنية ضد الشرك والمشركين وبقاء معظم أهل مكة ومن ورائهم معظم العرب مشركين طيلة العهد المكي وشطرا كبيرا من العهد المدني . ويعكس هذا كذلك صلة البيئة النبوية بالتنزيل القرآني ويساعد على فهم القرآن الكريم أيضا .

(٢) وشأن الجن مثل شأن الملائكة في امر خفائها مع شيء من الاختلاف بسبب طبيعة الملائكة من حيث ان هؤلاء خلق خير وأولئك خلق شر .

وفي القرآن آيات كثيرة في مختلف احوال الجن . وهي مثل آيات الملائكة تدخل في عداد المتشابهات من حيث ان بعضها يتحمل وجوها عديدة للتأويل وان تأويل بعضها لا يعلمه الا الله . ومن حيث أن الواجب المنطوي في آيات سورة آل عمران يقضي بالوقوف عندما وقف القرآن منها بدون تزييد ثم استشفاف حكمة ورودها . وبسبيل ذلك نقول إن المفهوم بما تورده آيات كثيرة من واقع عقائدي وديني هو أن أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يعتقدون بوجود الجن وانهم خلق قوي مخيف يستطيع ان يتسلط عليهم وبؤذهم ويخطفهم و يختلط في اجسادهم فيسبب لهم الصرعة والتخبط من مسه . وأنه يوسوس لهم بسيئات الاعمال والاخلاق ويزينها لهم . وان اهل بيئة النبي ﷺ بسبب ذلك كانوا يخافون هذا الخلق الشرير ويعوذون به ويعبدونه اتقاء لشره وأذاه . والآيات كثيرة مبثوثة في كثير من السور المكية والمدنية مع التنبيه على ان كثرتها مكية . وهذا المفهوم يساعد على فهم وتفسير حكمة احتواء القرآن الكريم للآيات الكثيرة في الجن .

ولقد احتوى كثير منها - وهذا من مظاهر ومدى تلك الحكمة - تقارير بكون الجن لا يعلمون الغيب ولا يستطيعون الأذى والوسوسة والتأثير إلا على من يستسلم لهم ويشذ عن طريق الله الحق . ويكون منهم طوائف يؤمنون بالله ورسله وكتبه ويتقون الله . ويكون غير

هؤلاء ملعونين مطرودين من رحمته ومعرضون لنقمته وغضبه وعذابه في الآخرة . ويكون من واجب المؤمن الصادق ان يستعين بالله ويلجأ اليه حينما يتعرض لنزعاتهم ووساوسهم فيكون في ذلك نجاته منهم . وفي ذلك الحجة القرآنية البالغة التي هي ايضا من مظاهر ومدى تلك الحكمة بأن الله وحده هو المستحق الاوحد للعبادة والتقرب والتوسل بالطاعة وصالح العمل وبأن من السخف والضلال اتباع الجن وعبادتهم والاعتقاد بأنهم قادرون على النفع والاذى بغير اذن الله تعالى .

ويتفرع عن هذا ابليس والشياطين . وكلمة ابليس هي من ابليس بمعنى يئس اي اليأس من رحمة الله . وكلمة شيطان ايضا هي كلمة ذم من شاط او اشتط بمعنى بغى واعتدى . والكلمة بمعنى شديد البغي والعتو والعدوان . والكلمتان مستعملتان من قبل نزول القرآن وصيغتهما فصحي لأن القرآن نزل بلغة العرب . ولا بد من انهم كانوا يعرفون معناها المذكور وكانوا يطلقون كلمة الشيطان على الباغي العاتي من الأنس . أيضا وجاء هذا في بعض آيات القرآن .

ولقد ذكر القرآن ان ابليس والشياطين من الجن وفيه آيات كثيرة تذكر وساوس ابليس والشياطين للمشركين والكفار وتأثر هؤلاء بهم والوقوع في شراكمهم ووساوسهم كأمر راهنة من أحوال أهل بيته النبي ﷺ .

ولقد احتوى القرآن آيات كثيرة بالتنديد ، بالمشركين بسبب ذلك وبيان ضلالهم كما احتوى آيات كثيرة تقرر ان ابليس والشياطين انما يؤثرون في وساوسهم وتزييناتهم على المنحرفين والفاسقين والظالمين والمجرمين والمُسرفين . وانهم ليس لهم سلطان على عباد الله المخلصين .

وهكذا تبدو الصلة ظاهرة ايضا بين التنزيل القرآني واحوال بيته النبي ﷺ . ويساعد ذلك على فهم وتفسير القرآن وادراك ما في آياته من حكمة وعبرة . وفي القرآن حكاية مشهد اخروى يتصل فيه الشيطان من متبعيه (انظر آية سورة ابراهيم (١٧) وهذا من مظاهر

وبوادر تلك الحكمة .

(٣) في القرآن الكريم آيات كثيرة تفيد وتردد ما كان للزعامة والثروة - وكثيراً ما كانت الائتتان تجتمعان معاً - من قوة وتأثير في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم . وتفيد بأن الزعماء والأثرياء والمترفين هم الذين قادوا معركة المناوأة للنبي ورسالته وأثروا على الجمهور ومنعوه من الانضمام الى الاسلام في العهد المكي حتى ليكاد معظم القرآن المكي وما فيه من حجاج وحملات وقصص وامثال وحوار ومواقف وانذار ووعيد وتنديد يكون في صدد معركة النبوة مع الزعامة مما هو متصل بحالة بيئة النبي ﷺ ويعكس صلة التنزيل القرآني بها ويساعد على تفسير القرآن وفهمه ايضا . وفي القرآن المكي بخاصة آيات عديدة فيها مشاهد اخروية وحكاية ما سوف يدور من حوار بين الزعماء (المستكبرون) وبين العامة (الضعفاء والمستضعفون) ومنها تنديد وتوجيه مسؤوليات وندامة وحسرة . (١)

ولقد وصف القرآن قوم النبي بشدة الجدل والخصومة . والمقصود هم الزعماء والنبهاء الذين كانوا يقودون المناوأة . ولقد حكى القرآن كثيرا من اقوالهم ومواقفهم . ولقد انكشفت عبقرية ومواهب كثير منهم عقليا وسياسياً وحريراً بحيث يقال ان موقف الزعماء والنبهاء لم يكن عن غباء وجهالة وحسب بل كان من استعظام الزعماء واستكبارهم عن الانضمام الى محمد ﷺ الذي لم يكن زعيماً ولا ثرياً واختصاصه دونهم وهم اصحاب النفوذ والقوة والوجاهة والمال والتأثير على ما جاء في آيات عديدة . (٢) ولقد كانوا يتعجبون من خلاف الكتّابين فيما بينهم ويحلفون بان لو جاءهم كتاب عربي ورسول عربي لصاروا اهدى منهم . (٣) فكان اختصاص محمد ﷺ الذي ليس زعيماً وثرياً بالنبوة والرسالة هو الذي

(١) النصوص كثيرة وفي ايرادها تطويل فليقرأها القارئ في المصحف وخاصة آيات سورة البقرة (١٦٥ - ١٦٧) وابراهيم

(٢١) والأحزاب ٦٧ و٦٨ وسبا (٣٠ - ٣٦)

(٢) انظر مثلاً آية سورة ص (٥ - ٨) والزخرف (٢١ - ٢٢)

(٣) انظر آيات الأنعام (١٥٦ و١٥٧) وفاطر (٤٢ و٤٣)

جعلهم يقفون موقف المناوأة والاستكبار مما يعكس ايضا صلة حالة بيئة النبي بالتنزيل القرآني ويساعد على فهمه وتفسيره .

ولقد كان ما احتواه القرآن من دعوة الى المساواة والاخوة بين جميع المنضويين للاسلام بدون فرق بين عظيم وصعلوك وغني وفقير وحرّ وعبد مما يثير الزعماء ويجعلهم ايضا يستكبرون ويناثون ويطلبون من النبي ابعاد الفقراء والضعفاء حتى يجلسوا اليه . فلما ثبته الله ولم يستجب اليهم اشتدوا في المناوأة وهذا ايضا يعكس صلة البيئة بالتنزيل القرآني ويساعد على فهمه وتفسيره .

ولقد كان كذلك ما احتواه القرآن من دعوة الى البر بالفقراء والمساكين وانفاق المال على امور الخير وبسبيل الله والتنديد بكنزه والتفاخر به وانذار المتكاثرين المتفاخرين بالباخين مما هو مثبت في سور كثيرة مما اثار ايضا الزعماء والاثرياء وكان سببا من شدة مناوأتهم . مما يعكس كذلك صلة التنزيل القرآني بالبيئة ويساعد على فهم القرآن وتفسيره .

٤ - إن آيات القرآن الواردة في شعائر الحج ، تفيد صراحة حينا وضمنا وحينا آخر ، انها كلها أو جلها قد كانت ممارسة قبل البعثة ، فأقرت في الاسلام بعد تنقيتها من شوائب الشرك والوثنية والقبيح (١) ، وكان العرب ينسبونها الى ابراهيم عليه السلام ، وقد ايد القرآن ذلك ، وكان ذلك التجريد إعادة للأمر الى نصابه الذي لا بد من أنه هو الذي كان عليه في عهد هذا النبي المؤمن الموحد المخلص ، مع أن فيها ما قد لا يفهم حكمة إقراره الآن مثل الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار (٢) . واستلام الحجر الاسود ، فهذه الآيات متصلة يتقاليد الحج العربية قبل الاسلام ورسوخها وأهدافها ، وفيها مظهر ما لوحدة العرب على اختلاف منازلهم ونحلهم حيث كانوا يشتركون جميعهم في الحج ومواسمه

(١) انظر آيات الانعام (٥٢ - ٥٤) والكهف (٢٨ - ٢٩) وعيسى (١ - ١٠)

(٢) مثل الطواف في حالة العري .

(٣) رمي الجمار كناية عن الحصوات التي يقذفها الحاج على انصاب في منى بعد نزولهم من عرفة في أيام العيد .

وتقاليده وحرماته ، وأشهره الحرم . وحكمة إقرارها في الاسلام منطوية في ذلك الرسوخ من جهة وما كان له من فائدة وأثر في الوحدة المذكورة التي كان القرآن يدعو إليها من جهة أخرى . ولعل قصد تأنيس العرب بالدعوة الاسلامية مما ينطوي في تلك الحكمة أيضا ، وفي سورة القصص آية مهمة في هذا الباب وهي :

(وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا .)

حيث تفيد أنهم حسبوا أن تكون دعوة النبي ﷺ قد هددت إلى الغاء تقاليد الحج .

وكان من مقتضى هذه التقاليد حرمة مكة ومنطقتها وتوافد العرب عليها من كل صوب ، وإقامة المواسم حولها ، فكان خوفهم من أسباب امتناعهم عن الاستجابة للدعوة مع أنهم لمحو أن فيها هدى وحقا . وهكذا تبدو الصلة وثيقة بين ما جاء في القرآن من ذلك ، وما كان عند أهل بيعة النبي ﷺ من هذه التقاليد الراسخة .

٥ - في القرآن آيات كثيرة فيها قصص وأخبار ومواقف عديدة عن ابراهيم عليه السلام ، ليست واردة في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم الذي هو المصدر القديم الوحيد الذي وصل الى عهدنا ، والذي فيه تفصيل لسيرة هذا النبي وذريته ، ومن تلك القصص والأخبار والمواقف دعوته لقومه ومحاججته معهم ، وتكسيه الاصنام ، ومحاولتهم إحراقه بالنار ، ودعاؤه بأن يجنبه الله وبنيه الأصنام ومحاججته مع أبيه ومع ملكه ، وإسكانه بعض ذريته في منطقة الحرم المكي ، وإنشاؤه مع اسماعيل ابنه الكعبة ، وكونه أول من دعا الى الحج إليها ، وكون العرب أو بعضهم ينتسبون إليه ، ودعاؤه مع اسماعيل بأن يرسل اليهم منهم رسولا يهديهم . وجميع ذلك الذي لم يذكر في المصدر الوحيد القديم الذي ذكرت فيه سيرة هذا النبي مما كان يتداوله أهل بيعة النبي ﷺ أيضا قبل البعثة ، وهكذا تبدو الصلة وثيقة فيما انفرد القرآن بذكره من ذلك ، وبين ما كان معروفا متداولاً في هذه البيعة ، ومن الحكم الملموحة في ذلك تنبيه العرب الى ما كان من عقيدة ابراهيم التوحيدية الخالصة ، ورغبته ودعائه في أن يكونوا على ذلك ، ووجوب استجابتهم للدعوة النبوية التي

هي ملة أبيهم ابراهيم ، ونبذ ما شابهها من شوائب (١) .

٦ - ليس في القرآن المكي حملات عنيفة على اليهود الذين كان يسكن منهم في الحجاز جاليات كثيرة من أصل إسرائيلي ، واكتفى فيه بذكر قصص موسى وفرعون وبني إسرائيل الأولى مستهدفاً بذلك ما استهدفه بذكر قصص الأنبياء الأخرى من عبرة وعظة ، وقد جاءت هذه القصص بإسهاب أوفى مما جاءت قصص الانبياء والأُمم الأخرى مما يمكن أن يكون سببه أو الحكمة فيه وجود تلك الجاليات الكثيرة ، وصلته الوثقى بالبيئة الحجازية العربية ، في حين أن القرآن المدني احتوى حملات شديدة لاذعة على اليهود ، ووصفاً لسوء اخلاقهم ودسائسهم ومكايدهم مع وصل حاضر هذه الاخلاق بأخلاق آبائهم الأولين . فهذا متصل بدون ريب بحالة قائمة في البيئة النبوية وظروفها ، إذ لم يكن لليهود في مكة كيان ومركز قوي راسخ في حين كان لهم ذلك في المدينة ، فلم يقع بينهم وبين النبي في مكة احتكاك وصدام وتشاد بل وكان منهم نحوه موقف إيجابي في حين إن ذلك قد وقع بينهم وبينه في المدينة بسبب ما كان لهم فيها من كيان قوي ، وقدم راسخة ، ومصالح حيوية ، ومركز ممتاز ، لأنهم رأوا في هجرة النبي ﷺ الى المدينة وبروزه ، وانتشار دعوته ، وتعلق الناس به خطراً على ذلك ، فظهر أثر ذلك في الأسلوب المدني دون الأسلوب المكي (٢) ويعكس هذا صلة التنزيل القرآني بالبيئة ويساعد على فهم القرآن وتفسيره .

٧ - ولقد كان صنع الخمر والانتفاع به تجارياً وممارسة شربه راسخاً في بيئة النبي

(١) إقرأ آيات البقرة ١٢٣ - ١٣٢ و ٢٥٨ و ٢٦٠ وآل عمران ٩٥ - ٩٧ والأنعام ٧٤ - ٩٠ والنوبة ١١٣ و ١١٤ وإبراهيم ٣٥ - ٤١ ومريم ٤٤ - ٥٠ والأنبياء ٥١ - ٧٣ والحج ٢٦ - ٣٧ والشعراء ٦٩ - ١٠٣ والصفات ٨٣ - ٩٨ .

(٢) قارن بين ما جاء في القرآن المكي وأسلوبه في سور الاعراف ١٠٣ - ١٠٦ ويونس ٧٥ - ٩٥ والاسراء ٤ - ٨ وطه ٩ - ٩٩ والمؤمنون ٤٥ - ٤٨ والشعراء ١٠ - ٦٦ والقصص ٣ - ٤٣ والصفات ١١١ - ١٢١ وغافر ٢٢ - ٤٦ وبين الأسلوب المدني في صدد بني إسرائيل واليهود في سورة البقرة ٤٠ - ١٢٤ و ١٤٢ - ١٥١ وآل عمران ٦٥ - ١٢٠ و ١٨٠ - ١٨٨ والنساء ٤٤ - ٥٦ و ١٥٠ - ١٦١ والمائدة ١٢ و ١٣ و ٢٠ - ٣٣ و ٤١ - ٨٢ .

ﷺ ، فانعكس ذلك على ما جاء في القرآن من تدرج في النهي عنه وتحريمه (١)

٨ - ومثل هذا يقال في الميسر والربا أيضا ، ولقد نبه القرآن بناء على ذلك واللّه أعلم ، أولا على عدم رضى الله عن الربا ، وعلى إثم الميسر ، ثم نهى عن أكل الربا اضعافا مضاعفة ، ثم شدد النهي والتحريم في النهاية بالنسبة لكليهما (٢) .
وهذا وذاك يعكسان صلة التنزيل القرآني بالبيئة ويساعدان على فهم القرآن وتفسيره أيضا .

٩ - وفي القرآن فصول عديدة في الأنعام وأنواعها وأكلها وتقاليدها ومحرماتها ، ولقد كانت الأنعام تشغل حيزا كبيرا في بيئة النبي ﷺ ، وكان أهل هذه البيئة يصدرون في تقاليدهم فيها عن زعم كونها تقاليد دينية ، فكان من حكمة التنزيل ذكر ذلك في مناسبات عديدة ووضع الأمر فيه في نصابه الحق (٣) .

١٠ - ولقد كان الرق والانتفاع به تجارياً وجنسياً راسخاً في بيئة النبي ﷺ ، فانعكس ذلك فيما جاء عنه في القرآن حيث اقتضت حكمة التنزيل تنظيمه تنظيماً عادلاً مع الحث على تحريره والرفق به ، ومع أساس تشريعي لالغاء استرقاق أسرى الحرب ، وهذا هو المورد الأعم الأغلب للرق (٤) .

١١ - والمشاهد الأخروية في القرآن الكريم مما يعكس صلة التنزيل القرآني بأحوال

(١) اقرأ آيات البقرة ٢١٨ والنساء ٤٢ والمائدة ٩٠ .

(٢) اقرأ آيات سورة الروم ٣٩ والبقرة ٢١٩ و ٢٧٥ - ٢٨١ وآل عمران ١٣٠ و ١٣١ والمائدة ٩٠ و ٩١ وآيات البقرة ٢٧٥ - ٢٨١ في الربا نزلت بعد آيات آل عمران فيه فهذه الآيات نعت عن أكله اضعافا مضاعفة وآيات البقرة نعت عنه كليا وبكل شدة .

(٣) اقرأ آيات المائدة ١ - ٣ و ١٠٣ و ١٠٤ والأنعام ١١٨ - ١٢١ و ١٣٦ - ١٥٠ .

(٤) اقرأ آيات البقرة ١٧٧ والنساء ١٥ و ٣٦ و ٩٢ والمائدة ٨٩ والتوبة ٦٠ والمؤمنون ٧ والنور ٣١ و ٣٣ و ٥٨ والمجادلة ٣ والانسان ٨ والبلد ١١ - ١٣ أما التشريع الذي انطوى على أساس الغاء استرقاق أسرى الحرب فينطوي في آية سورة محمد الرابعة ، مع التنبيه على أن السنة النبوية أفرت لولي الأمر أن يسترق الأسرى إذا كان في ذلك مصلحة عامة .

البيئة النبوية وبعبارة أخرى ان مشاهد الحساب والثواب والعقاب الآخروية جاءت في القرآن مشابهة لمألفات الناس في الدنيا ومألفات أهل بيئة النبي ﷺ الذين خطبوا بالقرآن لأول مرة من جنات تجري من تحتها الأنهار التي تشبه جنات عدن المشهورة في بلاد اليمن والمساكن الطيبة فيها والنخل والرمان والفواكه ومجالس الشراب الأنيفة التي يدور فيها الولدان على الجالسين بالاباريق والكؤوس ومزج الشراب بالزنجيل والكافور والمسك وصحاف الذهب والفضة وقوارير الفضة وحلى الذهب والفضة واللؤلؤ والثياب الحريرية التي من نوع ما هو مشهور جميل من سندس واستيرق والفرش والزرابي والتارق والسرر ولحوم الطيور وأنهار اللبن الطيب والخمر اللذيذ والعسل والسدر المخضود والطلح المنضود والهور العين الابكار كأنهن الياقوت والمرجان والجنات المشابهة لجنات عدن والفردوس المشهورة الخ الخ وريح السموم وظل اليعقوم والماء الحميم وشواطئ النحاس ومقامع الحديد والأغلال والزقوم والغسلين والضريع ومجالس القضاء والشهود وكتبة الاعمال الخ .

وفي القرآن آيات تذكر ان الله يبشر بما سوف يكون ويخوف مما سوف يكون في الآخرة من ذلك (١) بالاضافة الى ما فيه من تقرير حاسم بحقيقة اليوم الآخر وحتميته ووجوب الايمان به والناس انما يتأثرون خوفا واستبشارا بما يعرفونه ويمارسونه من أسباب الخوف والاستبشار وبواعثهما . فاقترضت حكمة الله أن تكون المشاهد الآخروية من مألفات الناس ومألفات بيئة النبي ﷺ بخاصة التي تنزل القرآن فيها من جهة وأن نذكر في القرآن على سبيل الترغيب والترهيب من جهة وكل هذا يعكس كما قلنا صلة التنزيل باحوال البيئة النبوية ويساعد على فهم القرآن وتفسيره واشتقاق حكمته .

ومما يلفت النظر انه ليس في المشاهد الآخروية القرآنية مجالس غناء وطرب كمجالس

(١) أنظر مثلاً آية سورة الزمر ١٦ وآيات سورة الشورى ٢٢ و ٢٣ .

الشراب . وأنه ليس في الروايات التي تروي عن احوال بيئة النبي ﷺ ما يفيد أن ذلك مما كان مترقياً ومما كان التعلق به والاهتمام له شديدين كالشراب ومجالسه وادواته . وفي هذا دليل يؤيد ما ذكرناه . والله اعلم .

١٢ - ومما يتصل بالتنزيل القرآني والبيئة النبوية قصص القرآن الكريم . والمدقق فيها يرى انها اقتضرت او كادت تقتصر على القصص العربية التي كانت احداثها في جزيرة العرب والقصص الواردة في اسفار العهد القديم والعهد الجديد التي تدور على قصص خلق الكون وآدم وخروجه من الجنة وطوفان نوح ونسله ونسل ابراهيم وقصص بني اسرائيل وبعض قصص مسيحية اخرى كانت وقعت في بعض انحاء الشام . في حين انه كان زمن النبي ﷺ امم وبلاد كثيرة لها نشاط وحياة وحضارة وعلوم وفنون . وحكمة ذلك فيما يتبادر لنا وتفسيره هما ان معرفة أهل بيئة النبي ﷺ الذين خطبوا بالقرآن لأول مرة كانت قاصرة او كالقاصرة على ما كان من روايات وأخبار أنبياء العرب وابراهيم واسماعيل ومن كتب كانت متداولة في أيدي الكتابيين من يهود ونصارى الذين كان منهم جاليات في بعض انحاء جزيرة العرب والحجاز والذين كانوا يملأون البلاد المجاورة التي كان تجار جزيرة العرب والحجاز يسافرون اليها للتجارة وغير التجارة من حيث ان تأثر السامعين للقرآن لأول مرة بالقصص واخبارهم واتعاضهم بها - وهذا وذلك هو المقصود الجوهري من قصص القرآن - انما يتحقق اذا كانت هذه القصص مما يعرفها ويسمعها اهل بيئة النبي جزئياً او كلياً . ولا يخرج عن هذا ذكر الروم وهزيمتهم والوعد بتغلبهم بعدها ولا ذكر ذي القرنين ويأجوج ومأجوج .

فالحرب كانت تجري بين الروم والفرس في بلاد الشام والعراق وهي مجاورة للجزيرة وتصل اخبارها بسرعة الى أهل البيئة النبوية . بل كان بعض معاركها في العهد الملكي النبوي . وهي التي أشير إليها في سورة الروم . وكان المسلمون يفرحون بانتصار الروم لانهم أهل كتاب مثلهم وكانت الجالية الكتابية في مكة قد أنضوت الى الاسلام وكان

المشركون يفرحون بانتصار الفرس وانكسار الروم نكاية بالمسلمين حتى لقد جرى رهان بين أبي بكر رضي الله عنه واحد زعماء المشركين على ان النصر سوف يكون للروم كما بشرت آيات سورة الروم الأولى . وذو القرنين . هو على /أصح/ التفسير فيما خطر لنا هو ملك الفرس كورش وكان أهل جزيرة العرب ومنهم أهل بيعة النبي ﷺ على صلة وثيقة بالفرس ويأجوج ومأجوج مما ذكر في بعض أستار العهد القديم التي كانت على الأرجح متداولة بين ايدي الكتابيين في جزيرة العرب والحجاز .

وكل ما نقدم يعكس صلة التنزيل القرآني بالبيئة النبوية ويساعد على فهمه وتفسيره واستشفاف حكمته .

وليس ما أوردناه هو كل ماتظهر الصلة بينه وبين ما احتواه القرآن ، فهناك كثير يمكن أن يورد أيضا فاكثفينا بما تقدم .

وملاحظة هذه الصلة مهمة جداً كسابقتهما في فهم مواضيع القرآن وتقريراته وروحه ومداه وفي جعل الناظر فيه يندمج في الوقائع ومقتضياتها ، ولا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث ، وفي عصمته من التورط في الجدل والتزيد ، وتحميل العبارات القرآنية مالا تتحمله ، وما لاطائل من ورائه ، وأخذها مجردة عن ملاساتها ، مع التذكير بأن ما نبهنا عليه في صدد ما احتواه القرآن من صور للسيرة النبوية ينسحب على ما احتواه من صور ما جاء فيه مما له صلة بالبيئة النبوية من حيث إنه قد جاء بأسلوب يجعله مصدر إلهام وإيحاء وتوجيه ومرجع تشريع وتلقين في جميع العصور ، وليس محصوراً بأهل عصر النبي ﷺ وبيئته .

- ٤ -

ثالثاً :

اللغة القرآنية

مما يجب ملاحظته على الناظر في القرآن أن مفردات اللغة القرآنية واصطلاحاتها

واساليبها وأمثالها وتشبيهاتها واستعاراتها ومجازاتها هي لغة البيئة النبوية ، وأنها مألوفة ومفهومة ألفة وفهلاً تامين من اهلها .

وليس الذي نعنيه بهذا تقرير قضية قد تكون بديهية في بعض الأذهان ، ولكن الذي نعنيه وجوب ملاحظة ذلك حين النظر في القرآن ، لأنه يساعد على فهم اصطلاحات لغة القرآن واساليبه وامثاله وتعبيراته واستعاراته ومجازاته وجدلياته ، ومعاني مترداته من جهة ، ثم ملاحظة كون القرآن من جهة اخرى قد وجه أول ما وجه إلى أناس ألفوا لغته كل الألفة ، وفهموها كل الفهم ، ووصلوا في عقولهم ومعارفهم وبياناتهم ودقة تعابيرهم ، وبلاغة اساليبهم ، وفصاحة السنتهم والاستمتاع بمتنوع اشكال الحياة المادية والمعاشية ، والنفوذ الى المفاهيم الاخلاقية والاجتماعية والدينية والعلمية والادبية إلى درجة غير يسيرة من الرقي متناسبة مع ما عبرت عنه لغة القرآن وقرره ، وأشارت إليه وتضمنته مما هو نتيجة لازمة لكون القرآن إنما نزل بلسانهم ، ولكون لغة القوم هي أصدق مظهر لحياتهم المادية والعقلية والاجتماعية والدينية ، ثم اننا نعني بذلك بالاضافة الى هذا أن ينتفي من ذهن الناظر في القرآن :

اولا : المعنى الذي حلا لبعضهم أن ينوه به وهو انطواء بعض حروف القرآن وكلماته بل وبعض جملة وتعابيرهم وصور سبكهم ونظمه على أسرار والغاز ومعنيات .
وثانيا : المعنى الذي قرره بعضهم من علو طبقة القرآن عن أفهام سامعيه إطلاقاً دون استثناء .

وثالثا : المعنى الذي قرره بعضهم من أن لغة القرآن قد احتوت او قصد أن تحتوي جميع لهجات ولغات العرب القديمة والحديثة - عند نزوله - مع لغات الأمم الأخرى .

ورابعا : الحجة التي حلا لبعضهم أن يسوقها وهي أن الله كما ارسل موسى عليه السلام في ظرف ارتقى فيه السحر وشاع ، بمعجزات تشبه السحر وليست سحرا ، وكما ارسل عيسى عليه السلام في ظرف ارتقى فيه الطب وشاع ، بمعجزات يعجز عنها الطب والأطباء ،

فقد أرسل محمداً ﷺ بالقرآن في ظرف كانت سوق الفصاحة والبلاغة رائجة ، ووصلنا إلى أعلى الذرى نظماً ونثراً ، فقصر عنه البلغاء والفصحاء ، فكان في ذلك معجزته (١) من حيث إن جميع ذلك لا يصح في حال . فمن ناحية علو طبقة لغة القرآن عن أفهام الناس إطلاقاً أو انطواء حروفه وكلهاته على اسرار ومعنيات ، فإن في القرآن نصوصاً حاسمة تنفي ذلك حيث تنص على انه انزل بلسان مبين ، أي : واضح مفهوم ، وان آياته فصلت تفصيلاً ، وانه انزل ليتدبره السامعون ويعقلوه ويفهموه ويتذكروا به ، ويحلوا به ما يختلفون فيه . وانه أنزل لقوم يعلمون وبلغه النبي ﷺ التي هي لغة قومه كما في الامثلة التالية :

- ١ - (كِتَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ .) هود : ١ .
- ٢ - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .) يوسف : ٢ .
- ٣ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .) إبراهيم : ٤ .
- ٤ - (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ .) الحجر : ١ .
- ٥ - (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .) النحل : ٦٤ .
- ٦ - (فَإِنَّمَا يَسِرَّتْهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا .) مريم : ٩٧ .
- ٧ - (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٥ .
- ٨ - (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ .) يس : ٦٩ و ٧٠ .
- ٩ - (كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ .) ص : ٢٩ .
- ١٠ - (كِتَابُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .) فصلت : ٣ .

(١) في كتاب الاتقان للسيوطي مثلاً أقوال كثيرة من كل هذه الابواب .

١١ - (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .) الزخرف : ٣ .

١٢ - (فَالْتَمَّا يَسِرَّنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .) الدخان : ٥٨ .

وفي سورتي النساء ومحمد آيتان مهمتان في هذا الباب وهما :

١ - (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .)

النساء : ٨٢ .

٢ - (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا .) محمد : ٢٤ .

حيث تنطويان على تقرير كون تدبر القرآن سهلا على من أراد ، وليس من مانع يمنعه

إلا المكابرة والعناد .

وفي سورة الزمر هذه الآيات :

(وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرِ

ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .) ٢٧ و ٢٨ .

حيث تنطوي على تقرير كون أمثال القرآن مضروبة لجميع الناس ليتدبروا ويتذكروا ،

وكون القرآن سلس اللغة لا غموض فيه ولا تعقيد . وهناك آيات عديدة من باب آيات

سورة الزمر هذه ، وفي مداها منها هذه الآيات :

١ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا)

الاسراء : ٨٩

٢ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا .) الفرقان : ٥٠ .

٣ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ .) الروم : ٥٨

وهذه الآيات وآيات كثيرة أخرى تفيد بقوة وحسم ان القرآن كان موجهاً إلى كل طبقة

من اهل بيثة النبي ﷺ . يحكي كلامهم وأسئلتهم ، ويرد عليها مجيباً أو مندداً أو مكذباً أو

ملزماً ، أو واعظاً أو مشرعاً . وفي هذا ما يتنافى كذلك مع تلك المعاني . ومن ناحية

أخرى فان ذلك لا يمكن أن يتسق مع مهمة النبي ﷺ التي هي بالدرجة الاولى تلاوة القرآن على جميع الناس ، ودعوتهم به إلى الله ، وقد جاء في القرآن فيما جاء :
(وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ) . الأنعام : ١٩ .

ولا مع هدف القرآن الذي أنزل ليكون هدى ورحمة للناس جميعهم ، والذي امرهم فيه باتباع ما جاء فيه من أحكام ، وفهم ما فيه من عبر ومواعظ ، وأمثال وبتدبر آياته ، وبالتروي في محتوياته ، والذي نبههم فيه إلى أنه مرجعهم في مختلف شؤونهم ، ومنه يستمدون تشريعهم ، وأخلاقهم ونذرهم وبشائرهم وحل مشاكلهم وخلافاتهم .. الخ .

ومن ناحية احتواء القرآن لمختلف اللهجات ولغات الأمم عربها وعجمها وقديمها وحديثها على المقصد الذي قصده القائلون - وهو أن النبي محمداً ﷺ رسول إلى جميع العرب وإلى جميع الأمم ، وأن القرآن يقول : إن الله لم يرسل رسولا إلا بلسان قومه ، فصار من الضروري أن يكون في القرآن لغة كل العرب وكل الأمم الأخرى ، فإنه لا يتسق مع نصوص القرآن المطلقة والمتعددة بأنه أنزل بلسان عربي ، وجعل لساناً عربياً ، وأنزل بلسان النبي ﷺ بحيث يقال بكل حزم : إن كل كلمة فيه هي عربية كانت مستعملة مفهومة من سامعيه قبل نزوله ، وإن كان حقاً فيه كلمات أعجمية الأصل ومن ذلك أسماء معظم الأنبياء الذين هم ليسوا من العرب الصريحين ، والذين وردت أسماؤهم معربة بصيغ عربية ، ومن ذلك جبريل وميكال ومالك وهاروت وماروت وطالوت وجالوت الخ .. ومن ذلك سندس واستبرق ودينار وقنطار ودرهم وفردوس وسجيل وغيرها فإنها قد عربت ، واستعملت من قبل العرب قبل نزوله ، فغدت جزءاً من اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن ، وما يمكن أن يكون من كلمات تنسب الى قبائل عربية غير قريش فإن ذلك يكون عائداً إلى وقت ماض ، ثم صارت جزءاً من اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن .

ولقد أمر الله رسوله بأن يتلو القرآن على الناس كما جاء في آيات كثيرة منها هذه

١ - (وَأَوْحِيْ إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرْكُمْ بِهِ .) الأنعام : ١٩

٢ - (أَتْلُ مَا أُوحِيََ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ .) الكهف : ٢٧ .

٣ - (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ .) النمل : ٩١ - ٩٢ .

٤ - (أَتْلُ مَا أُوحِيََ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ .) العنكبوت : ٤٥ .

٥ - (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ .) العنكبوت : ٥١ .

ومن الأمور اليقينية أن الذين كان النبي ﷺ يتلو عليهم القرآن ، كانوا من مختلف الفئات والطبقات والجهات ، وكان منهم من يأتي من أنحاء بعيدة من جنوب الجزيرة وشرقها وشمالها بل ومن خارجها من العرب الذين كانوا يقيمون في بلاد الشام والعراق ، ولا ينبغي أن يشك شاك في أنهم كانوا يفهمون ما يتلى عليهم . ولقد احتوى القرآن نصوصاً كثيرة تقرر المرة بعد المرة ما هو عليه من وضوح وبيان وإحكام وتفصيل ويسر فهم وسهولة إدراك في معرض التنديد بالمكابرين والمجادلين . وهذا إنما هو ملزم مفهم ، لان اللغة التي يسمعونها واضحة بيّنة مما ألفوه كل الألفة ، وليس فيها غموض ولا تعقيد ولا إشكال ، ولا علو عن الأفهام ، لان ناحية النظم والسبك والمفردات ولا من ناحية المعنى والمفهوم والدلالة . ولقد تكرر في القرآن المكي والمدني الإشارة الى أهل الكتاب وأهل العلم ، وفي بعض الآيات ما يفهم أن من هؤلاء من جاء خصيصاً ليجتمع بالنبي ويسمع منه ، وكان منهم من تفيض عيونهم بالدمع ، ويخرون سجداً من تأثير ما يسمعون منه ويعلنون إيمانهم وتصديقهم على ما سجله القرآن ، وأوردنا تسجيلاته في نبذة سابقة مما يلهم أنهم كانوا يسمعون كلاماً يفهمونه مع أنهم جاؤوا من نجران اليمن أو بلاد الحبشة أو بلاد الشام على ما روته الروايات ، كما أن اليهود الاسرائيليين والنصارى غير الحجازيين ، والذين يمتون أو

يتم أكثرهم إلى أصول غير صريحة العروبة كانوا يفهمون ما يتلى عليهم منه .

على أن كل هذا ملموح في القرآن إلى اليوم من كل أمرىء متوسط الثقافة فضلاً عن رفيعها ، وإذا كان يبدو فيه لبعض الناس شيء من الغموض أو الغرابة في المفردات أو التعبيرات ، وإذا كان بدا فيه شيء من ذلك في القرون التي تلت القرون الثلاثة الأولى ، فإن هذا كله إنما كان يسبب بعد الناس عن جو نزول القرآن وزمنه ، وجو لغته ، وجو البيئة التي نزل فيها من جهة ، وما طرأ على اللسان العربي من الفساد من جهة ، وما كان من اندماج كثير من غير العرب في العروبة ولغتها وتعلمها تعليماً لا يمكن أن يقوم مقام السليقة الأصلية في بنيتها الأصليين من جهة .

وفي كل ما تقدم دحض لما جاء في النقطة الرابعة من حجة أو بالاحرى (نكته) لا تثبت على تمحيص لا في مقدمتها ولا في نتيجتها .

ومن هذه البيانات والشروح تتجلى فائدة ملاحظة كون اللغة القرآنية هي لغة أهل بيئة النبي ﷺ ، وفي نفس الوقت هي لغة سائر جميع العرب والمستعربين الذين كان كثير منهم يلتقى بالنبي ﷺ ، ويسمعون القرآن منه ، وأنها لم يكن فيها بالنسبة إليهم جميعاً غموض ولا تعقيد ، وأنهم كانوا يفهمونها ، فإن ملاحظة ذلك تجعل الناظر في القرآن يندمج في جو ذلك ، فتتجلى له المعاني والأساليب الخطابية على وجهها ، وحقيقة مداها ، ويعتصم بذلك من الانحراف إلى معان ومفاهيم وتزيادات وتكلفات وتخمينات ومعميات لا تتحملها نصوص القرآن وأسانيبه ودلالاته وظروف وجو نزوله ، ومهمة من أنزل إليه .

ونريد أن نستدرك أمراً ، فأننا لسنا نعني بما نقرره أننا نشك في إعجاز القرآن ، وعلو طبقة اللغوية والنظمية كما أن كلامنا لا يفيد ذلك ، فإعجاز القرآن لا يحتمل شكاً ، فهو مقرر في القرآن ، وثابت فعلاً بعجز أي كان عن الاتيان بمثله أو بشيء من مثله رغم تكرار التحدي . وقد شرحنا ذلك في مناسبة سابقة ، وعلو طبقة بارز بروزاً لم يترك العلماء الثقات في التنبيه عليه محلاً للزيادة ، غير أن الذي نغنيه أن إعجاز القرآن ، وعلو طبقة ،

وروعة أسلوبه لا تقتضي أن يكون أعلى من مستوى افهام الذين خطبوا به ووجه إليهم ، ولا أن يكون أبعد من متناول إدراكهم ، ولا أن تكون مفرداته ومضامينه وتراكيبه غير مألوفة لديهم ، ولا أن يكون قصد به أن يكون معجزاً في بلاغته اللغوية والنظمية والفنية ، والفرق كبير بين المعين كما هو واضح فيما يتبادر . ولعله مما يصح أن يذكر في هذا المقام على سبيل التمثيل والتقريب - والله ولكتابه ونبيه المثل الأعلى - مثل كاتب ذي أسلوب براق شائق قوي النفوذ ، يجعله في الطبقة الأولى أو ذروتها في حين يكون سهل التناول غير غامض ولا معقد ، يستطيع أن يسيغ كتابته ، ويفهمها مختلف القراء وأواسطهم بل وإن هذا الأسلوب ليكون دائماً أحسن الأساليب وأفصحها ، وهو الذي يسميه البيانون بالسهل الممتنع ، هذا عدا عن أن إعجاز القرآن فيما نعتقد ليس من ناحية نظمه ، وأسلوبه اللغويين فحسب ، بل هو أيضاً من ناحية ما احتواه من أحكام وإحكام ومبادئ وتلقينات روحانية نافذة باهرة ، ونعتقد أن لهذا الاعتبار الأول في اعجازه ، وأن التحدي وتقرير عدم إمكان الاتيان بمثله أو بشيء من مثله إنما هو (القرآن) وهذا هو الذي استعمل في القرآن الذي كما هو لغة وأسلوب هو كذلك معان ودعوة نافذة قوية باهرة في مداها ومضمونها ، وشمولها وسعة ألقها وروحانيتها التي وصف أثرها في القرآن بهذا الوصف :

١ - (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ .) الأسراء : ٩ .

٢ - (وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .) الاسراء : ٨٢ .

٣ - (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ .) الزمر : ٢٣ .

٤ - (قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ .) فصلت : ٤٤ .

٥ - (لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .) الحشر : ٢١ .

ثم الذي وصف القرآن أثرها في أهل العلم والكتاب بهذا الوصف القوي النافذ :

١ - (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ .) المائدة : ٨٣ و ٨٤ .

٢ - (وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ .) الرعد : ٣٦ .

٣ - (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا . وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا .) الاسراء : ١٠٧ - ١٠٩ .

ونريد كذلك أن ينبه على نقطتين أخريين :

فأولاً : إن ما قلناه عن فهم المخاطبين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم للقرآن لا يقتضي أن يكون متناقضاً مع ما هو مقرر بصورة حاسمة من أن لغة القرآن هي لغة قريش ، فالقرآن وجه أول ما وجه إليهم وإلى القبائل والمدن الحجازية كما جاء في آيتين متماثلتين في سورتي الانعام والشورى وهما :

١ - (وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .) الانعام : ٩٢ .

٢ - (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا .) الشورى : ٧ .

على أن لغة قريش من جهة أخرى كانت إجمالاً في عهد البعثة النبوية لغة العرب جميعهم على اختلاف منازلهم ، أو على الأقل كانت مفهومة من العرب جميعهم بسبب ما كان من اشتداد التحاك بين قريش وسائر العرب في مواسم الحج التي كان يشترك فيها العرب جميعهم الذين كانوا يفدون من كل صوب من أنحاء الجزيرة وخارجها والتي كانت تقوم قبل البعثة بمدة ما ، بسبب وحدة الأصل من حيث المبدأ .

ولقد وصف القرآن بالعربي كما جاء في الآيات التي أوردناها قبل ، وكان من يتكلم

بغير العربية يسمى أعجمياً كما جاء في آية سورة النحل هذه :
(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ .)

بحيث يستفاد من ذلك أن العربية حينما تطلق كانت تشمل العرب جميعهم لغة وجنساً ،
وأنه لم يكن للعرب جميعهم لغة غير اللغة التي نزل بها القرآن ، وأن لغة قريش التي هي
لسان النبي ﷺ الذي ذكر القرآن أن الله قد يسر القرآن به :
(فَاتِّمَّا يَسِرَّنَا بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .) الدخان : ٥٨ .

. أي لغة النبي ﷺ كانت هي لغة العرب جميعهم التي وصفت بأنها (لسان عربي
مبين .)

وثانياً : إن ما قلناه من أن كل كلمة في القرآن كانت مفهومة من العرب والمستعربين
على حقيقة مداها ومعناها لا يقتضي أن يكون مناقضا لما هو طبيعي فرضا وواقعا وبديهة
من وجود كلمات فيه لا يفهم مداها ومعناها بعض فئات من العرب ، بل ومن وجود كلمات
قد لا يكون سمعها بعض فئات من العرب بل ومن وجود تعبيرات يقال في صدها مثل
ذلك . وهذه الظاهرة ملموسة في كل ظرف وقطر ، وفي كل فئة بما فيها الفئات المتعلمة ،
ومع ذلك فمن المشاهد الملموس أن الناس على اختلاف فئاتهم وثقافتهم وخاصة
أواسطهم لا يعيهم أن يفهموا ما يقرؤونه من رسائل وكتب وصحف ويسمعونه من خطب
وإذاعات . وطبيعي أن العرب في عصر النبي ﷺ ، وزمن بعثته لم يكونوا ليخرجوا عن
نطاق هذه الظاهرة وإذا روي عن بعض الصحابة جهلهم لمعنى كلمة من الكلمات
القرآنية ، فلا يكون في ذلك غرابة بقطع النظر عن صحة الرواية متناً وسنداً .

- ٥ -

رابعاً : الاسس والوسائل ، أو المحكمات والمتشابهات في القرآن
مما يجب ملاحظته على الناظر في القرآن أن محتوياته نوعان متميزان ، وهما الاسس والوسائل

والاسس هي التي

انطوى فيها أهداف التنزيل القرآني ، والرسالة النبوية من مبادئ وقواعد وتشريع وأحكام وتلقينات ، مثل وجوب وجود الله تعالى ووحدته وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد ، واتصافه بجميع صفات الكمال ومطلق تصرفه في الكون ، واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ، ونبذ كل ما سواه ، والايمان باليوم الآخر وكتب الله ورسله ، والقيام بالواجبات التعبدية له ، ومثل المبادئ والاوامر والنواهي والتشريعات والاحكام والتلقينات الاخلاقية والاجتماعية والسياسية والسلوكية والاقتصادية سلبية كانت أم ايجابية .

أما عدا ذلك مما احتواه القرآن من مواضيع مثل القصص والامثال والوعد والوعيد ، والترهيب والترغيب ، والتنديد والجدل والحجاج ، والأخذ والرد والتذكير والبرهنة ، والالزام ولفت النظر الى نوايس الكون ، ومشاهد عظمة الله وقدرته ، وتقدير ما فيها من مدى ، والى مخلوقاته الخفية والعنوية والمشاهد الأخروية ، فهو وسائل تدعيم وتأيد لتلك الاسس والاهداف ، وبسبيل ذلك .

ومع أن النوع الثاني قد شغل حيزاً كبيراً ، بل الحيز الاكبر في القرآن مما هو متصل بمواقف السيرة النبوية ، وأحوال البيئة النبوية فإن ملاحظة هذا التقسيم لآيات القرآن تجعل الناظر في القرآن بل وتوجب عليه أن يكون اهتمامه الاشد ، وعنايته الكبرى مصروفين لتفهم آيات الاهداف والمبادئ وتجليتها ، وأن يقف من آيات النوع الثاني - أي الوسائل - عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجازها منها بالاسلوب الذي أوحيت به دون تزيد ولا تكلف ولا تخمين ، ولا تحميل لها ما لا ضرورة لتحميلها إياه ، ولا سيما إنها جاءت بأساليب متنوعة تتحمل وجوهاً عديدة التأويل لتحقيق هدفها التدعيمي ، وأن لا يترك لها المجال لتغطي على النوع الاول - الاسس - وتكون له شغلا شاغلا مستقلا بحيث يستغرق فيها مثل استغراقه في النوع الاول ، فضلا عن استغراقه فيها أكثر من استغراقه في هذا مما هو مع الاسف واقع ومشاهد ، كالانشغال بماهية القصص القرآنية ، والنوايس والمشاهد الكونية ، والمخلوقات الخفية من ملائكة وجن وشياطين ، ومشاهد الحياة

الأخروية ، وبحيث يغفل عن هدفها الرامي الى تدعيم النوع الاول ، ويجعله يهمل التدبر فيه ، ويتورط فيما لا طائل من ورائه ، ويقع نتيجة لذلك في الحيرة والبلبلة دونما ضرورة وموجب .

ومن الامور الهامة التي يحسن التنبيه عليها في صدد فصول القصص ومشاهد الكون ونواميسه والملائكة والجن والشياطين والمشاهد الأخروية إن ما احتوته هذه الفصول مما كان يعرفه السامعون للقرآن لأول مرة ويتصورونه ويتداولونه ويفهمونه ويألفونه ويعيشون فيه مما أشرنا اليه في نبذة (البيئة النبوية) أي أن فيها ترديداً لما في أذهانهم وأفكارهم وواقع حياتهم ومعارفهم حيث يبدو من ذلك 'والله اعلم أن حكمة الله عز وجل اقتضت ذلك واوحت به بالاسلوب الذي جاء عليه ليكون فيه حجة وتأثير على السامعين من حيث أن الانسان يتأثر بالحجج التي يعرف مداها ويسلم به أكثر مما لا يعرفه ويسلم به فيكون التدعيم بها أقوى .

ونسارع الى استدراك مهم ، وهو أن كلامنا في صدد مدى آيات الوسائل إنما هو من أجل الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجازها منها بالاسلوب والمدى اللذين أوحيت بهما لتحقيق الهدف منها ، ومن أجل التنبيه على عدم ضرورة التزيد والتكلف في استكناه الماهيات وحسب ، ولا يعني ولا يصح أن يعني أنها ثانوية أو أنها غير جوهرية أو أنها زائدة ، فجميع ما في القرآن من النوعين هو كلام الله ، وكله حق وحكمة ومهم وجوهري في ما أنزل في صده ، وإلى هذا فان المتعمق في القرآن لابد من أن يلمح ما في هذه الآيات من روائع الموعظة والحكمة والامثال والبيان وقوة الجدل والحجة والإلزام والتذكير والتنبيه والترغيب والترهيب مما فيه إلهام وتلقين جليان لكل مسلم ، بل لكل إنسان على مر العصور ، وفي كل المناسبات .

وننبه على أن هذا التقسيم بالمعنى الذي نقرره مستلهم بوجه عام من روح القرآن وأسلوبه وآياته مما يستطيع أن يلمحه كل من أنعم النظر فيها حيث يجد أنه لم ترد قصة أو

مثل أو موعظة أو جملة تنديدية أو إنذار أو تنويه أو إشادة أو إشارة تنبيهية الى السابقين أو الى ملكوت الله وعظمته ودعوة الى التفكير في آلائه ، أو ذكر للملائكة والجن والشياطين ، أو وعد ووعد بالحياة الاخرية ، ومشاهدها ونتائجها المبهجة أو المزعجة إلا بعد تقرير الاسس والاهداف أو شيء منها ، أو الدعوة اليها ، أو بيان الحق والخير والصلاح والسعادة والنجاة فيها أو حكاية مواقف الكفار منها ، أو تثبيت النبي والمسلمين فيها وتصبيرهم عليها ، وهذا من مميزات الاسلوب القرآني وخصوصياته بالنسبة لسائر الكتب التي يتداولها أهل الكتاب ، وينسبونها الى الله وأنبيائهم ، وحيث يجد أن هذه الاسس والاهداف تظل محكمة ثابتة مع ما هو طبعى من اختلاف مواقف النبي ﷺ وتنوعها بالنسبة لفئات الناس والعقول والظروف في حين يجد أن ما هو من الوسائل والتدعيمات يتنوع ويختلف اسلوبا ومدى وتعبيرا مع اختلاف تلك المواقف وتنوعها ، وهذا خاصة من شأنه أن يكون مقياسا وضابطا للتفريق بين نوعي آيات القرآن المذكورين ، بل ومن شأنه أن يحل ويزيل ما يتوهم الناظر في القرآن من إشكالات في الاسلوب والمدى والتعبير أيضا .

وهو مستلهم كذلك من آيات كثيرة جدا ذكر فيها القرآن في معرض التنويه بما احتواه من هدى ونور ورحمة وذكر ، أو في معرض الجدل مع الكفار ، أو حكيت فيها أقوالهم عن القرآن كما ترى في هذه الآيات التي لها أمثال كثيرة جدا .

١ - (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .) المائدة : ١٥ و ١٦ .

٢ - (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ

لَا تُذَرِّكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ . (الانعام : ١٩ .

٣ - (وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ .) (الانعام : ١٥٥ - ١٥٧ .

٤ - (كِتَابُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنَذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .) (الاعراف : ٢ .

٥ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ .) (الانفال : ٣١ .

٦ - (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .) (يونس : ١٥ و ١٦ .

٧ - (أَلَمْ يَكُنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ .) (ابراهيم : ١ .

٨ - (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ .) (الحجر : ٨٢ .

٩ - (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا .) (الاسراء : ٩ .

١٠ - (وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .) (الاسراء : ٨٢ .

١١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا .) (الفرقان : ٥٠ - ٤

١٢ - (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا .) الفرقان : ٣٠ .
 ١٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا .) الفرقان : ٣٢ .

١٤ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ .)

فصلت : ٢٦ .

١٥ - (إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتِلَ كَيْفَ قُدِّرَ . ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قُدِّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (١) .)
 المدثر : ١٨ - ٢٥ .

فمع أن من المسلم به أن كلمة (القرآن) تطلق على كل ما بين دفتي المصحف من كلام الله ، فإن هذه الآيات وأمثالها الكثيرة جدا ، والتي لا تكاد سورة من سوره الطويلة أو المتوسطة أو القصيرة نوعا ما تخلو من آية أو أكثر منها تشير إلى شيء آخر غير ما احتوته من ردود ومجادلات وتشديدات وتحديات ومواقف وأقوال رسول الله ﷺ أو الكافرين والجاحدين ، وتسليات لرسول الله ﷺ ، وأوامر ربانية الخ .. وتفيد بدون شك أن المقصود الأصلي هو الآيات والفصول التي فيها أسس الدعوة ومبادئها وأركانها وحكمها وتلقيناتها وأحكامها وتشريعاتها ، وتفيد أن الكفار إنما كانوا يقولون أقوالهم المحكية عن القرآن قاصدين بذلك هذه الآيات والفصول ، وأن النبي ﷺ حين قال : ما حكته سورة الفرقان : يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا . قد قصد كذلك هذه الآيات والفصول ، وهذا فضلا عما يفيد الجدال حول القرآن وكلام الكافرين منه من أن ذلك خارج عن ذلك المقصود ، حينما نزلت الآيات التي تحكي هذا الجدال والكلام .

(١) الآيات التي من هذا الباب التي فيها ذكر القرآن والكتاب وكلام المشركين والكفار والجدال معهم في صده كنية . وما اكتفينا بما تقدم على كثرته لابرار المعنى الذي نريد تقريره إقرأ أيضا آيات البقرة ١ و ٢ ، والنساء ٨٣ ، والانعام ١١٤ ، ويونس ٣٨ ، وهود ١٢ وطه ٣ و ١١٢ .

وهو مستلهم بوجه خاص من بعض نصوص صريحة في القرآن - مع ملاحظة ما قد يكون لها من خصوصيات زمنية ، يأتي في مقدمتها وقد يكون أقواها مدى وأوضحها آية سورة آل عمران هذه :

(هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ . رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ .) ٧ و ٨ .

والآيات نزلت في سياق الرد على وفد نصراني من اليمن ، تناظر مع النبي ﷺ في أمر المسيح عليه السلام ، فلما أفحمه النبي ﷺ قال له : (ألا تقول : إن المسيح كلمة الله وروح منه) قال النبي ﷺ : بلى ، فقال الوفد : هذا حسبنا . فنزلت الآية الأولى تندد بالوفد الذي ترك الأصل القرآني المحكم ، وهو أن الله واحد ولا يصح أن يكون له ولد ولا شريك ولا شبهه ولا يتجزأ ، ولا يصح فرض انتقال جزء منه إلى غيره ، وجنح إلى تأويل بعض آيات قصد بها التقريب والتمثيل تأويلا متناسبا مع هواه حيث أريد بما ذكر في القرآن عن ظروف ولادة عيسى عليه السلام تقرير كون ذلك قد تم بإعجاز رباني وحسب ، وهذا فضلا عن المحكم القرآني المقرر أن عيسى عبد الله ورسوله ، وأنه كمثل آدم خلقه من تراب ، والمقرر كذلك بلسان عيسى بأنه عبد الله ورسوله ، وكان الواجب أن يلتزم بالمحكم ، وأن يقول للمتنشابه : آمنا به كل من عند ربنا ، وأن يدعو الله بأن لا يزيغ قلبه كما هو شأن الراسخين في العلم .

وعلى خصوصية الآيات من حيث المناسبة ، فإنها جاءت بأسلوب تقرير عام لتكون شاملة الحكم والمدى بحيث يصح ان يستلهم منها بقوة أن القرآن نوعان متميزان ، أحدهما محكم أساسي لا يحتمل تأويلا ولا تنوعاً ولا وجوهاً افتراضية وتقريبية ، وهو (أم الكتاب) .

وثانيهما متشابه بسبيل التقريب والتمثيل والالزام والبرهنة ، ويحتمل التأويلات المتعددة أو الوجوه الافتراضية العديدة . ومنها ما لا يعلم تأويله الا الله تعالى

والمتمعن في الفصول والآيات التي تدخل فيما سميناه بالوسائل يرى أنها قد اختلفت أساليبها وألفاظها ، وأنها أريد بها التشبيه والتمثيل والتقريب والترغيب والترهيب والوعظ والتذكير ، والتنبيه والتنويه والتنديد والتبشير والايضاح والانداز ، ويلمح فيها بكل قوة هدف تدعيم المبادئ والأسس والأحكام والتلقيينات التي احتوتها آيات وفصول النوع الأول ، الذي نعتقد أن القرآن قصده بتعبير (آيات محكمات هن أم الكتاب) ونعتقد أن تعبير (وأخر متشابهات) قد قصد به آيات النوع الثاني . وفي هذا تلقين قوي بعدم الضرورة دينا لاستكناه ماهيات ما في النوع الثاني من مسائل ومواضيع ، وبوجوب الوقوف عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجاءه بالأسلوب الذي أوحيت به لتحقيق الهدف التدعيمي الذي استهدفته دون تزييد ولا تكلف ، والتزام ما أمر به من القول (كل من عند ربنا) وما علمته من الدعاء (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) .

وسيأتي بعد هذا البحث بحوث في كل نوع من انواع الآيات التدعيمية والمتشابهة المذكورة ما سوف يزداد الأمر به وضوحاً أمام القاريء إن شاء الله . وفي سورة محمد هذه الآيات :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ هُمُ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ .) ٢٠ و ٢١ .

فإن كلمة (محكمة) في الآيات تفيد كما هو واضح (الأمر المبرم) أو (الغرض المطلوب) الذي لا بد به ، والمراد الذي لا يحتمل تأويلات عديدة .

وآيات آل عمران على هذا هي ضابط ومفتاح حاسم للقرآن ، ولا يصح لذي نية حسنة ورغبة في الحق والحقيقة غير قاصد للتمحل والتعسف والمماحكة أن لا يتقيد بها . ويلفت

النظر إلى جملة (فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ..) حيث تعبر تعبيرا تظهر معجزته الربانية من حين إلى حين فيما يعمد إليه المباحكون والمتحلقون والمتواقحون والمتنطعون من ملحدين ومبشرين من التوقف عند التشابهات ، والتمسك بها وسوقها في معرض النقد والتجريح والتحجج والتشكيك حيث يكون هذا بنص القرآن الذي شاء الله منزله أن يكون فيه المحكم ، وفيه التشابه ، وأن يكون المحكم هو (أم الكتاب) دليلا على سوء النية ، وزيف القلوب ، والانخساء أمام محكمات القرآن والهروب منها والرغبة فقط في التجريح والتشكيك والنقد والفتنة وإثارة الاشكالات دون تقيد بالضابط الذي قرره القرآن ، والمفتاح الذي وضعه له منزله سبحانه وتعالى .

ولقد انكشف للنبي ﷺ احتمالات هذا الموقف ، فنبه على ما في ذلك من انحراف وخطأ ، وعلى الموقف السليم تجاه ذلك ، حيث روى الشيخان عن عائشة قالت : تلا رسول الله هذه الآية ثم قال : «إذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمي فاحذروهم (١)» ، وروى مسلم حديثا جاء فيه «سمع رسول الله ﷺ رجلين اختلفا في آية ، فعرف في وجهه الغضب ، وقال : إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» وروى ابن مردويه حديثا عن ابن العاص عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به» وروى الحافظ أبو يعلى حديثا عن حذيفة ، عن رسول الله ﷺ قال : «إن في أمتي قوما يقرؤون القرآن ، ينثرونه نثر الدقل ، ويتأولونه على غير تأويله» وروى الامام أحمد حديثا عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون في القرآن فقال : «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل الله كتابه ليصدق

(١) أي : وصفهم الله بأن في قلوبهم زيغا .

بعضه وبعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم فقولوا به ، وما جهلتم فكلوه إلى عالمه» .

ففي هذه الأحاديث تدعيم لما قررناه من كون الآية مطلقة عامة ، تشمل كل موقف مماثل للموقف الذي نزلت فيه ، وفيه تلقين بما يجب أن يكون عليه موقف المخلصين المؤمنين وذوي النيات الحسنة من الآيات المتشابهة ، وتحذير من ابتغاء الفتنة ، وإثارة الشبهات والاشكالات حولها ، وفيها تأكيد لما استلهمناه من نص الآية من أنه ليس من الضروري دينا استكناه ما في الآيات المتشابهة من ماهيات ..

وإذا كان من المسلمين وكتابهم بل ومفسريهم قديما وحديثا من شغل بالمتشابهات وتأويلها واستكناه ما فيها من ماهيات ، ومنهم من أغرب وتورط في التخمين والتخيل والتزويد والتكلف ، وصرف آيات الله عن أهدافها الوعظية التذكيرية التمثيلية التقريبية المندرة المبشرة إلى ما كاد يتحول القرآن به إلى كتاب تاريخ وفلك وهندسة وتنجيم ، وإلى كتاب له ظاهر وباطن ، وفيه أسرار وألغاز ، وإلى ما فيه كفر وبواح ، وتأييد للمذاهب والأهواء ، وإلى ما فيه إخراج له عن نطاق قدسيته وهدايته . وإذا كان ما فعلوه قد صار مع الأسف تكأة للملحدين والمبشرين الذين وجدوا فيما فعلوه كثيرا من الثغرات فحاولوا أن ينفذوا منها فلا يتحمل قرآن الله ورسوله مسؤولية ذلك .

وننبه على أن هناك من يعطف جملة (والراسخون في العلم) في آية آل عمران على كلمة (الله) ليكون المعنى : والراسخون في العلم يعلمون أيضا تأويله بالاضافة إلى الله ، وهناك من يجعل الجملة مستأنفة ليكون المعنى : إنه لا يعلم تأويله إلا الله وحده . ومما دلل عليه قائلوا القول الأول والآخرون به أنه لا يصح أن يكون في كتاب الله مالا يعرف تأويله وما لا يفهمه أحد ما .

وللامام ابن تيمية كلام طويل في صدد البرهنة على وجاهة هذا القول أورد فيه حججا عقلية ونقلية قوية ، وقد يكون هذا وجيها إذا أريد بكلمة (تأويله) حكمته وهدفه والمقصود

منه ، ويصح أن يقال حينئذ : إنه ليس في متشابهات القرآن ما يمكن أن يعجز الراسخون في العلم عن لمح حكمته وهدفه والمقصود منه فضلا عن محاكماته . أما إذا أريد بالكلمة (السر والماهية) فإن في القرآن مالا يمكن لأحد من البشر أن يعرف سره وماهيته ، مثل كنه الله عز وجل ، سر الوحي والنبوة ، سر خلق الله للكون والحياة الأخروية ، سر ومدى المخلوقات الخفية مما يجب على المسلم الايمان به ، لأن القرآن أخبر به بأسلوب قطعي ومحكم غير قابل للتأويل . ومهما سما العقل البشري ، فإنه يظل عاجزا عن إدراك سرها إدراكا تاما . ولا يكفي أن يقال : إنها سر الله وحكمته ، وإنها في نطاق قدرته فهذا صحيح ، غير أنه لا يمكن أن يوصف بأنه علم بتأويلها إذا أريد بالكلمة السر والماهية ، وإن كان يمكن أن يقال : إن المستيرين والراسخين في العلم يستطيعون أن يلمحوا حكمة الله ومدى هدفه فيها وفي ذكرها ، وإن العقل البشري لا يستطيع رفض التسليم بها حقا وصدقا . ولقد يصح القول أيضا : إن ما لا يعلم تأويله إلا الله ، وإن الأمر بالقول (آمنا به كل من عند ربنا) هو المتشابه الذي يشكل فهمه صراحة أو ضمنا ، ولا يكون له حسم من المحكمات . أما مالا يكون فيه ذلك وما يكون في المحكمات حسم له فلا يدخل في حدود ذلك ، ومع ذلك كله فنحن نرجح أن لا تكون الجملة معطوفة ، وأن يكون السر والماهية هما المقصودان من كلمة تأويله ، وبقية الآية الأولى ، وفحوى الآيتين الثانية والثالثة مما يؤيد هذا الترجيح فيما نعتقد . والقول الثاني يمكن أن يصح بدون ضرورة لأن تكون جملة (والراسخون في العلم) معطوفة على ما قبلها بوجه عام ، والله تعالى أعلم .

والملاحظون لا يقبلون حقيقة كون العقل البشري لا يستطيع رفض التسليم بأسرار وماهيات وحقائق غيبية ، لأنهم ينكرون مالا يثبت بالحس والمادة ، ومقاييس العلم والمعرفة ، ويقولون : إن المغيبات التي يؤمن بها المؤمنون تتنافى مع العلم والعقل ، وإن الدين يتنافى بالتالي مع العلم والعقل ، ولا يقنعون بالتقريرات السديدة التي يسوقها علماء

المسلمين وباحثوهم بسبيل التوفيق بين الدين والعلم والعقل (١) . وفي كتاب صادق العظم نماذج من كل ذلك ونقول نحن : إن من حق المؤمن الذي اطمأن قلبه بالايمان بوجود الله الحكيم المدبر المبدع للكون أن يؤمن بما ثبت خبره ، وتقرير وجوده ووقوعه عن الله بواسطة من اصطفاهم الله من خلقه من مغيبات ، وأن يستوحي ويلمح حكمة ذلك ولو لم يدرك سره ولكنه ليس كل مالا يقبله ويقنع به إنسان ما هو في حد ذاته غير مقنع ولا مقبول ، ومقاييس العلم والعقل متبدلة متحولة غير ثابتة وغير مطلقة ، وأمور كثيرة كانت تقاس بمقاييس علمية وعقلية كانت معتبرة وظهر فسادها ، وقام مقامها مقاييس جديدة ، وأمور كثيرة لم يكن تصورها ووقوعها معقولا وممكنا ، قد وقعت وصارت قائمة . وعقول الناس ومعارفهم وتجاربهم متفاوتة ، وهذا التفاوت يؤدي إلى أن كثيرا من الناس يدركون مالا يدركه غيرهم ، ويعقلون مالا يعقله غيرهم ، ويقنعون بما لا يقنع به غيرهم ، ويكون ذلك ناشئا عن ذلك التفاوت ، وليس مسوغا لذاته ، ولذلك يظل إنكار الملحدين وقولهم جزافا ، وكل ما ثبت تقريره من المغيبات بأسلوب قطعي ومحكم مما ذكرناه قبل ممكن عقلا ، وهو في نطاق قدرة الله ، وما دام أن العلم مظهر أو حصيلة من مظاهر العقل وحصائله ، فيكون الايمان بذلك ، وبالتالي يكون الدين غير متناف مع العلم . وقد أشرنا قبل إلى الملمات أساطين العلوم المادية من تقارير مقنعة عن وجود الله وحكمته وبديع تقديره في كونه استنتاجا من هذه العلوم التي تعمقوا فيها ، ووجود الله عز وجل في رأس هذه المغيبات .

ويركز الملحدون بخاصة على أمر وهو أن الايمان بالمغيبات ، وأن الدين بالتالي يتعارضان مع حرية انطلاق العقل والعلم والنشاط في المؤمنين بها والمتدينين بدين . وأن ذلك مما يشل قوى العرب والمسلمين ويعطلها ، وهذا مما يركز عليه صادق العظم كثيرا في كتابه . وهذا زعم باطل ، تكذبه نصوص القرآن المحكمة . وتكذبه وقائع التاريخ الاسلامي ، وآلاف

(١) من واجبتنا أن ننبه إلى أن المؤمنين بالله والمغيبات التي يؤمن بها المسلمون من أهل الكتاب يسهمون أيضا في سوف مثل هذه التقارير .

الكتب التي كتبها علماء المسلمين في مختلف مواضيع الحياة ، ولقد انطلق المسلمون والعرب في الطليعة بعد إيمانهم بكل ما في الرسالة الاسلامية القرآنية النبوية قدرة وعظمة وسلطاناً وعلماً وحضارة وازدهاراً ، وتفتحاً ومرونة وخبرة واقتباساً واستكشافاً للآفاق الكونية والفنية إلى أبعد الحدود التي كانت ممكنة في القرون الاسلامية الأولى دون اصطدام بمعتقداتهم الغيبية والايمانية ، جمعوا بينهما جمعاً عظيماً رائعاً ، ولا يصح أن يؤخذ ما عليه المسلمون اليوم سبباً ولا مقياساً . وإذا كان هناك حكام من العرب والمسلمين أو أفراد يتظاهرون بالتمسك بالدين ، أو يتكئون عليه ، ثم يكونون متخلفين في سلوكهم وحكمهم وأنظمتهم وتنظيماتهم وعقلياتهم منحرفين عن جادة الحق والعدل والصالح العام ، وأساليب العقل والعلم ، فيكونون في حقيقة الأمر منحرفين عن أحكام القرآن وتلقياته المحكمة التي سوف نورد موجزاتها في فصل لاحق من الكتاب .

والقول بعد هذا كله : إن الايمان بالله والنبوة والوحي والحياة الأخروية ، والملائكة والجن ، يشل القوى ويعطلها قول فيه كثير من الغلو والسطحية ، ولا يستحق ان ينظر فيه بجد . ولقد كان أهل القرون الاسلامية الأولى يؤمنون بكل ذلك ، ولم يمنعهم هذا الايمان عن الانطلاق كما قلنا في كل ميادين الحياة بقوة واندفاع عظيم ، ولقد كان الغربيون الذين نهضوا وتقدموا في القرون الأخيرة والحديثة في ميادين العلم التي تخلف عنها المسلمون والعرب لأسباب غير أسباب الدين الصحيح مؤمنين بكل هذه الغيبيات حينما بلّثوا ينهضون ويتقدمون ، وما يزال معظمهم مؤمنين بها فلم يمنعهم إيمانهم من النهوض والتقدم ، بل إن هذا الايمان مع العمل الصالح الذي يشمل كل أمر دنيوي أيضاً ، وما ينطوي في الدين الاسلامي من حوافز عظيمة ، هو الذي مكن المسلمين الأولين في الأرض ذلك التمكين الشديد الذي ارتفعت به راياتهم على مشارق الأرض ومغاربها بما لم يتيسر مثله لأية حركة قديمة وحديثة سعة وقوة وعزة ، وقامت به حضارة باذخة فاقت كل ما تقدمها ، تحقيقاً لوعد الله لهم في آية النور هذه :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .

النور : ٥٥

وجعلهم ينطلقون ذلك الانطلاق العظيم . والظن بأن الدين الاسلامي هو مجموعة عقائد غيبية ظن غبي جاهل ، فهذا الدين متكامل ، وبقدروا هودين عقيدة وإيمان هو دين نظام وتنظيم وسلوك واجتماع وإنسانية وعلم وعقل وفكر وجهد وجهاد وعمل ، وصلاح الانسانية في الدنيا من مختلف النواحي هو من أهدافه الجوهرية ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا باستيفاء كل أسبابه . ولقد انطوت تعاليم هذا الدين على أفضل القواعد والأسس والتوجيهات والتلقينات ، وأشدها انسجاما مع مصلحة الانسانية وخيرها وسعادتها في كل ظرف ودور وطور . ويجب على من يريد أن يتكلم فيه أن ينظر إليه بمثل هذه النظرة الشاملة ، ويدرسه دراسة صادقة جادة ، ويستوعبه استيعابا صحيحا إذا كان ممن يحترم العقل والعلم والحق والحقيقة .

هذا وقد يلحظ أن هناك فرقا بين تسميتنا لنوعي الآيات القرآنية بالأسس والوسائل ، وبين النص القرآني في سورة آل عمران الذي يسميها (الآيات المحكمات) و (الآخر المتشابهات) غير أنه ليس هناك فرق إلا في التعبير ، فجمهرة العلماء والمؤولين والمفسرين يقولون : إن الآيات المحكمة التي هي أم الكتاب هي ما في القرآن من أحكام وحلال وحرام ، وأركان الاسلام ، وعماد الدين ، والفرائض ، والحدود ، وسائر ما يكلف به المسلمون ويحسن بهم لعاجلهم وآجلهم ، وما لا يتحمل تأويلات عديدة . وأن المتشابهات هي ما سوى ذلك ، ويظهر من هذا أن الأولى هي ما يصح تسميته بالأسس والثانية هي مما يدخل فيما سميناه بالوسائل ، لأن معظم النوع الثاني بل كله تدعيم للنوع الاول عبرة وعظة وتمثيلا وتقريبا وترغيبا وترهيبا وتنويعا وتنديدا وإنذارا وتبشيرا وإفحاما وإلزاما .. الخ

وآية سورة محمد التي أوردناها قبل شاهد على ذلك . فالسورة المحكمة التي ذكرت فيها قد فسرت فيها بأنها فرض القتال الذي ذكرت آيات أخرى أنه كتب على المسلمين ، أي فرض عليهم ، وبالتالي : ان المحكمة هي الفروض والتكاليف الأساسية القرآنية ، ولقد روي عن ابن عباس أن المحكم هو أمثال ما جاء في آيات سورة الأنعام ١٥١ - ١٥٣ وسورة الاسراء ٢٣ - ٣٨ التي هي مجموعات رائعة من الأسس والمبادئ والأهداف التوحيدية والأخلاقية والاجتماعية والسلوكية كما ترى في آيات الانعام هذه :

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١١) . ١٥١ - ١٥٣

وهذا التقسيم متسق مع حكمة بعثة النبي ﷺ وسيرته في الدعوة ، فقد أخذ منذ نزول الوحي عليه يدعو إلى الله ومكارم الأخلاق والمبادئ التي يقوم عليها صلاح الانسانية وسعادة الناس في الدارين ، ونبذ المستنكر المنحرف من عقائد وتقاليد وعادات وأخلاق ويتلو آيات القرآن في ذلك ، فوقف الزعماء بخاصة يناوئونه لأسباب متنوعة شرحناها قبل ، فصارت تنزل الفصول القرآنية مسجلة لمواقفهم ورادة عليها ، ومنذرة منددة مذكرة قاصة

(١) آيات سورة الاسراء ماثلة إجمالاً لهذه الآيات . فاكثفينا بإيراد هذه : ونبه على أن في القرآن آيات ومجموعات أخرى فيها مثل هذه الوصايا ، وفيها بيان لمهمة الرسول مثل الوصايا الحكيمة المحكمة مثل آية سورة البقرة (١٧٧) وآيات سورة آل عمران ١٠٢ - ١٠٥ والنساء ٢٩ - ٣٢ والاعراف ٣١ - ٣٣ والنحل ٩٠ - ٩٧ والمؤمنون ١ - ١١ والفرقان ٦٣ - ٧٦ والماعارج ١٩ - ٣٥ وهذا عدا مفردات كثيرة جداً فيها المحكم وآيات وفصول كثيرة جداً فيها أحكام ومبادئ ووصايا وتشريعات وتلقينات محكمة .

لأخبار الأمم والأنبياء الأولين واعظة منبهة ، داعمة من جهة ومستمرة في تقرير مبادئ الدعوة والأحكام والتشريعات ولتلقينات الأساسية من جهة ، ومسجلة لآثار دعوته في الفريق الذي استجاب إليها من جهة .

وما يزيد ما نقرره قوة ووضوحا ما يلاحظ من تطور التنزيل القرآني ، وتطور إطلاق تعبير (القرآن) على أجزاء القرآن وسوره وفصوله . فالقرآن يطلق كما هو معروف على مجموعة السور التي بين دفتي المصحف ، غير أن هذا التعبير بدىء باستعماله منذ مبادئ نزول القرآن ، وبدىء بإطلاقه على ما كان من مجموعاته وآياته قبل تمامه بل قبل أن ينزل منه إلا القليل ، ثم ظل يطلق على ما كان ينزل منه وما يجتمع من مجموعاته إلى أن تم تمامه بوفاة النبي ﷺ كما يفهم أولا من آيات عديدة مكية هذه أمثلة منها تمثل مختلف أدوار التنزيل المكي (١) .

١ - (يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ . قُمْ لَّيْلًا إِلَّا قَلِيلًا . نَصَفَهُ أَوْ أَتَقْصُ مِنْهُ قَلِيلًا . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا . المزمّل : ١ - ٤

٢ - (ص . وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ) . ص ١ و ٢

٣ - (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا .) الفرقان : ٣٠

٤ - (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .) الاسراء : ٨٢

٥ - (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ .) الأنعام : ١٩

٦ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ .)

فصلت : ٢٦

٧ - (وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ

(١) سنود آيات السور حسب ترتيب نزول هذه السور المروي .

كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ .) الروم : ٥٨

وثانيا : من آيات عديدة مدنية هذه أمثلة منها مختلف ادوار التنزيل المدني :

١ - (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنْ أَلْهُدَى

وَالْفُرْقَانِ .) البقرة : ١٨٥

٢ - (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا .)

النساء : ٨١

٣ - (لَوْ أُنْزِلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ .

(الحشر : ٢٢

٤ - (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ .) التوبة : ١١١

والمعقول والواقع أن الآيات والسور القرآنية التي نزلت قبل غيرها في أوائل الدعوة قد احتوت في الأكثر أسس الدعوة ومبادئها وأهدافها ، واقتصرت أو كادت تقتصر على التبشير بها ، وإنذار الذين لا يستجيبون إليها ، ولم تتوسع في الوسائل كما يظهر للمتعمق في سور الفاتحة والأعلى والشمس والليل والعصر والاحلاص والتكاثر والبلد والفجر والثنين والقارعة مما يؤيد أن الأهداف والأسس هي المقصودة في البدء من تعبير (القرآن) والأساسية فيه ، وقد خلت هذه السور وأمثالها أو كادت تخلو من العنف مما هو طبيعي ، لأن الدعوة وأهدافها ومبادئها هي التي قصد عرضها ونشرها والتبشير بها أولا دونما عنف ، ثم أخذت الفصول والسور بعدها تحتوي إلى جانب المبادئ والأهداف حملات عنيفة على الجاحدين والكافرين والصادقين ، وحكاية مواقفهم وإنكارهم لصحة الوحي القرآني ، وتحديهم كما أخذت تتوسع في الوسائل التدعيمية من قصص وأمثال ، ووصف لنواميس الكون ، ومشاهد عظمة الله وآياته ، وذكر لغيبات إيمانية الخ . مما هو طبيعي كذلك ، لأن الجحود والجدل والانكار والشك والاستغراب والأذى والصد والتحدي

والتحريض انما وقع بعد عرض مبادئ الدعوة وأهدافها . ولأن مواقف المجاهدين والمنكرين والشاكين والمستغربين والمترددin والصادين والمكابرin والمتحدّين استتبعَت التوسع في الوسائل التدعيمية والتأييدية . وهذا ما يجعلنا نرجح أن فصول سور العلق والقلم والمزمل والمدثر التي جاءت بعد مطالعها ، والتي احتوت مواقف جدلية وحملات على الكافرين والطغاة قد نزلت منفصلة عن مطالعها إذا صح أن هذه المطالع نزلت أبكر من غيرها من القرآن . ولقد احتوت الفصول التالية المذكورة جدلا وحجاجا بين النبي ﷺ والكفار حول القرآن وصحة الوحي القرآني الرباني مثل آيات سورة القلم ٩ - ١٥ والتكوير ١٩ - ٢٩ والفرقان ١ - ٦ و ٣٢ والشعراء ١٩٢ - ٢٢٦ والاسراء ٤٥ - ٤٧ و ٨٨ و ١٠٥ - ١١١ ويونس ١٥ - ١٧ و ٣٧ - ٤٠ وهود ١٣ و ١٤ والسجدة ١ - ٣ وسبأ ٣١ وفصلت ٤٠ - ٤٥ الخ (١) .

والمعقول أن يكون الكفار قد اعتبروا (القرآن) بدورهم هو ما احتوته الأجزاء التي فيها الأهداف والأسس ، فجادلوا فيها وكفروا بنبوة النبي ﷺ والوحي الرباني ، فأخذت هذه الآيات وأمثالها تحكي أقوالهم ، وترد عليها ردودا مفحمة ، وتضرب لهم الأمثال ، وتذكرهم بمن سبقهم من الأمم والأنبياء ، وتتوعدهم وتنذرهم بالآخرة وهو لها وعذابها ، وتتحداهم وتندد بما هم عليه من سخف وضلال ، وتثبت النبي ﷺ وتسليه وتذكره بما كان من أمر

(١) الآيات كثيرة ، ويحسن أن يقرأها القاريء في المصحف ، ونورد فيما يلي لبيان المقصود من الكلام لمن لم يقرأ القرآن :

- ١ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا أسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَرَأَيْتُمْ أَتَزْلَمُ الْأَرْضُ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضُ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا .) الفرقان ٤ - ٦
- ٢ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا .) الفرقان : ٣٢
- ٣ - (وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتِنَا بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أُتْبِعَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنْ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُلْ نُوْشَاءُ اللَّهَ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْنَا وَلَا أَدْرَأَكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .) يونس : ١٥ - ١٧ .

الأنبياء السابقين ، ومواقف امهم منهم ، وتبشر المستجيبين بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وتثبتهم وتصبرهم إلخ . ثم استمر الأمر على ذلك كله مع تنوع في الأساليب حسب تنوع المواقف وتجددها .

فالإنذار والتبشير والتنديد والتنويه والوعد والوعيد والقصص والأمثال والالزام والافحام والجدل والبرهنة والتشيت والتطمين إنما كان وجاء - كما هو واضح - تبعا للأسس والمباديء والأهداف أو المحكمات ، ودار حولها بسبيل التدعيم والتأييد اللذين اقتضاها ظروف السيرة والدعوة ، ومواقف الناس مستجيبين وجاحدين من تلك الأسس والمباديء والأهداف التي هي المحكمات في التنزيل القرآني .

وعلى هذا كله يمكن ان يقال والله أعلم إن في آية آل عمران مفتاحا هاما ورئيسيا لفهم القرآن الكريم وتدبره . فالمحكمات فيه هن أم الكتاب والمتشابهات هن للتدعيم . وعلى الناظر فيه ان يتفهم هذا أحسن تفهم وان يقف من كل من النوعين الموقف الذي أمر الله عز وجل ورسوله ﷺ به ولا يتجاوزه .

وكلمة أخيرة مهمة نختم بها البحث . ففي رواية اسباب نزول آيات آل عمران (٧) و (٨) تنبيه الى وجوب الرجوع الى المحكمات في تأويل المتشابهات ، وهذا يقتضي أن يتنبه المرء إلى اعتبار كون القرآن متكاملا يوضح بعضه بعضا ، ويتم بعضه بعضا ، وأن يكون محيطا لمختلف آيات القرآن المحكمة والمتشابهة في مختلف المواضع ، أو يرجع إلى من يكون كذلك ، وإنه ليصح القول بناء على ذلك إنه ليس من شيء يرى امرؤ فيه إشكالا . أو وهم تناقض في آية قرآنية من الآيات المتشابهة إلا وهو واجد على الاعم الاغلب ما يزيل ذلك الاشكال والوهم ، ويحسمه في الآيات المحكمة . وفي الماثورات أمثلة كثيرة لذلك . من ذلك مثلا ما روي عن جواب لعائشة على سؤال عما إذا كان النبي ﷺ رأى ربه حيث قالت : «إن من يقول : أن محمدا قد رأى ربه ، فقد أعظم الفرية ، والله يقول (لا تدركه الابصار) فهذه جملة في آية في سورة الانعام محكمة في وصف الله عز وجل تساق

إزاء كل ما يرد في القرآن من صفات الله وحركاته واحتمالات رؤيته ، والتي قد توهم الجسمانية ومثل ذلك كثير حيث يوجد في القرآن آيات كثيرة يبدو فيها إشكال أو وهم تعارض وتناقض في حين أن فيه آيات أخرى تحسم هذا الاشكال والتناقض والتعارض ، ونكون ضوابط محكمة للعبارات المتشابهة في صدد الملائكة والجن ، ونشأة الانسان والكون والقدر والجبر والهدى والضلال ، وصفات الله الذاتية والفعلية الخ الخ مما سوف نزيده شرحا في بحوث آتية . وحيث يمكن أن يقول قائل : إن ما كان من خلافات جدلية وكلامية ومذهبية ، وشغل حيزا كبيرا في كتب علماء الكلام والمذاهب والطوائف والفرق الاسلامية ، إنما جاء من الاستناد إلى آيات وعدم الربط بينها وبين آيات أخرى ، وعدم اعتبار القرآن كلاً متكاملاً ، وإن ما فيه من متشابهات تتحمل وجوها عديدة للتأويل يمكن أن تحسم بالضوابط المحكمة القرآنية ، فتظهر بذلك معجزة الله تعالى في قوله :

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) النساء :

٨٢

ولقد استغل الملحدون والأغيار ذلك ووجدوا فيه منفذا للتجريح والغمز مما الممنا بكثير من أمثله ، وفندناه في كتابنا «القرآن والمبشرون» ومما سوف نأتي فيما بعد أمثلة منه ، يسوقها الملحدون ، ونفنده على ضوء المحكمات الحاسمة إن شاء الله .

خامسا : القصص القرآنية .

- ١ -

مما يجب ملاحظته ان ما ورد في القرآن من قصص وأخبار الأمم السابقة وأحداثها وأنبيائها بما في ذلك معجزات الأنبياء ، وما وقع على الأمم الجاحدة من عذاب الله ونكاله لم يكن :

أولا : غريبا عن السامعين إجمالا سماعا أو مشاهدة آثار ، أو اقتباسا وتناقلا ، وسواء منه ما هو موجود في اسفار وكتب أهل الكتاب وغيرهم المتداولة مماثلا أو زائدا أو ناقصا أو مبينا

لما جاء في القرآن ، أم ليس موجودا فيها مما يتصل بالأمم والأنبياء الذين وردت أسماؤهم فيها مثل قصص إبراهيم المتعددة مع قومه ، وتسخير الجن والريح لسليمان ، وقارون ، والعبد الصالح مع موسى ، ومائدة المسيح ، أو مما يتصل بغيرهم من الأمم والبلاد العربية وأنيائها مما لم يرد أسماؤهم فيها مثل قصص عاد وثمود وسبأ وتبع وشعيب ولقمان وذئ القرنين .

وثانيا : إنها لم ترد للقصة ذاتها ، وإنما وردت للعظة والتمثيل والتذكير والالزام والافحام ، والتنديد والوعيد والتسليّة والتطمين ، وبكلمة أخرى هي من ما سميناه بالوسائل .

وثالثا : إنها وردت بأساليب متنوعة تتحمل وجوها للتأويل ، ويصدق عليها وصف المشابهات .

وفي القرآن شواهد وقرائن ونصوص عديدة مؤيدة للنقطة الاولى كما هو ظاهر في الآيات التالية التي لها أمثال :

١ - (الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .) التوبة : ٧٠

٢ - (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ . وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ . وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ . فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرِى مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ .) الحج : ٤٢ - ٤٦

(١) الآية الاخيرة تفيد ان السامعين عرفوا أخبار السابقين ، ونكال الله فيهم أثناء تطوافهم في بلادهم . وكان ذلك في رحلاتهم التجارية وغير التجارية كما هو المتبادر .

٣ - (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً^(١) .) الفرقان ٤٠

٤ - (وَعَادُوا وَتَوَمَّوْا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .) العنكبوت : ٣٨

٥ - (وَإِنَّ لَوْطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ . وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .) الصافات : (٢) : ١٣٣ - ١٣٨ .

ولقد جاء في سورة القلم التي هي ثانية سورة في ترتيب النزول هذه الآيات :

٦ - (فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ . لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ . فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ .) القلم : ٤٨ - ٥٠

فالافتاء بهذه الإشارة الخاطفة الى قصة يونس ونعته بصاحب الحوت في هذه السورة المبكرة جداً في النزول دليل قاطع على أن القصة لم تكن مجهولة عند النبي ﷺ والسامعين قبل البعثة . وإذا كانت سور أخرى نزلت بعد ، واحتوت تفصيلاً أكثر عن القصة مثل ما جاء في آيات سورة الصافات (١٣٩ - ١٤٨) فالمتبادر ان لذلك حكمة سامية ، ولكنها لاتنقض الدليل من دون ريب ، وهذه القصة واردة بتفصيل في سفر يونان بن متى من أسفار العهد القديم المتداول اليوم ، والذي نعتقد أنه كان متداولاً في زمن النبي ﷺ وبيئته في أوساط الكتابيين ، وهناك حديث رواه مسلم وأبو داود عن النبي ﷺ جاء فيه «ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى» ونسبه إلى أبيه واسم الأب لم يرد في القرآن ، وإنما ورد في سفر يونان بصيغة (متى) . وفي سيرة ابن هشام حديث

(١ و ٢) والمقصود هم قوم لوط وبلادهم المدمرة الواقعة على ضفاف بحيرة لوط في غور الاردن . وكان تجار الحجاز يبرون بها أثناء ذهابهم الى مصر وفلسطين للتجارة ، فيرون آثار الدمار ويسمعون قصته .

يذكر أن النبي ﷺ حينما ذهب إلى الطائف قدم له غلام طبقاً عليه قطف عنب فسمى أولاً اسم الله ، ثم أكل ، فأكب الغلام على يده يقبلها ويقول : إن هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد فسأله النبي ﷺ من أي بلد هو ؟ فقال له : إنه من نينوى ، فقال له : «بلد يونس بن متى» فقال له : ومن أين عرفت يونس بن متى ؟ فقال له : «هو نبي ، وأنا نبي مثله» ونينوى لم تذكر في القرآن ، وإنما ذكرت في السفر المذكور .

٧ - ومثل هذا يقال في الإشارة الخاطفة المقتضبة في سورة المزمل ثالث سورة في ترتيب النزول إلى فرعون وهي :

(إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا . فَعَصَىٰ فِرْعَوْنَ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا .) ١٥ و ١٦

فقصص موسى وفرعون مما كان معروفاً متداولاً في بيئة النبي ﷺ قبل البعثة ومبثوثاً بسعة في أسفار العهد القديم التي كان يتداولها أهل الكتاب فيها . وفي آية سورة القصص هذه :

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ .) ٤٨

دليل قاطع على أن هذه القصص كانت معروفة عند أهل بيئة النبي ﷺ من المشركين العرب قبل البعثة .

٨ - ومثل هذا يقال في أولى إشارة إلى قصة صالح وثمرود وناقتهم في سورة الشمس التي هي من السور المبكرة جداً في النزول وهي :

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذْ أُنْبِئَتْ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا .) ١١ - ١٥

فالإشارة المقتضبة في سورة مبكرة جداً دليل على أن سامعي القصة يعرفونها ، وهذه القصة قصة عربية ، ومنازل ثمود وآثارهم في حدود الحجاز الشمالية مما يسمى اليوم مدائن صالح ، ولا محل للريب في أن قصة صالح وقومه وناقته ودمارهم من القصص التي كان

يتداولها أهل بيئة النبي ﷺ جيلاً عن جيل . وفي سورة العنكبوت آية تذكرهم بأنهم يعرفون ذلك معرفة مشاهدة وسامع معاً وهي :

(وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيْنَ هُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .)

٩ - ومثل هذا يقال في الاشارات المقتضية الواردة في آيات سورة ص ١٢ و ١٣ وسورة ق ١٢ - ١٤ والفجر ٦ - ١٤ إلى الأقسام السابقين حيث يصح القول بجزم : إن هذه الاشارات دليل على أن السامعين للقرآن من العرب يسمعون أسماء أقوام يعرفون قصصها قبل أن ينزل القرآن .

١٠ - وفي سورة الأنبياء آية يصح ان تورد في هذا المساق وهي :

(بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ .)

حيث ينطوي في قولهم الأخير أنهم كانوا يعرفون خبر الرسل السابقين ، وما كان يظهر على أيديهم من آيات ومعجزات .

وآيات سورة الفجر ٦ - ٤ التي تشير الى عاد وثمود وفرعون وآية سورة الفيل (١) التي تشير الى وصحاب الفيل تبدأ يحمله (ألم تر) التي نرجح والله أعلم أنها بمعنى (ألم تعرف) أو (ألم تعلم) وهي موجهة الى النبي ﷺ أو الى سامعي القرآن للمرة الاولى والجملة تفيد أن هذه القصص مما كان يعرفه النبي ﷺ والسامعون . فاقترضت حكمة التنزيل التذكير بذلك في معرض العظة والدعوة الى الاعتبار .

وفي القرآن آيات فصصية عديدة أخرى تبدأ بمثل هذه الجملة وتفيد بالتالي ذلك (١) .

وفي آخر سورة يوسف هذه الآية (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

(١) اقرأ مثلاً آيات سورة البقرة ٢٤٣ و ٢٤٦ و ٢٥٩ ويسى ٣١ وهناك غير هذه الآيات .

يُؤْمِنُونَ) . ففي الفقرة الثانية من الآية دلالة على ان ما في السورة من قصة يوسف وفي السور الاخرى من قصص أخرى هو مما ورد في كتب سابقة للقرآن ومتطابق . وقصة يوسف وردت في سفر التكوين من أسفار العهد القديم . وفي ما ورد في النسخة المتداولة اليوم من هذا السفر وما ورد في سورة يوسف كثير من التطابق. والمرجح أن ما جاء في القرآن ولم يرد في هذا السفر المتداول قد ورد في النسخ التي كانت متداولة في زمن النبي وبيئته من هذا السفر . وقد تضمنت الفقرة الاولى من الآية دلالة على النقطة الثانية من المسألة أي على ان قصص القرآن إنما كانت للعبرة والعظة وهو ما سوف تزيده شرحاً ومما تكررت الاشارة اليه في القرآن .

ومما يحسن ملاحظته ان القصص القرآنية هي إما قصص أمم وأنبياء في جزيرة العرب مثل هود وقومه عاد وصالح وقومه قومود وشعيب ومدين وذى الكفل والرس ولقمان الخ . وإما قصص إمام وأحداث وأنبياء وردت في أسفار العهد القديم التي كانت متداولة مثل ابراهيم واسماعيل ويعقوب ولوط وموسى وهرون وداود وسليمان ويونس وأيوب وزكريا ويحيى والياس واليسع أو وردت في العهد الجديد مثل قصة حبل وولادة عيسى ورسالاته ومعجزاته وكل هذا مما كان معروفاً ومألوفاً رواية وسامعاً لدى سامعي القرآن .

ولا يخرج عن ذلك ما أشير إليه من غلب الروم في سورة الروم وذى القرنين وبأجوج ومأجوج في سورة الكهف التي كان منها ما ورد في الأسفار أو ما كان مسموعاً معروفاً لأنها كانت تجري في أقطار قريبة لجزيرة العرب وأهلها .

ولقد كان حتماً في الدنيا أمم وبلاد كثيرة . وفي القرآن آيات تذكر أن هناك أنبياء وأمم لم يقصص الله قصصهم في القرآن (لقد ارسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ...) ومع ذلك فالقصص القرآنية اقتضرت مكررة مسهبة ومقتضية على ما هو المعروف سماعاً ورواية وكتابة لدى سامعي القرآن الأولين وهذا مما يؤيد ما قلناه .. والله اعلم .

أما النقطة الثانية ، أي : كون القصص لم ترد في القرآن لذاتها ، وإنما وردت للعة والتذكير والالزام والافحام والتنديد والوعيد والتسلية والتثبيت ، فهو ظاهر في أسلوب جميع القصص القرآنية الذي لم يكن سرداً تاريخياً ، والذي تخلله الوعظ والارشاد والتبشير والانذار بل الذي جاء سبكه وعظاً وارشاداً وتبشيراً وإنذاراً وتنبهاً وتذكيراً . ثم في سياق إيراد القصص ، حيث تورد على الأعم الأغلب عقب التذكير والتنديد والتسلية والتطمين والموعظة وحكاية مواقف الكفار وعنادهم وحجاجهم أو بين يدي ذلك . ثم في تكرار القصص في سور عديدة بأساليب متنوعة ، وصيغ مختلفة بعض الشيء بسبب تنوع وتجدد المواقف النبوية دعوة وحجاجاً وتنديداً وبياناً ، وعظة وتذكيراً ، وإنذاراً وتبشيراً سنين طويلة ، وتجاه فئات مختلفة مما هو مبثوث في مختلف السور وبخاصة المكية ، وفي غنى عن التمثيل مع بروز القاسم المشترك الذي يجمع بين هذه الصيغ ، وهو الأسلوب من جهة ، وقصد العظة والتذكير ، والمثل من جهة ، وكون ما جاء فيها مما ليس غريباً كلياً وجزئياً عن السامعين من جهة .

ويلفت نظر القارئ إلى آيات سورة الحج ٤١ - ٤٦ وآية سورة العنكبوت ٣٨ وآيات سورة الصافات ١٣٣ - ١٣٨ التي أوردناها قبل - وهناك آيات كثيرة من بابها منها هذه الآيات :

- ١ - (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَاِ الْمُرْسَلِينَ .) الانعام : ٣٤
- ٢ - (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ . قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَرِّجَكُم إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ .

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنَ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ . وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . (ابراهيم : ٩ - ١٥)

٣ - (اَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ .) التغابن : ٥ - ٦

٤ - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى . فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزْكَى . وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَحْشَى . فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى . فَكَذَّبَ وَعَصَى . ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى . فَحَشَرَ فَنَادَى . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى . فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَحْشَى .) النازعات : ١٥ - ٢٦

٥ - (اَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَعَفُوا فِي الْبِلَادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ .)

الفجر ٦ - ١٤

حيث يبدو هذا الهدف صريحاً قاطعاً وماثلاً أمامه ، وفي سورة يوسف هذه الآية بعد تفصيل قصة يوسف وإخوته التي تخللها حكم ومواعظ ، وعبر عديدة :

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .)

حيث يبدو الهدف المذكور صريحاً وقاطعاً أيضاً . كما يبدو فيها دليل أو قرينة على

النقطة الاولى أيضاً .

وأما النقطة الثالثة ، أي : كون القصص من التشابهات التي تحتل وجوهاً عديدة للتأويل أو التي يعجز عقل الانسان عن إدراك سرها وتأويلها ، ويكون من واجب المسلم المخلص أن يكتفي بالقول (أما به كل من عند ربنا) فهي ماثلة في كثير من آيات القصص وصيغها المتنوعة التي لا يعيا عن لمحها المتوسطون في الثقافة فضلاً عن الرفيعين فيها . ومن الامثلة البارزة على ذلك قصة خلق آدم ، فقد ذكرت آية البقرة (٣٠) ان الله سبحانه أراد من خلقه أن يجعله خليفة في الأرض ، ومع ذلك فإنه أسكنه الجنة هو وزوجته ولم يخرجهما منها الى الأرض إلا عقوبة على أكلهما من الشجرة المنوعة كما جاء في آيات البقرة (٣٥ - ٣٧) والأعراف (١١ - ٢٧) وغيرها . وقد ذكرت بعض الآيات أن الله خلقه من تراب (٥٩ آل عمران) وبعضها أنه خلقه من طين (ص ٧٦) وبعضها انه خلقه من صلصال كالفخار (الرحمن ١٤) وبعضها أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون (الحجر ١٨) وخطب في بعضها الناس جميعهم في معرض خلق الانسان الأول (الأعراف ١١ والمؤمنون ١٢ - ١٥ والسجدة ٧ - ٩) وذكر في بعضها ان الملائكة راجعوا الله ، وجرى حوار بينه وبينهم في صدد خلق آدم ، وأن الله علم آدم الأسماء كلها ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ، فسجدوا إلا إبليس ، فطرده الله ، فطلب إنظاره ، فأنظره ، فألى على نفسه أن يغوي ذرية آدم (البقرة ٣٠ - ٣٦ الأعراف ١١ - ١٨ وص ٧١ - ٨٥) .
فما احتوته هذه الآيات ما يتحمل تأويله وجوهاً عديدة ، ومنه ما لا يدرك عقل الانسان سره .

- ٢ -

ومن الحكم المتبادرة في النقطة الأولى بخاصة أي : في كون قصص القرآن مما كان يعرفه السامعون أن المخاطبين يتأثرون بما احتوته الحادثة أو القصة التي تورد عليهم من موعظة أو مثل ، أو تذكير أو زجر وتنبيه ودعوة الى الاعتبار والارعاء والتأسي والتدبر في العاقبة .

إذا كانت مما يعرفونه أو يسمعون عنه . حتى ولو كان في نطاق هذه المعرفة والسماع ضيق من حيث التفصيل ، أو عدد الاشخاص العارفين والسامعين . أما إذا لم يكن أحد يعرف ذلك فان الكلام لا يكون مستحکم الالتزام والافحام والتأثير والعبرة ، ولا سيما على مخاطبين كافرين بأصل الدعوة التي يراد التذكير بمواقف الغير والسابقين من مثلها ومصائرهم بسبب هذه المواقف ، أو جاهلين للحادثة التي يراد استخراج العبرة من سيرها وظروفها وعواقبها .

وملاحظة ذلك مع ملاحظة هدف القصص القرآنية ، وكونها لم ترد لذاتها أو للسرد التاريخي ، ومع ملاحظة أن كثيراً من عباراتها يدخل في وصف التشابهات التي تحتل وجوهاً عديدة للتأويل أو التي يعجز عقل الانسان عن سرها وتأويلها مما شرحناه آنفاً ضرورة بل واجبة على من حسنت نيته من الناظرين في القرآن والراغبين في فهم مداه ، ومن شأن ذلك أن يعصمه من الاستغراق في ماهيات وقائع ما احتوته القصص التي لم ترد لذاتها ، وأن يغنيه عن التكلف والتجوز والتمحل في التخريج والتأويل والتوفيق ، وأن ينجيه من الحيرة أو التساؤل في صدد تلك الماهيات والوقائع ، وأن يجعله يبقي القرآن في نطاق قدسيته وهدفه من التذكير بالمعروف والارشاد والموعظة والعبرة . ولا يخرج به إلى ساحة البحث في الوقائع ، وما يكون من طبيعته من الآخذ والرد والنقاش والجدل والتشكيك على غير طائل ولا ضرورة . ولا سيما أنها ليست من المحكمات والأسس الدينية ، إنما هي كما قلنا من الوسائل التدعيمية والمتشابهات التي لا ضرورة دينية للاحاطة بوقائعها وماهياتها ومداه ، ولا للتوسع والتزيد فيها في سياق التفسير .

وإذا كان غير واحد من المفسرين المطولين قد تورطوا في ذلك ، وأوردوا بيانات كثيرة على هامشها ، شابهها كثير من الخيال والاغراب والتكلف حتى شغل ذلك الحيز الاكبر من كتبهم ، وصارت القصص نتيجة لذلك قديماً وحديثاً شاغلة لأذهان الناس والمسلمين ، وكادت أن تغطي على أهداف القرآن ومحكماته ، وصارت مثار جدل بنسبيل إنباتها وإنكارها

وتعليقها ، واستكشاف الحقائق ، والأحداث التاريخية منها حتى تعرض القرآن للجدل والنقاش بسببها ، فان القرآن لا يتحمل مسؤوليته ، وإن كان ذلك يدل على أن بيئة النبي ﷺ كانت تتداول كثيراً من الروايات المتصلة بهذه القصص ، وبالتالي يؤيد ما قلناه من أن أهل هذه البيئة كانوا يعرفون ، ويتداولون الشيء الكثير عنها . وفي القرآن الدليل الناصع القاطع على أن ذلك ليس من أهداف قصصه ، وأن أهداف قصصه هي ما ذكرناه من العظة والعبرة والانذار والتبشير والتسليّة والتطمين على ما نبهنا عليه آنفاً ، وعلى ما يستطيع أن يلمحه كل ناظر في القرآن ، ويظل الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجازها منها بالأسلوب الذي أوحى به هو الحق الأولى بالقول والتقرير . مع واجب التنبيه على أن آيات القصص جاءت بأسلوب يجعل ما احتوته من هذه الأغراض غير قاصر على سامعي القرآن لأول مرة ، بل شاملاً وعاماً ومطلقاً على الأعم الأغلب لتكون كذلك بالنسبة للأجيال الإنسانية التالية إلى ما شاء الله ليجدوا فيها العبرة والعظة والتلقين والتوجيه والتشريع والطمأنينة ، وهو الأسلوب الذي تميز به القرآن ، ورشحه للخلود والشمول .

ويجنح بعض العلماء والمفسرين إلى القول أو الظن بأن النبي ﷺ لم يكن يعلم شيئاً من القصص القرآنية التي كان يوحى بها إليه قبل نزولها ، بل وإلى القول إن جميع معارف النبي ﷺ ومكتسباته هي من الوحي وحسب ، ولسنا نرى هذا وجيهاً لا من وجهة نظر الوحي القرآني ، ولا من وجهة نظر النبوة ، ولا من وجهة نظر الوقائع والحقائق . فالنبي كان يعيش قبل نزول الوحي عليه في بيئة فيها كتابيون يروون ما في كتبهم من قصص ويتداولونها ، وهناك روايات تذكر أن النبي ﷺ كان يسمع منهم ما في كتبهم . وفي القرآن إشارة ما إلى ذلك حيث كان المشركون يعرفون اتصاله بهم فنسبوا ما يقوله إلى تعليمهم ، وقد تضمنتها آية سورة النحل هذه :

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا

وَزُورًا) (٤)

والآيات تنفي التعليم والاعانة دون الاتصال ، ولم يكن المشركون يقولون ذلك لو لم يروا اتصاله بهم . وهو ما أيدته روايات عديدة في كتب السيرة والتفسير مع ذكر أسماء لأفراد من أهل الكتاب كانوا في مكة . (١)

وكان أهل بيئة النبي ﷺ يرحلون إلى البلاد المجاورة للجزيرة التي كانت بينات متحضرة وكتابية على الأغلب مثل العراق والشام ومصر والحبشة وجنوب الجزيرة ، ويسمعون من أهلها مختلف الأنباء والأخبار الحاضرة والغابرة ، ويرون فيها مختلف المشاهد الحاضرة والغابرة ، وقد أشير إلى ذلك في بعض آيات قرآنية أوردناها قبل ، وكان النبي ﷺ نفسه قد قام ببعض الرحلات في شبابه إلى هذه البلاد ، وسمع ورأى وشاهد ،

(١) اطلع الدكتور محمد أديب الصالح الاستاذ في كلية الشريعة الاسلامية السورية ورئيس تحرير مجلة «حضارة الاسلام» الدمشقية على المخطوطة ، فنبه على أن كلامنا قد يستغله ذوو القلوب المريضة ، ونفى عدم فتح الباب لهم ، ونقول أولاً : إن ذوي القلوب المريضة من ملحدين ومبشرين لا يجهلون ما ورد في كتب التفسير والسيرة ، ولا تفوتهم ما في القرآن من إشارات . وثانياً : انه ليس في كلامنا وفي ما أوردناه من روايات ما يستطيعون أن يستغلوه بحق وصدق في صدد صحة نبوة النبي ﷺ ، وصحة الوحي الفراني ، وإذا فعلوا فيكون منهم تمحلاً متهافتاً ، وهم يفعلون سواء أكتبناه أم لم نكتبه رغم ما يكون في ما يفعلونه من تمحل وتهافت . وقد رأينا من الحق والاولى أن يبقى جميع ما كتبناه لأننا أردنا أن نضع الامر في صده في نصابه الحق وأن يكون فيه رد وافحام لكل متمحل متواقع ، ونرجوا الله أن يكون قد الهمننا الصواب ، وحققنا ما أردنا . وتتعلم هذا من كتاب الله الكريم . فهو يسجل كل ما صدر عن الكفار والمجاهدين ، من العرب وغير العرب ، وكتابين وغير كتابيين في صدد القرآن ، وفي شخص النبي ﷺ من تخرصات وأقوال وتهمة وسخرية وتحد وتكذيب ونسبة الافتراء والجنون والسحر والكهانة والشعر والافتباس من الأساطير السابقة والتعلم من الغير والاستعانة بهم بدون أي تخرج ، ويرد عليها الردود القوية القارعة المفحمة الملزمة مما مرت شواهد قبل ، لأنه الحق الذي يدفع الباطل فإذا هو زاهق ، ولأن كتاب الله هو العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولأن الله اصطفى رسوله ليكون رحمة للعالمين .

ورواة العرب يروون ما يتناقله الأجيال من أخبار وأحداث وقصص عربية ، فليس من المعقول ولا من الطبيعي أن يقال : إن النبي ﷺ ، كان يجهل هذه القصص كلياً أو جزئياً . وفي ما ذكرناه في صدد قصة يونس دليل بالنسبة للنبي ﷺ خاصة في الرقم (٦) من شواهد النقطة الأولى ، ومعرفة النبي ﷺ لهذه القصص قبل نزول القرآن الكريم لا يمكن أن تتعارض مع وحي الله القرآني بها ، ولا مع نبوة النبي ﷺ ، لأن الوحي القرآني بالقصص قد استهدف كما قلنا : التمثيل والتذكير والانذار والموعظة والتسلية والتثبيت ولم يستهدف التاريخ والأخبار والسرد والتعريف .

ويتبادر لنا أن ذلك القول أتى من عدم النفوذ إلى مرمى وهدف الوحي بهذه القصص عن حسن نية . وليس تعارض قط بين وحي ما اقتضت حكمة التنزيل إيجازها منها بالاسلوب الذي أوحيت به وبين ما يمكن ويصح أن يكون النبي ﷺ قد عرفه منها قبل نزول الوحي بما نزل منها . ولقد كان في بيئة النبي ﷺ تقاليد دينية ، واجتماعية متنوعة ، وكان يجري فيها أحداث متنوعة شاهد النبي بعضها ، وسمع بعضها ، وعاش بعضها ، ولقد ذكر القرآن كثيراً من ذلك ، وليس من أحد يدعي أو يصح أن يدعي أن النبي ﷺ لم يكن يعرف ذلك قبل بعثته ، وهذا وذاك من باب واحد .

وواضح أن هذا ليس بمخل بقدر النبي ﷺ وعظمته التي انما كانت تقوم في الحقيقة على ما امتاز به من عظمة الخلق وقوة العقل ، وصفاء النفس ، وكبر القلب ، وعمق الايمان والاستغراق بالله . ولقد قرر القرآن طبيعة النبي ﷺ البشرية مما أوردنا نصوصه في مناسبات سابقة ، وهذا متصل بهذه الطبيعة التي من البديهي جدا أن لا تتناقض مع معرفة النبي ﷺ ما كان متداولاً في بيئته أو في أي بيئة ونحلة تيسر له الاتصال بأهلها من أقوال وأفكار وأخبار وعقائد وتقاليد وظروف وأحداث حاضرة وغابرة ، بل إن من البديهي جدا أن يكون عارفاً ملماً بكل ذلك غير غافل عنه ، وأن هذا هو المعقول الذي لا يصح في العقل غيره ، وأتينا لنشعر بالدهشة مما أبداه ويديه بعض العلماء المسلمين من حرص على

توكيد كون النبي ﷺ لم يكن له معارف مكتسبة . مما لا يتسق مع المنطق والعقل والبداهة توهماً بأن في هذا مأخذاً ما على كون ما بلغه النبي ﷺ من القرآن الذي فيه الأخبار والقصص السابقة أتى من هذه المعارف ، ونرى في هذا التوهم خطأ أصلياً في فهم معنى ومدى الرسالة النبوية التي هي هداية وارشاد ودعوة والتي لا يعهد بمهمتها العظمى إلا لمن يكون أهلاً لها في عقله وخلقه وروحه وإيمانه ووعيه وعدم غفلته عما يدور في المجتمع الذي بعث إليه كما ذكرت آية الأنعام :

(اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .) ١٢٤

كما أنه أت فيما يتبادر لنا من عدم ملاحظة كون القرآن نوعين متميزين أسساً ووسائل .
ومما يورده بعضهم آيات سورة العنكبوت هذه :

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتُ بَيِّنَاتٍ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ .) ٤٨ و ٤٩

التي فيها دلالة على أمية النبي ﷺ حيث يظنون على ما يبدو أن اكتساب المعارف والاطلاع على ما عند الناس من أخبار وأفكار ، إنما هو حصر على القارئ الكاتب ، وليس هذا صحيحاً دائماً . كما أنه ناشئ من قياس الغائب بالحاضر ، وهو قياس مع الفارق أيضاً ، والآيات والله أعلم بسبيل تقرير كون الدعوة التي يدعو إليها النبي ﷺ ، وما يبلغه في صدها إنما هو وحي رباني غير مقتبس من كتاب ، وبسبيل تنبيه المشركين الى أنه لا يصح أن يكون عندهم شك في ذلك لأنهم يعرفون أنه لم يكن يقرأ ويكتب ، وأنهم إذا جحدوا آيات الله التي يبلغهم إياها النبي ﷺ الذي اختصه الله بمهمته وبياناته ، فيكونون ظالمين مكابرين . وأمية المرء لم تكن في وقت من الاوقات مانعة من أن يخترن كثيراً من المعارف والصور والروايات ، والنصوص الطويلة سماعاً ومشاهدة . وهناك من يفوق في ذلك غير الأميين ، وهذا بالاضافة إلى أن الأمية في الزمن القديم ، وفي بيئة النبي كانت هي الغالبة ، ولم يكن هذا ليمنع نبهاء هذه البيئة من اختزان المعارف

والصور والروايات ، والنصوص المحلية والعالمية التي كانوا يشاهدونها ويسمعونها في بيئتهم ، وخارج بيئتهم .

ومما يورد أيضاً للتدليل على ان النبي ﷺ لم يكن ذا نشاط وحركة وتطلع ما قبل نزول الوحي عليه هذه الآيات :

١ - (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.) يونس : ١٦

٢ - (وَمَا كُنْتُ تُرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ.) القصص : ٨٦

٣ - (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ.) ص : ٨٦

٤ - (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ.)

الشورى : ٥٢

والآيات قد تفيد شيئاً من ذلك ، ولكنها لا يمكن أن تفيد أن النبي كان غافلاً عما يجري ويروى ويتداول في بيئته من أخبار وأحداث وصور ومشاهد حاضرة وغابرة .

- ٣ -

ويشترك الملحدون ، والمبشرون الحاقدون معا في غمز النبي ﷺ والقرآن بسبب ما بين بعض القصص القرآنية والاسفار والكتب التي وصلت إلينا والتي كانت على الاغلب متداولة في زمن النبي ﷺ بين أيدي أهل العلم والكتاب من تطابق ما ، ويقولون : إنها مقتبسة منها ، ولقد قال كفار العرب ذلك في مواجهة النبي ﷺ ، وحكاه القرآن عنهم بدون أي حرج مؤكداً أن الله الحكيم الذي يعلم السر هو الذي أوحى به وأنزله ، كما ترى في آيات سورة الفرقان هذه :

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ

السَّرُّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (٥ و ٦)

ونقول ردا على الغامزين المحدثين : إن ما بين القصص القرآنية والاسفار والكتب القديمة من تطابق ليس من شأنه أن يطعن بصحة وحيتها الالهية ، لأنها لم تجيء للسرد التاريخي ، وإنما للعة والعبرة والتذكير ، وليس من تعارض بين هذا وذاك ، بل إن ذلك من الحكمة المتبادرة من إيرادها في القرآن كذلك على ما شرحناه قبل من حيث إن السامعين يتأثرون بما يعرفون . فليس من محل ولا معنى للغمز والنقد كما هو واضح ، بل إن في الغمز والنقد دليلا على غفلة الغامزين والناقدين عن مدى وهدف الوحي القرآني بالقصص . ولقد غمزوا النبي ﷺ والقرآن كذلك ، لأن بعض القصص التي ذكرت في القرآن وردت أو ورد ذكر أصحابها في الاسفار والكتب التي وصلت إلينا جاءت متبانية زيادة ونقصا ومشاهد مع ما ورد في القرآن . ومن ذلك مثلا تسخير الجن والريح والطير لسليمان والجال والطير والحديد لداود ، وقصص إبراهيم مع قومه وملكه ، وجزئيات كثيرة في قصص آدم ونوح ويوسف وموسى وفرعون وبني إسرائيل ويونس وإيوب الخ . وقالوا إن النبي خلط وأخطأ فيها ، أو اخترع ما ليس واردا منها في الاسفار والكتب . وهذا القول متهافت والمتمعن فيما جاء في الصيغ القرآنية لا يجد له ضرورة فنية ولا اسلوبية - ونقول ذلك من قبل المساجلة - حتى يخترعه النبي ﷺ ، ويزيد عليه وينتقص منه ، ولا يستطيع أحد أن يدعي بصدق أن الاسفار والكتب المتداولة اليوم هي كل ما كان في أيدي أهل العلم والكتاب والامم الاخرى في زمن النبي وقبلة ، وفي أسفار العهد القديم التي وصلت إلينا أسماء أسفار عديدة من جملتها سفر التوراة شريعة موسى لم تصل إلينا . وفي الأناجيل

(١١) حكمت آيات أخرى مثل هذا الزعم للكفار وردت عليه وقد اوردناه في الفصل الأول .

وقد فسر المفسرون كلمة (اكتتبها) بمعنى (استكتبها) لانه لم يكن يكتب وكلمة (تملى عليه) لانه لم يكن يقرأ . وهذا وذاك صحيح . وقد قال الكفار ذلك لأنهم يعرفون أنه لا يقرأ ولا يكتب . وهذه الآية أقوى دلالة على أمانة النبي من آية العنكبوت .

المتداولة اليوم ، وفي الأسفار الملحقه بالأناجيل التي تنعت جميعها باسم (العهد الجديد) ذكر لأنجيل عيسى ، ولم يصل إلينا ، وهناك روايات عن أناجيل عديدة أخرى لم تصل إلينا وبين نصوص الأسفار التي وصلت إلينا من مجموعتي العهد القديم والعهد الجديد تضارب وتناقض وزيادة ونقص واختلاف مشاهد حيث يفيد هذا أن الذين كتبوها قد أستقوها من مصادر مختلفة ضاعت أو بادت ، ولقد أكتشفت في مغارة في جهة البحر الميت أوراق من سفر أشعيا قال الدارسون : إن بينها وبين ما هو متداول معروف من هذا السفر تباينا . وهذا يعني أنه كان هناك نسخ عديدة للسفر الواحد بينها تناقض وتباين ، وكل هذا ما يصح القياس عليه ، وفي القرآن آيات تذكر أن أهل الكتاب كانوا يخفون كثيرا مما في أيديهم ، منها آية سورة المائدة هذه :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ .) ١٥

ومنها آية سورة الانعام هذه :

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا .) ٩١

وفي سورة النمل هذه الآيات :

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَاقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُ لَهْدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ .) ٧٦ و ٧٧ .

حيث تفيد أن القرآن قد جاء بما هو الحق والصدق والصحيح . وفي سورة المائدة هذه الآية .

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ .) ٤٨

حيث تفيد أن القرآن متطابق في الأسس والأهداف مع كتب الله السابقة ، وأنه ضابط لما هو الصحيح من وحي الله ، ومصحح لما يمكن أن يكون وقع في هذه الكتب من تحريف ورقب عليها .

ولقد كانت هذه الآيات ، وآيات القصص القرآني تتلى علناً ، ويسمعوها أهل الكتاب ولا يمكن أن يكون ما جاء فيها جزافاً ، وغير وارد في أسفار وقراطيس في أيدي أناس أو غير مروي على ألسنة أناس ، ثم ضاع أو نسي ، ولقد آمن كثيرون منهم قدروا على التغلب على أنانياتهم وأهوائهم ، وأعلنوا صدق القرآن على ما أوردنا شواهد القرآنية قبل . وليس هناك أية رواية فيها إنكار أهل الكتاب لشيء مما ورد في قصص القرآن ، ولقد حكى القرآن بدون حرج نسبة الكفار إلى النبي ﷺ بافتراء القرآن وكذبه ورد عليهم ، فلو كان صدر شيء من ذلك من أهل الكتاب لحكاه ورده عليهم .

وفي كل هذا حجة لاقتناع من يبغي الحق ، ولا يكون موقفه موقف المكابر العنيد الذي جعل إلهه هواه .

- ٤ -

ونحن نعرف أن هناك ما يمكن إirاده على النقطة الأولى ، وهي كون القصص مما كان معروفاً من النبي ﷺ والسماعين ، حيث ورد في القرآن آيات قد يبدو أنها تناقض ذلك كما ترى فيما يلي :

١ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَامُهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ) . آل عمران : ٤٤

٢ - (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ

(١) هذه الآية من سياق الآيات التي حكمت نذر أم مريم ما في بطنها ، وكفالة زكريا لمريم وبشارة زكريا بحبي وعناية الله

هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (١) . هود : ٤٩

٣ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ

(٢) . يوسف : ١٠٢

ونقول في صدد ذلك : إن قصتي نوح ويوسف عليهما السلام قد وردتا في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم المتداول اليوم ، والذي نعتقد أنه كان متداولاً في بيئة النبي ﷺ ، وجاءتا قريبتين جداً مما وردتا في القرآن ، وكان النبي ﷺ ، وأهل بيئته متصلين بالكتابين ويعرفون أخبار ما عندهم ، وما في كتبهم على ما تفيد آيات عديدة أوردناها قبل ، فليس مما يصح فرضه أن النبي ﷺ والعرب السامعين أو بعضهم لم يكونوا يعرفون هاتين القصتين .

ولقد أشير إلى نوح وموقف قومه من رسالته إشارات خاطفة في سور مبكرة في النزول بأسلوب يلهم أن قصتهم مما كان معروفاً متداولاً من قبل سامعي القرآن مثل سورة النجم (الآية ٥٢) وسورة ق (الآية ١٢) وسورة القمر (الآيات ٩ - ١٥) وسورة ص (الآية ١٢) .

ولقد ذكر في سورة نوح أسماء أصنام قوم نوح (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) وذكرت الروايات أن قبائل عربية في زمن النبي ﷺ وقبله كانوا يعبدون هذه الأصنام ، ويعرفون ويقولون : إنها أصنام قوم نوح . ولقد وردت قصة نوح مفصلة بعض الشيء في سور ترتيبها سابق لسورة هود في النزول مثل سور الاعراف ويونس والقمر ، وليس فيها تنبيه مثل التنبيه الذي احتوته آية سورة هود ، ووردت مفصلة أيضاً في سورة الشعراء والصفاء ونوح والأنبياء والمؤمنون والعنكبوت خالية من مثل هذا التنبيه . وفي أول قصة يوسف في سورة يوسف هذه الآية :

(لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُسَائِلِينَ .) ٧

١) هذه الآية جاءت عقب قصة نوح عليه السلام .

٢) هذه الآية جاءت عقب تفصيل قصة يوسف وإخوته .

وهذا النص يفيد أن من السامعين العرب من كان يسمع بقصة يوسف ، وأنهم طلبوا من النبي تفصيلا لذلك ، فأوحى الله اليه بالقصة كما جاءت في سورة يوسف ، ومتطابقة كثيرا مع ما جاءت في سفر التكوين المتداول اليوم مع تباين في بعض الجزئيات ، ولا نرى هذا يتناقض أو يتعارض مع احتمال أن يكون النبي ﷺ يعرف تفصيل هذه القصة في سفر التكوين أو نسخه المختلفة المتعددة التي يمكن أن يكون بينها تباين ، ولم يصل إلينا منها إلا النص المتداول ، وقصة بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليها السلام واردة في الاصحاح الاول من انجيل لوقا المتداول اليوم بما يقرب لما ورد من ذلك في سورتي مريم وآل عمران ، وفي الاصحاح خبر حبل امرأة زكريا بيهي وهي في شيخوختها بأمر الله وقدرته ، ووصفت بأنها نسيبة مريم ، وهذا يعني أن حياة مريم قبل ولادتها لعيسى ونذر أمها بما في بطنها ، وكفالة زكريا لها ، والاختلاف على كفالتها ، والاقتراح على ذلك بما عبر عنه القرآن (يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) كل ذلك مما يمكن أن يكون متداولاً في أوساط النصارى في البيئة النبوية ، ومما يمكن أن يكون قد سمعه وعرفه كليا أو جزئيا النبي ﷺ وقومه .

ولقد قال المفسر الخازن تعليقا على آية سورة هود : إن قصة نوح مشهورة ، وإنه ليس مما يحتمل أن لا تكون معروفة ، وإنه يجب صرف الآية الى قصد عدم معرفة النبي وقومه جميع تفصيلاتها . وهذا قول وجيه ، مع إضافة شيء عليه ، وهو عدم معرفة النبي وقومه جميع التفصيلات التي جاءت في سورة هود بخاصة ، لأن مثل ذلك التنبيه لم يرد في سياق القصة في السور الاخرى .

ويصح أن يشمل هذا القول ما جاء في سورة يوسف من تفصيلات في قصة يوسف وإخوته ، وما جاء في سورة آل عمران في قصة مريم أيضاً ، حيث تكون حكمة التنزيل اقتضت الإيحاء بما كان النبي ﷺ وقومه لا يعرفونه من تفصيل القصص الثلاث ، ونبه على أن هذا ليس من شأنه أن ينفي أن تكون هذه التفصيلات واردة في قراطيس أو روايات كان يتداولها أهل الكتاب والله أعلم .

وهناك آية أخرى قد تساق أيضاً وهي آية سورة يوسف هذه :
(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ
لَمَنِ الْعَافِينَ .) ٣

وإزاء ما ذكرناه وشرحناه من حقائق ووقائع لا مناص من تأويل الآية بتأويل
لايتناقض مع ذلك أيضاً ، فيقال والله أعلم بتأويله : إن القصد هو التنبيه على أن النبي
ﷺ كان غافلاً عن حقيقة تلقي وحى الله القرآني ، أو عن أمور كثيرة من قصص
السابقين .

- ٥ -

ويتظارف بعض الأدباء ، ومنهم مسلمون ، فيطلقون على أسلوب القصص القرآنية
نعت (الفن القصصي) في القرآن ، ولاندرى ماذا يقصدون من ذلك ، فإذا كانوا يعبرون
بهذا الوصف عن توهم كون القصص القرآنية حبكت بالخيال والتزويق والافتعال كما هو
شأن القصص ، ففي ذلك تجوز وسوء أدب ، لأن القصص القرآنية منزهة من كل ذلك .
فقد كانت كما قلنا معروفة مروية متداولة ، فأوحى الله بها بالأسلوب والفحوى اللذين
أوحيت بهما لتحقيق هدف الموعظة والتذكير والتمثيل والعبرة والالزام الافحام والانذار
والتبشير ، وقد يكون من مقاصدهم بذلك النعت التنويه بروعة الأسلوب الفني الأدائي
الذي جاءت عليه هذه القصص وما فيها من صور كلامية رائعة ، وهذا خطأ بدوره ، لأن
روعة الأسلوب والصور الكلامية في القصص القرآنية ليستا أمراً متميزاً عن روعة الأسلوب
والصور الكلامية في سائر مواضيع القرآن وآياته وفصوله ، فكل هذا بارز في كل مواضيع
القرآن الأخرى سواء أكانت أمثالا أم آيات في مشاهد الكون والخلق ، أم في المشاهد
الأخرى ، أم في الجهاد ، أم في الأخلاق والاجتماع ، أم في الجدل والحجاج ، أم في الانذار
والتبشير ، ففي كل ذلك كما في فصول القصص من الصور الكلامية الرائعة والأسلوب
الآخاذ .^١ هو نافذ الى أعماق القلوب والعقول ، وكل ما جاء في القرآن من ذلك قد هدف

الى هدف وحقق الهدف الذي جاء من أجله .

- ٦ -

هذا ، وقد يسأل سائل عما إذا كانت القصص القرآنية حقائق ووقائع تاريخية في جزئياتها وكملياتها . ومع أن بعض علماء المسلمين قالوا إنه ليس في قصص القرآن ما هو مستحيل عقلا ، أو ماثبت قطعياً عدم وقوعه أو مما ليس محتملاً أن يكون وقائع تاريخية حقيقية ، ومع ما في هذا القول من سداد ، فأننا نرى الأولى والأفضل أن نكتفي ، ويكتفي المسلم معنا بالقول ان كل ما في القرآن وحي رباني وإنا (أما به كل من عند ربنا) مع القول أيضاً إن هذه القصص لم يوح بها لتقرر وقائع تاريخية ، وإن الوقائع المذكورة فيها كانت معروفة عند سامعي القرآن ، أو واردة في كتب وقراطيس ، أو متداولة في روايات شفوية في بيئة النبي ﷺ ، فاقترضت حكمة التنزيل بأن توحى قرآناً بالأسلوب والفحوى اللذين أوحيت بهما ، وبتكرارها في سور متعددة ، وبصيغ متنوعة لتحقيق الأهداف المستهدفة منها ، والتي نوهنا بها قبل . وإنها من الوسائل والمتشابهات التي لا ضرورة الى استقصاء حقائق جزئياتها ووقائع ما ورد فيها من أحداث ، أو المجادلة أو النقاش والأخذ والرد فيها ، وإن من الواجب الديني ، بل مقتضى الحق والعقل والوقوف عند ما ذكره القرآن منها دون تزيد وتكلف وتخمين .

ومن الجدير بالذكر والتذكير أن القرآن لا يحتوي استقصاء لحوادث القصص الواردة فيه ، ولم يكن ما احتواه منها سرداً تقريرياً لوقائعها . حيث اكتفى بذكر ما اقتضت الحكمة ذكره بالأسلوب والفحوى اللذين اقتضت هذه الحكمة ، ومناسبات السياق لتحقيق الهدف الذي جاءت من أجله من عظة وتذكير وتمثيل وإنذار وتبشير وتوضيح وتلقين . وهذا واضح ملموح لكل من يعين النظر فيها ، ولو كان متوسط الثقافة ، وهو ضابط مهم يجب على الناظر في القرآن أن يلتزم به . وفي القرآن ظاهرة مهمة فيها تأكيد لذلك واتساق معه ، وهي أن أسلوب القرآن في القصص وهدفه قد أتسقا مع ما ورد فيه من ذكر

الوقائع الجهادية والمواقف القضائية والحجاجية وغيرها من أحداث السيرة النبوية ، بحيث أن الناظر في القرآن يجد أن ما ورد فيه من ذلك ، إنما ورد للعتة والتذكير والتنبية والحث والتحذير والارشاد والتعليم والتسلية والتثبوت والتشريع ، وهذا ظاهر من كون المذكور في القرآن من ذلك لا يحتوي كل الصور والمشاهد والتفصيلات للمواقف والأحداث . وإنما أحتوى ما أقتضت الحكمة ذكره منها لتحقيق المقاصد المذكورة . وفي هذا دليل على الانسجام في الأساليب القرآنية ومراميها ، والخروج عن هذا النطاق هو خروج عما يلهمه القرآن من نطاق مرسوم لقصصه ، وتعريض له كما قلنا للنقاش والجدل ، وإخراج له عن هدفه وهو الهدي والموعظة والذكرى ، وهو بعد ليس كتاب تاريخ ، ولا يجوز النظر إليه على هذا الاعتبار .

قصة آدم وإبليس

ونرى أن نشير في هذا السياق الى قصة آدم وإبليس ، وسجود الملائكة لآدم ، وترد إبليس الواردة في القرآن ، والتي كانت مما أكثر صادق جلال المعظم فيها إكثاراً فيه تعسف وتمحل ومما حكة وسوء أدب معاً (١) . فنقول : إن كل ما أوردناه في مدى وصدد القصص القرآنية وارد بتمامه في مدى وصدد هذه القصة ، وإنما لا تخرج عن خطوط ومظاهر القصص القرآنية الأخرى ، أي من ناحية كونها غير مجهولة من سامعيها قبل نزول القرآن ، ومن ناحية كونها واردة في القرآن للعتة والعبرة والتذكير والتمثيل والتحذير والتنديد وحسب ، ثم

(١) ألقى صادق جلال العظم في النادي الثقافي العربي في بيروت في سنة ١٩٦٥ محاضرة بعنوان مأساة إبليس ، وقد أورد نص المحاضرة في كتابه (نقد الفكر الديني) مع بعض ردود جاءت إليه ، واستغرق ذلك نحو ثلث كتابه ، وقد كنا أرسلنا له رداً ، وقد نشرت المحاضرة والردود في أول الامر في مجلة النادي ، ومن عجب أمر صادق العظم أنه ناقش في كتابه وفي المجلة بعض الردود ، ولم يناقش رداً ، ونعتقد أن رداً كان مفحاً له ، ولم يجد منفذاً منه للمحاكمة ، ولقد علق الدكتور برهان الدجاني رئيس النادي والمجلة على رداً في كتاب أرسله إلينا قائلاً : (ان رداً يقدم وجهة النظر الرصينة المتعمقة التي تحترم التراث ، وتؤمن به وتجعله وتحاكم الأمور في الوقت نفسه بميزان العقل والخبرة البشرية والحكمة الراسخة) وردنا دار في نطاق شرحنا في المتن الذي يقرؤه قارئ الكتاب ويلمح قوة الالتزام فيه .

من ناحية كونها من التشابهات من جهة ، ومن ناحية كونها من الوسائل التدعيمية للدعوة النبوية من جهة أخرى .

ومن الدلائل الحاسمة على ذلك تكرار القصة مثل معظم القصص القرآنية حيث تكررت في القرآن بأساليب وصيغ مختلفة سبع مرات ، ستاً منها في السور المكية ، وهي سور الاعراف والحجر والاسراء والكهف وطه وص ، ومرة في سورة البقرة المدنية ، وبينها وبين قصص الأقوام وأنبيائهم السابقين مماثلة من ناحية التكرار ، ومن ناحية الأسلوب والسياق ، حيث جاءت مقتضبة حيناً ومسهية حيناً ، وفي كل مرة جاءت في سياق التنديد بالكفار ومواقفهم وتمردهم كما كان ذلك شأن القصص الأخرى ، وقد ربطت بين موقف إبليس واستحقاقه لغضب الله بسبب تمرده ، وبين مواقفهم وتمردهم ، وأسلوبها وعظمي ، وليس سرداً قصصياً .

وهذا هو شأن القصص الأخرى في القرآن ، ولمح ذلك سهل على القارئ المتوسط . والمصحف في تناول الجميع ، فلم تر حاجة إلى إيراد صيغ القصة . وكلمة إبليس هي من جذر (أبلس) بمعنى يئس (١) ، وقد جاء هذا الجذر في آيات عديدة منها آية سورة الروم هذه :

(وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ .) ١٣

وسورة الزخرف هذه :

(إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ .) ٧٤ و ٧٥

والكلمة نعت ذم ، ولاشك في أنها كانت مستعملة قبل نزول القرآن بهذا المعنى ، وبالتالي إن العرب كانوا يفهمون دلالتها ، وهي اليئس من رحمة الله ، وأنهم كانوا يعرفون

(١) بعضهم يقول : انها معربة من اليونانية (ديابلوس) ونحن نعتقد العكس أي : ان اليونانية مأخوذة من العربية وما دام في القرآن جذر فصيح لها فلا يصح أن يفرض أنها غير عربية ، وصيغتها صيغة عربية وعلى كل حال فلا محل للمراء في أنها كانت مستعملة قبل نزول القرآن في لسان العرب للدلالة على الشخصية التي تطلق عليها ، لأن القرآن نزل بلسان عربي مبين ..

أن إبليس كان علماً على من يوسوس للناس ، ويغريهم بالكفر والمنكرات ، ويصرفهم عن الله والمكرمات ، وأنه مطرود ملعون من الله (١) . وقصة خلق آدم وزوجته وخروجهما من الجنة بإغراء الحية من قصص سفر التكوين أول أسفار العهد القديم المتداول اليوم نسخة منه ، والذي نعتقد أنه كان متداولاً في بيئة النبي ﷺ ، وكان ما فيه من قصص معروفاً في أوساط هذه البيئة ، وفي الاصحاح (٢٠) من سفر رؤيا القديس يوحنا من أسفار العهد الجديد المتداول اليوم ، والذي كان على ما نعتقد متداولاً في زمن النبي ﷺ وبيئته أن الحية القديمة هي إبليس ، أي : أن أهل الكتاب كانوا يتداولون أن الذي أغرى آدم وزوجته ، وكان سبباً في طردهما من الجنة وهبوطهما الى الأرض هو إبليس ، ويجوز أن يكون هذا وارداً في قراطيس وأسفار أخرى ، بل يجوز أن يكون وارداً في نسخة من نسخ سفر التكوين لم تصل إلينا ، وفي صيغة القصة في سورة الأعراف (الآيات ١١ - ٢٧) وما جاء في سفر التكوين المتداول اليوم عنها (الاصحاحان الثاني والثالث) تطابق غير يسير . وكل هذا يسوغ القول : إن سامعي القرآن من العرب ، كانوا يعرفون القصة قبل نزوله ، وإذا كان هناك نقاط لم ترد في القرآن ووردت في السفر أو لم ترد في السفر ووردت في القرآن فالذي نعتقد ، أن ماورد في القرآن ، كان هو المتداول ، أو كان متداولاً . وهكذا تكون القصة من ناحيتها كقصص القرآن جاءت للعتة والتذكير بأمر كان معروفاً من السامعين ، فكان ذلك من حكمة إيرادها حتى يتأثر بذلك سامعوا القرآن من العرب .

والمتمعن في صيغ القصة يجد العظة والتذكير والتحذير هو المقصود الرئيسي فيها ، ولقد وجه الخطاب في معظمها الى الناس ، والى بني آدم بصورة عامة ، ومما استهدفته القصة كذلك تسلية النبي ﷺ والمسلمين ، فالذين لا يستجيبون الى الدعوة هم ذوو النيات الخبيثة ، والقلوب المريضة المنكرون المتعالون الذين يجد إبليس فيهم مجالاً واستعداداً

(١) كان معظم العرب مشركين يؤمنون بوجود الله ، ويشركون معه في العبادة والاتجاه آلهة أخرى هم على الاغلب الملائكة على اعتبار أنهم بنات الله ، وعلى سبيل الاستشفاع بهم عنده والتقرب بهم إليه على ما شرحناه قبل وأوردنا شواهد .

للوسوسة والاغراء ، ومصيرهم جميعا النار . والطريق مسدود أمام إبليس بالنسبة لذوي النيات الحسنة والرغبة الصادقة في الحق والهدى الذين يستجيبون الى دعوة الله ، ورسالة رسوله . وهذا مما تمثل فيما جاء في أكثر الصيغ .

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ . قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ . وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آذْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ (١) .) الحجر : ٣٩ - ٤٦

ولعل مما يندمج في أهداف القصة وأسلوبها أمرين مهمين بالنسبة إلى عقائد العرب في الملائكة ، فقد كانوا يعتقدون انهم بنات الله ، ويعبدونهم أو يشركونهم في الدعاء مع الله ليكونوا شفعاء لهم عنده ، وفي أذهانهم صورة فخمة عنهم ، فأريد بذلك أولاً : توجيه العرب الذين للملائكة في أذهانهم هذه الصورة إلى الاحتذاء بهم في طاعة أمر الله ، واستجابة الدعوة التي دعاهم بها رسوله .

ثانياً : تفهيم العرب أن الملائكة الذين يعبدونهم ويشركونهم مع الله ليسوا إلا عبيدا له يسجدون بأمره لمن خلقه من طين استغراقاً في الخضوع له ، وأن من كان هذا شأنه ، لا يجوز اتخاذه إلهاً أو شريكاً مع الله ، واعتقاد القدرة فيه على النفع والضرر والمنع والمنع ، وفي القرآن آيات عديدة فيها حكاية تنصل الملائكة من الذين يعبدونهم ، وتقدير بخضوعهم لله وعبوديتهم له وحده كما ترى في هذه الآيات التي فيها في الوقت نفسه تنديد بالمشركين ، وإنذار بما سوف يكون من أمرهم يوم القيامة ، وكيف يتنصل منهم الملائكة بقصد حملهم على الارعواء :

١ - (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا

(١) جاء ذلك في الصيغ الأخرى أيضا . انظر آيات البقرة ٣٨ و ٣٩ والأعراف ١٦ - ٢٧ ، والاسراء ٦٠ - ٦٥ وص ٧١ ٨٥

يَسْتَكْبِرُونَ . يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ . (النحل : ٤٩ و ٥٠)
 ٢ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ .) (الأنبياء : ٢٥ - ٢٩)

٣ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا . فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا .) (الفرقان : ١٧ - ١٩)

٤ - (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .) (سبأ : ٤٠ و ٤١)

٥ - (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى .) (النجم : ٢٦)

٦ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .) (التحريم : ٦)

كذلك فإن المتمعن في آيات صيغ القصة السبع يجد أنها تحتل وجوهاً عديدة للتأويل ، وأن فيها ما لا يعلم تأويله إلا الله ، ولا يدرك سره العقل البشري ، وبكلمة أخرى يظهر له أنها من التشابهات التي أوجب القرآن الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجاءه منها بالأسلوب الذي جاءت عليه لتحقيق الهدف الذي استهدفته دون تورط في التخمين والتزيد والتكلف والاستنتاج ، واستكناه الماهيات ، والاستنباط الموضوعي على غير طائل ولا ضرورة من دين وعلم . بحيث يكون الخروج عن هذا النطاق خروجاً عن

نطاق الضابط القرآني ، والهدف القرآني ، ودخولا في متاهات التأويل التي حذر القرآن ورسول الله منه .

وإذا كان المفسرون قد أوردوا بحسن نية بيانات كثيرة على هامش صيغ القصة في صدد خلق آدم وزوجته ، والجنة والملائكة ، وإبليس وهويته وذريته وطرده ، وخروج آدم وزوجته من الجنة وما كان في الكون قبلهما من خلق ، وما جرى من حوار بين الله والملائكة ، وبينهم وبين إبليس ، وبينهم وبين آدم الخ الخ شيت بكثير من الاغراب والخيال والمبالغة كما فعلوا بحسن نية أيضاً مثل ذلك على هامش القصص القرآنية الأخرى ، فإن كتاب الله ورسوله لا يتحملان مسؤوليته ، وإن كان فيه دلالة على أن هذه القصة كانت متداولة مع كثير من الحواشي والزوائد في عصر النبي ﷺ وبيئته .

والجواب الذي أوردناه في بحث القصص القرآنية على سؤال قد يرد عما إذا كانت القصص حقائق ووقائع يورد هنا أيضاً ، فكل ما جاء في القرآن من هذه القصة وحي رباني ، وإننا نقول وينبغي على كل مسلم أن يقول : (أَمَّا بِهِ كُلُّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) مع القول : إن القصة مما كان معروفاً عند السامعين ، وإن ما ورد في القرآن في صدها وبصيغها المتعددة ، قد استهدف في الدرجة الأولى تدعيم الرسالة المحمدية والعبرة والعظة ، وإنه من التشابهات التي يجب الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجاءه بالأسلوب الذي جاء به لتحقيق الهدف الذي جاء من أجله ، والذي شرحنا ما هو الملموح منه دون تزيد ولا تكلف لضرورة لها ولا طائل من من ورائها ، وليس من ضرورة دينية لاستكناه كنهه الذي حصر الله علم تأويله في نفسه كما جاء في آية سورة آل عمران . ولقد أحتوت محاضرة صادق العظم التي أشرنا إليها قبل ذلك ، والتي جعلتنا نستطرد إلى ذكر هذه القصة كثيراً من التمحل والتعسف والسفسطة عن عمد وقصد دون اعتبار بما هو واضح من صيغ القصة من اهداف العظة والعبرة .

ومن محصل ما قاله : إن إبليس الذي كان كبير الملائكة (١) ، قد وجد نفسه أمام أمر واجب ، فالله يأمره بالسجود لغيره ، والله أوجب على خلقه وهو من الجملة أن لا يسجدوا لغيره ، فتمرد على أمر السجود لغير الله مفضلاً الالتزام بواجب عدم السجود لغير الله ، فكانت مأساته ، وكان ضحية لتناقض الله بزعمه تعالى الله وتنزهه عن ذلك . وقد جعل صادق العظم هذا الزعم اللولب والمحور اللذين تدور عليهما محاضراته ، وأكثر من الابداء والاعادة فيها الى درجة الاملال ، وهو فيه مجازف متهافت ، ولقد ناقش كلام بعض المفسرين والباحثين الذين قالوا : إن السجود الذي أمر به الله الملائكة هو سجود تكريم ،

(١) لم يرد في القرآن أن إبليس كان كبير الملائكة ، وقد يكون بعض المفسرين أوردوا ذلك ، ولكن ليس هناك حديث نبوي وثيق يؤيده ، وهو تخميني واجتهادي من القائلين ، وقد يكونون استنبطوه من كون الآيات تذكر أن أمر الله بالسجود كان للملائكة فقط ، غير أن في القرآن تقريراً صريحاً لهوية إبليس ، وكونه من الجن كما جاء في صيغة سورة الكهف : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ..) ولقد روي عن ابن عباس أن الجن هؤلاء طائفة من الملائكة غير أن الرواية غير وثيقة وغير مقبولة ، ونستبعد أن يكون ابن عباس قال ذلك ، لأن في القرآن آية جمعت الملائكة والجن كجنسين مختلفين ، كما جاء في آيات سورة سبأ ٣٠ و ٣١ التي أوردناها قبل قليل ، وفي القرآن آيات تذكر أن الله خلق الجنان من نار ، منها آيات سورة الحجر هذه : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ) ٢٦ و ٢٧ وآيات سورة الرحمن هذه (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ) ١٤ و ١٥ ثم فيه حكاية لقول إبليس أنه خلق من نار بينما خلق آدم من طين كما جاء في آية سورة الاعراف هذه . (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) ١٢ وتكرر ذلك في آية سورة ص ٧٦ أما لماذا اعتبر إبليس نفسه مأموراً بالسجود مع أنه من غير الملائكة الموجه اليهم الأمر ، فهذا من التشابهات التي يوقف منها عندما وقف عندها القرآن فضلاً عن أن آيات جميع الصيغ هي من التشابهات . ومع ذلك يمكن القول : أن ذكر الملائكة فقط هو من قبيل التخصيص مع ارادة التعميم ، وهذا أسلوب من أساليب القرآن ، ومن الأمثلة عليه آية سورة طه هذه : (وَأْمَرَ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْبَحَ عَلَيْهِمْ) ١٣٢ ، والكلام موجه في السياق الى النبي ﷺ وليس معقولاً أن يكون مقصود الآية أن يكون أمر النبي ﷺ بالصلاة لاهله فقط ، وهو المأمور بأن يأمر جميع الناس بالصلاة ، ويمكن إيراد أمثلة كثيرة ، هذا وفي حين أن قول صادق العظم (إن إبليس كبير الملائكة) يقتضي أن يكون من رأيه أنه من الملائكة ، فإنه نزولاً على تقرير القرآن قال في مكان آخر : إن معدن إبليس الناري هو غير معدن الملائكة ، فكان ذلك سبب اختلاف موقفه عن موقفهم ! وفي حين أن العظم يومه في مناقشته للقصة موضوعياً أنه مؤمن بها ، فإنه يعلن في مكان آخر عدم إيمانه بها وكونها أسطورة وحسب . وهذا من عجيب مفارقاته ؟

وليس سجود عبادة ، ولكن العظم أصر على قوله ، وقال : إنه ليس للسجود في القرآن إلا معنى واحد وهو العبادة ، وتعامى عما في القرآن من آيات مؤيدة لأولئك المفسرين والباحثين ، والتي تلزمه إلزاماً لأفكاك له منه ، لأنه ينطلق من العبارات القرآنية للقصة . ولقد جاء في صيغة القصة في سورة الاسراء على لسان إبليس (قَالَ أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً . قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخْرِيتُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً .) ٦١ و ٦٢ وهذا المعنى ملموح فيما حكته آيات الأعراف وص من قول إبليس : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .) الأعراف ١٣ و ص ٧٦

ولقد حكى القرآن سجود أبوي يوسف وإخوته ليوسف في سورة يوسف (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا .) ١٠٠

ولا يمكن لأي كان أن يزعم أن سجودهم ليوسف كان سجود عبادة ، وتعامى العظم كذلك عما في القرآن من قول الله له إنه في عدم سجوده متكبر مستعل كما جاء في صيغة سورة الأعراف :

(قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ .) ١٣ وكما جاء في صيغة سورة ص (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ .) ٧٥

ولم يحك القرآن أن إبليس اعتذر بأنه لا يجوز أن يسجد لغير الله ، ولكنه حكى قوله جواباً على السؤال الوارد في صيغة سورة ص (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ .) ثم تعامى عما قرره القرآن من اعتبار الله سبحانه إبليس بعدم سجوده متمرداً عليه ، واستحقاقه من أجل ذلك الطرد واللعنة المخلدة ، والتارمع من يتبعه كما جاء في صيغة الأعراف (قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْخُوراً لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ

أَجْمَعِينَ . (١٨ ، وفي صيغة الحجر (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .) ٢٤ و ٢٥ ، وفي صيغة سورة ص (قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .) ٧٧ و ٧٨ و (قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ . لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ..) ٨٤ و ٨٥ ، وهو ملزم بهذا كما قلنا إلزاماً لافكاك له منه ، لأنه ينطلق من العبارة القرآنية للقصة التي لم ترد بعباراتها وأسلوبها ومداها في غير القرآن ، وتعامى صادق العظم كذلك تعامياً عجيباً عن أن القرآن يدور جملة وتفصيلاً في الدرجة الأولى على الدعوة إلى عبادة الله وحده ، ومحاربة كل أنواع الشرك ، وعبادة غير الله ، والسجود لغير الله بأي صورة وتأويل وعمل ، وعن أن الله يتنزه ، والحالة هذه عن أن يأمر الملائكة بالسجود لآدم سجود عبادة ، وتعامى عن كون إطاعة الملائكة لأمر الله بالسجود لآدم سجود عبادة تجعلهم مشركين ، وهم الذين ينزههم القرآن عن ذلك ، ويقرر أنهم دائمو العبادة والتسبيح والتقديس لله وحده ، وتعامى عن كونه بدعواه يقف موقفاً فيه كل السخف إذ يجعل إبليس أشد حرصاً على التمسك بواجب توحيد الله من الله نفسه ، ويجعله مؤمناً موحداً ضحى بنفسه ببطولة مأسوية - على حد تعبير سخييف له - في سبيل عقيدته رغماً عن نصوص القرآن التي تصف إبليس بالكافر المتكبر المتمرد المتعالي على الله وأمره المستحق بذلك لغضب الله ولعنته والخلود في ناره ، وتغافل أو غفل عما انطوى في القصة في صيغها المتكررة وسياق هذه الصيغ من أهداف العبرة والتذكير والموعظة التي تبدو للناظر بدون حاجة إلى نباهة كبيرة ، وكونها هي المقصودة الجوهرية من قصة يعرفها السامعون ، ويعرفون مداها قبل نزول القرآن ، وعن كون آيات الصيغ إذا ما عرضت كلها في نظرة واحدة شاملة من التشابهات التي تتحمل وجوها عديدة للتأويل ، والتي فيها مالا يدرك تأويله عقل الانسان ، وليست المحكمات ...

ويقتبس صادق العظم أقوالاً لبعض المفسرين والمؤلفين المسلمين عن إبليس وقرده ، ومحاورات مفروضة وتخيلية بينه وبين الله ، وبينه وبين موسى ، وبينه وبين بعض المؤلفين ،

ويقارن بين موقف إبليس وآدم ، وقصة إبليس وابتلاء إبراهيم بذبح ابنه ، وبين هذه القصص ، وبين بعض قصص فيها مواقف محرّجة ، أو مأس متناقضة . ولكن كل هذا جزاف لا يتحمل القرآن مسؤوليته . ومما قاله في صدد ذلك حتى لكأنه يناقش قصة يعتقد بها مع أنه ليس معتقداً بها أصلاً : يتكون جوهر الكبرياء المأسوية من رفض البطل لأن يبقى سلبياً في وجه ما يعتبره تحدياً لواجبه ومنزلته وكرامته حتى لو كان يعلم أن هذا التحدي هو جزء من مصيره وأن كبرياءه سينتهي به إلى الدمار واليأس والموت ، وهكذا انتهى أوديب (بطل قصة شكسبير) وهكذا انتهت انتيجونا (بطلّة قصة أخرى) ، وهكذا انتهى إبليس أما آدم فلم يعرف هذا النوع من الكبرياء على الإطلاق؛ ولو كان مقدراً له أن يكون شخصية مأسوية لما قال (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .) الأعراف : ٢٣ حيث نستنتج اذن أن كبرياء إبليس لم تكن ناتجة عن عجرفة فارغة ، ولا عن تطاول على معبوده ، بل كانت كبرياء مأسوية دفعته لأن يلجأ إلى الله من قضاء الله عليه ، ولم يغير إبليس موقفه من ربه حتى بعد أن أصبح طريداً ولعيناً . وأقل ما يوصف به هذا الكلام بالنسبة لقصة آدم وإبليس إزاء الله تعالى هو هراء وكلام فارغ مادام في القرآن الذي ينطلق العظم من نصوصه ذلك الحسم الصريح الذي يخرج إبليس به من نطاق زعم المأساة والتضحية بالنفس ، وبطولة العقيدة وكرامة الواجب . والعظم يبدى ويعيد في موضوع المشيئة والارادة الربانية ، وكون إبليس غير مستطيع الخروج من نطاقها ، فكان في ذلك مأساته أيضاً على حد زعم وتعبير سخيف آخر له . (لأن الله لو شاء لابليس - وهذا من أقوال العظم - أن يسجد لآدم لسجد ، ولو شاء للملائكة أن لا يسجدوا لما سجدوا ، ولو شاء لآدم أن لا يقع في إغراء إبليس لما وقع ، ولكنه لم يشأ أن لا يقع آدم في الاغراء ، وشاء أن يقع فوق ، ولم يشأ أن يسجد إبليس فلم يسجد في حين أنه لم يشأ أن يعصي الملائكة فلم يعصوا ، وهكذا ذهب إبليس ضحية تناقض

الله - تعالى وتزهر عن ذلك - الذي أمره بشيء أو أراد منه شيئاً ولم يشأ أن يفعله ، فلم يستطع أن يفعله بطبيعة الحال) . ولم يكتب بهذا الكلام الجدلي السفسطي ، بل أتبعه بتعبير بذىء متهافت حيث قال (إن إبليس واجه الرب وهو يناقض نفسه بصورة مباشرة مفضوحة - كبرت كلمة تخرج منه - فذهب ضحية هذا التناقض ، وضحية الموقف الذي وقفه ، فكان جحوده أعظم تقديس للذات الالهية ، وأكبر مثل على التمسك بحقيقة التوحيد ...) .

وتعامى وهو ينفث هذا الهراء والبذاءة عما في القرآن من قرارات محكمة بأن الله أوجد في خلقه العقلاء قابلية التمييز بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل ، والطاعة والعصيان ، وقابلية الاختيار بين ذلك ، ورتب عليهم نتائج تميزهم واختيارهم مما تمثل في آيات كثيرة مبثوثة في مختلف سور القرآن ، وهذه الآيات تفيد أن ذلك مطلق لجميع خلق الله العاقلين بما فيهم الملائكة وإبليس والجن ، وتغافل عن كون الأمر قد وجه للملائكة وإبليس ضمناً ، وعاقبه الله على تمرده ، لأنه لم يسجد ، وأن الملائكة اختاروا الطاعة ، وإن إبليس تكبر وعصى ، وأن ذلك كان باختياره ، فاستحق لعنة الله وناره ، ولا يصح أن يستخرج من كون الله لو شاء أن يسجد إبليس لآدم لسجد ، وما استطاع أن يمتنع أن الله لم يشأ ذلك مادام قد أمر به ، والتأويل الأوجه هو أن الله لم يشأ أن يقسر إبليس على السجود بفرض مشيئته بذلك عليه فرضاً ، بل تركه هو والملائكة لاختيارهم ، فاستجاب الملائكة باختيارهم طاعة وإذعائاً ، وعصى هو باختياره تكبراً وأنفة ، ومن قرارات القرآن المحكمة أن الله تعالى لا يكلف نفساً الا وسعها ، فلا يصح أن يفرض أن الله أمرهم بالسجود إلا مع فرض أنهم قادرون على فعله باختيارهم ، وقد غفل العظم عن آيات قرآنية عديدة فيها تأييد لذلك منها هذه الآيات :

١ - (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .) يونس : ٩٩

- ٢ - (أَفَلَمْ يَنَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعاً .) الرعد : ٣١
- ٣ - (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .) السجدة : ١٣

مما يعني أن الله تركهم لاختيارهم ، ولم يشأ أن يقسرهم ويجبرهم حتى ينال كل منهم جزاءه وفق اختياره ، وفي القرآن آيات حكمت احتجاج الكفار المشركين بمثل الحجة التي يسوقها العظم ، وردت عليهم بما فيه حسم لهذه النقطة أيضاً مما غفل عنه العظم كذلك . كما ترى في هذه الآيات :

- ١ - (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ . قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ .) الأنعام : ١٤٨ - ١٤٩

- ٢ - (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ .) النحل : ٣٥

- ٣ - (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ .) الزخرف : ٢٠

وفي القرآن آيات أخرى يمكن ان تساق في هذا المساق كما ترى فيما يلي :

- ١ - (اتَّبِعْ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ .) الأنعام : ١٠٦ و

١٠٧

- ٢ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ . وَلِتَصْغِيَ إِلَيْهِ

أَفْتَدَهُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ . (الأنعام : ١١٢ و

١١٤

حيث تنطوي على تقرير كون الله قادراً على منعهم لو شاء ولكنه تركهم لاختيارهم .
ويتحجج صادق العظم فيما في آيات سورتي الأعراف والحجر من حكاية لقول إبليس
خطاباً لله تعالى :

- ١- (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ . ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ .) الأعراف : ١٦ و ١٧
٢ - (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .) الحجر :

٣٩

لتسويغ كون ما وقع على إبليس كان من إغواء الله ، تنزه الله عن ذلك ، والعبارة هي
حكاية لقول إبليس ، وليس فيها إقرار لهذا القول ، وقد جاء بعد هذه الآيات الآيات
التالية :

- ١ - (قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ .)
الأعراف : ١٨

- ٢ - (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ .) الحجر : ٤٠ - ٤٢

وكلام إبليس المحكي من نوع ما تحجج به المشركون ، وحكته آيات سور الأنعام
والنحل والزخرف ، وقد ردّ القرآن عليهم ، ولم يقرهم عليه .

وقد تساق آيات قرآنية قد تفيد أن الناس لا يشاؤون إلا ما شاء الله ^{١٢} ترى فيما يلي :

- ١ - (كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ
التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ .) المدثر : ٥٤ - ٥٦

- ٢ - (إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا . وَمَا تَسْأَلُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ

الله كَانَ عَلِيًّا حَكِيمًا .) الانسان : ٢٩ و ٣٠

٣ - (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ . وَمَا تَشَلُّونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .) التكوير : ٢٧ - ٢٩

غير ان هناك آيات تنسب المشيئة الى الانسان مطلقاً بدون استدراك كما ترى فيما يلي :

١ - (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ .) الكهف : ٢٩

٢ - (إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا .) المزمل : ١٩

٣ - (كَلَّا وَالْقَمَرَ . وَاللَّيْلِ إِذَا أَذْبَرَ . وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ . إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ . نَذِيرًا
لِّلْبَشَرِ . لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ . كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ .) المدثر :
٣٣ - ٣٨

٤ - (كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ .

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ . قَبِيلَ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ .) عبس ٢ - ١١ - ١٧

حيث يصح القول إن تنوع الاساليب مما اقتضته حكمة التنزيل والسياق ، ولقد جاء
بعد آيات سورة الانسان ٢٩ و ٣٠ هذه الآية :

(يُدْخِلْ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .)

حيث ينطوي فيها تقرير كون الذين لا يتخذون الى ربهم سبيلا هم الظالمون وحسب ،
وفي الآية الاخيرة (٥٦) من سورة المدثر شيء من هذا المعنى ، فينبغي أن يعتبر هذا ضابطاً
مزيلاً لاشكال ذلك التنوع ، ومن الجدير بالذكر أنه فضلاً عما في آيات الكهف ٢٩ والمزمل
٢٩ والمدثر ٢٣ - ٣٨ وعبس ١١ - ١٧ من نسبة المشيئة الى الانسان بدون استدراك ، فإن
المتمعن في سياق آيات المدثر ٥٤ - ٥٦ والانسان ٢٩ و ٣٠ ، والتكوير ٢٧ - ٢٩ التي فيها
استدراك ، بل وان المتمعن في كل سياق قرآني بصورة عامة يلمح أن القرآن ينسب
الافعال الى أصحابها ، ويرتب نتائجها عليهم حسبها ، وأنه يأمر الناس بالاستجابة الى
دعوة رسول الله ، وبالايمان بالله وحده والعمل الصالح ، وتقوى الله ، والتزام أوامره ،

واجتناب نواهيه ، وبنهاهم عن الكفر والشرك والمنكرات والموبقات ، ويبشر المستجيبين ، وينذر المتمردين ، فلا يصح مع هذه الظاهرة القرآنية العامة المنبئة في كل سور القرآن والمتسقة مع الحقيقة المحكمة الكبرى في إرسال الله الرسل للناس لدعوتهم وإنذارهم وتبشيرهم ، وفي أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وفي أنه يعلم أن الاستجابة ، وعدم الاستجابة من قابليات الناس التي أودعها فيهم أن يفرض الله تعالى ما يتعارض مع حكمته وعلمه ، ومع أوامره ونواهيه وتكاليفه وإنذاره وتبشيريه ووعدته ووعدته أو يشاء منع استجابة الناس لدعوة رسوله ، واهتدائهم بهدي قرآنه والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، ويكون ما في تلك الآيات القليلة من استدراك لم يكن في آيات مماثلة من نوع التشابهات أو الأسلوبيات وليس من نوع التقريريات المحكمات ، وما يؤيد هذا آيات سورة الانعام ١٤٨ و ١٤٩ والنحل ٣٥ والزخرف ٢٠ التي أوردناها قبل قليل التي تحكي احتجاج المشركين بأنهم لو شاء الله ما أشركوا ، ولا حرموا من شيء ، وما عبدوا غير الله ، وترد عليهم وتكذبهم وتنذرهم ، فلو كان شركهم وتحريمهم وعبادتهم بمشيئة الله سبحانه لما كان هذا الرد والتكذيب والانذار وفي سورة الزمر آية مهمة في هذا الباب وهي :

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (الزمر : ٧)

ويتنزه الله سبحانه عن أن يشاء ما لا يرضاه ، فإذا ما جاء في آية ما قد يبدو فيه تعارض ، فلا يصح أن يعتبر ذلك ناقضا للظاهرة القرآنية الغالبة .

وفي سورة ابراهيم آية مهمة في هذا الباب وهي : (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ) (٢٧) ونص الشطر الاكبر الاول في الآية مفسر لمدى الحملة الأخيرة منها ، فالله يفعل ما يشاء

حقا ، ولكنه يرتب ذلك حسب سلوك وكسب الناس ، فالذين آمنوا وحسنت رغباتهم وإخلاصهم يثبتهم بالقول الثابت والذين ظلموا فاشركوا وفسقوا واقترفوا المنكرات يضلهم ولا يسعدهم ولا يوفقهم . وهكذا لا يبقى في العبارة القرآنية إشكال ، وفي القرآن آيات عديدة من بابها . سوف نردها ، وننبه على مداها في نبذة آتية .

وقد يسأل صادق العظم وأمثاله للماحكة ، وقد يسأل مسلم للتعلم عما إذا كان يصح أن يقع من الناس ما لا يشاء الله ، والجواب على هذا أن الله قد فطر الناس على قابلية التمييز والاختيار ، وهذه هي مشيئته الاصلية ، فالناس إذا استعملوا قابلياتهم في التمييز والاختيار ، يكونون قد فعلوا ذلك بمشيئة الله الاصلية ، وبهذا يكون التوفيق ، ولا يبقى محل ولا حاجة الى ذلك السؤال .

ويقف العظم عندما جاء في بعض صيغ القصة من أمر خلق آدم من طين ، ونفخ الروح فيه ، ويورد أقوالا لمفسرين لا تخرج عن كونها تخمينات واجتهادات شخصية ، لا يتحمل القرآن مسؤوليتها ، ويحاول أن يستخرج من ذلك قرارات قرآنية لبدء خلق الانسان الاول مباشرة ليبرز ما فيها من مبانة لما عرف من حقائق أو نظريات علمية وفنية أخرى . في حين أن المتمعن في الصيغ جميعها إذا ما استعرضها في سلسلة واحدة يجدها مختلفة حسب مقاماتها ، ويجدها مما تتحمل تأويلات عديدة ، وليست بسبيل قرارات محددة عن الخلق ، والخطاب فيها موجه الى السامعين بما يتسق مع ما يعرفونه من القصة ، ومع ما في أذهانهم ومشاهداتهم ومعارفهم عن الخلق والتكوين ، ونواميس الله فيها ، ويلمح بكل قوة قصد التذكير والعظة والانذار ، وبيان عظمة الله وقدرته أي قصد تدعيم الدعوة وحسب ، وهو أسلوب القرآن وهدفه في القصص ، وفيما جاء فيه من آيات عن خلق الكون ومشاهده ونواميسه ، ويظهر كل هذا بوضوح تام حينما يقرأ القارئ سياق الصيغ وآيات الكون ومشاهده .

ولقد سبق آيات صيغة البقرة للقصة مثلاً هذه الآيات :

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .) البقرة : ٣٠ - ٣٣

حيث انطوى فيها بيان هدف حكمة الله في اختصاص آدم وبنيه بالعقل والعلم والسلطان في الارض ، أما الحوار ، وتعليم آدم الاسماء كلها ، فكل ذلك من التشابهات التي يأمر القرآن بعدم التورط في تخمينها واستكناها ، والتي لا ضرورة دينية الى التوقف عندها ، ويكفي أن يستشف منها تلك الحكمة .

وقد سبق صيغة سورة الاعراف مثلاً هذه الآيات :

(وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ . وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ .) ١٠ و ١١

حيث يبدو أن هدف تنبيه بني آدم إلى نعمة الله عليهم هو الرئيسي في القصة وسياقها ، وفي كل صيغة من الصيغ يبدو هدف العبرة والعظة والتنبيه هو الرئيسي حتى الصيغ التي فيها خلق الانسان الأول من طين في سياق القصة لم تكن تقصد تقرير ماهية هذا الخلق وكيفيته ، وإنما هي بالدرجة الاولى بقصد التنبيه والعظة كما يبدو واضحاً حيناً يقرأ القارىء هذه الصيغ ما قبلها وما بعدها .

ومن الجدير بالذكر أن في القرآن آيات فيها إشارات الى خلق الانسان من طين بدون ذكر آدم حيث يبدو من هذا أن ذكر خلق آدم من طين في سياق القصة لم يكن هدفها الجوهرى ، ويبدو من هذه الآيات أيضاً أن الهدف الرئيسى هو التنبيه والعظة كما ترى في

آيات سورة المؤمنون التي سبقها آيات فيها تنويه بالمؤمنين الصالحين وتبشير لهم ولحقها آيات فيها تذكير بنعمة الله على بني آدم السامعين .

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ .) ١٢ - ١٦

حيث يصح القول : إن الآيات تذكر السامعين بما يعرفونه من مراحل خلق الانسان كوسيلة لتذكيرهم وإنذارهم ، وهذا ملموح في آيات مماثلة جاءت في سورة السجدة وهي :

(الَمْ تَنْزِلُ الْكِتَابَ لَأَرِيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ . يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ . ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ .) السجدة : ١ - ٩

وكل هذا يوجب على من حسنت نيته ، ولم يرد المماحكة والتمحل ولو كان ملحدا أن يلتزم بما حدده القرآن والنبي من ضوابط ، وهي عدم التورط والتمحل في تأويل الآيات المتشابهات والتزيد في صدها ، لأن ذلك لم يكن من مقاصدها ومراميها التي هي العظة والتمثيل والعبرة والتنبيه والتذكير .

ويستطرد صادق العظم الى ما في القرآن من إشارات إلى إغراءات إبليس وتزيينه للناس

بإذن الله وما يترتب على ذلك ، ويذكر معه الشيطان المرادف له (١) ، ويحاول أن يجعل ذلك من المسائل القرآنية الكبرى ، ويصورها على أنها شغلت الحيز الأكبر في عقائد المسلمين وأعمالهم وحركاتهم ونشاطهم ، وأن يبرز ما في ذلك حسب زعمه من ثغرات وتناقض وتعارض ، ولا يتورع عن إساءة الادب نحو الله تعالى فيقول في بعض مواضع كتابه : (إن الله قد سلط إبليس والشيطان على الانسان ، وأمره بالايان به ، وعدم إطاعة الشيطان في حين قدر عليه الوقوع في شبكته ، فلم يكن له مناص من ذلك ، فذهب بدوره ضحية تناقض الله ومكره ، كبرت كلمة تخرج من فيه . هذا في حين أن هذه المسألة أيضا من المسائل المتشابهة في القرآن التي تتحمل آياتها تأويلات عديدة والتي قد لا يدرك مداها عقل الانسان ، والتي لا يجوز أن تغطي على ما في القرآن من محكمات يوضع بها الامر في نصابه الحق ، وفيها في الوقت نفسه تدعيم للدعوة النبوية ، وإذا كان حقا في القرآن آيات فيها ذكر لتسلط إبليس والشيطان ، بل ولتسليطهما من الله فإن في سياق هذه الآيات ما يفيد بجزم أن ذلك هو بالنسبة للمنحرفين الآثمين الكافرين الفاسقين دون عباد الله

(١) القرآن يرادف بين إبليس والشيطان حتى يبدو الواحد بديلا عن الآخر على ما تفيده آيات عديدة منها آيات قصة آدم وإبليس في البقرة : (وإذ قلنا للكلابكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأولها الشيطان عنها فأخرجها مما كانا فيه ..) ومثل ذلك في آيات القصة في سورة الاعراف حيث جاءت هذه الآية بعد ذكر تمرد إبليس عن السجود . (فوسوس لها الشيطان ليبدي لها ما ووري عنها من سوءاتها) ثم هذه الآية : (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ..) وكلمة الشيطان في اللغة العربية بمعنى : العاتي والباغي ، وبالتالي أنها نعت ذم ، ولا شك في أن العرب كانوا يفهمون دلالتها هذه قبل نزول القرآن ، ولقد تكرر ذكر الشيطان كثيرا في القرآن في صدد بيان تزيينه للناس الشهوات والكفر والانحراف وإغوائهم وإضلالهم مما يسوغ القول : إن ذلك أيضا مما كان مستقرا عنه في أذهان السامعين ، وفي سورة الصافات هذه الآيات : (أذلك خير نزل أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين ..) حيث يفيد هذا أن أهل بيته النبي ﷺ كانوا يتصورون الشيطان في صورة رهيبة ومنظر مخيف ، وبالتالي حيث يؤيد هذا ما قلناه من أن فكرة الشيطان ودوره الاغرائي كرديف لابليس مما كان مستقرا في أذهان سامعي القرآن قبل نزوله ، وهذا ما يفسر ما جاء في القرآن من كثرة الآيات التي فيها ذكر للشيطان ، فالتنزيل القرآني متصل من ناحية ما بما كانت عليه بيته النبي ﷺ على ما شرحناه في نبذة سابقة ، ونبهننا على وجوب ملاحظة ذلك ، لأن ذلك يعصم الناظر في القرآن من التورط في التخمين والتزيد .

الصالحين المؤمنين المستقيمين ، فضلاً عما فيه من آيات فيها تحذير من اتباع الشيطان وآيات فيها حكاية تنصل الشيطان من الذين يغويهم بسبيل التحذير والتنبيه أيضاً ، ولا يصح أن يكون هذا إلا مع فرض جازم بأن الله تعالى يعلم أنهم قادرون على الحذر والنجاة منه ، ولا يصح أن يفرض أن الله يقول هذا ثم يجعل الشيطان قادراً على نقضه ، وفيما يلي آيات فيها كل ما ذكرناه بحيث يظهر فيها الحق واضحاً ، ويظهر كون زعم العظم جزافاً متهافتاً . وقد أكثرنا من الآيات لأن العظم كما قلنا يحاول أن يصور هذه المسألة من المسائل القرآنية والاسلامية الكبرى التي فيها ثغرات ومآخذ :

١ - (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .) البقرة : ١٦٨ و ١٦٩

٢ - (إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ .) آل عمران : ١٥٥

٣ - (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .) آل عمران : ١٧٥

٤ - (يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيداً .) النساء : ٦٠

٥ - (الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً .) النساء : ٧٦

٦ - (إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً . لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً . وَلَأَضِلُّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَأَمْرَنَّهُمْ فَلَيَتَّبِعُنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَأَمْرَنَّهُمْ فليُغَيِّرُونَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً . أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا . (النساء :

١١٧ - ١٢٢

٧ - (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ .) المائدة : ٩١

٨ - (يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .) الأعراف : ٢٧

٩ - (وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِنْ الَّذِينَ اتَّقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ . وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ .) الأعراف : ٢٠٠ - ٢٠٢

١٠ - (وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي . فَلَا تُلْهُمُونِي وَلَوْوَا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ .) ابراهيم : ٢٢ - ٢٣

١١ - (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوَيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ . قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ .) الحجر : ٣٩ - ٤١

١٢ - (تَاللهَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .) النحل : ٦٣ و ٦٤

١٣ - (إِنَّ الْمُبْذَرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا .) الاسراء : ٧٢

١٤ - (قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مُؤَفُورًا . وَاسْتَغْفِرُ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . إِنَّ عِبَادِي لَكُ عَلَىٰ سُلْطَانٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا .) الاسراء : ٦٣ - ٦٥

١٥ - (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا .) الكهف : ٥٠

١٦ - (فَوَرَّبُكَ لِنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا .) مريم : ٦٨

١٧ - (أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوُهُمْ أَزَا فَلَآ تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ

لَهُمْ عَذَابًا .) مريم : ٨٣ و ٨٤

١٨ - (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ .)

المؤمنون : ٩٧ و ٩٨

١٩ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ

يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ

يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .) النور : ٢١

٢٠ - (لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا .)

الفرقان : ٢٩

٢١ - (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ

السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ .) الشعراء : ٢٢١ و ٢٢٣

٢٢ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ

الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ .) لقمان : ٢١

٢٣ - (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْثِقُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ حَفِيفٌ .) سبأ : ٢٠ و ٢١

٢٤ - (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ

السَّعِيرِ .) فاطر : ٦

٢٥ - (أَلَمْ أَعْهِدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ .)

يس : ٦٠ - ٦٢

٢٦ - (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ

عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدُ

الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَى الْقَرِينَ .) الزخرف : ٣٦ - ٣٨

٢٧ (٨) إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

وَأَمَلَى لَهُمْ مُحَمَّد : ٢٥

٢٨ (أَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ

الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ .) المجادلة : ١٩

٢٩ - (كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ .)

الحشر : ١٦ - ١٧

وقد قصدنا إيراد الآيات على كثرتها لتكون ماثلة أمام القارئ ليفهم مدى

المسألة على ضوء شروحنا الآتية ، وليس ما أوردناه هو كل ما في القرآن من ذلك ، حيث ورد فيه آيات كثيرة أخرى من بابها .

وواضح منها أن الشيطان الذي هو رديف إبليس كان يشغل في أذهان السامعين حيزا كبيرا على اعتبار أنه مزين للشهوات مغرمغو ، وصلة التنزيل القرآني بالبيئة النبوية وثيقة ، وملاحظة هذا ضرورية وواجبة لفهم مدى الآيات القرآنية كما أن ملاحظة كون ما جاء في الآيات في صدد دور الشيطان الذي له ذلك الحيز في أذهان السامعين هو بسبيل التحذير والتنبيه ، بل وكونه قد هدف الى إزالة الظن المستقر في أذهان الناس بتأثير الشيطان عليهم تأثيراً فعالاً ، وتهوين دوره ، وتطمين المؤمنين منهم بخاصة بأنهم محصنون من ذلك - وكل هذا مما تضمنته الآيات - واجبة وضرورية أيضاً وحينئذ يصبح إبقاء المسألة في هذا النطاق لازماً لا يصح تجاوزه ، ويصبح نهويلها وتضخيمها كما فعل صادق العظم جزافاً وفي غير محله .

ولقد كان للشيطان دوره حي في أذهان الكتابيين وغيرهم من غر العرب في زمن النبي ﷺ وقبله ، وفي غير بيئته أيضاً، ولقد امتد أثر ذلك وما يزال ، فيكون التلقين القرآني في كل ما تقدم إنسانياً أيضاً ، وهذا من معجزات وشمول القرآن . ولقد ذكر في إحدى آيات سورة يوسف النفس الأمارة بالسوء (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) . ٥٣ وفي إحدى آيات سورة القيامة النفس اللوامة : (لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللّوَامَةِ . ٢١ وكل منها يعني ما يتفاعل في النفس الانسانية من وساوس وحوافز ودوافع ورواسب وتجاذب ، ولقد يتبادر إلى بعض الأذهان أن دور الشيطان المذكور في القرآن هو رمز لذلك بتعبير كان هو الوارد القائم في أذهان الناس إذ ذاك ، غير أن من الأولى أن يقول المسلم (أَمَّا بِهِ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا) مع واجب الوقوف عند ذلك ، واستشفاف الحكمة منه ، والحكمة الملموحة هي ما شرحناه ، ونعتقد أن في ذلك كفاية ومقنعا ووضعنا الأمر في نصابه الحق بالنسبة لمن حسنت نيته ، وعزف عن المباحكة

والعظم وهو يثير هذه المسألة يغفل أولاً عن ضابط قرآني مهم متصل بهدفه التحذيري المتمثل في تقرير كون المؤمنين الصالحين المتقين المخلصين خارجين عن نطاق سلطان إبليس ورديفه الشيطان ، وكون المنحرفين والمشركين والفساقين والظالمين والمجرمين هم الذين يستجيبون إلى وساوسه ، ويقعون في حبائله ، وبعبارة أخرى إن القرآن قد اصطنع أسلوب المقارنة لتطمين الصالحين المؤمنين المتقين ، ودمغ المنحرفين الآثمين الكافرين بأنهم أتباع الشياطين ، وهذا يستتبع دمعهم بالانحراف موضوعياً ديناً وخلقاً ، فصاروا إخوان الشياطين ومن حزبهم ، وصار الشياطين أولياءهم من دون الله ، ويغفل عما هو ظاهر من هدف الآيات التدعيمية للدعوة ، وإنذار الكفار والمجرمين ، وتطمين المؤمنين المتقين وتبشيرهم ، ونفي خوف تأثير وساوس الشيطان منهم ، وبالتالي تخليصهم من عقدته التي كانت عقدة إنسانية عامة ، ويغفل عن كون سياق الآيات صريح الدلالة على أن كفر الناس وضلالهم ، وتسلب إبليس ورديفه الشيطان ، أو تسليطه كان نتيجة خبث طواياهم وتعمدهم الانحراف ، وإصرارهم عليه . ويغفل عما في القرآن من حقيقة كبرى متمثلة في إرسال الله الرسل لدعوة الناس ، وبيان الطريق القويم لهم ، وإنذارهم وتبشيرهم وهدايتهم ، وتمثلة كذلك في آيات محكمة كثيرة أخرى متسقة مع هذه الحقيقة أو مؤكدة لها بأن الله أودع في الناس قابلية التمييز والاختيار ، فصاروا مسؤولين عما يفعلونه ويختارونه مثل هذه الآيات :

١ - (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا . إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا .) الانسان : ٢ - ٥

٢ (٨) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . البلد : ٨ ١

٣ - (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ

وغفل عما في القرآن من آيات محكمة تقرر أن الله قد خلق الناس ليبتليهم (يختبرهم) أيهم أحسن عملاً كما جاء في الآيات التالية :

- ١ - (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .) الأنعام : ١٦٥
- ٢ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .) هود : ٧

٣ - (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .) الكهف : ٧

٤ - (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .) الملك : ٢

فازاء هذه التقارير المحكمة لا يصح أن يوقف إزاء بعض عبارات قابلة لتأويلات عديدة ليستخرج منها ما يناقض قابلية الانسان التي أودعها الله فيه للتمييز والاختيار ، ومع ذلك فإن من يقرأ سياق هذه العبارات يجد أن الأفعال فيه تنسب إلى الناس على اعتبار أنها كسبهم وصنعهم ، وترتب النتائج عليهم وفقها كما ذكرنا قبل . وهذا فضلاً عما في القرآن من مئات الآيات التي تذكر مباشرة الناس لأفعالهم وكسبهم وصنعهم لها ، وترتب النتائج عليهم وفق ذلك .

وبعد فإذا كان يحلو لصادق العظم أن يعلن إلحاده ، وعدم إيمانه بالله والنبي والقرآن ، وأن يقول : إنه أورد ما أورده في كتابه (نقد الفكر الديني) . على سبيل الدراسة ، ونقد الفكر الديني عند المسلمين وحسب ، فإنه ملزم - ونقول هذا لكل ملحد على شاكلته - ما دام يستند في دراسته ونقده إلى القرآن ، وهو الدكتور في الفلسفة والمفروض فيه صدق الرغبة في البحث والتحري والتروي والاستنتاج الصادق ، وعدم المجازفة والمغامرة ، وإلقاء الكلام على عواهنه ، وعدم لما حكة اللفظية أن يكون أكثر تروياً وأناة ، وأقل سخفاً وبذاءة ، وأن يستوعب القرآن من كل جوانبه ، ويربط بعضه ببعض ، ويفسر بعضه ببعض ، وأن لا

يعمد كما يفعل سخفاء المبشرين إلى المباحكات الكلامية بقصد إظهار التناقض ،
والثغرات في القرآن وعقائد المسلمين ، وفي أسس الدين الإسلامي ، ولو فعل ذلك حقاً
وصدقاً ورغبة في الحق ودون قصد للمحاكاة والتمحل ، لتبين له الحق في صدد القرآن ، ولما
سجل ما سجله على نفسه من التعسف والمجازفة والسخف وسوء الأدب حتى ولا الالحاد .
والحاده لا يسوغ له أخلاقياً وعلمياً ذلك التعسف والمجازفة والتمحل ، وعدم استيعاب
القرآن ، واعتباره كلاً متكاملًا يتم بعضه بعضاً ، ويفسر بعضه بعضاً ، ويوضح بعضه بعض
ويقرر أن فيه نوعين متميزين من الآيات هما آيات محكمات هن أم الكتاب بآخر متشابهات -
وهن اللاتي تتعدد وجوه تأويلها ، ويعيا فهمها وتأويلها على العقول أو بعضها - ويقرر أن
الذي يقف عند التشابه دون المحكم ، ويتبعه هو الذي في قلبه زيغ ، ويقصد الفتنة في
سوء التأويل ، والعلم والفلسفة اللذان يجب الاتسام بهما يوجبان عليه ذلك من حيث إنه
أمام مدونة أو وثيقة بقطع النظر عن تقديس مئات الملايين لها من واجبه أن يكون في بحثها
وفحصها أميناً متروياً ملماً لجميع جوانبها ، ملتزماً بما وضعته من ضوابط .

ولصادق العظم مواقف تعسفية وتمحلات عديدة أخرى في صدد بعض العبارات القرآنية
سوف نلم بها ، ونضع الأمر فيها في نصابه الحق في مناسبة آتية .

سادساً : الملائكة في القرآن

مما يجب ملاحظته أن ما ورد في القرآن في صدد الملائكة لم يكن هو الآخر غريباً على
السامعين حيث كان في أذهانهم صور متنوعة عنه أولاً . وإنه من وسائل التدعيم للدعوة
وأهدافها ثانياً .

وأنه من المتشابهات التي يجب التزام الضابط القلاني في النظر إليها والوقوف منها
عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجاءه بالأسلوب الذي أوحيت به لتحقيق الهدف الذي
استهدفته ثالثاً شأن القصص القرآنية .

وهذا بقطع النظر عن أن عقيدة وجود عناصر خفية خيرة يرجى برها ومساعدتها ولها

عند الاله الأعظم خطوة ، وتقوم بتبليغ وتنفيذ أوامره ، ويتقرب إليها للاستشفاع بها ، وطلب العون منها كانت قدرا مشتركا بين العرب المشركين وغيرهم من الملل والنحل والأجتناس الأخرى من كتابية وغير كتابية ممتدة الجذور إلى أمد سحيق في القدم ووارد خبرها في الأسفار والنقوش . والملائكة جمع (ملك) وهي من جذر (ألك) العربية بمعنى أرسل على ما يذكره المفسرون والمغويون ، والكلمة والحالة هذه بمعنى رسول ورسول ، وما دام القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فيكون العرب قد استعملوا هذه الكلمة قبل نزول القرآن في معنى كون الملائكة يبلغون رسالات الله تعالى ، ويقومون بخدماتهم ويشفعون لديه وهذا مما كان في أذهانهم عنهم على ما يستفاد من النصوص القرآنية .

والبعض يقول : إنها عبرانية دخيلة على العربية ، ويمكن أن يورد على هذا أن العبرانية والعربية من أصل واحد والتشارك بين اللغتين في الأسماء والأفعال والمصادر واسع جدا ، وليس من الضروري أن تكون الكلمة دخيلة إلا إذا فقدت من العربية ما يمكن أن يكون أصلا لها ، وما دام هناك جذر عربي فصحيح لها ، فالأوجه أن تعتبر عربية فصحي ، وعلى كل حال فإنها كانت عند نزول القرآن جزءا من اللسان العربي .

ولقد ورد في القرآن في صدد الملائكة آيات كثيرة في معرض الحوار أو بيان عقيدة العرب فيهم . منها الامثلة التالية :

١ - (وَقَالُوا لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ .

الأنعام : ٨

٢ - (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . الحجر : ٦ و ٧

٣ - (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

قَوْلًا عَظِيمًا^(١) . الاسراء : ٣٩ - ٤٠

٤ - (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا .
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ
عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا^(٢)) . الاسراء : ٥٦ و ٥٧

٥ - (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا . وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرْدًا .
لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا . وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ
مَشْيَاً إِذَا^(٣)) . مريم : ٨٥ - ٨٩

٦ - (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) . طه : ١٠٩
٧ - (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ
بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ
خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ) . الأنبياء : ٢٦ - ٢٩

٨ (وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا) . الفرقان : ٧

٩ - (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ
أَسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا . يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ

(١) كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ويتعبدون لهم استشفاعا بهم لديه فتصدت الآيات لتبكيهم ، فهم يفضلون البنين
على البنات ثم ينسبون الى الله مالا يشتهون لأنفسهم مع أنه من المقتضى أن يكون له الافضل الاحسن ..

(٢) الإشارة في الآيات هي الى الملائكة فهم الذين كان العرب يرجونهم كشف الضر عنهم والشفاعة لهم مع أنهم هم أنفسهم -
أي الملائكة - يتحرون الوسائل الى رضى الله ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وهذا على سبيل التحدي للكفار العرب الذين
كانو يشركون الملائكة في الدعاء والعبادة ، ويرجون شفاعتهم ونفعهم لهم .

(٣) كان المشركون يتعبدون الملائكة على سبيل الاستشفاع ، فالآية الاولى تؤذنههم بأن الشفاعة هي لمن يتخذ عند الله
العهد ، أما الثانية فالولد فيها يعني عقيدة العرب بأن الملائكة بنات الله ، وكلمة الولد تشمل الذكر والانثى .

لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِبْرًا مَّحْجُورًا) (١) الفرقان : ٢١ و ٢٢

ففي هذه الآيات وأمثالها ما يفيد أن سامعي القرآن من العرب أهل بيئة النبي ﷺ كانوا يعتقدون بوجود الملائكة ، وأنهم عند الله وبناته ، وينزلهم لتأييد من يريد ، وذوو حظوة لديه ، وأنهم كانوا يشركونهم معه في العبادة والدعاء بقصد الاستشفاع لديه ، وفيها تقرير لعبودية الملائكة لله وكونهم يعرفون حدهم ، ولا يجروون على دعوى المشاركة مع الله في الألوهية ، ويخافون منه ، ولا يستطيعون أن يشفعوا إلا لمن يرضى الله عنه ويأذن ، ولا يستطيعون أن يمنعوا عن أحد ضرا ، أو يجلبوا له نفعاً خلافاً لما يريد الله من ذلك ، ويوم القيامة سوف يتصلون من الذين كانوا يعبدونهم ويكذبونهم ، ويعلنون أن وليهم الله وحسب ، ولا يمكن أن يكونوا قد رضوا بذلك . وكل هذا مما يؤيد ما قلناه من أن موضوع الملائكة لم يكن غريباً على أذهان السامعين ، وأنهم من صلب عقائدهم ، وأن مما هدف إليه القرآن يذكرهم هو تدعيم الدعوة التي كان ركنها الأول تقرير وحدانية الله تعالى بدون ولد ولا شريك ولا معين ، وتقرير استحقاقه وحده للعبادة والخضوع والدعاء ، وتدعيم لنبوة الرسول الذي كلف بمهمة هذه الدعوة .

وفي القرآن آيات كثيرة أخرى ذكر فيها الملائكة في غير معرض الحوار مع المشركين وعقائدهم كما ترى فيما يلي :

١ - (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ . قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ

(١) هذه الآيات ليست كل ما ورد في القرآن حيث يوجد فيه آيات كثيرة أخرى من بابها . اقرأ إذا شئت آيات سورة سبأ ٢٢

و ٢٣ و ٤١ و ٤٢ و الصافات ١٤٩ و ١٥٠ والزمر ٣ و ٤ و ٣٨ والزخرف ١٩ و ٢٠ والنجم ١٩ - ٢٨

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لَادَمَ فَسَجَدُوا (. البقرة : ٣٠ - ٣٤

٢ - (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ
اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (. البقرة ٩٧ و ٩٨

٢ - (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى
وَالْمَسَاكِينَ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ
بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (. البقرة : ١٧٧

٤ - (فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّيُ فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُشْرِكُ بِشَيْءٍ (. آل

عمران ٣٩

٥ - (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ

الْعَالَمِينَ (. آل عمران : ٤٢

٦ - (إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدْعِيَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
مُنْزِلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (. آل عمران : ١٢٤ - ١٢٦

٧ - (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ

فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا (. النساء : ٩٧

٨ - (وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا

بَعِيدًا (. النساء : ١٣٦

٩ - (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا .) النساء : ١٧٢ - ١٧٣

١٠ - (وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ .) الانعام ٩٣

١١ - (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُدْكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .) الانفال : ٩ و ١٠

١٢ - (وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ .) الانفال : ٥

١٣ - (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .) الرعد : ١٣

١٤ - (يُنْزَلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ .) النحل : ٢

فهذه الآيات التي لها أمثال كثيرة أخرى من بابها متساوقة مع المجموعة الأولى وأمثالها حيث يلمح فيها كذلك ما يفيد ان للملائكة حيزاً كبيراً في أذهان سامعي القرآن الأولين ، وأنها بسبيل ، تدعيم الرسالة القرآنية النبوية ، ويبدو هذا واضحاً فيما قررته من ان الملائكة

(١) هناك آيات كثيرة أخرى من باب ما تقدم فاكثفينا بما أوردناه . اقرأ اذا شئت آيات سورة الاعراف ٤٦ - ٤٩ ، والانفال

١٢ و ١٥ ، والنوبة ٢٦ ، والنحل ٣٢ و ٤٤ و ٥٠ ، والحج ٧٥ و ٧٦ ، ومريم ٦٤ ، والاحزاب ٤٥ و ٥٦ ، وفاطر ١ ، والزمر ٧١ -

٧٥ ، وغافر ٧ و ٥٠ وفصلت ٢٩ و ٣٨ ، والزخرف ٨٠ ، وق ١٦ و ١٧ ، والتحريم ٦ والنبأ ٣٨ والمدثر ٢٦ - ٣١ ، وعيس ١٣ -

١٦ ، والتكوير ١٩ - ٢٣ والعلق ١٧ - ١٩

الذين لهم في أذهان السامعين تلك الصورة الفخمة يعرفون حدهم من الله ، ويقفون عنده ، ويعترفون بعبوديتهم له ، ويسبحونه ويقدسونه ، ويحملون عرشه ، ويخافون عذابه ، ويرجون رحمته ، وينفذون أوامره ، ولا يعصونه قط ، وهم رسله إلى أنبيائه يتنزلون عليهم بكتب الله وتبليغاته ، ويصلون على النبي ﷺ مع الله ، ويستغفرون للمؤمنين ، ويصلون عليهم ، ويؤيدونهم بأمر الله بالحرب والأخطار ، وهم رقباء على الناس يحصون أعمالهم ويسجلونها ، وهم يتنزلون بعذاب الله على الظالمين والكافرين ، ويتلقون هؤلاء عند وفاتهم وفي يوم القيامة بالشدة والعنف والتشريب واللوم في حين يتلقون المؤمنين بالترحيب والبشرى ، وهم خزنة الجنة والنار .

وهكذا تكون الآيات الواردة في القرآن في صدد الملائكة على اختلاف مقاماتها تفيد من ناحية أنهم كانوا يشغلون في أذهان سامعي القرآن حيزا كبيرا ، وتهدف من ناحية أخرى إلى تدعيم الرسالة القرآنية النبوية ، وتكون الصورة الفخمة للملائكة في أذهان السامعين من مرتكزات هذا التدعيم . ويلمح الناظر المتمعن فيها من ناحية ثالثة أنها من حيث فحواها وصيغها من التشابهات التي تتحمل وجوها عديدة للتأويل ، ويعي عن تأويل بعضها عقول الناس ، وإن من الواجب التزام الضابط القرآني إزاءها ، فيقف عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجاءه بالاسلوب الذي جاء لتحقيق الهدف دون تزييد ولا تكلف . ومن المسائل المهمة التي يحسن التنبيه عليها والتنبيه لها أن الآيات وهي تركز في التدعيم على الصورة الفخمة التي في أذهان السامعين للملائكة قد تضمنت ما من شأنه إزالة الظن بأنهم قادرون على النفع والضرر للناس ، وتقدير كون الله وحده هو كاشف السوء ، ومانح الرحمة والناصر الحقيقي للمؤمنين وكونه وحده الذي يجب التوكل والاعتماد عليه ، وإن الله إذا أخبر النبي ﷺ والمؤمنين بتأييده إياهم بالملائكة ، فإنما يفعل ذلك للبشرى والتطمين . ولقد احتوى القرآن آيات كثيرة قررت إحاطة علم الله بكل شيء ، وإحصائه كل شيء ، وقدرته على كل شيء : وتصريفه كل شيء ، ورقابته على كل شيء ،

وكونه أقرب الى خلقه من كل شيء . بحيث يكون في ذلك تقرير مباشر لاستغناء الله عن المعين والمساعد أيضا . وهذا مما يمكن أن يساق أيضا في تأييد كون الآيات قد هدفت إلى إزالة الظن بقدرة الملائكة على النفع والضرر للناس ، وبطلان وسخافة عبادتهم ، وإشراكهم مع الله في الدعاء ...

وملاحظة كل ذلك واجبة وضرورية ، لأنها تعصم الناظر في القرآن من التورط في الدخول في متاهات استكناه الماهيات والتأويلات على غير طائل ولا ضرورة .
ولقد أوجب القرآن حقا الايمان بالملائكة ، وجعل الكفر بهم موقفا من الايمان وضلالا ، ومن حق الذي يؤمن بعظيم قدرة الله وعظيم حكمته أن يؤمن بما أخبر الله بوجوده ، ومهمته من هذا الخلق ، ويكون ذلك غير خارج عن نطاق قدرة الله وحكمته ، ولو لم يدرك مداه عقل الانسان الذي يعييه ادراك كثير من قوى الكون ونواميسه مع وجوب الوقوف من أمر ماهيتهم ، وكيفية خدماتهم لله عز وجل ومداه وحكمتها عند ما وقف عنده القرآن بدون تزيد ولا تخمين ، والتسليم به تبعا لواجب التسليم والايمان بما في القرآن والقول (أَمَّا بِهِ كُلُّ مِنْ عِنْدُ رَبَّنَا) ومع وجوب ملاحظة أن القرآن وهو يذكر الملائكة بما يذكر ، ويتحدث عنهم بما يتحدث ، انما يذكر ويتحدث عن مخلوقات وكائنات كان العرب يعتقدون بها بما يقارب ما جاء عنهم ، وهذه مسألة مهمة ، لأن الكلام عما هو معروف ومعترف به هو اقوى أثرا ونفوذا . ومع واجب استشفاف الحكمة الربانية فيه ، والتي نرجو ان يكون منها ما شرحناه ، ونبهننا عليه هنا ، وفي سياق شرح قصة آدم وإبليس وسجود الملائكة بأمر الله من قبل . وإذا كان بعض المفسرين والباحثين الاسلاميين تزيدوا في سياق تأويل وتفسير الآيات التي ذكر فيها الملائكة ، وفي صدد استكناه ماهياتهم وخدماتهم فلا يتحمل القرآن مسؤوليته ، وإن كان يدل على كثرة ما كان يتداول عنهم في زمن النبي ﷺ وبيئته . فالله تعالى الذي انزل القرآن قد انزل ما اقتضت حكمته ايجاء في هذا الامر المغيب غير المدرك من عقول البشر لتحقيق ما استهدفه من هدف ، ولو اقتضت حكمته مزيدا من بيان

لأنزله . وما يسوقه المتزيدون والمستكنهون غير وثيق السند الى رسول الله الذي هو المرجع الوحيد الانساني الذي له حق الايضاح والبيان ، فيكون تجاوز هذا النطاق تجاوزا على حكمة الله بدون طائل ولا ضرورة . ونحن نرى في محاولة بعض الباحثين المعاصرين من المسلمين لتأويل ماهيات الملائكة ووجودهم على ضوء النظريات الكونية الحديثة تكلفا ، ولا تتسق مع فحوى ومدى الآيات وليس لها طائل ولا ضرورة ايضا .

وكل ما تقدم يساق للملحدين بتمامه ، ونعتقد أنه يسد عليهم باب التمثل والتقطع . ونحن نعرف أن ملحدي العرب الذين يتظاهرون بالحرص على أن يكون العرب أقوى وأعزاء متقدمين آخذين بأسباب الحضارة والعلم غير متخلفين عن الاسباب ، وغير مقصرين فيها يعززون ما عليه العرب من تخلف ، وما يقع عليهم من نكسات الى الايمان بالملائكة وغيرهم من المغيبات ، ويزعمون أن ذلك يشل قواهم ويعطلها . ولقد كذب هذا الزعم تاريخ المسلمين الأولين الذي كان إيمانهم بالملائكة والمغيبات أشد من إيمان مسلمي اليوم بالاضافة إلى إيمانهم بالله ورسوله وقرآنه ، والتزامهم بكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله حيث كان ذلك مانحا لهم القوة المعنوية الهائلة التي ضمنت لهم النصر المبين في المعارك التي خاضوها مع قوى تفوقهم عددا وعدة وحضارة ، كما أنه لم يكن مانعا لهم من أن يجولوا تلك الجولات الواسعة الموفقة التي لا تزال آثارها قائمة ومدوية في كل ميادين العلم والفكر والفن والحكم والحضارة والفلسفة والتشريع والاجتماع والبحث والتدوين والاستكشاف والاختراع مما اعترف به ونوه به جمهور من علماء الغرب وباحثيهم في أزمان وأمكنة مختلفة .

وهذا الايمان لم يكن في أصل الدين بديلا عن العلم والعمل والاعداد والاستعداد والجهد والثبات والمراطة والتخطيط والتدبير والتصميم في كل شيء وبكل الوسائل . ففي القرآن تقارير حاسمة صريحة ومحكمة في كل ذلك مبنوثة في مختلف السور بأساليب ومناسبات مختلفة يستطيع المتصفح للقرآن أن يقع عليها بسهولة لكثرتها بحيث يغني هذا

عن التمثيل ، ولقد قرن القرآن بين الايمان وعمل الصالحات في كل أو جل الآيات ، وكلمة (الصالحات) عامة تشمل كل أمر إطلاقاً ، ولقد جعل الله استخلاف المؤمنين وتمكينهم في الأرض رهنا بذلك كما جاء في آية سورة النور هذه : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .) فيكون الايمان بتأييد الله وملائكته بعد هذا مانحاً لقوة معنوية لا يستهين بأثرها في أي موقف إلا الحمقى والمكابرون .

وإذا كان من أحد ينتظر من الله والملائكة النصر وهو لا يعمل ولا يعلم ، ولا يستعد ولا يعد ، ولا ينفق ولا يدبر ، ولا يستنفذ الأسباب والوسائل ، فليس من القرآن والاسلام في شيء ولا يتحملان مسؤوليته ، وفي كتاب صادق العظم انتقاد ساخر لطلب بعض الحكام العرب النصر والتأييد وانتظارهما من الله بعد نكسة حزيران (١٩٦٧) فالانتقاد يكون في محله إذا كان ذلك بدون عزم على الاعداد والاستعداد والتدبير والتصميم ، وتلافي الاخطاء والتقصير وسد الثغرات ، ولكن الوقائع لا تفيد ذلك ، فالجملة التي ينتقدها العظم صادرة من الرئيس المغفور له جمال عبد الناصر في برقية للملك حسين عقب الهزيمة بقصد بث الصبر والجلد والامل . وقد حلت بالعرب المحنة المفجعة ، ولقد بدأ الرئيس الراحل بعد ذلك قوي الصمود ، صلب العود مصمماً على الاعداد والاستعداد وعلى التغيير الذي يتلافى به التقصير والنقص ، وسار هو والمتضامنون معه قدماً بكل قوة ونشاط في الاستعداد والاعداد للمعركة دون كلل ولا ملل حتى أمكن بناء جيش قوي في مدة قصيرة قياسية مما يشبه المعجزة ، وصار يقف إزاء التحدي بمثله عدة وعددا وفنا وعلما وبادر الى شن حرب الاستنزاف التي ازعجت الاعداء اشد الازعاج مع الاستمرار في البناء والتغيير ، والاعداد مما كان يبشر بأحسن النتائج ، ومع رفض بات وحازم للاستسلام والرضوخ ، وتصميم قاطع على تحقيق الكرامة ، واسترداد الأرض العربية ، وضمان حقوق الشعب العربي

الفلسطيني كاملة في أرضه المغتصبة فيكون الانتقاد ، والتعامي عن ما تم من تغيير وتحسين وجهه ظلماً وجنفاً وبقصد التشكيك والتهديم ، وليس هذا مما يتسق مع العلم والاخلاق والوطنية ، والحرص على المصلحة العربية العامة مما يتشدد به صادق العظم ...

سابعاً : الجن في القرآن

كذلك مما يجب ملاحظته أن ما ورد في القرآن في صدد الجن لم يكن هو الآخر غريباً على السامعين حيث كان في أذهانهم صور متنوعة عنه أولاً ، وأنه من وسائل التدعيم للدعوة وأهدافها ثانياً ، وأنه من التشابهات التي يجب التزام الضابط القرآني في النظر إليها ، والوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيجاءه بالاسلوب الذي أوحيت به لتحقيق الهدف الذي استهدفته ثالثاً كشأن القصص وشأن الملائكة .

وهذا أيضاً بقطع النظر عن أن عقيدة وجود عناصر خفية شريرة ذات قدرة فائقة يخشى شرها وأذاها ، ويتعوذ منها بالتزلف والقرايين كانت قدراً مشتركاً بين العرب والمشركون وسائر الملل والنحل والاجناس الأخرى من كتابية وغير كتابية ممتدة الجذور إلى أمد سحيق في القدم ووارداً خبرها في الاسفار والنقوش شأن الملائكة .

وكلمة الجن وبعض متشابهاتها أو تفرعاتها اللفظية مثل جن وجنين تنطوي على معنى الاستتار والخفاء في اللغة العربية ، وهذا يسوغ القول : إن معنى الخفي غير المرئي بالنسبة إلى الجن مما كان مستقراً ومفهوماً في أذهان العرب بالاضافة إلى ما في هذه الأذهان من الصور المتنوعة عن الجن .

وهذه آيات قرآنية توضح وتفيد ما في أذهان المشركون العرب من تلك الصور :

١ - (قُلْ اَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابُ يَدْعُوهُ إِلَىٰ أَلْهَىٰ

إِثْتَا قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ أَهْدَى وَأَمْرُنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١) . ٧

٢ - (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ .) الانعام : ١٠٠

٣ - (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١) .) الانعام : ١١٢

- (وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ .) وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ . ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ .) الانعام : ١٢٨ - ١٣١

٤ - (قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا .) الاعراف : ٣٨

(١) الشياطين في الآية كناية عن عتاة الجن حيث كان العرب يعتقدون أن عتاة الجن يخطفون من يقدر عليهم من الانس في الوديان والبراري الموحشة .

(٢) الآية بسبيل الإشارة الى النظام الاجتماعي الذي أقام الله المجتمع الانساني عليه . فكلما أتى نبي انبرى له العتاة من الانس والجن للتشويش عليه ومناوئته ، لانه يدعو الى الله والصلاح وهذا ما لا يتسق مع مآربهم ، والله قادر على منهمهم ، ولكنه ترك الامر ليجري على نظامه حتى يحق الحق على المجرمين .

٥ - (وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ١١) إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ . (الحجر : ١٧ و ١٨)

٦ - (قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً .) (الاسراء : ٨٨)

٧ - (وَلَسَلِمَانُ الرَّيْحِ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ . وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ .) (الأنبياء : ٨١ و ٨٢)

٨ - (وَلَسَلِمَانُ الرَّيْحِ غَدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَمَتَائِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ . فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ .) (سبا : ١٢ - ١٤)

٩ - (وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ .) (سبا : ٤٠ و ٤١)

١٠ - (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ١٣) . (الصافات :

(١ و ٢) الشيطان والشیاطین فی الآيتين تعني شیاطین الجن علی ضوء الآيات الاخری .

(٣) الآية الاخيرة بسبیل افحام الکفار . فالله القادر علی ذلك الخلق العظيم فی أذهانهم هو قادر علیهم من باب أولى ..

١١ - (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ . سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ .) (١) الصافات : ١٥٨ و ١٥٩

١٢ - (وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ . قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . فَسَحَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . وَالشَّيَاطِينُ (٢) كُلٌّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ . وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ .) ص : ٣٤ - ٣٨

١٣ - (وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَنْ لَا يَحِبُّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ .) الأحقاف : ٢٩ - ٣٢

١٤ - (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ .) الرحمن : ١٤ - ١٥

١٥ - (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .) الرحمن : ٣١ - ٣٦

١٦ - (قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا . يَهْدِي

(١) مما روي أن العرب كانوا يتخيلون أن الله أصهر للجن ، فكان نتاج ذلك الملائكة .. ويصح أن يكون قصد الآية الإشارة إلى عبادتهم للجن إشراكاً لهم مع الله .

(٢) الشياطين في الآية كناية عن الجن بدلالة آيات سبأ ١٢ - ١٤ .

إِلَى الرُّشْدِ فَاْمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا . وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا . وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا . وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا . وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالُ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا . وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا . وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مِثْلَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا . وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهُبًا رَصَدًا . وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا . وَأَنَا مِنْ الْأَصَالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدْدًا . وَأَنَا ظَنَنَّا^(١) أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا . وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهَلْدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا . وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمِنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا . لِنَقْتَنِيَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا^(٢) . (الجن : ١ - ١٧)

وفي الآيات تأييد لما قلناه من أن ذكر الجن لم يكن غريباً على السامعين حيث تضمنت ما يفيد أنهم كانوا يشغلون حيزاً في أذهانهم ، وكان منهم من يعوذون بهم ، ويشركونهم مع الله في العبادة تزلفاً وخوفاً . وكان منهم من يعتقد أن الجن والانس يستمتع بعضهم ببعض ، وأن بين الله والجن نسباً . وكان منهم يعتقد أن عتاه الجن يخطفون من يستفردون به من الانس في البراري والوديان المخوشة بالاستهواء ، فيدعونه فيسلبون بدعوتهم إياه الارادة ويتبعهم . ونعتقد الى هذا أن ما جاء عنهم في آيات سورة سبأ والصفات والجن من تسخير الجن لسليان وأعمالهم الخارقة ، وتعذيب سليان لهم وسجنه إياهم ، ومن استراق شياطينهم العتاة السمع من السماء ، ورشقهم بالشهب مما كان يتداوله أهل بيته النبي ﷺ قبل نزول القرآن ، وصيغة الآيات تلهم ذلك مما يتبادر لنا .

(١) ظننا هنا بمعنى أيقنا وقد جاءت الكلمة بهذا المعنى في آيات عديدة .

(٢) الآيتان الاخيرتان تعقيب رباني على ما قبلها كما هو المتبادر .

كذلك في الآيات ما يفيد ما قلناه من أنها هدفت الى تدعيم الرسالة القرآنية النبوية . فالجن العتاة ذوو الاعمال العظيمة عاجزون عن الاتيان بمثل القرآن ، وهذا التدعيم ملموح كذلك بقوة في آية سورة الصافات (١١) ، وفيما حكته آيات سورتي الاحقاف والجن من استماع الجن للقرآن وإيمانهم به ، فهؤلاء الذين لهم في أذهان العرب صورة رهيبة لم يلبثوا حينما سمعوا القرآن أن تبينوا الحق ويدعنوا ويؤمنوا على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم حيث قد يلوح فيها ما يفيد أن بعضهم كان يدين بالموسوية ، وبعضهم بالنصرانية ، ويلمح في بعض الآيات أنها بسبيل إزاله ظن علمهم بالغيب وقدرتهم على النفع والضرر ، وقمردهم على الله ، وتقرير كونهم غير معجزين له ، وفي هذا أيضا ما فيه من الهدف التدعيمي .

وقد يتبادر الى هذا أن ما ورد عن الجن الذين منهم إبليس والشيطان المرادف له (١) من صور بغیضة ومحلات على المشركين والكفار في سياقها متصل بما في أذهان العرب عنهم ، وبسبيل تقرير كون الانحراف عن الحق والمكابرة فيه ، والاستغراق في الكفر والخبائث والآثام ، والانصراف عن دعوة الله هو من تلقيناتهم ووساوسهم ، ومظهر من مظاهر الانحراف نحوهم ، وبسبيل التحذير من الاندماغ بهم لما في ذلك من مهانة ومسبة . ومن هنا يأتي الكلام قويا ملزماً ولاذعاً ، ويتصل بهدف التدعيم أيضا .

وأما كون الآيات من المتشابهات التي تحتمل وجوها عديدة للتأويل أو التي يعيى تأويلها على العقل الانساني فهو واضح يستطيع كل قارئ أن يلمحه ، وقد تكون صيغة

(١) في آية الكهف هذه (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ..) دليل قرآني على أن إبليس من الجن كما أن هذا الدليل قائم في تشارك إبليس والجن في كونهم مخلوقين من النار كما ذكر في آية سورة الرحمن (١٥) وكما حكى عن لسان إبليس ذلك في آيات عديدة من صيغ قصته على ما نبهنا عليه قبل . ويلحظ هذا التشارك في تعبير (الجنة) في سورة الناس (الَّذِي يُوسُّوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ .) فالمتبادر أن تعبير (الجنة) قد قصد به إبليس والشيطان رديفه لأنهم هم الذين يوسوسون في صدور الناس حسب بيناغ القرآن . ومع ذلك فقد عبر عنها بهذا التعبير حيث يكون في ذلك مزج بين الجن وإبليس والشيطان كان الجميع شيء واحد ، ويؤدون مهمة واحدة أو يرمزون الى شيء واحد .

وفحوى بعض الآيات إيجابيه تقريرية في صدد ماهية الجن النارية ، واستراقهم السمع ، ورميهم بالشهب وقيامهم بالاعمال الخارقة ، واحتمال رؤيتهم وحبسهم حيناً ، غير أن ذلك لا يخرجها عن نطاق التشابهات . ومن الجدير بالذكر أن فحوى آيات الحادثين المهمين المتصلين بالسيرة النبوية المحكيين في سورتي الاحقاف والجن يفيد بصورة قاطعة أن النبي ﷺ لم ير الجن ولم يسمعهم ، وأن علمه بسماعهم للقرآن منه وإيمانهم به قد تم عن طريق الوحي القرآني وحسب ، وفي سورة الاعراف آية تفيد أيضاً أن إبليس والشیطان المرادف له وقبيلهما يرون الناس من حيث لا يرونهم . وهي :

(يَا بَدِىْ اٰدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ) (١) كَمَا اَخْرَجَ اَبْوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا اِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِيْنَ اَوْلِيَاءَ لِلَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ .) الاعراف : ٢٧

وكل هذا مهم ومؤكد لكون الآيات من التشابهات .

وكل هذا مما يجب على الناظر في القرآن ملاحظته لأنه يجعله يستشف حكمة التنزيل فيما جاء عن الجن ويلمح صلة الآيات بالبيئة النبوية وذهنيتها ، وما فيها من تدعيم للدعوة النبوية ، ويقف عند ذلك ولا يتورط في متاهات التأويل والماهيات ، وكما قلنا في صدد الملائكة ، نقول في صدد الجن : إن وجودهم في نطاق قدرة الله وإن لم يدرك العقل الانساني مداه ، وإن الايمان بما جاء تقريرياً وإيجابياً عنهم في القرآن واجب مع الاكتفاء بالقول : (آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدَ رَبِّنَا) ومع واجب استشفاف الحكمة منه أولاً ، والوقوف عندما اقتضت حكمة التنزيل الوقوف عنده دون تزييد ثانياً ، وملاحظة أن القرآن وهو يذكر الجن بما يذكر ، ويتحدث عنهم بما يتحدث ، إنما يذكر ويتحدث عن مخلوقات وكائنات يعتقد السامعون بوجودها بما يقارب ما جاء عنهم ثالثاً .

(١) الشيطان في الآية جاء بديلاً لإبليس في الآيات السابقة .

وهذه مسألة مهمة ، لأن الكلام عما هو معروف ومعترف به هو اقوى أثرا ونفوذا ، وفي بعض الآيات ما يمكن أن يستشف منه أنها بسبيل تهوين شأن الجن وقدرتهم ونفوذهم ، وبسبيل إبراز عجزهم ، وهذا أمر مهم في بابه ، حيث يكون القرآن قد هدف فيما هدف إليه الى تخليص الانسان من عقدة الخوف منهم .

وإذا كان بعض المفسرين قد تزيدوا في إيراد البيانات عن ماهيات الجن وكيفياتهم وحركاتهم فإن القرآن لا يتحمل مسؤوليته ، وإن كان يدل على أن الكلام عنهم كان كثيرا في زمن النبي ﷺ وبيئته ، وليس فيما أوردوه ما هو وثيق السند الى رسول الله ﷺ الذي هو المرجع الوحيد صاحب الحق في البيان والايضاح عن المغيبات ، ولو اقتضت حكمة التنزيل مزيدا من البيان لنزل ، فيكون في تجاوز نطاق القرآن تجاوز على حكمة الله بدون ضرورة ولا طائل .

وننبه هنا الى ما نبهنا عليه في بحث الملائكة من أننا نرى في محاولة تأويل ماهيات الجن على ضوء بعض النظريات الكونية الحديثة تكلفا لا طائل من ورائه ، وهو في الوقت نفسه لا يتسق مع مدى وفحوى الآيات القرآنية وكل هذا يساق للملحدين أيضا ، ونعتقد أن فيه سدا لكل تمحل وتنطع .

وإذا كان على المسلم ومن حقه أن يؤمن بما جاء في القرآن في صدد الجن في نطاق شروحنا السابقة فليس في ذلك ما قد يزعمه الملحدون من شل لقواه كما أنه ليس فيه ما يصرفه عن واجبه في التزام محكمات القرآن التي فيها ضمان صلاحه وكرامته وتقدمه وحرية وانطلاقه الى أبعد الآماد . وما يبدو منه خلاف ذلك فليس من القرآن والاسلام في شيء ، ولا يتحملان مسؤوليته . ونذكر هنا بما قلناه من أن القرآن في بعض آياته قد هدف فيما هدف إليه الى تخليص الانسان من عقدة الخوف من الجن ..

ثامنا : مشاهد الكون ونوامسيه في القرآن

مما يجب على الناظر في القرآن ملاحظته أن ما ورد فيه من آيات فيها إشارات الى

مشاهد الكون وخلقه ونواميسه ، قد استهدفت لفت نظر السامعين الى عظمة الله تعالى ، وسعة ملكوته وبديع صنّعه وإتقانه وتقديره ، وشامل إحاطته وقدرته وتدبيره ، يقصد تأييد هدف رئيسي من أهداف الدعوة وهو توكيد وجوب وجود الله تعالى ، واتصافه بأكمل الصفات ، وتنزهه عن الشوائب واستغنائه عن الولد والشريك والنصير والمساعد ووحدانيته وانفراده في الالهية والربوبية ، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه والدعاء ومطلق تصرفه ، وشمول علمه وإحاطته بكل شيء دق أو عظم ، وحكمته السامية في خلق الكون على أسس النواميس التي شاءت هذه الحكمة أن تقوم عليها ، ثم بقصد بث هيبة الله تعالى في قلوب السامعين ، وحفزهم على الاستجابة الى دعوة رسوله ، والانصياع لأوامره ونواهيه ، والتزام حدوده ، وبقصد البرهنة على قدرته على خلق الناس مرة أخرى يوم القيامة ، وبتعبير إجمالي آخر قد استهدف العظة والارشاد والتنبيه والتلقين والتدعيم والتأييد دون قصد تقرير نظريات الكون وماهياته ، واطوار الخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية مما يبدو واضحاً في جميع آيات المشاهد الكونية ، وحتى الآيات التي فيها بيان لبعض مراحل الخلق والتكوين لم يقصد فيها تقرير هذه المراحل لذاتها كما يتضح للمتمعن فيها ، وانما قصد توكيد تلك الاهداف والمقاصد التدعيمية .

وحكمة ذلك واضحة . فالقرآن دعوة الله الى الناس كافة على تفاوت مداركهم وأذهانهم ومراكزهم ونحلهم . وقصد الموعظة والارشاد والتنبيه والهداية والبيان هو القدر المشترك بين كافة الناس بالنسبة الى هذه الدعوة من جهة ، وهو الاصل في القرآن ، والمتسق مع طبيعته ومداه من جهة اخرى ، بحيث يمتد الى كل دور ومكان ، وتجاه أعلم العلماء ، وأبسط البسطاء . كما أن شواهده قائمة في أساليب الآيات سواء أكان ذلك في كيفية التعبير والساق أم في تنوعهما ، أم في التكرار في المناسبات والمواقف المتجددة مما هو مبثوث في مختلف السور وبخاصة المكية منها التي اقتصرت دون المدنية على الاعم الاغلب على

الدعوة الى الله ، والايمان باليوم الآخر ، ومحاربة الشرك والانحراف ، والى مكارم الاخلاق عامة .

والذي يتمعن في هذه الآيات يجدها على الاعم الاغلب تبدأ بتنبيه الناس الى مشاهد كون الله ، وتنتهي بتنبيههم الى ما في ذلك من آيات لمن يعقل ويفكر ويسمع ويتقي ويتدبر ويعلم ، ويجد في سياقها السابق عليها أو اللاحق بها تنديداً بالكافرين المكابرين الذين يغفلون عن آيات الله في كونه ويمارون فيها ، ويمارون بالتالي بوجوده أو وحدانيته وشمول قدرته واستحقاقه وحده للعبادة والخضوع والاتجاه ، واستغناؤه عن الشريك والولد والمساعد ، ويجدها في الوقت نفسه تخاطب السامعين بما يقع تحت أبصارهم وممارستهم ومتناول معارفهم ، وفهمهم ومداركهم وهذا مهم جداً في بابه . أو بكلمة اخرى تردد ما كانوا يعرفونه أو يسمعون أو مستقر في أذهانهم فهماً ومشاهدة وتصوراً وهذا أمر مهم .

وهناك آيات كثيرة من آيات مشاهد الكون والخلق ونواميسها تبدو بجملة (ألم تر) موجهة الى النبي ﷺ والسامعين للقرآن مما سوف نورد امثلة منه فيما بعد . والجملة بمعنى كما هو المتبادر والله أعلم (ألم تعلم) أو (ألم تعرف) حيث ينطوي في ذلك دلالة قرآنية على ما قلناه . (١)

وهذه بعض الامثلة :

- ١ - (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ .) البقرة : ٢١ و ٢٢ (٢)
- ٢ - (وَالِهَكُمْ إِلَهَ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) في آية سورة الروم (٣٧) وآية سورة الزمر (٥١) تبادل بالجمليتين والنص واحد .. أي في الأولى (أولم يروا) وفي الثانية (أولم يعلموا) وفي هذا دليل على ذلك أيضاً .

(٢) جاءت هذه الآيات بعد حملة على الكافرين والمنافقين .

وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٠٠) البقرة : ١٦٤

٣ - (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ . هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُوتُونَ . وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (١٠١) الانعام : ١ - ٣

٤ - (إِنَّ اللَّهَ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَمَى مِنَ الْحَمَى ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ .. وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ (١٠٢) الانعام : ٩٥ - ١٠٠

٥ - (إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُعْطِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ

(١) جاء بعد هذه الآيات تنديد بمن يتخذ أندادا من دون الله ، وإنذار شديد لهم .

(٢) جاء بعد الآيات حجة على المكذبين المتمردين .

(٣) قبل الآيات أيضا حجة على المكذبين والكافرين والظالمين والمشركون وإنذار لهم .

الْمُعْتَدِينَ . وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتِ سَحَابًا ثِقَالًا سَقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ . (الاعراف : ٥٤ - ٥٨)

٦ - (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ . إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْنِئُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ . هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ . أُولَئِكَ مَاوَاهُم النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . (يونس : ٣ - ٩)

٧ - (أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ يَقْمِدَ فِيهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فُجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ .) الانبياء : ٣٠ - ٣٢

٨ - (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ

ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّينَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْبَازَتْ وَرَبَّتْ وَابْتَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ . (الحج : ٥ - ٧)

٩ - (قُلْ أَنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ) بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاتِلِينَ . ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهْبَى دُخَانَ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَتَيْنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ . فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ . إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . (١١)

فصلت : ٩ - ١٤

١٠ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِغُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ

خَبِيرٌ) . (الحج ٦٣)

١١ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَمُتَّسِكُ السَّمَاءِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ) . (الحج : ٦٥)

١٢ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ

(١) الآيات من النوعين كثيرة جداً فنكتفي بما أوردها . ويحسن بالقارئ . ان يرجع الى المصحف فيقرأ الآيات الكثيرة الأخرى لينتبه ما بهنا عليه من أساليبها ومدادها وأهدافها . وليقرأ بخاصة الآيات التالية سورة يونس ٣١ - ٣٣ ، هود ٧ ، والرعد ٥ - ١٢ ، ٢٧ ، والمجر ٣١ - ٣٣ ، والنحل ١ - ١٨ ، و٦٥ - ٧٢ ، و٧٨ - ٨٢ ، والمجم ٥ - ٧ ، و٦١ - ٦٦ ، والمؤمنون ١٢ - ٢٢ والنور ٤٣ - ٤٦ ، والفرقان ٤٥ - ٥٥ ، والنبيل ٥٩ - ٦٦ ، والروم ١٧ - ٢٩ ، ٤٨ - ٥٠ ، والسجدة ١ - ٩ وفاطر ٩ - ١٤ ، ٢٦ - ٢٨ ، ويس ٣٣ - ٤٤ ، والزمر ٣ - ٧ ، وغافر ٦١ - ٧٠ ، والجنات ٢ - ٦ ، ق ١ - ١٥ ، والذاريات ٤٩ - ٥١ ، والرحمن ١ - ٢٩ ، والمالك ١ - ٢١ ، ونوح ١٤ - ٢٠ ، والنبأ ١ - ١٦ ، والنازعات ٢٧ - ٣٢ ، وعيس ١٧ - ٢٢ .

مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ
مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنًا بَرَقَ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِأُولِي الْأَبْصَارِ . (النور ٤١ - ٤٣)

١٣ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ
دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا .) الفرقان ٤٥ - ٤٦

١٤ - (أَمْنَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ
ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ بِكُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ .) النمل ٦٠
١٥ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .) لقمان : ٢٩

١٦ - (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا
يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا
مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ . فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا
خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ .) الصافات ٦ - ١١

ولعل في تعبير الأوتاد عن الجبال والسقف المبني عن السماء والفراش والبساط والذلول
عن الأرض والمصابيح المضيئة التي زينت بها السماء عن الكواكب وجريان الشمس ،
ومنازل القمر والسراج الوهاج للاولى والمصباح المنير للثاني وفي ذكر انزال الماء من السماء
والبرد من جبال من السماء وتسيير السحاب وتصريف الرياح وارسال البرق والصواعق
للإطعام والارهاب وانبات مختلف الزروع والاشجار وتسخير الدواب والانعام وتسيير
الفلك في البحار والانهار وتسخيرها وذكر ان الفلك تسير بالرياح وحسب فاذا وقفت ظلت
راكدة . وتصوير الارض كمركز للكون والانسان كقطب الارض وتسخير كل ما في
السموات والارض له واسباغ الله نعمه الظاهرة والباطنة عليه وتسويته اياه دون سائر
الحيوانات بيده ونفخه فيه من روحه وذكر تسمع الشياطين للملأ الأعلى ورشقهم بالشهب

وكون الكواكب الى هذا هي زينة السماء الدنيا ؛ لعل في كل ذلك تساوقا واضحا ومفهوما مع مشاهد مختلف فئات الناس الذين يوجه اليهم الكلام ومدركاتهم وما هو وأقر في اذهانهم ومتداول بينهم وبتعبير آخر أن القرآن خاطب السامعين بما يفيد أنهم يعرفون مدى ما يتلى عليهم ويذكرون به ، ويلفت نظرهم إليه مشاهدة أو ممارسة أو معرفة أو بما يتسق مع ما في أذهانهم أجمالا من صور ومعارف من ممارساتهم ومشاهداتهم ومسموعاتهم حيث يكون في ذلك ما فتننا ننبه عليه من أن الخطاب بما يعرفه ويفهمه السامع يكون أقوى أثرا في نفسه ، وأكثر تحقيقا للهدف المستهدف منه ، وحيث يكون في أسلوب الآيات وفحواها دلالات على ما استهدف منها من الأهداف التي ذكرناها . مع التنبيه على أنها يصح عليها صفة المتشابهات أيضاً لأنها تتحمل تأويلات عديدة ، ومنها ما قد يعي عقل الإنسان عن أدراك ماهيته ومداه وتأويله ، ويلوح منها أن التقريب والتمثيل من أهدافها .

وملاحظة كل هذا واجبة وضرورية لكل من ينظر في القرآن ، حيث تجعله يقف من الفصول والآيات الواردة في صدد هذا الموضوع عند الحد الذي وقفت عنده ، وبالأسلوب والفحوى الذين جاءت عليهما لتحقيق الأهداف المذكورة التي استهدفتها ، وتعصمه من التكلف والتجوز والتخمين والتزيد ، ومحاولة تطبيق أو استخراج النظريات العلمية والفنية في حقائق الكون والتكوين ، ونواميسها وأطوارها ، والتمحل والتوفيق والتطبيق في ذلك مما يخرج القرآن عن نطاق هدفه من الوعظ والارشاد ، ولفت النظر ، وبث الهيبة والإشعار بعظمة الله ، والتزام حدوده إلى مجال البحث ، وتعريض قدسيته بطبيعة هذا المجال إلى الجدل والنقاش والتعارض والأخذ والرد على غير طائل ولا ضرورة ، ولا تساوق مع هدف القرآن وطبيعته .

وبالإضافة الى هذا الذي يتسق مع الهدف والمضمون ، والمدى القرآني ، فإن لملاحظة ذلك فائدة عظيمة لذاتها من حيث إنها تجعل المسلم غير مقيد بنظريات كونية وفنية معينة بوهم أنها مستندة الى القرآن ومستخرجة منه مع ما في هذا دائما من تمحل ، وتبقيه حراً طليّة

في ساحات العلوم والفنون ونظرياتها وتطبيقاتها ، ولا سيما أن النظريات العلمية والفنية دائمة التطور ، وأحيانا كثيرة متحولة متبدلة ، فلا يختلط عليه الأمر في سيره العلمي ، وبحثه الفكري ، ويكون كل ما يجب عليه أن يظل من ذلك في حدود الأسس والأهداف والمبادئ ، والمثل الإسلامية العليا ، وفي نطاق أركان الإيمان العامة التي قررها القرآن . وحيث يظل قصد القرآن ومداه ومفهومه سليماً في جميع الأدوار ، يخاطب بآياته وفصوله مختلف الفئات في مختلف الأزمنة ، فتشعر فيهم الاجلال والهيبة والاذعان والخشوع . سواء أكانوا علماء أم بسطاء ، لأنه يخاطب عقولهم وقلوبهم معاً ، وهو قصد القرآن الجوهري من دون ريب .

وفي هذا الذي نرجو أن يكون الحق والسداد رد على الملحدّين إذا أرادوا التعسف وفهم الآيات فيها خاطئاً ، وإبرازها على أن فيها تقارير محددة لظاهر ما بين ذلك وبين الحقائق العلمية والفنية من تباين ، وبالتالي لظاهر الثغرات في القرآن ، وتهوين مداه . كما فيه تنبيه للذين يؤخذون بهذا التعسف والفهم الخاطئ من المؤمنين بنية حسنة ويقولون بضرورة فصل الدين عن العلم حتى لا يتصادمان . في حين أنه لا تصادم حقيقي بينهما وبخاصة بالنسبة للدين الاسلامي على ما ذكرناه في مناسبة سابقة .

وإذا كان المفسرون قديماً وحديثاً أكثروا من البيانات والتفصيلات على هامش الآيات القرآنية ، فإن جلّها بل كلها اجتهادات وتخمينات وأقوال ، ولا تخلو من مفارقات ومبالغات ، متناقضات ، وإذا كان كتاب وباحثون مسلمون قديماً وحديثاً تجاوزوا النطاق الصحيح لمدى الآيات القرآنية ، وحاولوا أن يستخرجوا منها نظريات وأسساً علمية وفنية ، أو يوفقوا بين ما ظنوه في القرآن من ذلك وبين ما عرفت حقائقه العلمية مؤخراً بحسن نية ، وبقصد إظهار معجزة القرآن بابرار أمور لم تكن معروفة قبل وعرفت بعد تقدم العلوم ، وتطورها حسب زعمهم رغم ما يكون في محاولاتهم من تحل وتجاوز وتعسف في الفهم والتوفيق والتطبيق والاستنتاج بل ومن سذاجة في تصيد العبارات ، وتحميلها ما لا تحتمل ، ومن

تجاوز للوقائع والظروف والروايات الموضحة لنزول الآيات وهدفها ولسياقها الذي فيه توضيح لهدفها ومداه ، حتى لقد وصل الأمر الى أن يستخرج أحد الباحثين من آيات سورة الذاريات هذه :

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) نظرية النسبية (لانشتاين) ونظرية أخرى سماها (انتشار الكون) وأن يقول : إن أصحاب رسول الله ﷺ لم يعرفوا وجه لاعجاز الكوني في الآيات ، لأنهم لم يطلعوا على حضارة وعلوم القرن العشرين (١) ، فبقيت معجزة غير مفهومة الى عصرنا الحاضر ، فالعلم قرر النظرية في القرن العشرين في حين أن القرآن قررها قبل ١٤٠٠ سنة ، وقد ظل المسلمون يتلونها ، وتكون جزءاً من عقيدتهم دون أن يعرفوا ما فيها من إعجاز كوني الى هذا القرن (٢) . وقد حاول بعضهم أن يستخرج من جملة (يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ) في سورة الزمر وغيرها حقيقة كروية الارض وقصد تقريرها . وهناك امثلة أخرى من الاطالة استعراضها نقول : إذا كان المفسرون والباحثون فعلوا هذا ، فالقرآن والاسلام لا يتحملان مسؤوليته ، وتظل فصول القرآن وأهدافها بكل إشرافها وقوتها وإفحامها ومداه لكل فئة وفي كل زمن . ولقد اتكأ الملحدون في مهاجمة القرآن وإبراز التناقض فيه الى مثل هذه التخمينات والمحاولات والتمحلات ، وتصيد العبارات بقصد التوفيق والتعليق ، وفي كتاب صادق العظم (٣) نغاذج من ذلك - ولكن القرآن كما قلنا لا يتحمل مسؤولية ذلك أولاً ، وليس هو ضرورياً لاثبات إعجاز كتاب الله والتدليل على ما في كون الله ونواميسه من إتقان وإبداع وعلى وجوب وجود الله ووحدانيته ثانياً .

(١) ان الباحث لم يذكر رسول الله . واكتفى بذكر أصحابه تأدياً وتجرعاً وحسب .

(٢) انظر كتاب الانسان بين العلم والدين لتسوي ابي خليل ص ٣٦ و ٣٧ وفي هذا الكتاب الكثير العجيب من هذا النوع والباحث وهو يقول ما يقول في صدد آية الذاريات مثلاً ، يتغافل عن ما بعدها من آيات فيها خطاب للسامعين وتنبيه لهم الى ما ذكرته من آيات الله الماثلة أمامهم ، وفي أنفسهم لعلهم يتذكرون وينيبون الى الله ولا يدعون مع الله الها آخر كما ترى : (وَالْأَرْضُ قَرْنُهَا فِيهِمْ أَفْلَاهُونَ وَيَمِيزُ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقًا ذُوْنَيْنٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . وَلَا تَقْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ..) ولا يغفلن الى ان الله سبحانه يترزه عن تذكير السامعين الاولين للقرآن بأمر لا يفهمون مداه ...

(٣) هو مؤلف كتاب (نقد الفكر الديني) وقد كتب الكتاب كتاب «القرآن والملحدون» مناسبة صدور ذلك الكتاب ...

وليس القرآن في حاجة الى ذلك ثالثاً ، فدلائل إعجاز كتاب الله وكونه وحياً ربانياً بارزة ظاهرة في كل فصل من فصوله لمن رزق حسن النية والضمير والذوق ، ولم يتعمد المكابرة والعناد ، ودلائل إبداع الكون ونواميسه ، ووجوب وجود خالق مدبر له حكيم قادر عليم خبير أزلي أبدي ملموحة لكل ذي نظر وعقل وأدعان في مشاهد الكون دقيقها وجليلها .

وليس القرآن بعد كتاب فن وطبيعة وفلك وبيولوجيا وكيمياء وفيزياء وهندسة حتى يخشى المسلمون أن يطعن فيه الأغيار ، لأنه لم يحتو تقارير علمية ونظرية في ذلك . وبعض الباحثين يرفعون في محاولاتهم وتحولاتهم شعار آية فصلت هذه : (سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) ليؤيدوا أن حقائق نواميس كون الله ظهرت بعد عصر النبوة ، وفي ظلال تقدم العلم والفن ، وإن في الآية إخباراً ربانياً إعجازياً لذلك ، مع أن الآية هي في مقام التوبيخ والانذار للجاحدي القرآن من سامعيه الأولين من أهل بيته النبي ﷺ من الوجهة القرآنية مما تقوم الآية التالية عليه دليلاً حاسماً ، وهذا نصها (أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ..) وهذه الآية ليست الوحيدة في معناها ومدادها ومقامها ، فهناك آيات مماثلة لها منها آية سورة النمل هذه : (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتُهُ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ .) وآية سورة غافر هذه : (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ .) غير منتبهين كما قلنا إلى ما يكون في تطبيقات هذا الشعار من تكلف وتحل وتعريض للقرآن للأخذ والرد ، وإخراج له عن مدى مهمته العظمى التي هي هداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وبيان الأسباب والوسائل الضامنة لسعادتهم وصلاحتهم وأمنهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة .

ولقد غفل هؤلاء عن أمور مهمة . منها ان الله تعالى لو شاءت حكمته لذكرت النواميس صراحة حيث يكون في ذلك إعجاز أعظم لأن القرآن يكون قد ذكر شيئاً صريحاً لم يكن معلوماً ولا يقال إنه لم يكن ليفهم حينئذ او يصدق من السامعين . ففي القرآن أمور

كثيرة لا يفهم تأويلها إلا الله . ويكرر ذكرها رغم انكار المشركين لها .. ومنها مدى ما تعنيه آيات سورة النحل هاتان (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ٤٣) و (وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٦٤) ولو كان في القرآن اشارات الى حقائق تكوينية وكونية لم تكن مكشوفة ومعلومة لكان الله بينها لرسوله ليبينها للناس . ولا يصح ان يقال إن الله حجبها عن رسوله او يقال إن رسول الله حجبها عن الناس . وخاتمة الآية الثانية من سورة النحل حاسمة في الأمر فالله تعالى أنزل القرآن ليكون هدى ورحمة لقوم يؤمنون . وفي الأمثلة التي اوردناها من الآيات جمل عديدة في معنى أن الله تعالى إنما اوحى بما اوحى منها للعبارة والعظة ولجعل الناس يعترفون بوحدانيته وعظمته ويؤمنون به وبرسالة رسوله .. والملاحظون لا يفقهون عند حد الاتكاء الى محاولات وتحولات الكتاب المسلمين في التماس النظريات العلمية والكونية من القرآن ، بل يتمحلون بما يتوهمونه في العبارات القرآنية في صدد نوااميس الكون ومشاهده من تنوع في العبارات ، وتوهم التباين فيها مما في كتاب العظم نماذج منه ايضاً .

وفما ذكرناه من كون الآيات في هذا الموضوع هي من التشابهات ، ومن كون ما ورد في القرآن منها لم يرد بسبيل تقارير فنية ، وإنما للتنبيه والعبارة جواب على هذا التحمل ، كما أن المتمعن في الآيات التي يوردونها والمتنبه لسياقها ، والمقارن بينها عن حسن نية يجد لكل إشكال جواباً شافياً يزول به وهم التباين .

تاسعاً : الحياة الآخروية في القرآن .

مما يجب ملاحظته أن ما ورد في القرآن عن الحياة الآخروية ومشاهدها وصورها وأهوالها نعيمها وعذابها هو ما ينطبق عليه وصف التشابهات لتحمله التأويلات المتعددة ، ولأن فيه ما لا يدرك سره ومداه إلا الله تعالى وأنه يستهدف فيما استهدفه إثارة الخوف والرغبة في نفوس الضالين حتى يرعوا ويستقيموا ، وبث الاغتراب والطمأنينة في نفوس المؤمنين

الصالحين المتقين حتى يثبتوا في الطريق الذي اهتدوا إليه وساروا فيه .

وكل ذلك واضح ملموح بكل قوة في الآيات القرآنية ، وهذه بعض الأمثلة :

١ - (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَصْلُ الْكَبِيرُ ، جَنَاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحُزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ . وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) .. فاطر : ٣٢ - ٣٧

٢ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ . هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ . هُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ . سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ . وَأَمَّا زَوْا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . أَلَمْ أَعْهَدَ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ . هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ . الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا

٣ - (وَنُفِّحَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِّحَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتِيَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ . وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .) الزمر : ٦٨ - ٧٤

٤ - (إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ . طَعَامُ الْأَثِيمِ . كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ . كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ . ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ . ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ . إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ . كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ . يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِينَ .) الدخان : ٤٣ - ٥٥

وأمثال هذه الآيات كثيرة مبثوثة في مخلف السور . فلا ضرورة للأكثر .
وحكمة ذلك واضحة ، فالقصد القرآني في أصله هو دعوة الناس الى الله وطريق الحق والخير والعدل والسلام والصلاح ، وتحذيرهم من الكفر والشرك والضلال والبغي والاثم ، وإنذارهم وتبشيرهم بالحياة الأخروية التي يوفى فيها كل منهم بما فعل من خير وشر بما يستحقه .

وهناك آيات عديدة فيها توكيد صريح لذلك القصد كما ترى في الامثلة التالية :

١ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا . طه : ١١٣)

٢ - (لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونَ . وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ . الزمر : ١٦ - ١٨)

٣ - (يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسُ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمِنَ السَّاحِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ . وَ يُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . الزمر : ٥٣ - ٦١)

٤ - (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى^(١) وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ .) الشورى : ٢٢ و

٢٣

(١) لا أريد منكم الآن أن تحترموا ما بيني وبينكم من قرابة ، أو كل ما أريده هو أن أهديكم لما بيني وبينكم من مودة القربى التي تجعلني أحرص على ذلك .

ويلحظ في الأمثال السابقة وأمثالها الكثيرة جدا أن ما فيها من إنذار وتبشير منسجم مع مفهومات السامعين ومألوقاتهم ، وحكمة هذا واضحة ، لأن ما يراد إثارتة في نفوس الناس لا يتم إلا إذا جاء بالأوصاف التي يستطيعون أن يحسوها ويدركوا مداها إحساسا وإدراكا متصلين بتجاربهم ومشاهداتهم ومألوقاتهم بطبيعة الحال .

فإذا ذكر في سياق مشاهد يوم الحساب ما فيه من صور مجالس القضاء والخصوم والشهود والالتهام والمحاورات الدفاعية ، وكتب الاعمال ، ففي ذلك صور دنيوية مألوقة للسامع يستطيع إدراك مداها والتأثر بها ، وإذا ذكر أن الجبال تتفتت وتصيح كالهباء والعهن المنفوش ، وأن الأرض تحمل وتدك ، وأن السماء تتفطر وتتشقق ، وأن الكواكب تنتشر وتنكدر وتنطفئ ، وأن البحار تتفجر ، وأن العشار تتعطل ، وأن الوحوش تحشر وأن القمر يخسف والشمس تكسف ، وأن الولدان يصيرون شيئا .

ففي ذلك صور هول لا يمكن للسامع إلا أن يتأثر بها ، ويدرك مداها ، ولا سيما ما يكون من تبدل مشاهد الكون الماثلة عظمتها في ذهنه . وإذا ذكر في أوصاف النعيم ما ذكر من جنات وعيون وسرر وفرش ومجالس شراب أنيقة ، وظلال وارفة ، وقطوف دانية ، وولدان كاللؤلؤ المكنون ، يطوفون بالأباريق الفضية والزجاجية البراقة الشفافة ، والخمر الممزوج بالكافور والزنجبيل ، والفواكه الكثيرة ، ولحوم الطير ، وصحاف الذهب والفضة ، وثياب الحرير ، وحلي اللؤلؤ والذهب والفضة ، والمحور العين كالبيض المكنون ، وكالياقوت والمرجان . الخ الخ مما جاء في الآيات التي أوردناها ، وكثير مما لم نورد ، فلا يمكن إلا أن يتأثر بها السامعون ، ويفهموا مداها ، وتتوق نفوسهم إليها ، لأنها منتهى ما تصبوا إليه النفوس والعرب بخاصة من نعيم وهناء وحبور ، يعرفون صورها في الدنيا معرفة مشاهدة أو ممارسة أوسماع . وإذا ذكر في أوصاف العذاب ما ذكر من نار حامية شديدة شرارها كقطع الحطب الضخمة ، ولهبها كالحبال ، لا ماء فيها إلا الحار الشديدة الحرارة (الحميم) ، ولا ظل فيها يحجب الحرارة ، ويكون الظل كوهج النار وهو ما وصف باليحموم ، ولا هواء فيها

إلا الريح السوم ، ولا شراب فيها إلا الغسلين والغساق والصديد ، ولا طعام فيها إلا الزقوم والضريع مما ورد في الآيات التي أوردناها ، وكثير مما لم نورد ، فإن السامعين والعرب بخاصة لا يمكن إلا أن يتأثروا بها ، ويفهموا مداها ، لأنها منتهى ما تهلع له قلوبهم ، وتكرهه نفوسهم مما هو من المشاهدات والمعاني الدنيوية المألوفة والمتصورة عندهم .

وقد اقتصصنا السامع العربي بالذكر ، لأن كثيرا من الأوصاف والألفاظ مما يحمل الدلالة على الحياة العربية ومألوفات وممارسات ومشاهدات البيئة العربية ، وهذا في حد ذاته قرينة قوية قائمة على ما نقره .

ولعل في تنوع الأوصاف والصور والمشاهد القرآنية عن الآخرة ونعيمها وعذابها قرينة أو دليلاً على صواب ما نقره أيضا . فالجبال مثلاً في جملة قرآنية تسير سير السحاب ، وفي أخرى تنسف نسفاً ، وفي أخرى كئيب مهيل ، وفي أخرى كالعهن المنفوش ، وفي أخرى كالهباء المنثور ، والسماء في جملة قرآنية تتفتح أبوابا ، وفي أخرى تشقق أو تنفطر ، والنجوم في جملة تنتشر ، وفي جملة تنطمس ، والشمس في جملة تتكور ، وفي أخرى تجمع مع القمر ، وبينما السماء تتبدل نوايسها ومشاهدها مستقلة عن الأرض في جملة ، والأرض تدك مستقلة عن السماء في جملة ، تذكر جملة أخرى أن الأرض والسماء تحملان وتدكان معاً دكة واحدة ، وجملة أخرى تذكر أن الأرض تتبدل غير الأرض والسموات تتبدل غير السماوات الخ الخ . وفي حين تذكر جمل أن الكافرين يدافعون عن أنفسهم ، ويتاح لهم إيراد أعذارهم ، ويجري حوار بينهم وبين الملائكة وبينهم وبين الله وبينهم بعضهم مع بعض ، تذكر جمل أخرى أنهم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ولا يتساءلون ، ولا يستعقبون ، وفي حين تذكر جملة أن ليس للكافرين طعام إلا من ضريع ، تذكر جملة أن ليس لهم طعام إلا الغسلين ، وجملة أن ليس لهم طعام إلا الزقوم ، وهذا في حين تذكر جمل أخرى أنهم يعذبون في النار أشد عذاب ، وكلما نضجت جلودهم بدلوا بجلود غيرها ، وفي حين تذكر جملة أنهم

يحشرون وقد كشف عنهم الغطاء ، وأصبح بصرهم حديداً ، تذكر جملة أخرى انهم يحشرون عمياً ، ويسألون الله عن ذلك مع أنهم كانوا في الدنيا مبصرين ..
هذا بالاضافة إلى تنوع أوصاف النعيم حيث يكون بعضها خشناً يتسق مع الحياة المألوفة ويكون بعضها غاية في الأناقة والفخامة مع اتصال بمعاني ومشاهد الدنيا ، وهذا عدا التنوع في جزئيات أخرى حيث تكون الصحف والأكواب في بعضها من فضة ، وفي بعضها من ذهب ، وحيث تكون الحلي ذهبية في جملة ، وفضية في أخرى ، ولؤلؤية في ثالثة ، وحيث تشبه الحور العين في جملة بالياقوت والمرجان ، وفي أخرى بالببيض المكنون أي : اللؤلؤ ...

وقد يتبادر أن هذا التنوع متصل بتنوع مواقف السيرة والدعوة ومراحلها المتجددة . وحالات المخاطبين المعنيين بها المتنوعة ، ويجمع بينه على كل حال قاسم مشترك ، أو المظهران الرئيسيان لأسلوب هذه الألفاظ ، وهما قصد الانذار والتبشير والترهيب والترغيب من جهة ، وكون الأوصاف جميعها من مألوفات السامعين من جهة أخرى . وهذا كله بارز بكل قوة في الآيات القرآنية .

ومع تقرير كون الايمان باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه واجباً ، وكونه ركناً من أركان العقيدة الاسلامية ، وكون حكمة الله في ذلك قائمة في قصد توفية الناس أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وفي تقرير القرآن بان الله تعالى لم يخلق الناس عبثاً وسدى ، وأن الناس سيرجعون اليه بعد الموت في حياة أخرى ، فإن ملاحظة ما قدمناه ، أي : كون أوصاف الحياة الآخوية في القرآن من التشابهات التي تحتل وجوهاً عديدة للتأويل ، أو التي يعيى العقل الانساني عن إدراك تأويلها وسرها ، وكونها هدفت فيما هدفت اليه الى الانذار والتبشير والترهيب والترغيب ، وكونها مستمدة من مألوفات الناس الدنيوية ضرورية وجوهرية ، لأن من شأنها أن تجعل الناظر في القرآن يتجنب الاستغراق في الجدل حول مشاهد الحياة الآخوية وصورها ، ويعتصم من التورط والتكلف والتزيد في صدد ما

يقوم في سبيل الماهيات والحقائق والكيفيات لذاتها ، ويتذكر أن هدف القرآن فيما جاء في التعابير والادوصاف هو العظة والتنبيه ، وإيقاظ الضائر ليرعوي الضال عن ضلاله ، ويثبت المهتدي ، في طريقه بأسلوب يتسق مع متناول إحساس المخاطبين وتجاربهم ومشاهداتهم ومداركهم ومألوفاتهم ، ويشير فيهم الرهبة من العاقبة .

ويتذكر كذلك أن ماهية هذه الحياة وحقيقتها مغيبتان لا يستطيع فهم شيء عنها إلا بالأوصاف الدنيوية ، وأن حكمة الله اقتضت وصفها بهذه الاوصاف على سبيل التقريب والتمثيل .

وإذا كانت الحياة الأخروية ومشاهدها وأوصافها وصورها المتنوعة قد شغلت حيزا كبيرا في القرآن ، حتى إن معظم سورة احتوت شيئا عنها بشكل ما ، فإن مرد ذلك - على كونه من خصوصيات القرآن - إلى أن هذه الحياة من أقوى الدعائم القرآنية الانذارية التبشيرية والترهيبية والترغيبية لأهداف القرآن ودعوته ، وأشدّها تأثيرا وإثارة لأنها تمثل عالم ما بعد الموت الذي لا يكاد يخلو إنسان في أي دور من استشعار بالرهبة منه من جهة ، ومن العقائد الايمانية الاسلامية من جهة ، ولأنها كانت من المواضيع الرئيسية أو بالأحرى أهم موضوع دار حوله الجدل بشدة واستمرار بين النبي ﷺ وكفار العرب على ما نبهنا عليه في مناسبة سابقة ، ومما له صلة بظروف الدعوة النبوية من جهة .

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في إيجاب الايمان باليوم الآخر ، وكونه من عقائد الاسلام الرئيسية :

١ - (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَّ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ .) .. البقرة : ١٧٧

٢ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا .) .. النساء : ١٣٦

٣ - (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .) (التوبة : ٢٩

٤ - (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ .) الروم : ١٦

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في صدد إنكار الكفار للحياة الأخروية والبعث ومجادلتهم في ذلك والبرهنة على قدرة الله عليه ، وهو ما اقتضت حكمة التنزيل إكتثار الآيات في صده :
١ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتِ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ .) هود : ٧

٢ - (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . لِيَبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَاثِبُونَ . إِمَّا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .) النحل : ٣٨ - ٤٠ .

٣ - (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُوكُمْ عَلَى رَجُلٍ يَنْبِئُكُمْ إِذَا مُرَقْتُمْ كُلُّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَقَبِي خُلِقَ جَدِيدٍ . أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ . أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نُخَسِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُبِينٍ .) سبأ : ٧ - ٩

٤ - (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَبِيَّ خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا

الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . (يس : ٧٨ - ٨٣)

٥ - (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّونَ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .) التغابن : ٧

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في صدد تقرير أن عدم الايمان بالآخرة مما يجريء الانسان على الانحراف والاجرام :

١ - (إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ .)

النحل : ٢٢

٢ - (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاَكِبُونَ .) المؤمنون : ٧٤

٣ - (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ

سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ .) النمل : ٤ و ٥

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في صدد تقرير أن الله لم يخلق الناس والكون عبثا وباطلا ولا بد من أنهم راجعون اليه بعد الموت ليوفوا أعمالهم ، وأنه لا يصح أن يكون المفسدون والفجار والصالحون الأبرار سواء مما قد يكون في الدنيا ، فاقترضت حكمة الله أن يكون بعث بعد الموت لتوفي كل نفس ما كسبت حقا وعدلا :

١ - (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ .) المؤمنون : ١١٥ و ١١٦

(١) عبارة الآية الأولى اسلوبية بمعنى أن الذين لا يؤمنون بالآخرة يستحسنون كل ما يعملون مهما كان فيه اثم وجرم ، لأنهم مطمئنون بعدم المحاسبة عليه ، وقد أُنذرتهم الآية الثانية بالحساب والعذاب ، وفيها قرينة بل دليل على أسلوبيته الاولى ، لأن الله يتنزه عن تزيين السوء للناس ثم يعذبهم عليه .

٢ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي
الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَارِ . كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ
أُولُوا الْأَلْبَابِ .) ص : ٢٧ - ٢٩

٣ - (خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُبِيءُ
قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ . إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ .)
غافر : ٥٧ - ٥٩

٤ - (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْعِينَ . يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ
مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ . إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ .) البدخان : ٢٧ -
٤٢

٥ - (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سَدًى . أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُُمْتَى . ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً
فَخَلَقَ فَسَوَّى . فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى . أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْبِيَ
الْمُوتَى .) القيامة : ٣٦ - ٤٠

وهذه امثلة لها أمثال كثيرة جداً بالوعد والوعيد الأخروي اطلاقاً :

١ - (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزِقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .) البقرة : ٢٣ - ٢٥

٢ - (إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا

كَانُوا يَكْفُرُونَ .) يونس : ٤

٣ - (الرِّكَابُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ . وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ . إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .) هود : ١ - ٤

٤ - (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى . وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى .) الليل : ١٤ - ٢١ .

٥ - (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا . يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا . يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ .) سورة الزلزلة

ويجب ان نستدرك أمراً ، فإن ما قلناه من ان أوصاف المشاهد الأخروية منسجمة مع مألوفات الدنيا مما ينطوي فيه حكمة قصد التأثير في السامعين ترغيباً وترهيباً ، ومن أن هذه الأوصاف متنوعة ، لايعني أن تلك المشاهد في انسجامها مع مألوفات الدنيا ، وفي تنوعها غير واردة في الآخرة ، فإن الآيات القرآنية ، تفيد أن الناس في الآخرة سيكونون في حالة جسمانية مشابهة لحالتهم في الدنيا ، فلا غرو أن تكون اسباب ومظاهر حياتهم الأخروية مشابهة لأسباب ومظاهر حياتهم الدنيوية ، وفي سورة البقرة آية قد يكون فيها قرينة على ذلك وهي :

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .) البقرة : ٢٥ .

وتتوعد الأوصاف على اختلافها يمكن أن تكون في الآخرة حسب حالات الناس ،

وتتووع المواقف الحسابية أيضاً ، وفي سورة الواقعة ما يمكن أن يكون قرينة على ذلك في سياق وصف منازل المقربين ومنازل أهل اليمين ، فقد جاء في وصف الأولى :

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ . ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَوْضُوعَةٍ . مُتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا .)

الواقعة : ١٠ - ٢٦

وقد جاء بعدها في وصف منازل أهل اليمين

(وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ . وَطَلْحٍ مَنضُودٍ . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ . وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ . لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ . وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ . إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . غُرْبًا أَثَرَابًا . لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ . ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ .) الواقعة : ٢٧ - ٤٠

وعلى المسلم على كل حال أن يؤمن بكل ما جاء في القرآن ويقول (أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) وما ادركه عقله فهمه ، وما لم يدركه يكل تأويله إلى الله تعالى مع محاولة استشفاف حكمته التي يمكن للمتوسطين فضلاً عن النيرين والعلماء استشفافها ، والتي نرجو أن يكون مآشرحناء هو هذه الحكمة أو من وجوهها .

والمحددون ينكرون هذه الحياة ، ويتخذون الايمان بها وسيلة للطعن والتجريح في الأديان وفي الدين الاسلامي بخاصة الذي انفرد كتابه الكريم بتفصيلها ، ومنهم من يتمحك بما جاء في آياتها من اوصاف ومشاهد وما في بعض هذه الأوصاف والمشاهد من تباين وتناقض ظاهريين .

لذلك نرى أن نتكلم في أصل المسألة أولاً ، فنقول : إن الآيات القرآنية احتوت بياناً

للأهداف والمقاصد ، يمكن تلخيصها بأن الله تعالى لا يمكن أن يكون خلق الكون عبثاً ، وأن حياة الانسان الذي شاء أن يكون أكمل مخلوقاته الأرضية عقلاً ومنفرداً وحده بالتكليف لا يمكن أن تكون قاصرة على الزمن القصير الذي يحياه في الدنيا ، وأنه لابد من أن يكون لها تنمة أفضل وأكمل وأدوم يسود فيها أهل الايمان والحق والعدل والخير ، ويتنعمون بالنعيم والسعادة والطمأنينة التامة ، وينخذل فيها أهل الجحود والباطل والظلم والشر والعدوان ، ويذوقون العذاب بما صنعوا ، وأنه لا يتسق مع عدل الله أن يفلت الشرير مما يرتكبه من الآثام التي كثيراً ما ينجم من عواقبها في الدنيا ومن عقاب جحوده لحالقه ، وما أسبغه عليه من نعم ، وأن يذهب عمل المؤمن الصالح وما يفعله من خير وعدل وحق كثيراً ما لا ينال عليه مكافأة وجزاء في الدنيا هدرًا وهباءً ، وأن يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالجاحدين لله المفسدين في الأرض ، وأن يكون المتقون كالفجار ، وأن حكمة الله اقتضت من اجل ذلك تلك التنمة المسماة بالحياة الأخروية ، يرجع فيها الناس الى ربهم ، ويكافأ فيها المؤمن المحسن ، ويعاقب فيها الجاحد الآثم الباغي .

والمؤمن بالله الذي ينعم النظر في مشاهد الكون ونواميسه ، ويلبس فيها ما يذهب بلبه ، ويملك عليه مشاعره من العظمة والاتقان والنظام البديع المعجز واجد كل الطمأنينة والحق في هذه المقاصد والأهداف ، وواجد أن الحياة الأخروية ، ليست مما يخرج عن نطاق قدرة الله مبدع هذا الكون ومدبره ، ولا عن حكمته السامية ، ولا عن نطاق التصور العقلي في الوقت نفسه ، ولقد أورد القرآن بدون أي تحرج اعتراضات الجاحدين لهذه الحياة ورد عليها ، ولا تخرج عما يورده الملحدون ، بحيث يكون الرد القرآني رداً عليهم وكفى .

ومن المتبادر بالاضافة إلى ما تقدم أن فكرة الحياة الأخروية وثوابها وعقابها تنطوي على الحافز على الخير ، والوازع عن الاثم ، فالذين لا يخافون الآخرة وحسابها ، ولا يعتقدون بها قلما يأبهون للحق والخير في شتى مجالاتها ، ويندفعون فيها اندفاعاً ذاتياً وجدانياً دون انتظار مقابلة أو جزاء في الدنيا مادياً أم معنوياً ، وقلما يتورعون عن الاثم والمنكرات

والفواحش والبغي والعدوان إذا ما تيقنوا من النجاة من العقوبة المادية والأدبية ، وأمنا منها في الدنيا ، وفي ذلك أي : في ذلك الحافز والوازع اللذين ينطويان في فكرة الحياة الأخرية ما فيه من صلاح الانسانية وخيرها في الدنيا على مختلف المستويات ، وفي القرآن آيات عديدة تتضمن تقرير ذلك صراحة وضماً كما ترى فيما يلي :

- ١ - (فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ .) النحل : ٢٢ .
- ٢ - (إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ . وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ .) المؤمنون : ٥٧ - ٦١
- ٣ - (وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ .) المؤمنون : ٧٤

وهذا يعني فيما يعنيه أن إيمان المؤمن بالآخرة ، يجعله يتحمل المكاره ، ويصبر على الشدائد ، ويقدم على التضحية بماله ونفسه في سبيل الله والحق دون أن يهتم كثيراً لما قد يصيبه أو يناله من جزاء دينوي أو نكران أو حرمان دينوي ، لأنه يعتقد أنه سوف يستوفي جزاءه على أوفى ما يكون في ذلك اليوم أكثر بكثير من غير المؤمنين بها ، وعلى أي مستوى ، وهذا ما تضمنته آيات الليل :

- (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى . وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى . إِلَّا أَتْبَعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى .) ١٤ - ٢١

وكل من يتمعن في آيات القرآن في الحياة الأخرية لا يمكن إلا أن يلمح فيها من القوة والتفوذ والحرارة ما يبيت في النفس كل اليقين بصدق وعد الله بها وقدرته عليها ، وحكمته السامية فيها .

ونحن نعرف أن الملحدين يقولون فيما يقولون : إنه ليس لفكرة الحياة الأخرية التأثير الخلفي العميق ، لأنها سبب خارجي أو نظري ليس من كيان النفس ، وأعماق الضمير ،

وإن أقل صدمة لهذا السبب تجعل ما أوجده من الحافز والوازع عدماً . وإن تربية الناس تربية خلقية عميقة نافذة هي التي تستطيع أن تكون الحافز والوازع الذاتيين ، وينسى القائلون - ونقول هذا من قبيل المساجلة - أن الأمل في هذه التربية وشمولها خيال مستحيل التحقيق بالنسبة لجمهور الناس ، وإنه إذا أمكن أن يتحقق في أناس ، فإنهم من الندرة والقلّة في الدرجة التي لا يكون أي أثر إيجابي محسوس بالنسبة للجمهور ، بل إن هناك ظروفاً اجتماعية ونفسية ينفق بها الحافز والوازع في هذه الطبقة القليلة النادرة ، وتصبح تحت حكم الغرائز والطبائع البهيمية ، بل نستطيع أن نقول : إن الذين يترددون في اقتراف البغي وعمل الاثم والمنكر أو الذين يفعلون الخير ذاتياً من هذه القلة النادرة يندفعون الى ذلك بحافز من عقلهم الباطن المؤمن بالآخرة وحسابها ...

وهذا إلى أن الكثرة العظمى من المجتمع لا يمكن أن يستغني عن حافز ووازع مؤثرين ، وما اضطرار السلطات الحاكمة والهيئات الاجتماعية إلى وضع القوانين والحدود والتقاليد إلا مظهر من مظاهر هذه الحاجة ، وتثبيت لها ، ولم يقل أحد : إنه ليس من حاجة إلى هذه القوانين والحدود والتقاليد لمنع الناس من الشذوذ والبغي والاثم والجريمة ، وحفزهم على الاستقامة ، والتزام الحق والانصاف والعمل الصالح النافع ، وإن هذا وذاك يمكن تحقيقه ذاتياً في يوم ما . وما دامت التجربة قد أثبتت أن كثيراً من الناس ، بل معظم الناس ينزعون الى التفلت من القوانين والتقاليد والقيود والحدود ، ومعاكستها بشتى الأساليب تحقيقاً لمنافعهم وأهوائهم الخاصة حينما يأمنون المغبة ، ولا يقبلون على الخير لذاته ، ولا يستقيمون على طريق الحق ، ويلتزمون به إذا أمنوا اللوم والمهانة والهرج والخطر والجزاء الخاص أو العام والرسمي أو غير الرسمي ، فإن الحاجة تظل ماسة إلى حافز ووازع أقوى تأثيراً واعمق أثراً في النفوس من القوانين والتقاليد بإعلان المرء رقيباً على نفسه ولو لم يكن عليه رقيب ، ويحملانه على الرهبة من الاثم والأذى والشذوذ ، والرغبة في المعروف والخير والاستقامة في حال سره وعلمه ، وفي أعماق نفسه . والايان بالآخرة وثوابها وعقابها هو

الذي يستطيع أن يسد هذه الحاجة . وإذا كان كثير من المؤمنين بالآخرة ينزعون أيضاً إلى الاثم والشر والأذى والعدوان ، ولا يندفعون إلى الخير ، ويلتزمون الحق ، فإن غير المؤمنين أكثر نزوعاً إلى التفلت من وازع الضمير ، ووازع الرهبة من القوانين والتقاليد ، إذا ما أمنوا ضررها المادي والأدبي ، لأن أثراً ما من إيمان المؤمنين والخوف من الحساب الأخروي يظل في هؤلاء قد يوقظهم في لحظة ما ، ويجعلهم يندمون ويشوبون ويصلحون ، بينما لا يكون في الجاحدين أثر من شيء ، ماداموا مستطيعين التفلت من العقوبة المانعة الرادعة أدبية كانت أم معنوية والفوز بالمنفعة الذاتية .

ويمكن أن يضاف إلى هذا أمر خطير آخر ، وهو ما تكون عليه قلوب ونفوس الجاحدين من فراغ ويأس وحيرة وقلق وتساؤل لا جواب عليه عندهم من أمر هذه الحياة التي يحبونها بدون غاية ومدى بدءاً وسيرة ونهاية ، ثم من رغبة جامحة في استنفاد كل جهد في سبيل الاستمتاع بالحياة بأية وسيلة ممكنة ، ومهما كان فيها إثم وعدوان وفجور ، لأنها كل ما لهم . في حين أن المؤمنين بالله واليوم الآخر تكون قلوبهم مطمئنة بحكمة الله السامية في خلقهم وحياتهم وسيرتهم ومماتهم ، وبعبارة أخرى : إن الايمان بالآخرة يذهب الخوف من الموت من الناس ، ويهبهم الشجاعة والاقدام ، وعمل الخير للخير والتغلب على الشح ، ويبعدهم عن اليأس والتهور لاستنفاد كل ما يستطيعون من متع وشهوات مهما كان فيها إثم وعدوان ... ويملاً نفوسهم أملاً بتتمة أفضل وأسعد لكل ذلك ، لأن ما عند الله خير وأبقى ، وهذا ما أشارت إليه آيات عديدة منها آيات سورة النحل هذه : (١)

(١) قرأنا ونحن نكتب هذا مقالا في أهرام الجمعة ١٩٧٠/١٢/١٨ ليوسف ادريس بعنوان (اكتشاف قارة) من جملة ما فيه مقارنة بين فكرة الموت والخلود في مصر والشرق العربي وآسيا البوذية فيه تناقضات وغفلة عجيبة من شخص مثله ، وقد وصف حالة الهلع التي يشعر بها المصري والعربي من الموت ، لان الحياة الدنيا كل ماله في ذهنه ويريد أن يسنفد كل متعها وشهواتها في حين أن البوذي في حالة مطمئنة بالخلود بأسلوب ما . والوصف ينطبق على حالة الملحد دون المؤمن المسلم الذي يهبه ايمانه ، واسلامه طمأنينة أوفى من طمأنينة البوذي وغيره كما هو الواضح مما قدمناه . وهذا ما غفل عنه أو جهله الكاتب .

(مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .) ٩٦ و ٩٧

ولقد قلنا : إننا نقول هذا من قبيل المساجلة وحسب ، وإلا فإن فكرة الآخرة متصلة أشد الاتصال بفكرة الايمان بالله وعظمته وعدله وقدرته وحكمته ، وتقرير كتابه الصريح القاطع ، ثم هي متصلة بما في أعماق النفس البشرية من فكرة الدين ، وبما تثيره عظمة الكون وبدائعه ونواميسه في هذه النفس من يقين عميق ذاتي لوجوب واجب الوجود وعظمته وحكمته وعدله ، واستحالة أن يكون قد خلق ما خلق من أكوان ومخلوقات عبثاً ، لا يكاد يستطيع أحد أن يتفلسف منها حتى الذين يظنون أنهم استطاعوا التفلسف منها في وقت الرخاء والسعة حيث أنهم لا يشعرون إلا وهم تحت تأثيرها حينما تلم بهم النائبات ، وتحقق بهم الأخطار .

وَيَغْمِزُ الْأَغْيَارَ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ بِالْجَنَاحَاتِ الْآخِرِيَّةِ الَّتِي وَعَدَ بِهَا مَعْتَنَقُوهُ زَاغَمِينَ أَنَّ ذَلِكَ يَشِيرُ فِيهِمُ الْإِنَانِيَّةَ وَالطَّمَعُ ، وَيَجْعَلُهُمْ لَا يَفْعَلُونَ الصَّالِحَاتِ الْإِرْغَبَةَ فِي الْأَجْرِ الشَّخْصِيِّ وَأَنَّهُ يَخْرِجُ الْحَيَاةَ الْآخِرِيَّةَ مِنْ نَظَائِقِهَا الرُّوحَانِيَّةِ . أَمَّا إِثَارَةُ الْإِنَانِيَّةِ وَالطَّمَعِ ، فَالْبِدَاهَةُ تَقْضِي بِأَنَّ تَكُونَ الْحَيَاةَ الْآخِرِيَّةَ قَاضِيَةً عَلَيْهَا ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ إِذَا آمَنَ وَاتَّقَى وَعَمَلَ الصَّالِحَاتِ وَاصَلَ إِلَى أَعْلَى مَا تَصْبُو إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ لَذَّةٍ وَنَعِيمٍ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يُوْطِنَ النَّفْسَ عَلَى التَّضَحِّيَّاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ وَعَلَى الْقَنَاعَةِ وَالْغَيْرَةِ وَأَعْمَالِ الْبِرِّ ، دُونَ أَنْ يَنْتَظِرَ جَزَاءً مَادِيًّا مُعْجَلاً فِي الدُّنْيَا ، وَأَمَّا النِّطَاقُ الرُّوحَانِي ، فَالْقُرْآنُ قَدْ جَرَى فِيمَا يَقْرَرُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعَ طِبَائِعِ الْأُمُورِ وَغَرَائِزِ الْإِنْسَانِ وَتَطَلُّعَاتِهِ مَعَ الْحِرْصِ عَلَى جَعْلِهَا مُعْتَدِلَةً خَيْرَةً غَيْرَ عَدَوَانِيَّةٍ وَلَا آثِمَةٍ . وَالِدِّينُ الْإِسْلَامِيُّ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ صَحَّ أَنْ يَكُونَ دِينَ الْخُلُودِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامِ ، وَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ صِفَاتِ الْجَنَّاتِ وَنَعِيمِهَا قَدْ جَرَى فِي هَذَا النِّطَاقِ . عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْتَصِرْ عَلَى مَا سَوْفَ يَتَمَتَّعُ بِهِ الْمُؤْمِنُ الصَّالِحُ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرِيَّةِ عَلَى الْجَنَّاتِ وَاللَّذَائِدِ الْجَسْمَانِيَّةِ بَلْ ذَكَرَ أَيْضاً مَا سَوْفَ يَنَالُهُ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ الْكَبِيرِ مِمَّا هُوَ

متسق كذلك مع طبائع الأمور من حيث إن الله يعلم أن هناك من يجد في هذا طمأنينة نفسه وقرة عينه . وهكذا احتوى القرآن ما يرضي المطالب الجسمانية والمثالية معاً كما ترى في آية سورة آل عمران هذه .

(قُلْ أُوْبِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيْرٌ بِالْعِبَادِ .)

وآية التوبة هذه :

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِيْنَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيْهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ .) ٧٢

وننبه على جملة (ورضوان من الله أكبر) حيث يمكن أن يكون قد قصد بها تنويه أكثر برضوان الله الأكبر .

والملاحظون العرب يركزون على ناحية من أمر هذه الحياة بالنسبة للعرب الذين أكثرتهم الساحة مسلمون مؤمنون بها ، وهي أنها تجعلهم ينفضون أيديهم من الحياة ، ويعتبرون انفسهم عابري سبيل فيها ، وقد يكون هذا من واقع الحال الذي لا يتحمل القرآن والاسلام مسؤوليته ، فكل ما في القرآن حتى العبادات من صلاة وصيام وحج ووضوء وتيمم هادف إلى صلاح الانسان في الحياة الدنيا وحتى الحياة الآخروية نفسها قد انطوت على هذا الهدف فيه ، مما أوردنا عليه الشواهد سابقاً ، وصلاح الانسان في الدنيا أمر عام يشمل كل شيء سياسياً واجتماعياً وعلمياً وسلوكياً واستعداداً وإعداداً وسعياً وجهداً الخ الخ .

ولقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً كما جاء في الآية (٥٥) من سورة النور ، والصالحات التي قرنت بالآيمان في هذه الآية وغيرها تشمل كل شيء يجعل المسلمين صالحين لهذه الخلافة من علم وعمل وقوة وعزة وكرامة ، وتقدم في كل مجالات الحياة . وكل هذا هو عماد النجاح للاستخلاف في الأرض والتمكن فيها ، ولا يصح أن يكون الله قد

رشحهم لذلك ، ويرضى منهم أن ينفضوا أيديهم منه بطبيعة الحال ، ولقد توقع الله منهم أن يكونوا عند هذا حيناً هتف بهم .

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .) آل عمران : ١٠٤ - ١٠٥

ورشحهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس إذا هم استجابوا لهذا الهتاف .
(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .) آل عمران : ١١٠

وتوقع منهم أن يفعلوا ذلك حقاً . (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ...) الحج : ٤١

والمعروف هو كل ما فيه خير ونفع ومصلحة وعزة وكرامة وعدل وحق واستقامة وصلاح ، والمنكر هو كل أضداد ذلك ، وقد جعلهم الله وسطاً ليكونوا شهداء على الناس (سورة البقرة : ١٤٢) أي حاملي مشعل الهداية للناس الخيرين العادلين المستقيمين على الحق الذين برئوا من الافراط والتفريط والغلو والتقصير ، ولقد استنكر الله تحريم طبياته وزينة الحياة والدنيا ، وهتف بالمسلمين بأنها من حقهم مثل غيرهم في الدنيا مع اختصاصهم بها في الآخرة .

(قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .) الاعراف : ٣٢

ويضاف الى هذا ما سجله المسلمون من معالم الحضارة الباذخة في كل المجالات الذي فيه الدلالة على استيعابهم لمدى تعاليم القرآن وتطبيقهم لها مما اداهم الى الضرب بأوسع السهام في مختلف شؤون الحياة ، وما فيه تكذيب لذلك الزعم .

ومع ذلك فإن واقع المسلمين لا يفيد ذلك ، فهم منشغلون في الدنيا حسب ما تتحمله أذهانهم وأفهامهم وظروفهم ، وإذا كان فيهم أو في أكثرهم همم فاترة ، فإن ذلك هو نتيجة لفتور أذهانهم وضيق أفقهم ، وسوء فهمهم لتعاليم وأهداف مدى الرسالة الإسلامية ، وهذا من أثر الدهر الطويل الذي عاشوا في ظله وظلمه وظلماته وجهله وجهالاته ، ولا يتحمل القرآن مسؤوليته ، وليس له بعد صفة الاستمرار . وهناك طوائف كثيرة من المسلمين اخذوا يتخلصون منه ، وفي كل ما تقدم ما يسد على الملحدّين باب التحمل والتنطع فيما نعتقد .

وكلمة أخيرة في صدد ما يتمحك به الملحدون فيما جاء في القرآن من أوصاف ومشاهد ، وما قد يكون فيها من تباين وتناقض ظاهرين . فتقول : إن الآيات القرآنية في مشاهد الآخرة هي من التشابهات التي تتحمل وجوهاً عديدة ، ولا يتمحك بها إلا ذوو القلوب المريضة الزائغة على ما شرحناه قبل .

ولقد نبهنا مع ذلك إلى ما ينطوي فيها من حكم وعبر ، ومن ذلك إثارة الخوف والندم في نفوس الكفار ، وكون مرد التنوع هو تنوع المواقف والفئات في الدنيا والآخرة ، والناظر في الآيات وسياقها والمقارن بينها عن حسن نية يجد لكل إشكال لفظي أو تعبيرى جواباً شافياً من ذلك مما نبهنا عليه في تفسيرنا الحديث .

عاشراً : صِفَاتُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَفْعَالُهُ وَأَسْمَاؤُهُ فِي الْقُرْآنِ

في القرآن آيات كثيرة تنسب إلى الله عز وجل اليد واليمين والقبضة والوجه والاستواء بمعنى الجلوس ، وبمعنى الصعود ، والمجيء ، والطّي باليد ، والأخذ باليد والقطع ، والنفخ من روحه في خلقه ، والعروج إلى السماء ، والنزول والكتابة والتجلي على بعض خلقه وإشراق نوره ، وتذكر أنه في السماء ، وأنه فوق شيء ما ، أو عند شيء ما ، أو يقف عنده خلقه أو هو معهم أين ما كانوا أو ثم وجهه أين ما يتولوا . وفيها أسماء الله يشترك فيها البشر بحواسهم وأفعالهم وصفاتهم كالسمع والبصر والعلم والحكمة والتدبير والقبض والبسط الخ الخ . كما ترى فيما يلي :

١ - (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .) البقرة : ٢٩

٢ - (وَاللهَ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللهَ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .) البقرة : ١١٥

٣ - (إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ .) الأعراف : ٥٤

٤ - (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاوِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ . وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ .) الأعراف : ١٤٣ - ١٤٦

٥ - (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .) النحل : ٥٠

٦ - (وَأَلْتَمِسْ أَحْصَنْتَ فَرْجَهَا فَتَفْخَنَّا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .) الانبياء : ٩١

٧ - (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ .) الانبياء : ١٠٤

٨ - (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَاهُمْ كَسْرَابٌ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّهْمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .) النور : ٣٩

٩ - (وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ .)

وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . (الزمر : ٦٧٥ - ٦٩

١٠ - (وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١)) . الزمر : ٧٥

١١ - (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ..) الفجر : ٢٢

والتبادر بكل قوة أن هذه التعابير أسلوبية مما اعتاد البشر أن يفهموا بها المعاني المرادة بكلماتها ، وانها بالنسبة الى الله عز وجل هي متشابهات تتحمل تأويلات عديدة ، ومنها مالا يدرك العقل البشري تأويله ومداه ، وإن كان يستطيع أن يستشف منها أنها بقصد بيان شمول ملك الله وقدرته وعلمه وإحاطته ، وبقصد الإشارة الى ذاته الالهية وحسب ، لأن عكس ذلك يعني نسبة الحلول والجسمانية والعضوية الى الله عز وجل ، وهذا من سمات الحدوث التي يجب تنزيهه عنها .

ولقد ورد في آية سورة الانعام (١٠٢) جملة (لا تدركه الأبصار) وفي آية سورة الشورى (١١) جملة (ليس كمثله شيء) فهذه الجمل وأمثالها الكثيرة يصح أن تكون ضوابط حاسمة في صدد الذات الالهية ، السامية من أسماء وأفعال وصفات أخرى قد توهم مماثلة لأسماء وصفات وأفعال البشر أيضا حيث يصح أن يقال : إنها جاءت على سبيل التقريب والتمثيل ، فالله سميع ، ولكن ليس كمثله سمعه شيء ، والله بصير ، ولكن ليس كمثله بصره شيء ، والله متكلم وليس كمثله تكلمه شيء ، وهو حي وعليم ومريد وقوي وحكيم وصبور وقابض وباسط ، وليس كمثله حياته وعلمه وإرادته وقوته وحكمته وصبره وقبضه

(١) في القرآن غير هذه الآيات آيات كثيرة مبنوثة في مختلف السور المكية والمدنية فيها ما أردنا التنبيه عليه في هذه النبذة . وقد اكتفينا بما أوردناه لأن فيه الدلالة التي أردنا أبرزها . اقرأ إذا شئت أيضا آيات سورة فصلت ٩ - ١١ و ٣٨ ، والفتح ١٠ و ص ١٦ والرحم ٢٧ ، والحديد ٤ ، والمجادلة ٧ والملك ١٦ - ١٨ والحاقة ١٦ - ١٨ و ٤٥ - ٤٧ والمعارج ٣ و ٤ والقيامة ٢٢ و ٢٣ والنبأ ٣٧ .

وبسطة شيء ، ولا تستطيع أبصار البشر وأسماعهم فهم وإدراك كنه شيء منه ، مع وجوب إيمانهم بوجوب وجوده وكمال صفاته ، لأن دلائل ذلك ماثلة في كل شيء في الكون . (١)
وفي القرآن آيات فيها تنبيه على أن كل ما في الكون يسبح الله ويسجد له ، ولو لم يستطع الناس أن يفهموا كنه ذلك ، وأنه نور السماوات والأرض مع تنبيهه في المثل الذي ضربه لذلك بأن نوره ذاتي أو مضيء بذاته كما ترى في الآيات التالية :

١ - (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ .) الرعد : ١٣
٢ - (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ .) الرعد : ١٥

٣ - (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا .) الاسراء : ٤٤
٤ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِيرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .) الحج : ١٨

٥ - (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي رُجَاةٍ الزُّجَاجَةِ كَأَنَّمَا كَوَّكَبٌ دُرِّيُّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .) النور : ٣٥

٦ - (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ

(١) تنبيه على أن للسلف الاسلامي الاول مذهباً لعله أسلم المذاهب وهو تلقى ما جاء في القرآن من العبارات كما هي والقول (أَمَّا بِكُمْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبَّنَا) وإيكال المراد منها الى الله وعدم الخوض في تأويلها .

فكل هذا أساليب خطائية بلغة البشر الذين يوجه إليهم الكلام للتنبيه على كمال صفات الله ووجوده وإحاطته وقدرته وخضوع كل شيء له دون دخول في الماهيات والكنهيات ، ومن الواجب الوقوف عند ذلك .

وقد يقتضي هذا البحث كلمة في صدد صفة الله (المتكلم) لأن هذه الصفة متصلة عند أهل المذاهب الكلامية الاسلامية بأمر واقعي ، وهو كلام الله القرآني . والذي يتبادر لنا أن أهل هذه المذاهب قد شغلوا أنفسهم بما لا يتحمله الأمر ، وتاهوا في مناهات كنه الله بسبيل التوفيق بين صفة الله (المتكلم) التي يجب أن تكون كذاته أزلية أبدية غير حادثة ، حتى أدى الأمر الى محنة مريرة دامية مما عرف بمحنة خلق القرآن (١) وعدمه في القرن الثالث الهجري مما لا ضرورة دينية له ، ولا طائل منه ، فتعبير (كلام الله) في سورة التوبة هذه :
(وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ

(١) هذه المحنة نجمت في عهد الخليفة العباسي المأمون . وكان أهل المذهب الذي عرف بالمعتزلة ، والذين يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد ، أفوياء الكلمة عليه ، وكانوا يقولون : ان صفات الله وأسماؤه ذاتية ، فهو عالم بذاته ، متكلم بذاته ، سميع بذاته الخ . وكانوا يقولون : ان القرآن مخلوق ، لانه منفك عن ذات الله ومعبر عن أمور حادثة ، فلا يصح أن يكون ذات الله . وكان أهل مذهب السنة بزعم الامام أحمد ابن حنبل يقولون : ان الله عالم بعلم ، ومتكلم بكلام ، وسميع يسمع الخ . وان القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأراد المأمون بتأثير المعتزلة أن يفرض هذا المذهب ، فصار يطارد زعماء مذهب السنة ويضطهدهم لارغامهم وارغام تابعيهم الذين كانوا أكثرية سواد الشعب على القول بمذهبهم ، وأدى الامر الى تعذيب وسجن وضرب واضطهاد وسفك دم ، واستمرت المحنة نحو ثلاثين عاما حتى وقفت في زمن المتوكل على الله .

(٢) هناك آيات أخرى فيها تعابير كلام الله وكلمة الله وكلها لله ، ولكن فحواها وسياقها لا تعني انها كناية عن القرآن مثل آية البقرة هذه : (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرُفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) ٧٥ فهي على ما هو المتبادر في صدد بني اسرائيل وتاريخهم القديم ، ومثل آية الانعام هذه : (وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ .) ٣٤ التي تعني حكم الله . وهذا المعنى وارد بالنسبة لآية سورة الانعام هذه : (وَمَتَّ كَلِمَةً رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ..) ١١٥ ومثل آية سورة الكهف هذه : (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِذَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تُنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي ...) ١٩٠ التي تعني آيات الله في كونه ، ومثل آية سورة الفتح هذه : (سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمٍ لِتَأْخُذُوا ذُرُونَا لَتَتَّبِعَكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ..) ١٥ التي تعني أمر الله وحكمه ..

يَأْتِيهِمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .) التوبة : ٦ هو كناية عن القرآن . ويجب الوقوف عند ذلك .

(١) على انه يمكن أن يقال من الناحية الموضوعية أن مفردات القرآن وتركيباته هي كلام استعمله العرب قبل الإسلام وبعده وما يزال الناطقون بالعربية يستعملون الى ما شاء الله للتعبير عن افكارهم وافعالهم . وهم مخلوقون وافكارهم وافعالهم مخلوقة . والضابط القرآني يقرر انه ليس كمثل الله شيء . اي ليس كلامه ولا سمعه ولا بصره ولا علمه ولا حياته ولا حركاته مماثلة لشيء من خلقه أو ما عند خلقه . هذا اولاً وثانياً ان القرآن لم يبلغ من الله لرسوله مباشرة وإنما نزل به والقاء في قلبه الروح الأمين الروح القدس جبريل على ما تقرره آيات سورة الشعراء ١٩٣ وسورة النحل ١٠٢ وسورة البقرة ٩٧ فيكون مفردات وتركيبات القرآن الموحى بها من جبريل هي كلام جبريل المباشر . وهو من خلق الله تعالى وثالثاً ان الله خلق معنى ما شاءت حكمته وحيه لرسوله في جبريل فالقاء هذا على قلب النبي بالمفردات والتركيبات العربية المستعملة لدى العرب الناطقين باللغة العربية والتي كانت هي لسان رسول الله ﷺ كما جاء في آية سورة الدخان (فَأَنَّمَا يُسَرِّنَاهُ لِّلسَانِكْ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) ٥٨ والله تعالى أعلم .

والمتمعن في الآيات القرآنية التي وردت فيها تلك التعابير والاسماء والصفات مضموناً أو اسلوباً أو سياقاً يجدها قد استهدفت من جهة تقرير معاني القوة والاحاطة والشمول والقدرة والوجود الدائم الشامل ، والحكمة البالغة لله تعالى ، ومن جهة أخرى تقرير أحسن الأسماء والصفات الدالة على أكمل الحالات ، وأتم المعاني اللائقة بالذات الالهية بما تتسع له لغة البشر التي نزل القرآن بها . ولعل تنوع التعابير مما يقوم قرينة قوية على صحة ما نقره ، والمتبادر دأبها منها هو تدعيم الدعوة الى الله وحده ، وكونه المستحق وحده للعبادة والدعاء والاتجاه .

وملاحظة كل ذلك مهمة وضرورية جداً ، لأن من شأنها أن تعصم الناظر في القرآن من الاستغراق والتورط في التكلف والتخمين والتجاوز في الماهيات من جهة ، ومن أي توهم

بحسية الذات الالهية وحلولها وجسمانيته ومشابهتها لأي من الخلق من جهة ، ومن التورط في الجدل الكلامي في صدها على غير طائل ولا ضرورة له من جهة ، وتجعله يقف من هذه التعابير والاسماء والصفات عند الحد الذي وقف عنده القرآن لتحقيق الهدف الملموح منه مع استشفاف هذا الهدف الذي نرجو ان يكون ما ذكرناه ودون تزيد ولا تكلف ولا تمحل .

على أن الناظر في اساليب القرآن المتنوعة في هذا الصدد يجدها كما هو الشأن في غيرها من مشاهد كون وحياة أخروية وقصص وجنّ وملائكة من نوع (أسلوب الحكيم) الذي لا يدخل في نقاش وجدل وتقريرات كلامية ، ويتسق مع طبائع الأمور من حيث أن المخاطب به أناس متفاوتون متنوعون في ذهنياتهم وثقافتهم وظروفهم ، والمهم الجوهري من امرهم هو دعوتهم الى الله وحده ، ثم إلى الخير والصالح وإصلاحهم وتوجيههم إلى أحسن الوجهات ، وتقريب الأمور والمعاني الى عقولهم وأذهانهم ومداركهم بأساليب سائغة منسجمة مع مداركهم ، واعطاء كل موضوع في كل موضع ما يتحمله لتدعيم هذه الدعوة وتأييدها وجعلها مؤثرة نافذة . وفي ذلك من دون ريب تعليم للطريقة الفضلى التي يجب فهم التعابير والاساليب القرآنية بها ، وتحصين من الوقوع فيما يقع فيه المسلمون وغيرهم ومن علماء وغير علماء من خطأ حينما يحاولون تجاوز هذه الطريقة والدخول في متاهات التخمينات والتأويلات والمحاولات الكلامية التي لا جدوى منها ولا ضرورة لها . ولقد وقع كثير من المسلمين في ذلك ، فأدى إلى ما أدى إليه من مجادلات ومهارات كلامية ، وإلى نشوء العديد من المذاهب والفرق الذي أدخل الوهن على الاسلام والمسلمين .

وقد يتفرع عن هذا مسألة يحسن الامام بها ، لأنها مما تثير الحيرة والاشكال ، فإن في القرآن آيات يفيد ظاهرها ان الله أراد في موقف من مواقف خلقه أن يعلم أموراً لم يكن يعلمها مثل هذه الآيات :

١ - (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى

عَقَبِيهِ .. البقرة : ١٤٣

٢ - (إِنْ يَسْأَلْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ . أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ .) آل عمران : ١٤٠ - ١٤٢

٣ - (وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ .) آل عمران : ١٦٦ و ١٦٧

٤ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصِّدْقِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ .) لمائدة : ٩٤

٥ - (ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا .) الكهف : ١٢

٦ - وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ .)

العنكبوت : ٣

٧ - (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ .) محمد :

٣١

٨ - (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ .) الحديد : ٢٥

٩ - (لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا .)

الجن : ٢٨

ويقف بعض الناظرين في القرآن مستشكلين إزاء هذه الآيات . والوجه الحق في ذلك هو أن الآيات من التشابهات التي تتحمل وجوها عديدة للتأويل ، وأن في القرآن آيات فيها

حسم لعلم الله لكل شيء كائن ويكون قبل وقوعه ، وغائب وحاضر ، وخفي وظاهر مما يسوغ القول : إنها هي المحكمة ، لأن ذلك هو المتسق مع وجوب صفات الكمال لله تعالى ، ويسوغ القول : إن الآيات التي نحن في صددها هي من المتشابهات ، وإن الحكم في الأمر ينبغي أن يكون للمحكمات ، وهذه طائفة من الآيات التي فيها حسم لكمال صفات الله وعلمه ، والتي يجب أن يكون لها الحكم في الأمر :

- ١ - (فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ .) البقرة : ٣٣
- ٢ - (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .) آل عمران : ٢٩
- ٣ - (إِنْ اللَّهُ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .) النساء : ٣٢
- ٤ - (مَا عَلَى رَسُولٍ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ .) المائدة : ٩٩
- ٥ - (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ .) الانعام : ٥٣
- ٦ - (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ .) الرعد : ٨ - ١٠
- ٧ - (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا .) طه : ٩٨
- ٨ - (إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا .) الأحزاب : ٥٤
- ٩ - (قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ .) سبأ : ٣
- ١٠ - (فَلَا يُجْزِيكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .) يس : ٧٦
- ١١ - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبَلٍ الْوَارِيدِ .) ق : ١٦

١٢ - (وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ .)

الْمُتَّحِنَةُ : ١

١٣ - (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

بِذَاتِ الصُّدُورِ (١) .) التغابن : ٤

ولقد قال بعض أصحاب المذاهب الكلامية استناداً إلى تلك العبارات إن الله تعالى لا يعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها ، إلا أن معظم أصحاب المذاهب وجمهور علماء المسلمين وأئمتهم ومفسريهم ردوا ذلك بالدلائل القرآنية الكثيرة القطعية ، وبالدلائل العقلية والمنطقية على ازلية علم الله ، وإحاطته بكل ما كان ويكون وهو الحق والصواب اللذين تؤيدهما النصوص الآتية ، وقد أولوا العبارات وتأويلات متسقة مع هذه الدلائل ومن التأويلات السديدة أن الله تعالى أراد بذلك إظهار المواقف المراد علمها للناس ، وقد المؤمنين من المنافقين أمام الناس ، أو إظهار حقيقة الأمر علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانت علم غيب ، حتى يترتب على أصحاب المواقف ما يستحقونه من عقاب وثواب من حيث إن ذلك إنما يترتب على ما تم وقوعه ومشاهدته حسياً ، ومنهم من قال : إن في تلك الآيات محذوفاً مقدراً وهو ليعلم أولياء الله ، وليعلم عباد الله ، وليعلم الناس الخ ...

حادي عشر تنبيهات على أخطاء أخرى يقع فيها الناظرين في القرآن

إن كثيراً من الناظرين في القرآن من مسلمين وغير مسلمين يقعون في أخطاء حيناً يحاولون استخراج حكم ما ، أو فهم ما من آية دون أن ينتبهوا إلى سياق الآية الذي كثيراً ما يكون فيه دلالة على مداها تفهم به فيها صحيحاً ، أو استدراك ، أو تتممة ، أو توضيح لما يبدو من عبارتها من إشكال ، أو دون أن ينتبهوا إلى آيات أخرى في السورة أو في سور أخرى فيها كذلك استدراك أو تتممة أو توضيح أو تعديل أو نسخ ، أو تخصيص بعد تعميم أو

(١) هناك آيات كثيرة أخرى من باب هذه الآيات ، فاكثفنا بما أوردناه لأن فيه الدلالة الكافية .

تقييد بعد إطلاق ، وبالتالي دون أن ينتبهوا الى أن القرآن كل متكامل يفسر بعضه بعضا ، ويجب أن يفهم بعضه من بعض ، وأن يرجع بعضه الى بعض بحيث يقال بجزم وقوة : إن الانتباه الى ذلك يؤدي الى ظهور الحق والصواب والحكمة الربانية ، والانسجام بين نصوص القرآن ، ويزيل ما يمكن أن يثير من وهم التعارض والتناقض ، وانسداد الباب على سوء الفهم والتأويل ، والحكم على مدى القرآن ، أو سوء الادب مع منزله سبحانه وتعالى ، ومع المنزل عليه ﷺ ، وبحيث يقال بجزم وقوة : إنه ليس في القرآن إشكال لا يزول بآية أو سياق ، وليس فيه تعارض وتناقض إذا ما ربط بعضه ببعض ، وفسر بعضه ببعض ، وارجع بعضه الى بعض ، ونظر فيه ككل متكامل ، وهذا من معجزاته العظمى الخالدة .

ونعتقد أن معظم ما كان من مجادلات ومذاهب كلامية متضادة متناقضة في صدر الاسلام مما لا يزال اثارة راهنة في المسلمين وكتبهم وأذهانهم انما كان من ذلك . وأن المتجادلين وأصحاب المذاهب المتضادة المتناقضة لو فسرنا القرآن بعضه ببعض وربطوا بعضه ببعض وارجعوا بعضه الى بعض ثم لاحظوا ما يصح أن يكون ضوابط محكمة فيه لما كان معظم ما كان من تلك المجادلات والمذاهب .

ولقد جاء في سورة النساء هذه الآية : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) ٨٢ وفي سورة فصلت هذه الآية (لَا يَأْتِيهِ الْمُبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) ٤٢ والآيتان تتضمنان تقرير هذه الحقيقة تقريراً حاسماً .

وقد يقع بعض المسلمين في شيء من ذلك عن غفلة وحسن نية ، ولكن الملحدون والمبشرين يقعون في ذلك عن عمد وسوء نية ، وللمحاكمة وإبراز الثغرات ، وكثيراً ما يكون ذلك منهم بسبب عدم فهم للعبارة القرآنية فضلاً عن سياقها وعمما في غيرها من توضيح وتمتة واستدراك ، ولقد نبهنا على كثير من أخطاء المبشرين في كتابنا الذي كتبناه في الرد عليهم ، ونشر قبل هذا . وفي كتاب صادق العظم «نقد الفكر الديني» نماذج من ذلك نبهنا

على بعضها ، ووضعنا الأمر فيها في نصابه الحق فيما نرجو في مناسبات سابقة ، وسوف تنبه على بعضها في هذه النبذة ، ونضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .

ولقد أشرنا الى ما يتمحك به الملحدون من تباين ظاهري في بعض العبارات القرآنية في صدد الخلق والتكوين والقصص ، ونبهنا الى خطئهم في أخذ كل شيء من ذلك لحدته والى أن أوهامهم تزول لو نظروا الى سياق الآيات ، أو قارنوا بينها وبين مثيلاتها ، أو في مواضعها من آيات أخرى . وهذه طائفة أخرى من المواضيع والامثلة :

(١) - ففي بعض آيات تنسب الهداية والضلال اطلاقا الى الله تعالى ومشيتته بحيث يظن المتسرع أن الله قد قدر على أناس الضلال ، وعلى أناس الهدى اعتباطا وجزافا ، فلا حيلة لهم في ذلك ولا جدوى لاجتهادهم وكسبهم من خير وشر ، وحذر ومغامرة وتقوى وفجور وفسق وبحيث يسوغ المباحكون والمتحللون لأنفسهم أن ينسبوا الى الله عز وجل التناقض والتباين والظلم .

ففي سورة الانعام هذه الآيات :

١ - (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .) الانعام : ٣٩

٢ - (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمَّا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .) الأنعام : ١٢٥

وفي سورة الاعراف هذه الآيات :

١ - (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلَّلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) ١٧٨ .

٢ - (مَنْ يُضِلَّلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) ١٨٦

وفي سورة النحل هذه الآيات :

١ - (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ

هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ .) النحل : ٣٦ و ٣٧

٢ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .) النحل : ٩٣

وفي سورة فاطر والشورى والمدثر هذه الآيات :

١ - (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .) فاطر : ٨

٢ - (وَمَنْ يُضِلَّلُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ .) الشورى : ٤٤

٣ - (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ .) المدثر : ٣١

هذا في حين أن في سياق هذه الآيات وما قبلها وما بعدها ، بل في صلب بعضها ما يزيل الوهم والاشكال . فآية الأنعام (٣٩) بسبيل وصف شدة تصميم المكذبين على عدم سماع الحق وقوله . وقد جاء في السياق السابق لها هذه الآية : (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ..) أي الذين حسنت رغباتهم في استماع الحق ، كما أن فيه وصفاً لمواقف المكذبين ، وحكاية لندمهم في الآخرة ، وتسلية للنبي ﷺ ، ونسبة موقف الضلال إليهم بحيث تكون عبارة الآية أسلوبية ، وليست تقريرية ، وبحيث يظهر من السياق كون الضلال إنما كان لموقف الضالين ، ليس مما حتمه الله عليهم اعتباطاً وجزافاً ، تعالى وتنزه عن ذلك . وفي صلب آية الأنعام (١٢٥) تقرير بتصميم الكفار على الكفر ، وفي السياق الذي قبلها شرح لمواقف الكفار وفكرهم ، بحيث يبدو أن ضلالهم وعدم هداهم هما نتيجة سوء بياتهم ، وعدم رغبتهم في الحق أي : كسبهم ، وأن العبارة أسلوبية ، وليست

تقريرية .

وفي سياق آيات الأعراف تنديد بالمكذبين والجاحدين ، أي : الفريق الذي خبثت طويته ، وصمم على الانحراف والضلال ، فصار ضلاله باختباره وكسبه ، وتكون صيغة الآية أسلوبية لا تقريرية ويحسن أن يقرأ السياق ١٧٤ - ١٧٧ و ١٧٩ - ١٨٥ فهو قوي الدلالة على ذلك . وسياق آية النحل (٣٦ و ٣٧) يدور حول المستكبرين الماكرين والمتقين ، وينسب لكل منهم كسب موقفه ، ويرتب على كل منهم الثواب والعقاب حسب كسبه كما يبدو بارزاً في الآيات (٢٢ - ٣٥) وفي صلب الآية (٣٦) نعت لهم بالمكذبين ، وفي النعت تعليل قطعي ، وتقرير كون ضلالهم من كسبهم ، وفي صلب الآية (٩٣) من سورة النحل إيذان رباني بأنهم سوف يسألون عما عملوا بحيث يتضمن ذلك تقرير كون ضلال الضالين ، واهتداء المهتدين نتيجة لكسبهم ، وكون صيغة الآية أسلوبية ، وليست تقريرية وهذا فضلاً عن أن السياق قبل الآية وبعدها ينسب أفعال الناس إليهم ، ويحذرهم وينذرهم ويبشرهم ، ويرتب نتائج مواقفهم وفق أعمالهم كما هو بارز في الآيات (٨٩ - ٩٢ و ٩٤ - ٩٧) .

وفي آية سورة فاطر تسلية صريحة للنبي ﷺ على موقف الجاحدين وحسب ، وفي الآيات التي قبلها تنديد بالكافرين ، وتنويه بالمؤمنين ، ونسبة مواقفهم إليهم كما هو بارز في الآيات (٣ - ٧ و ٩ و ١٠) . وفي صلب آية الشورى نعت الظالمين لمن أضله الله ، وهذا تقرير صريح بأن ذلك بسبب ظلمهم وسوء نيتهم وكسبهم ، وفي ما قبل هذه الآية وبعدها أيضاً نفس التقرير الصريح المذكور . وبالنسبة لآية المدثر ، فقد جاء قبلها وصف لكافر مصمم على الكفر وموقفه الجحودي ، وجاء بعدها إنذار وتنديد بالكفار ، وتنويه بالمؤمنين كما ترى في الآيات (٨ - ٢٩ و ٣٢ - ٤٨) ولقد جاء في إحدى آيات السياق الثاني هذه الآية . (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ) وهي صريحة التقرير بأن موقف الضلال والهدى هو كسب من الانسان بحيث يسوغ كل هذا أن يقال : إن عبارة الآية (٣١) أسلوبية وليست

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن في القرآن آيات يمكن أن يكون فيها ضوابط حاسمة لهذه المسألة .

من ذلك آيات سورة البقرة هذه :

(يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ مَنْ بَعْدَ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) ٢٦ و ٢٧

حيث يتضمن كون الضلال انما حق على الذين انحرفوا وفسقوا وعصوا ، وتمكن الخبث وسوء القصد والطوية فيهم . ومن ذلك آيات سورة الأعراف هذه :

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .)

٢٨ - ٣٠

وفيها تقرير كون الضلال حق عليهم ، لانهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله وهم يفعلون الفواحش ، وينسبونها الى أوامر الله وشرائعه ، وينزه الله نفسه عن الأمر بالفحشاء . ويقرر أنه انما يأمر بالقسط ، والصلاة له وحده ، فيكون ضلال الضالين من كسبهم ونتيجة له ، ومن ذلك آيات سورة الرعد هذه :

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ

(١) في القرآن آيات أخرى من باب الآيات التي أوردناها ، وفي سياق كل منها وفي صلب بعضها ما يزيل الاشكال ، وقد

اكفينا بالأمثلة التي أوردناها لأن فيها غنى . ويمكن أن يفاس عليها

الْقُلُوبُ . الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٧ - ٢٩

وفيها تقرر كون الله إنما يهدي اليه من أناب إليه وأذعن ، أي : من رغب في الحق والهدى ، وقبل هذه الآيات سياق طويل فيه تنويه بالمتقين وأعمالهم الصالحة ، ومنازلهم عند الله ، وتنديد بالمجرمين وأعمالهم السيئة ، ونكالهم عند الله بأسلوب فيه نسبة كل عمل لأصحابه ، وترتيب النتائج عليهم وفقه وهو الآيات (١٨ - ٢٥) وفي التنويه الذي احتوته الآيات (٢٨ و ٢٩) بالمؤمنين تأكيد بأن الذين أنابوا الى الله هم المؤمنون الذين رغبوا بالحق ، واطمأنت قلوبهم به فحق لهم الهدى الرباني . ومن ذلك آية سورة يس هذه : (إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ) (١١ ، التي تتضمن تقدير كون أصحاب النيات الحسنة ، والرغبات الصادقة هم الذين يستجيبون لدعوة الرسول وانذاره . ومثلها آيات في نفس السورة وهي : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ . لِيُنذَرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ..) ٦٩ و ٧٠

وفيها زيادة توضيحية بأن القول إنما يحق على من نعد الكفر والجحود ، ومثلها آية سورة الانعام هذه :

(إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ) (٢٦ ، وآية سورة يونس هذه : (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ٢٩ وآية سورة الاحقاف هذه : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوَّلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) (٣٥ وآية سورة غافر هذه (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ..) ٦ ويضاف الى هذه الآيات الآيات العديدة التي فيها مقاطع (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) و (وَالْخَائِنِينَ) و (الظَّالِمِينَ) و (الْفَاسِقِينَ) مما يتضمن تقرير كون الكفر والخيانة والظلم والفسق قد تحقق منهم فلم يستحقوا نتيجة لذلك عناية الله . وآية سورة ابراهيم هذه : (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ

أَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ..) ٢٧ مهمة في بابها فهي صريحة بأن الذين يشاء الله أن يشبههم هم الذين أخلصوا وآمنوا ، وأن الذين يشاء أن يضلهم هم الذين ظلموا فأشركوا وارتكبوا الفواحش ... ونقطة أخرى مهمة يمكن أن يشار إليها في هذا المساق ، فهناك آيات تقرر أن الله لو شاء لما ضل الناس مثل آية سورة يونس هذه (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْذِبُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ .) ٩٩ وآية الانعام هذه : (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ..) ١١٩ وآية الرعد هذه : (أَفَلَمْ يَنبَأْ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ..) ٣١ وآية السجدة هذه : (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ..) ١٣

فلا يصح أن تؤول هذه الآيات وأمثالها أن الله منع الناس من الهدى ، وإنما الوجه في تأويلها أن الله قادر على قسره على الهدى ، ولكن حكمته اقتضت أن يتركوا لتمييزهم واختيارهم اللذين منحها الله لهم . وفي كل آية من هذه الآيات وأمثالها وفي سياقها ما فيه تأييد لذلك ، وتقرير لكون موقف الضلال وعدم الهدى إنما كان بكسب أصحابه ، ولقد كذب الله المشركين حيثما احتجوا بقولهم :

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ..) الانعام : ١٤٨ (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ..) النحل : ٣٥ وفي سورة الزمر هذه الآية : (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ .) ومشينة الاضلال الرباني تقتضي أن يكون شاء لمن أضلهم الكفر ، وتنزه الله عن أن يشاء مالا يرضاه .. هذا فضلا عما في الآية من نسبة الكفر والشكر لمن يكفر ويشكر ، أي : تقرير كون الشاكر أو الكافر هو كاسب شكره أو كفره باختياره .

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) ٤٨ أي إن الله لم يشأ أن يقصرهم ويجعلهم على شيء واحد هو الهدى بل تركهم ليميزهم واختيارهم وطلب منهم أن يستبقوا الخيرات وهو يعلم أنه شاء أن يكون لهم القدرة على ذلك . وان في ذلك تحقيقا لعدله فيهم . ومنها آية سورة الاعراف هذه (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمُرُ رَبِّي بِالْقِسْطِ .. ٢٨ و ٢٩) ومنها آية سورة الزمر هذه (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَأَنْ تَشْكُرُوا يَرْضَاهُ لَكُمْ) ٧

ومنها آية سورة يونس هذه (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ٧٣ ولقد جاء في نفس السورة هذه الآيات

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) ٩٦ و ٩٧ وفي الأولى توضيح لما في الثانية وضبط لها فصارت هي الضابط في هذا الامر .

ويورد بعضهم حوارا بين عالم من أهل السنة وآخر من المعتزلة حيث قال الثاني سبحانه من تنزه عن الفحشاء فقال الأول سبحانه من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء فقال الثاني أيشاء ربنا أن يعصي فقال الأول أيعصي ربنا قهرا فقال الثاني أرايت إن منعني عن الهدى وقضى علي بالردى أأكون أحسن إلي أم أساء فقال الأول إن كان منعك ما هو لك فقد أساء وإن كان منعك ما هو له فهو يختص برحمته من يشاء .

والحوار سفسطة على ضوء المحكمات والضوابط القرآنية . فالقرآن صريح بأن ربه لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر والفساقون والطاغون والمتحرفون هم الذين لا ينالون رحمته والله قد اوجد في الناس قابلية التميز للخير والشر وقدرة الترجيح والاختيار

وكسب الخير والشر بذلك . فما يقع منهم هو مقتضى ذلك . وليس باختصاص منه ولا قهراً عنه

ويورد بعضهم بعض آيات فيها اطلاق في صدد رحمة الله منها آية سورة الانسان هذه (يَدْخُلْ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالْظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ..) ومع أن روح الآية يفيد ان الذين يدخلهم الله في رحمته هم غير الظالمين فان حكمة الله اقتضت توضيح ذلك بأسلوب صريح ليكون من الضوابط . وذلك في آية سورة الاعراف هذه (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ...)

(٢) - إن كثيراً من الناس يوردون جملة (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) في آية سورة المصافات (٩٦) للتدليل على أن الله تعالى قد خلق الناس وأعمالهم ، فليس لهم حيلة ولا أثر من كسب واجتهاد ، وصارت حجة لبعض المذاهب الكلامية التي تقرر أن الله هو خالق أفعال العباد دون ما أثر لا اختيارهم وكسبهم . في حين أن هذه الجملة ليست تقريراً ربانياً لهذا المعنى ، وإنما هي من جملة حكاية كلام ابراهيم عليه السلام لقومه بسبيل التنديد بهم وإفحامهم . والقول لهم إن مادة الاصنام التي تنحتونها وتعبدها هي من خلق الله مثلكم كما ترى في هذا السياق (فَقُولُوا عَنْهُ مُدْبِرِينَ . فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ . فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ . فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ . قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ . قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ . فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ .) سورة المصافات ٩٠ - ٩٨ ولو لوحظ السياق جميعه لما كان من محل ولا معنى لاقتطاع هذه الآية وحدها من السلسلة ، وتلقيها كتقرير رباني مباشر بخلق الله لأعمال الناس .

(٣) - ولقد احتوى القرآن حقا آيات كثيرة تنسب الى الله ما يفعله الناس من أفعال كأنه هو الذي شاء لهم أن يفعلوها ، فصاروا مجبرين على فعلها ، أو آيات تنيط هدى الناس ونشاطهم ومكتسباتهم الى الله ومصائرهم بمشيئته ، فلا يقع منهم إلا ما شاء من ذلك . غير

أن في القرآن آيات كثيرة تنسب الى الناس كل ما يفعلونه من أفعال ، ويكتسبونه من مكتسبات ، ويصيرون إليه من مصائر ، ويسيرون فيه من طرق الهدى والضلال والاستقامة والانحراف ، وتقدر لهم المشيئة الذاتية بما يختارون ويكتسبون ، وترتب عليهم نتائج ذلك في الدنيا والآخرة مما هو مبثوث في مختلف السور ، ويستطيع كل ناظر في القرآن أن يلمحه بسهولة وكثيرون يقعون في حيرة لما يوهمه ذلك من تباين وتناقض ..

ولقد شغل هذا الأمر الافكار في صدر الاسلام أيضا ، وظل وما يزال يشغلها ، وأدى الى نشوء المذاهب الاسلامية الكلامية . حيث ذهب فريق الى أنه لا يجوز أن يقال : إن الانسان خالق أفعال نفسه ، لأن الله خالق كل شيء ، وإن مثل ذلك القول يستتبع القول : إن الانسان يفعل ما لم يكن الله أراده وشاء وهذا محال ، وإن الناس والحالة هذه مجبورون على أفعالهم ، وهو ما عرف بالمذهب الجبري أو الجهمي أو الأرجاء ، أي : إيكال مصائر الناس لله دون أفعالهم ، لأنهم فعلوها مجبرين ، فإن شاء عذبهم على ما فيه انحراف ، وإن شاء عفا عنهم .. وحيث ذهب فريق إلى أن الأنسان هو خالق أفعاله ، وأنه ليس مجبوراً عليها من الله تعالى ، وأنه يتحمل مسؤوليتها وهو ما عرف بالمذهب القدري ، والمعتزلة والخوارج والشيعة على هذا المذهب أيضا . وتوسط فريق ، فقال : إنه وإن كان لا يصح أن يقال : إن الانسان خالق أفعال نفسه ، لأن الله خالق كل شيء ، فإن الله أودع فيه إرادة واختياراً وتمييزاً ، فصار يكتسب أفعاله بذلك ، وقد دعم كل فريق مذهبه بآيات من القرآن .

ولقد ترجح عندنا من تمحيص هذه المسألة أن للسياسية دخلا غير يسير في نشوء هذه المذاهب في عهد الدولة الاموية ، فقد أنقسم علماء المسلمين في هذا الظرف إزاء الاحداث الدامية بين أصحاب رسول الله ﷺ وأدت الى استشهاد عثمان رضي الله عنه ، ثم إلى حرب الجمل وصفين ، وقيام الدولة الاموية الوراثية الى جماعتين : جماعة تعتبر ما وقع من صنع الناس ، وتتهم من تهمه وتسوغ الخروج عليه ، ثم على الدولة الاموية وإسقاطها .

وكان هؤلاء الجماعات التي عرفت بالخوارج وبالشيعة ثم بالمعتزلة فيما بعد ، وإلى جماعة تعتبر ما وقع من مشيئة الله في الحقيقة يجب الوقوف عنده ، وعدم الخوض فيه ، ثم تطورت المجادلات والمناقشات ، فتبلورت تلك المذاهب .

وإذا كان حقا في القرآن آيات متعارضة في مداها وظاهرها في هذه المسألة وتثير الحيرة كما قلنا حيث يفيد بعضها أن الله هو خالق أفعال الناس ، ولا يقع منهم شيء إلا بمشيئته وإرادته ويفيد بعضها أن الانسان هو كاسب أفعاله ، وأن ما يفعله إنما يفعله بتمييزه واختياره ، وتقع مسؤوليته عليه نتيجة لذلك ، فإن مقارنة الآيات ، وربط بعضها ببعض يؤدي الى زوال وهم التعارض والتباين ، بحيث يصح أن يقال : إن الأساليب تنوعت حسب ما اقتضته حكمة التنزيل ، غير أن مدى الآيات في النتيجة غير متعارض ، لأنها جميعها كلام الله الذي لا يصح أن يكون فيه تعارض ولا اختلاف ، وقد نبه القرآن الى ذلك في آية سورة النساء هذه : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ..) ٨٣ وفي آية سورة فصلت هذه : (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ..) ٤٢

وفي النبذة الأولى من هذه الفقرة شرح لناحية من هذه المسألة فيه وضع للأمر في نصابه الحق فيما نرجو .

ونزيد هذا هنا شرحا فنقول : إن هناك أولا حقيقة كبرى يجب أن يجعلها الناظر في القرآن نصب عينيه ، وهي ضابط حاسم في الأمر ، ونعني بها إرسال الله رسله لانداز الناس وتبشيرهم ، وتبليغ وعده ووعيده لهم حسب مواقفهم من رسالات رسله استجابة وجحودا ، وطاعة وعصيانا ، وتقوى وفجورا . القرآن يدور في نطاق ذلك ، فلا يمكن أن يتسق لذلك حكمة إلا مع كون الله تعالى قد قضى أن يكون في خلقه العقلاء المكلفين قابلية التمييز والاجتهاد والاختيار والكسب والاستجابة وعدم الاستجابة ، والاهتداء وعدم الاهتداء ، واقتراف الآثام وتجنبها ، والطاعة والعصيان لأوامره ونواهيه ، ورتب على كل منهم نتيجة

اجتهاده واختياره وكسبه وموقفه . وفي القرآن ثانياً آيات عديدة يصح أن تكون ضوابط محكمة لا تتحمل ريباً ولا تعدداً في التأويل لتأييد ذلك مثل الآيات التالية التي لها أمثال كثيرة :

١ - (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ..) البقرة :

٢٨٦

٢ - (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ ..) آل عمران : ١٩٥

٣ - (وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ..) الانعام : ١٦٤

٤ - (وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ..) التوبة : ١٠٥

٥ - (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ..) يونس : ١٠٨

٦ - (مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ..) الاسراء : ١٥

٧ - (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ..) الكهف : ٢٩

٨ - (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَاهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ..) الزمر : ٧

٩ - (الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ..)

غافر : ٧١

١٠ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ..)

فصلت : ٤٦

١١ - (كُلْ أَمْرِي إِنَّمَا حَسِبَ رَبِّي ..) الطور : ٢١

١٢ - (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا . إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا . إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا .) الانسان : ٢ - ٥

١٣ - (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصِّرِّ وَتَوَاصَوْا بِالْمُرْحَمَةِ . أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ . عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ..) البلد : ٨ - ٢٠

١٤ - (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ..) الشمس : ٧ - ١٠

١٥ - (يَوْمَئِذٍ يَصْنَدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوَّاهُمْ وَأَغْصَاهُمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ..) الزلزلة : ٦ - ٨

وفي القرآن. مئات الآيات التي فيها دعوة إلى التفكير والتدبر والتذكر والتعقل والسمع ، وتنديد بالذين لا يتفكرون ولا يتدبرون ولا يتذكرون ، ولا يعقلون ولا يسمعون ، وتنويه بمن يتفكر ويتدبر ويتذكر ويعقل ويسمع . وحكاية لما يفعله الناس ولما يجب أن يفعلوه في كل شأن من شؤون الدنيا والحياة ، وترتيب للنتائج عليهم وفق ذلك مما فيه تأييد لذلك أيضا .

وفيه إلى هذا آيات عديدة تذكر أن الله تعالى خلق الناس ليلوهم أيهم أحسن عملا ، وأن الله يأمرهم أن يستبقوا إلى الخيرات كما ترى فيما يلي :

١ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ..) المائدة : ٤٨

٢ - (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ..) هود : ٧

٣ - (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ..) الكهف : ٧

٤ - (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ..) الملك : ٢

ولا مناص والحالة هذه من أن يقال : إن الآيات الموهمة خلاف ذلك هي اسلوية وليست تقريرية ، ومن المتشابهات التي تتحمل وجوهاً للتأويل ، وإن من الواجب تأويلها على ضوء تلك الحقيقة ، وهذه الضوابط والتقارير المحكمة .
ومع ذلك فإن المتعمن يجد في سياق أو صلب كل آية من الآيات الموهمة خلاف ذلك ما يزيل الوهم ، ويتسق مع تلك الحقيقة وهذه الضوابط .

ففي سورة البقرة مثلاً هذه الآيات :

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا . خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ..) البقرة : ٦ و ٧

فقد توهم الآيات في الظاهر أن عدم إيمان الكفار هو نتيجة ختم الله على قلوبهم وسمعهم وجعله على بصرهم غشاوة . ولكن الذي يتمن فيها ، ويقرأ ما قبلها وما بعدها يجد أن الله تعالى قد عزا لكل فئة أفعالها ، ورتب على ذلك النتائج التي تستحقها ، فيكون التأويل الأوجه للآيات أنها اسلوية بسبيل تصوير شدة تصميم الكافرين على الكفر ، ويلاحظ أن الآية (٧) قد ختمت بالتقرير بأن لهم عذاباً عظيماً . ولا يصح أن يكون الله قد رتب على هذه الفئة ذلك إلا لأنهم كفروا باختيارهم ، وأصروا على الكفر ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الآيات نزلت في بدء العهد المدني ، وأن كثيراً من الكفار الذين عنتهم قد آمنوا ، وتفانوا في دين الله وطاعة رسوله كما هو معروف يقينا ، فتكون الآيات في الوقت نفسه

تسجيلاً لموقف قد تبدل فيما بعد .

وفي سورة الأنعام هذه الآيات :

(وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ . وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَخْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ..) الأنعام : ٢٥ - ٢٨

فالآية الأولى توهم أن الله منعهم من أن يفقهوا ويسمعوا ، ولكن السياق احتوى توضيحاً يزيل ذلك الوهم ، ويبرز أن موقفهم كان باختيارهم وتصميمهم ، وبالتالي احتوى ما فيه تسويغاً للقول بأن الآية أسلوبية بسبيل التعبير عن شدة تصاممهم وإصرارهم على التكذيب والجدال بالباطل .

وفي سورة الأنعام هذه الآية :

(وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ..) ١١١

وتوهم الآية أن إيمانهم منوط بمشيئة الله وحسب ، في حين أن في السياق السابق واللاحق حملة على الكفار لموقفهم المجحودي ، ونسبة ذلك إليهم وإنذار ووعيد لهم . بحيث تكون هي الأخرى أسلوبية لبيان شدة تصميمهم على عدم الإيمان مهما أظهر الله لهم من آيات ومعجزات . وهذا السياق يبدأ من الآية (٩١) وينتهي بالآية (١١٧) . ومثل هذا يقال في آية سورة الكهف هذه :

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَبِيٍّ مَا قَدَمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ..)

وسياق هذه الآية السابق واللاحق مثل سياق آية الأنعام فيه حملة على الكفار لموقفهم الجحودي ونسبة ذلك إليهم وإنذار ووعيد لهم ، ويبدأ هو الآخر من الآية (٢) ينتهي بالآية (٥٩) بل في الآية نفسها عدا سياقها السابق واللاحق ما يزيل الوهم حيث تتضمن تقرير كونهم ذكروا بآيات ربهم ، فاختاروا الاعراض والانصراف عنها فكانوا ظالمين .. ومثل هذا يقال في آيات سورة يس هذه :

(لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَعْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ . إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ...) يس : ٧ - ١٢

فالآيات تفسر بعضها بما يزيل أي وهم تباين وتعارض ، وقد جاء في خاتمتها تقرير بأن الناس سوف يحاسبون على ما قدمت أيديهم ، أي : ما كسبوه باختيارهم ، وهذا فضلاً عن اضطراد ما قلناه في صدد آيات البقرة من أن هذه الآيات بل ومثلها آيات الكهف والأنعام تسجل موقفاً قد تبدل فيما بعد .

وليرجع القارئ الى ما أوردناه في سياق قصة آدم وإبليس من توضيح في صدد ما في القرآن من تقرير لمشيئة الله ، ومدى ذلك ، فهو متصل من ناحية بهذا البحث ، ومن شأنه أن يزيد شرحنا وضوحاً وتأيداً .

وبعد إن هذه المسألة مسألة عقيدية بحتة ، ليس من شأنها أن تمنع الانسان من أي نشاط عملي وعقلي في كل مجالات الحياة ، فما دام الانسان حياً ، فهو متحرك وعامل مهما كانت عقيدته في الدافع لحركته ، والمسألة ليست إسلامية فقط ، فهي مسألة فكرية مشتركة بين مختلف أهل الملل والنحل ايضاً . وفي صدد صلتها بالاسلام ، فالمرجع هو القرآن أولاً ،

وحكمة إرسال الله الرسل ثانيا ، والقرآن المحكم في جانب كون الله تعالى قد أوجد في الانسان قابلية التمييز والاختيار بين ما يعرض له من امور متعارضة حيث إنه ينسب إليه أعماله ، ويرتب عليها النتائج وفق ذلك ، وما قد يكون فيه من آيات موهمة لخلاف ذلك ، ففي صلبها أو سياقها ما يزيل الوهم فضلا عما في القرآن من آيات محكمة ، وضوابط حاسمة مما أوردناه قبل قليل . والقرآن بين أيدي الناس ، وحكمة إرسال الرسل في هذا الجانب وقد قرر محكم القرآن أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، والله تعالى يتنزه عن تكليف الناس بما ليس في وسعهم الاستجابة له ، ومحاسبة الناس على غير ما اكتسبوه باختيارهم ، وقد طلب منهم أن يؤمنوا بالله ورسوله ، ويعملوا الصالحات ، ويجتنبوا الموبقات ، ووعدهم وأوعدهم ، وبشرهم وأنذرهم وقال لهم :

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .) فصلت : ٤٦

وقد يكون قول بعض أهل المذاهب (إن الانسان خالق أفعال نفسه) مما يثير ، ومما اثار الجدل في الصدر الاسلامي الاول ، لأن ذلك يستتبع أن يقال : إن الانسان يفعل ما لا يريد الله .. والخلق هو مختص بالله .

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ..)

الانعام : ١٠٢

وقد أقام الله الحجة على المشركين في ذلك في آية سورة النحل هذه :

(أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ..) ١٧

وليس من ضرورة إلى استعمال هذا التعبير ، ويكفي أن يقال : إن الله قد أودع في الناس قابلية التمييز والاختيار ، وجعلهم مكلفين بناء على ذلك ، فهم يميزون ويختارون بهذه القابلية المودعة فيهم ، وبذلك يوضع الامر في نصابه الحق .

ولقد تعرض صادق العظم لهذه المسألة بأساليب مختلفة ومواقع عديدة من كتابه (نقد الفكر الديني) ومن أقواله : (إن نظرية الكسب فاسدة ، وهي نوع من البهلوانيات

الفكرية ، والألعاب الكلامية كالتي لجأ إليها البعض لطمس معالم الخيار الحاسم الذي يوجب على المفكر أن يكون فيه بين موقفين متعارضين هما التسيير والتخير ، والجبرية والقدرية ، أو بين كون العبد خالقاً لأفعاله ، وبين كون الله خالقاً لأفعال العباد ، وبعبارة أخرى : إن نظرية الكسب ليست إلا محاولة لتزييف التضارب القائم بين هاتين النظريتين للهروج بأي ثمن من مأزق صعب يحتم على الانسان إذا واجهه بصدق وأمانة أن يتخذ موقفاً محدداً واضحاً من طرفي هذا التناقض بين فكرتي التسيير والتخير (ونظن أن فيما قدمناه وضعاً للامر في نصابه الحق ، ولا يبقى للعظم محل للتمحل والتنطع بالنسبة لنصوص القرآن وما عدا ذلك فالاسلام والقرآن لا يتحملان مسؤوليته .

٤ - في سورة القمر هذه الآية : (إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) وقد فسرها بعض المفسرين بأنها تعني ما هو معروف من عقيدة (القضاء والقدر) ولقد أوردتها صادق العظم في كتابه على هذا التفسير ليحمل على أثر هذه العقيدة في المسلمين بزعمه ، لأن الملحد ينعتبرونها مما يشل قوى الانسان ، ويحمّله على الاستسلام والرضا بما يقع منه وعليه . وقبل كل شيء نقول : إن استنباط عقيدة (القضاء والقدر) من هذه الآية غير سليم ، فالعبارة القرآنية هنا بسبيل تقرير كون الله خلق كل شيء بحساب وتقدير . وهذا المعنى ملموح في آيات كثيرة منها ما يلي :

١ - (فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ..) الانعام : ٩٦

٢ - (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) الرعد : ٨

٣ - (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ) الحجر : ٢١

٤ - (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ) المؤمنون : ١٨

ومع ذلك فإن في القرآن والأحاديث ما يستند إليه أصحاب المذاهب الكلامية

الاسلامية ، ويجعلهم يقررون أن الاسلام يعترف بعقيدة (القضاء والقدر) .

ومدى (القضاء والقدر) هو ما يقع من الانسان أو يقع عليه مما كان مغيباً عنه قبل وقوعه ، ومدى (عقيدة القضاء والقدر) هو أن ما يقع على الانسان أو يقع منه هو من قضاء الله وتقديره الأزلي الذي لا راد له ولا حيلة فيه والذي لا بد من وقوعه .

ومع تقرير واجب المسلم بأن يؤمن بما جاء في كتاب الله ، وبما ثبت من أحاديث رسول الله من نصوص فيها تقارير عقائدية من هذا الباب وغيرها ، فإنه يتبادر أن هذا الأمر يتحمل توضيحاً وكلاماً ، فقد انتهينا في البحث السابق إلى القول : إن محكم القرآن وضوابطه في جانب كون الانسان كاسباً لأفعاله ومواقفه مختاراً لها بقوة القابلية التي أودعها الله فيه ، وأنه ليس مجبوراً عليها ، ولا يصح والحالة هذه أن يقال : إنها مقدرة عليه من الأزل ولا حيلة له فيها ، وأنها لا بد من أن تقع منه أو عليه ، لأن ذلك يتعارض مع تلك الضوابط والمحكمات ، وإذا كان في القرآن والأحاديث ما فيه خلاف لذلك بالنسبة لأفعال الانسان ، فتكون من التشابهات التي تتحمل وجوهاً أخرى للتأويل ، ويجب تأويلها على ضوء المحكمات والضوابط القرآنية ، وقد يكون الأصح والحق أن يقال والله أعلم : إن (الله يعلمها من الأزل) ولا محل للاستشكال بين كون الله يعلمها ، ولا يكون قدرها من الأزل ، فالفرق واضح ، فالله يعلم من الأزل أن فلاناً سوف يكون موقفه من أمر ما ، أو دعوة ما ، أو عمل ما على وجه ما بقوة قابلية التمييز والاختيار التي أودعها فيه .

وفي سورة الحديد آية يمكن الاستئناس بها على ذلك ، وإن تكن في صدد ما يقع على الأرض والناس من مصائب ليست من أفعالهم . وهي :

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ..) الحديد : ٢٢

بسبيل ذلك أكثر من كونها بسبيل التقرير .

وهناك آيات أخرى في هذه المسألة أيضاً ، منها آية سورة التغابن هذه :
(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَاطِمٌ ..)

١١

وفي الآية قصد التسلية واضح أيضاً أكثر من قصد التقرير ، مع تقرير كون ما يصيب الناس هو بإذن الله وعلمه ... ومنها آية سورة الشورى هذه :

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ..) ٣٠

والآية تعزو ما يصيب الناس من مصائب إلى أخطائهم ، وتربط المصائب بأسباب تقع من الناس ، وتقرر أن هذه الأخطاء تستدعي أكثر مما يقع عليهم ، ولكن الله يتسامح ويعفو عن كثير مما يقع منهم .

وفي الآية التي تلي هذه الآية تنمة وهي :

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ .) ٣١

حيث توضح أن المقصود بالخطاب هم الكافرون ، ولعل الآيتين نزلتا في موقف حجاج بين النبي ﷺ والكفار في صدد ما يصيبهم من مصائب . ومنها آيات سورة النساء هذه :
(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا . أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا . مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا . مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا .) ٧٧ - ٨٠

والآيات بسبيل التنديد في موقف لفريق من المسلمين هم على الأرجح منافقون ، حيث كانوا يعززون ما يصيبهم من مصائب للنبي ﷺ ودعوته ، وما ينالهم من خير إلى الله وحده لئلا يبدو أن الدعوة النبوية قد عادت عليهم بالخير والبركة . وقد أظهروا الجزع ، لأنهم كتب عليهم القتال بعد فترة من الزمن اكتفى فيها منهم بالايان بالله ورسوله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فنددت الآيات بهم ، وردت عليهم بالاسلوب والفحوى اللذين اقتضتها حكمة التنزيل ، والآيات هي بسبيل موقف جدلي للمنافقين ، ومع ذلك فقد تضمنت فيما تضمنته تقرير كون ما قد يقع على الناس من مصائب وأخطار هو بسبب أخطائهم وتصرفاتهم ... ومن ذلك آيات سورة التوبة هذه :

(إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ . قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ..)

٥٠ - ٥١

والآيات بسبيل موقف جدلي للمنافقين أيضاً . وقد تضمنت الرد عليهم والتنديد بهم مع تسلية النبي ﷺ وتطمينه ، وقد تكون جملة (إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) أقوى ما تضمنته آيات القرآن في تقرير كون ما يصيب الناس بغير كسبهم هو مكتوب عليهم ، غير أن قصد التطمين والتثبيت والتسلية هو الأبرز الأقوى .

ومهما يكن من أمر فمسألة (القضاء والقدر) هي كالمسألة السابقة عقيدية نظرية ، وهي ليست إسلامية فقط ، بل قدر مشترك عند جميع الملل والنحل ، ومثقفين وغير مثقفين ، بل وملحدين أيضاً من حيث إن هناك كلاماً يساق في صدد مسألة كون الناس مسيرين أو مخيرين ، وتأثرهم فيما يفعلون ويقع عليهم بظروفهم وبيئاتهم ونشأتهم وتربيتهم ووراثاتهم وظروف غيرهم ونشاطاتهم المعاكسة الخ ، وأنهم ليسوا مخيرين في الحقيقة في كثير مما يفعلون أو يقع عليهم .. ولكن ليس من شأن ذلك مع ذلك أن يمنع أحداً من العمل والنشاط في مختلف المجالات مهما كانت عقيدته فيها ، لأن نتائج ذلك العمل والنشاط مغيبة لا

تعرف إلا بعد ظهورها ، ثم يستمر الانسان في العمل والنشاط ، لأن ذلك من طبيعة الحياة .

والقدر إلى هذا وفي نطاق مداه النظري هو الذي وقع وتم بقطع النظر عما كان قبله وما يكون بعده ، وهو عرضة للتبدل دائماً ، فقد يصيب الانسان مآلاً ، أو يقع في إفلاس ، وقد تقع منه جريمة ، أو يكون صالحاً مستقيماً في وقت ما . وكل هذا عرضة للتبدل نتيجة لاستمرار الانسان على النشاط ما دام حياً ، وهكذا تتسلسل المسألة فلا يبقى للقدر ذلك المعنى المحتم الجامد الراسخ في الأذهان من الوجهة النظرية أيضاً .

والقول والحالة هذه : إن عقيدة (القضاء والقدر) تشل قوى الانسان ، وتجعله يستسلم للواقع مجاف للحقيقة والواقع ، فليس من إنسان وقع عليه شيء او وقع منه فعل إلا استمر بعده في العمل والنشاط دون توقف

وبالنسبة للمسلم فإن فيما تقدم ما يضع الأمر في نصابه . ومع ذلك حتى لو كانت هذه العقيدة مستحكمة عند المسلم بالنسبة لما يقع عليه من مصائب ، او يقع منه من أفعال بقطع النظر عما كان قبل ذلك ويكون بعده ، فإن المسلم الذي يعتقد ذلك ، يقدم على جسيم الأمور غير هياب ولا وجل ، لأنه معتقد أنه لن يصيبه إلا ما كتب له ، ولن يغني عنه حذر من قدر كما يقول المثل ، وهذا هو التحليل المبدئي لأثر هذه العقيدة في المسلمين ، والذي كان يحركهم في الصدر الاسلامي ، ويجعلهم يقدمون على المخاطر والمصاعب ، وينجزون ما يكاد يكون من المعجزات في مختلف شؤون الحياة ومجالاتها .

ولقد اقتضت حكمة الله أن يزودهم بتطمين وتثبيت قرآنيين ، فجاء بعد آيات التوبة المذكورة هذه الآية :

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ ..) ٥٢

وجاء في سورة البقرة هذه الآيات :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ . وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ شَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ . الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . (١٥٣ - ١٥٧)

وفي هذا ردّ مبني وعملي على من يتمحل من الملحدّين في صدد أثر هذه العقيدة في المسلمين ، ويريد هدم الاسلام من أجلها ، ساء فآلهم ، وخاب أملهم ، وردّ الله كيدهم إلى نحورهم .

وقد يكون واقع المسلمين يوحى ذلك ، ولكنه واقع له أسباب أخرى غير الاسلام وعقائده السليمة الصافية مما لا يمكن أن يكابر فيه إلا أحمق .

٥ - ولصادق العظم مواقف تعسفية في صدد آيات قرآنية عديدة أساء تأويلها وفهمها ومدّاهها ، وأساء الأدب في مناسبتها ، وقصد بذلك المباحكة والتمحل ، وإظهار نقائص القرآن وانتقاد الفكر الديني الاسلامي عبر ذلك كما كان شأنه وقصده فيما سباه مأساة إبليس . وقد رأينا أن نلم بها لأنها قد تمثل رأي غيره من أمثاله الملحدّين أيضاً ، وقد يكون في بعضها إشكال لذوي النيات الحسنة من مسلمين وغير مسلمين ، فيكون الامام بها ، ووضع الأمر في نصابه الحق في صددّها إن شاء الله مفيداً لهم مع ما يكون في ذلك من رد على الملحدّين ، وإظهار ما في تحلّلاتهم ومباحكاتهم من ضعف وغثاثة وقصد سيء .

(آ) من ذلك آية سورة الاسراء هذه :

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا

تَدْمِيرًا .) ١٦

وقد أورد العظم هذه الآية في البحث الذي سباه مأساة إبليس في كتابه (نقد الفكر الديني) وقال بالحرف في تفسيرها : (إن الله قد شاء تدمير القرية .. بمحض مشيئته ، ولكن

لئلا يكون للعباد عليه حجة فيما شاء لجأ إلى المكر ، فأمر مترفيها أن يفسقوا فيها حتى يبدو للجميع وكأن القرية استحقت ذلك التدمير ، بينا الحقيقة غير ذلك . وهذا من مكر الله !! كبرت كلمة تخرج من فيه ، لا يقولها إلا شخص فقد المنطق والذوق والعقل والأدب معاً .

ولو أوتي شيئاً من ذلك حقاً ، لكان قبل كل شيء لاحظ أن الله يقتضي أن يكون في غنى عن إقامة حجة كاذبة لعباده فيها مكر وخداع مما هو محض هراء ، ثم كان انتبه إلى الآيات التي قبل هذه الآية وبعدها فرأى فيها ما يمنعه من هذا الهراء أيضاً ، فقد جاء قبلها هذه الآيات :

(وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . إقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . مَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ رَسُولًا .) ١٣ - ١٥
وجاء بعدها هذه الآيات :

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَنَّهُم يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا . وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ..) ١٧ - ١٩

فهل يقول ذلك الهراء عاقل ولو كان ملحداً في تأويل آية جاء قبلها وبعدها هذه الآيات التي تقول بلسان الله : إن الله لا يعذب أحداً حتى يبعث إليهم رسولاً ينذرهم ويبشرهم ويبين لهم الطريق ، فإذا ما جحدوا وانحرفوا حق عليهم العذاب ، وأنه لا يحمل ذنب أحد على غيره ، وأن الله لا يهلك الناس إلا بذنوبهم ، وأن من آمن واتقى شكر الله سعيه ... وشيء من التروي وحسن الفهم والذوق يظهر أن عبارة الآية على ضوء ما قبلها وبعدها أسلوبية أريد بها تقرير ناموس اجتماعي عام ، وهو أن الأمم والمدن إذا ما ساد عليهم

الفساق وحكموهم ، ورضوا هم بذلك كان في ذلك دمارهم . وجملة (فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ) في الآية مؤيدة لهذا التأويل ، فلا يصح أن يفرض أنه حق عليها القول بالتدمير إلا مع القول إنها وقفت موقفاً منحرفاً مع أمرائها الفساق متجاوبة معهم راضية بفسقهم ، ولقد فسرها المفسرون بتفسيرات أخرى ولكنها في معنى كون التدمير جزاء عادلاً من الله بسبب سيرة الأمراء الفاسقة ، ومن هذه التفاسير : (إن الله يأمر الأمراء بأوامره ونواهيهِ ، فلا يعملون بها وينحرفون ، ويرضى أهل بلدهم بذلك فيستحقون التدمير) وفي هذا أيضاً صواب وسداد . والآية من ناحية أخرى تتضمن تقرير مسؤولية الزعماء ، لأنهم عادة يطاعون ، فإذا كانوا فساقاً أثروا في قومهم ، وأوردوهم موارد الهلاك ..
ولقد جاء في سورة هود هذه الآية :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيَهْلِكَ الْقَرْىَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ .) ١١٧

حيث تقرر تنزه الله تعالى عن إهلاك قرية إذا كان أهلها صالحين ومصلحين ظلماً واعتباطاً ، وجاء في سورة القصص هذه الآية :

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرْىَ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقَرْىَ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ...) ٥٩

وجاء في سورة الأنعام هذه الآية :

(ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرْىَ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ .) ١٣١

أي إن الله لا يهلك قرية غافلة لا يكون قد جاءها منه رسول يبين لها طريق الحق ، وبعبارة أخرى لا يهلكها عن غفلة وجهل وحسب ، بل إذا انحرفت عن طريق الحق بعد أن يكون بينها لها رسله . وهذه الآية جاءت حجة على المنحرفين حيث جاء قبلها هذه الآيات :

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ

كَانُوا كَافِرِينَ ...) الأنعام : ١٣٠

وفي القرآن آيات عديدة أخرى تقرر كون الله عز وجل لا يظلم أحداً ، وأن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بما يفعلونه من سيئات ، ويقفونه من مواقف الكفر والانحراف كما جاء في هذه الآيات التي لها أمثال أخرى :

١ - (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .) النساء : ٤٠

٢ - (وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ .) الأنفال : ٥٠ و ٥١

٣ - (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقِصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ . وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا عُيُوتًا نَجِيبًا .) هود : ١٠٠ و ١٠١

٤ - (هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .) النحل : ٣٣ و ٣٤

٥ - (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .) الكهف : ٤٩

٦ - (وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .) المؤمنون : ٦٣

وفي سورة النساء آية ذات مغزى عظيم في هذا الباب وهي :
(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا .) ١٤٧

فلا يصح لعاقل أن يفرض بعد كل هذا أن الآية في صدد تقرير أن الله شاء تدمير القرية بدون سبب من انحراف أهلها فضلاً عن أمرائها ، ويفسرها بالتفسير الهراء الذي فسر بها العظم . على أن المرء لا يحتاج إلى نباهة كبيرة ، ليلمح قصده الصريح في هذا التفسير وهو التجريح والتهوين مهما كان فيه سوء ادب ، وسوء تأويل ، وسوء ذوق . وهذا لا يتسق مع أبسط مبادئ الأخلاق والعلم والأمانة إلا إذا كان الاتحاد يجعل صاحبه كذلك ، ويا بؤساً له وتعباً ...

(ب) ومن ذلك آية سورة آل عمران هذه :

(وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ .) ١٧٨

وقد أورد العظم الآية في معرض إبرازها كظاهرة من مظاهر ما زعمه من مكر الله بعباده . تنزه وتعالى عن ذلك ، كما كان أمره في صدد الآية السابقة ، وقال : أن (إملاء الله لهم ليزدادوا إثماً هو مكر من الله بهم) كبرت كلمة تخرج من فيه ، لايقوها إلا سيء الذوق والفهم والأدب . والاملاء هو الامهال مع إدامة الحالة القائمة الحسنة ، ولقد كان زعماء الكفار يحسبون أن ما يتمتعون به من خير ومال وقوة هو حظوة من الله لهم ، ودليل على رضائه عنهم على ما تفيد آيات سورة المؤمنون هذه :

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ .)

٥٥ و ٥٦

وهذا الذي كان قائماً في اذهانهم تكررت حكايته في آيات قرآنية أخرى منها سورة سبأ هذه :

(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ .) ٣٥

وآيات سورة فصلت هذه :

(لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ . وَلَئِنْ أَدْقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا

مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَإِذَا أُنْعِمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَتَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٤٩ -

٥١

وآية سورة آل عمران التي نحن في صددِها قد تضمنت بل هدفت تطمين المؤمنين ، وإنذار الكافرين ، وفيما قبلها من السياق توضيح لذلك حيث جاء قبلها هذه الآيات :
(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ..) ١٧٥ و ١٧٧

وقد تضمنت الآية تنبيهاً بأنه لا ينبغي أن يظن المؤمنون ولا الكفار أن إملاء الله للكفار ، وإمهالهم ، أو ما يكونون فيه من سعة رزق ونعمة هو مظهر من مظاهر رضائه عنهم وإنما هو مقتضى حكمته التي اقتضت تأخير عذابهم ، أو إفساح المهلة والفرصة لهم ، مما جاء في آيات أخرى منها آية سورة النحل هذه :

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ ذَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَخِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ .) ٦١
وآيات سورة الكهف هذه :

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا . وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا .) ٥٨ و ٥٩

وآية سورة فاطر هذه :

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَِا مِنْ ذَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُسَمًى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ..) ٤٥

أما عبارة (ليزدادوا إثماً) فهي بسبيل تأكيد الانذار حيث قصد بها أن ذلك الاملاء الذي يحسبونه خيراً سوف يكون عليهم شراً ووبالاً . لأنهم يزدادون خلاله إثماً وانحرافاً ، فيكون ذلك سبباً في زيادة ما أعد لهم من عذاب وهوان . وهكذا يوضع هذا الأمر في نصابه الحق ، ويظهر تمحل صادق العظم الذي هو من نوع ما نبهنا عليه ، أي قصد التجريح والتهوين وإظهار النقائص والثغرات في القرآن . وفي مسائل ثانوية وجانبية واسلوبية كما يفعل سخفاء المبشرين . مهما كان في موقفه سوء أدب وذوق . مع أنه كما قلنا مفروض فيه الاناة والتروي والأمانة والاستيعاب ، وكبح جماح الهوى .. وأبسط تفكير وترو في أي إنسان ولو كان ملحداً لا يمكن إلا أن يجعله يستبعد كون الله يصح أن يريد للناس أن يزدادوا إثماً اعتباطاً وجزافاً . والقرآن جميعه يدور على صلاح الانسان وسعادته ونجاحه وخيره في الدنيا والآخرة . وقد اقتضت حكمة الله إرسال الرسل للناس ليبينوا لهم سبيل ذلك ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ويهدوهم إلى صراط الله المستقيم . وقد أوردنا قبل قليل كثيراً من الآيات التي تقرر ان كل نفس بما كسبت رهينة لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وأن الله لا يظلم أحداً ، وأنه لا يرضى لعباده الكفر .

ث) وفي القرآن آيات أخرى ورد فيها عبارة (إملاء الله للكفار) ، ففي سورة القلم هاتان الآيتان :

(سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .) ٤٤ و ٤٥

وقد تكررت الآيتان حرفياً في سورة الأعراف وهما الآيتان (١٨٢ و ١٨٣) والتأويل الحق للآيات والله أعلم هو أنها الأخرى بسبيل إنذار الكفار . وإنها صيغة أخرى تتضمن معنى آية سورة آل عمران (١٧٨) التي كانت موضوع الفقرة السابقة .

ولقد نسب صادق العظم إلى الله تعالى صفة الكيد في بعض مواضع من كتابه مستندا إلى العبارة القرآنية في هذه الآيات وأمثالها . والكيد تدبير يقصد به أذى الغير بأسلوب

ملتو ، ونكرر ما قلناه قبل من أنه لو كان في العظم أدب وذوق وسلامة فهم . لما نسب إلى الله الكيد لعباده اعتباطا ، وهو يرى القرآن يدور على ما فيه سعادة الانسان وخيره ، وإخراج الناس من الظلمات الى النور ، وسياق آيات القلم والاعراف يؤيد ذلك التأويل ، ويظهر غثاثة موقف العظم ، وهذا سياق آيات سورة القلم :

(سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ . أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ . يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ . فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .) ٤٠ - ٤٥

وقد جاء بعد ذلك آيات فيها تثبيت للنبي ﷺ تجاه موقفهم :

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ..) ٤٨

وصاحب الحوت هو يونس عليه السلام ، وقد يشس من إيمان قومه فتركهم غاضبا على ما جاء ذلك في آيات سورة الصافات (١٣٩ - ١٤٨) وسورة الانبياء (٨٦) وهذا سياق آيات سورة الاعراف .

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ . وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ . وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ . أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ..) ١٨٠ - ١٨٥

وقد وردت عبارات الكيد في آيات أخرى على سبيل المقابلة والمشاكلة منها هذه الآية

في سورة الطور :

(أَمْ يَرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ الْمَكِيدُونَ .) ٤٢

وهذه الآيات في سورة الطارق :

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا . وَأَكِيدُ كَيْدًا . فَمَهْلِكِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا .) ١٥ - ١٧

وفي سورة الانفال هذه الآية :

(ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ .) ١٨

حيث يبرز فيها قصد كون كيد الله هو بمعنى إحباط كيد الكافرين . وفي سورة غافر هذه الآية :

(وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ..) ٢٥

وفي كل ما تقدم يبدو ما في تمحل العظم ومما حكته من غثاثة وسوء أدب وذوق .
ت) ولم يكتف صادق العظم بما تقدم بل وقف عند آيات أخرى لتوكيد تمحله ، وسوء فهمه وأدبه في نسبة المكر لله بعباده سبحانه وتعالى حيث أورد هذه الآيات :

١ - (وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ..) آل عمران : ٥٤

٢ - (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِي كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .) الانفال : ٣٠

٣ - (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ إِذَا هُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ .) يونس : ٢١

ويفسر العظم (المكر) بأنه تدبير يكون فيه كيد وأذى وإظهار شيء وإضرار ضده بسبيل ذلك . والحق في هذه الآيات أنها أسلوية لا يبرز مكر الكفار والمجرمين ، وكون الله قادراً على إحباط مكرهم ، وأن العبارة فيها جاءت من قبيل المشاكلة في التخاطب ، وهي سائغة في الأساليب العربية وغير العربية ، ولا يمكن أن يستنتج منها ما استنتجه العظم بالنسبة

الى الله تعالى . ولقد يلوح المرء مقاصد مربية مؤذية ضده من شخص لآخر ، فيؤذنه بذلك ، وينذره بأنه قادر على مقابلة مكره بمكر مثله وإحباطه فلا يعني هذا أنه أراد أن يصف نفسه بالمكر ، وكل ما يمكن أن يعنيه أنه أدرك مقصد الآخر وفهمه . وأنه قادر على إحباطه ، ولا يصح لعاقل ذي روية واتزان وذوق ، ولو كان ملحداً أن يستنتج منها غير ذلك إلا إذا أراد المباحكة والتحمل ، وتحميل الكلام غير ما يحمل ، وهو ما يتعمده صادق العظم على رغم دكتوراه الفلسفية التي يتبجح بها والتي توجب عليه أن يكون أكثر روية وأناة وذوقاً وأدباً وأمانة .

وأبسط ترو لا يمكن إلا أن يجعل أي عاقل حسن النية يرى فيما يقوله العظم مناقضة صارخة لمقاصد القرآن الرامية الى خير الانسان والانسانية ، وصالحها وسعادتها ، ويستنهجن نسبة المكر لله بعباده ، ويرى فيها تحميلاً للكلام غير ما يحمل عن قصد وسوء نية .

وما ذكرناه من مدى الآيات ظاهر من فحواها لذاتها ، ثم من سياق كل منها السابق واللاحق الذي يقرر أن الذين هم موضوع الانذار الرباني قد استحقوا ذلك لمواقفهم الجحودية وانحرافاتهم الخلقية والدينية ، ومقاصدهم الاجرامية . وليقرأ القارئ آيات سورة عمران (٤٥ - ٥٨) وآيات سورة الانفال (٢٩ - ٣٨) ، وآيات سورة يونس (٢٠ - ٢٧) وفي سورة النمل آيات فيها شرح للمكر الذي مكره قوم صالح بنبيهم ، وإيدان بأن الله قابلهم على مكرهم بمكر مماثل ، فأحبط مكرهم ودمرهم ، وبعبارة أخرى فيها توضيح قرآني لمدى الكلمة ، وتوكيد لكونها بالنسبة الى الله تعالى أسلوبية خطابية بقصد إبراز كون الله محيطاً بمكر الماكين وهي هذه :

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ . قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . قَالُوا أَطِيرُنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ . وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ

رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ . قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَلْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ .

النمل : ٤٥ - ٥٣

وفي الآيات دلالات صريحة وحاسمة على أن المكر هو من جانب الظالمين الكافرين المغامرين ، وأن التدمير إنما كان عليهم عقابا عادلا ، وقد نجى الله المتقين المؤمنين ، وأي كلام بعد هذا هو محل ، ومن نفس وقلب مريضين ، وهذه الدلائل قائمة في صلب وسياق النصوص السابقة أيضا .

وفي سورة فاطر آية عبر فيها عن مقابلة مكر الماكرين من الله بعبارة أخرى وهي :
(مَنْ كَانَ يُرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ..) ١٠

مما فيه تأكيد لما قررناه من مقاصد الآيات .

(ث) ويسوق العظم آية سورة البقرة هذه :
(اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ..) ١٥

لإبراز ما أراده من ثغرات ونقائص قرآنية في زعم قصد الله سبحانه وتعالى الكيد والمكر بعباده .

والعبارة أسلوبية مثل العبارات السابقة ، وهي مثلها بسبيل المقابلة على موقف المنافقين الذي حكته الآية التي قبلها وهي : (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ .)

فجاءت الآية التي أوردها العظم دون ما قبلها للقصد السيء الغث الذي قصده ، لتعقب على قولهم بالأسلوب الخطابى المألوف ، وإخراجها من هذا النطاق تحمل متهافت .

ج) ويسوق العظم جملة (يخادعون الله وهو خادعهم) في سياق يحكي موقفا للمنافقين ليزعم أن الخداع من صفات الله في القرآن ، كبرت كلمة تخرج من فيه ، والجملة مثل سابقتها أسلوب خطابي مألوف للتعقيب على موقف المنافقين على سبيل المقابلة والمشاكلة . ولقد أورد العظم محاكماته وتمحلاته في صدد النصوص التي أوردناها في الفقرات السابقة في سياق بحثه الذي سباه (مأساة إبليس) ، وعقب على ذلك بقوله : (إذا كان الله صانع الأشياء كلها ، ومقدر الخير والشر على عباده ، فلماذا أراد للناس أن يعتقدوا أن إبليس هو سبب الشر والمعصية ولماذا شاء تحميله أوزار أولئك الذين خلقهم للشر ، وأجرى الشر على أيديهم ، وهل باستطاعتنا أن نعلل هذه المفارقة بردها الى إحدى الصفات الالهية المعروفة . وأجاب على ذلك بقوله : اعتقد أن الصفة الالهية التي نبحت عنها للإجابة على هذه الأسئلة هي صفة المكر) .

وما تقدم من شروح لقصة آدم وإبليس واهدافها ، ومدى دور إبليس ، ومدى كسب الانسان لأفعاله يضع الأمر في نصابه الحق فيما نعتقد . ويظهر تهافت هذا الكلام جملة ، وما تقدم من شروح في الفقرات السابقة يظهر تهافت تمحلاته ومحاكماته تفصيلا . وتصل الغثاة وسوء الادب الى أدنى الدركات في صادق العظم إذ يقول أيضا في سياق كلامه : إن صفات الله البارزة في القرآن هي (المكر والكيد والتخويف) لأنه يعنى عن أسماء الله وصفاته المبثوثة في القرآن التي تتضمن مقاصده السامية في خلقه البارة الرحيمة الرؤوفية ، وما يغدقه عليهم من رعاية وعناية ، والتي ينتفي بها أي معنى من معاني المكر والكيد والخداع من الله بعباده والتخويف الجزافي لهم مثل (الرحمن الرحيم القدوس السلام الغفار الوهاب الرازق الرزاق الفتاح الحكيم العدل اللطيف الخليم الغفور المجيب الواسع الحكيم الودود الحق الولي الحميد الناصر النصير المولى البر التواب العفو الرؤوف الرشيد الصبور) ولأنه يعنى عن آيات كثيرة يقرر الله فيها أنه بعباده رؤوف رحيم ، وأنه رحيم ودود ، وأنه غفور حلیم شكور . كما ترى في الآيات التالية التي لها أمثال كثيرة :

- ١ - يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ .) آل عمران : ٣٠
- ٢ - (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ .) الانعام : ٥٤
- ٣ - (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ .) الانعام : ١٤٧

- ٤ - (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .) الاعراف : ١٥٥
- ٥ - (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .) التوبة : ١١٧
- ٦ - (وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِعُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ..) هود : ٩٠
- ٧ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ .) الرعد : ٦
- ٨ - (وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ .) النحل : ٧
- ٩ - (وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ..) الكهف : ٥٨

- ١٠ - (إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ ..) الحج : ٦٥
- ١١ - (وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .) النور : ٢٠
- ١٢ - (لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ .) فاطر : ٣٠
- ١٣ - (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .) الزمر : ٥٣
- ١٤ - (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ..) النجم : ٣٢

- ١٥ - (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ

اللَّهُ بِكُمْ لَرُؤُوفٍ رَحِيمٍ (١٠) الحديد : ٩

١٦ - (إِنَّ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ..)

التغابن : ١٧

ولقد وصف الله نفسه في القرآن في القرآن بالعزیز ذي الانتقام ، إلا أن الآيات التي جاء فيها هذا الوصف صريحة الدلالة على أن الانتقام الرباني هو ممارسة معاقبة المجرمين الآثمين على جرائمهم وآثامهم ، وليس جزافا واعتباطا كما ترى فيما يلي :

١ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) (آل

عمران : ٤

٢ - (عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) (المائدة :

٩٥

٣ - (فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (

الاعراف : ١٣٦

٤ - (وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ . فَلَا

تُحْسِنُ اللَّهُ مُحْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ) (ابراهيم : ٤٦ و ٤٧

٥ - وَمَنْ أَظْلَمُ ، مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ) (

السجدة : ٢٣

٦ - (وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ . أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ

أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ) (

الزخرف : ٣٩ - ٤١

وقد تعامى صادق العظم كذلك عما في القرآن من عشرات الآيات التي فيها تبشير وتطمين وترغيب بالاضافة الى ما فيه من تلك الصفات والأسماء الالهية البارة الرحيمة كما ترى فيما يلي مما له أمثال كثيرة :

١ - (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .)

البقرة : ٢٥

٢ - (وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ . الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ .) النحل : ٣٠ - ٣٢

٣ - (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .) الزمر : ٥٣

٤ - (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزِّلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ . وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ .) فصلت : ٣٠ - ٣٣

٥ - (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ..) الشورى : ٢٢ و ٢٣

ولقد كان من عظيم سعة رحمة الله وحكمته وعدله أن وعد عامل الحسنه بأضعاف أجرها في حين قرر أن عامل السيئة لا يجزى إلا بمقدارها كما ترى في هذه الآيات :

١ - (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ..) النساء : ٤٠

٢ - (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .) الأنعام : ١٦٠

٣ - (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .) القصص : ٨٤

والناظر في الآيات القرآنية يجد أن ما فيها من تنديد وإنذار ، ووعيد وشدة وقسوة إنما هو ضد الكافرين الظالمين المنحرفين الصادقين عن سبيل الله المرتكسين في الفواحش والآثام ، أو بسبيل التحذير من هذه الأفعال ، وإصلاح الانسان وتنبيهه . والآيات في ذلك كثيرة جداً ومثبتة في مختلف السور ، وهذه أمثلة منها :

١ - (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .) البقرة : ١٧٤

٢ - (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْجِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادِ .) البقرة ٢٠٣ - ٢٠٦

٣ - (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا . إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا .) النساء : ١٦٨ و ١٦٩

٤ - (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ .) المائدة : ٣٣

٥ - (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ .) الرعد : ٢٥

٦ - (وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ

غليظ .) ابراهيم : ١٥ - ١٧

٧ - (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ بِالْحَقِّ رِيزُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهَانًا .) الفرقان : ٦٨ و ٦٩

وكل ما تقدم يظهر تمحل صادق العظم ، وسوء استيعابه للقرآن ، وسوء فهمه وتأويله ، وسوء ادبه معا . ولقد أعماه كل هذا بالاضافة الى عماه الخاص إزاء مدى النصوص السابقة وسياقها عن الحقيقة القرآنية الكبرى التي تتمثل في ان القرآن ورسالة الرسول الذي أنزل عليه القرآن يدوران على صلاح الانسان وسعادته وخيره ونجاته ، وحته على التمسك بأسباب ذلك والتحذير والانذار لمن يقصر فيه مما لا يصح معه ان يرد لعقل عاقل ذي ذوق وأدب وفهم ولو كان ملحداً ان يستنتج من بعض العبارات القرآنية أن الله تعالى يريد او أراد لعباده الضلال والضرر والشر والهلاك والانحراف ، وأنه يكرهم ويكيد لهم . تنزه وتعالى عن ذلك .

وفي القرآن ظاهرة مهمة في صدد ذلك ، عمي عنها العظم وهي ظاهرة فتح باب التوبة لكل كافر ومجرم ومنافق ، والرغبة في إتاحة الفرصة له لفتح صفحة جديدة ، وإصلاح نفسه وسلوكه إزاء الله والناس ، بحيث يكون ذلك الاستنتاج هراء ، وقلة ذوق وأدب أكثر منه أي شيء آخر ، وهذه طائفة من الآيات تمثل تلك الظاهرة البارة الرحيمة :

١ - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا . مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا .) (١) النساء : ١٤٥ - ١٤٧

(١) نلفت النظر الى روعة الآية الاخيرة ومداهها البليغ .

٢ - (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .) المائدة : ٣٣ و ٣٤

٣ - (فَإِذَا أَسْلَحَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ . كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وِلَايَةَ يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . اشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَايَةَ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .) التوبة : ٥ - ١١

٤ - (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَغْنَاهُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ . فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ..) التوبة : ٧٤

٥ - (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ

عُفُوراً رَحِيماً . (١) الفرقان : ٦٨ - ٧٠

٦ - وفي القرآن آيات قد تدخل في باب ما تقدم ، وقد رأينا أن نورد نماذج منها ، ونعلق عليها بما نرجو أن يكون الحق والسداد ، ويزيل ما قد يحيك في صدر أحد من وهم وتوهم في صدها :

(أ) من ذلك جملة :

(كَذَلِكَ زَيْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ...) الأنعام : ١٠٨

التي يوهم ظاهرها أن الله عز وجل هو الذي يزين للناس ما يفعلونه فيقدمون عليه نتيجة لذلك ولو كان شرا وسوءا وإنه لو لم يزينه لهم لما فعلوه .

وعلى ضوء المحكمات القرآنية التي شرحناها في صدد كسب الناس لأعمالهم وكونهم غير مقسورين عليها لامناص من تأويل الجملة بأنها تضمنت تقرير ناموس اجتماعي ، وهو استحسان الناس لما يفعلون ويكونون عليه من مواقف ، وتكون الجملة أسلوبية ، وليست تقريرية ، وقد يؤيد هذا تنمة الآية وهي :

(ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .)

حيث نسب فيها الأعمال الى أصحابها ، فصاروا مسؤولين عنها أمام الله ليحاسبهم عليها حينما يرجعون إليه يوم القيامة . كما يؤيده أول الآية وهي :

(وَلَا تَسْبُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ .) الأنعام : ١٠٨

حيث تقرر الجملة نسبة الدعاء من دون الله الى من يفعل ذلك ، ويؤيده كذلك السياق السابق للآية وهو :

(قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ . وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ

(١) هناك آيات أخرى في التوبة فاكتفينا بما تقدم .

إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ . وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ . (الأنعام : ١٠٣ - ١٠٧)

حيث تقرر أن الناس أمام ما جاءهم من بصائر في خيار من الابصار والعمى ، وأن تبعة اختيارهم عائدة إليهم ، وأن الله لو شاء لما أشركوا ، ولكن حكمته اقتضت تركهم لاختيارهم لتكون لهم ، وعليهم التبعة عدلا وحقا .

(ب) ومن هذا الباب آية سورة النمل هذه :

(إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ .) ٤

ويقال في صدها ما قلناه في صدد آية الانعام السابقة ، والآية التي بعدها تؤيد ذلك ،

وهي :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ .) النمل : ٥

حيث تتضمن تقرير مسؤوليتهم عن عملهم وموقفهم ، وترتيب ما يقتضيه هذا الموقف والعمل من عقاب ، ولا يصح أن يكون هذا إلا بتأويل مماثل لتأويلنا لجملة سورة الانعام ، والآيات التي قبلها تؤيد ذلك أيضا وهي :

(تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ . هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ .) النمل : ١ - ٣

حيث تضمنت نسبة الايمان والصلاة والزكاة والايقان بالآخرة للمؤمنين الذين يكون

كتاب الله لهم هدى وبشرى خلافاً للذين لا يؤمنون بالآخرة ..

وهي من ناحية من باب (وَمَا يُضِلِّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) فالتزيين هو لجاحدي الآخرة

الذين أو عملوا من عمل ما يريدونه من آثام بدون وازع ولا خوف من عاقبة ..

(ت) ومن ذلك آية سورة الانعام هذه :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ

زُحِرْفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَّهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ . (١١٢)

وعلى ضوء المحكمات التي شرحناها في صدد كسب الناس لأعمالهم ومواقفهم تكون الآية أسلوبية ، وبسبيل تقرير ناموس اجتماعي أيضا ، وهو أنه حينما يأتي نبي أو رسول قوما ينبري له الطغاة والعتاة فيناوئونه ويكونون له أعداء . لأنه لا يصح أن يقال : إن الله قد حرص شياطين الانس والجن على عداء رسوله ، والشطر الثاني من الآية يؤيد هذا التأويل بقوة ، حيث تضمن وصفهم بالافتراء ، أي : نسبة الافتراء اليهم ، وتسلية للنبي ﷺ من جهة أخرى ، فعليه أن لا يعبأ بموقفهم ، ولو كان الله يريد قسرهم لما وقفوا هذا الموقف ، ولكن حكمته اقتضت تركهم لاختيارهم حتى يستحقوا ما يترتب عليه . والآية التي جاءت بعد هذه الآية تؤيد هذا التأويل أيضا وهي :

(وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ .) الانعام : ١١٣

حيث احتوت تسلية للنبي ﷺ أيضا ، فهذا الموقف لا يقفه ولا يصغي اليه ويرضى به ويندمج فيه إلا الذين لا يؤمنون بالآخرة ، فليفعلوا ما اختاروا ، وليس من سبب لاغتمام النبي ﷺ بذلك . وقد نسب كل ذلك الى أصحابه ، ويستمر السياق في تسلية النبي ﷺ ، وتأيد موقفه ، حيث جاء بعد ذلك :

أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتَغَى حِكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ . إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ .) الانعام : ١١٤ - ١١٧

وبعضهم يقتصر على ايراد جملة (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ) من الآية لحدثها للاعتذار عما يقع منهم أو من الناس من آثام وذنوب واخطاء. والجملة كما هو واضح جزء من آية فلا يصح

أن نورد لحدثها وحينما تعرض الآية جملة واحدة كما اقتضت يبدو الحق وينسد باب الاعتذار . ولقد حكى القرآن اعتذار المشركين عن شركهم بمثل هذه الحجة وردّها عليهم رداً صحيحاً على ما شرحه قبل قليل .

(ث) ومن باب ذلك سورة الفرقان هذه :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا .) ٣١

وهذه الآية مثل آية الانعام السابقة بسبيل الإشارة الى ناموس اجتماعي هو مبادرة الطغاة بالعداء لرسول الله ، ولا يصح تأويلها بغير ذلك ، لأن الله يتنزه عن أن يحرض أحداً على أنبيائه ، ويحرشهم بالعداء لهم ، وسياق الآية قبلها وبعدها مؤيد لذلك كما ترى فيما يلي :

(وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا . يَا وَيْلَتَنِي لِمَ أَتَّخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا . وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا . وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا . الَّذِينَ يُخَشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ..) ٢٧ - ٣٤

والسياق واضح بأنه في صدد مواقف المجاحدين للدعوة النبوية وتثبيد بهم وإنذارهم ، وتسلية للنبي ﷺ في الوقت نفسه ...

(ج) وقد يكون من هذا الباب عبارات فيها نسبة تسليط الله الشياطين على الناس كما ترى في هذه الآيات :

١ - (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ .) الاعراف : ٢٧

٢ - (أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا .) مريم : ٨٣

٣ - (وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ، فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي

أَمْرٍ قَدْ حُلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ..) فصلت : ٢٦

٤ - (وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ .) الزخرف : ٣٦

والله تعالى يتنزه عن تسليط الشياطين على عباده اعتباطاً ، والمحكمات القرآنية تقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ولا يظلم الله أحداً مما مرت نصوصه قبل بحيث يصح القول : إن العبارات أسلوبية ، وليست تقريرية . وفي العبارات صراحة بأن الذين عندهم منحرفون جاحدون أصلاً ، ومن باب (ولا يضل به إلا الفاسقين) وبحيث يصح القول : إنها بمثابة توبيخ وتنديد وعقاب لهم ، وتنبيه للسامعين حتى يراجعوا ويرتدعوا .
ويزيد هذا توضيحاً وتوكيداً سياق العبارات . فقد جاء في سياق آية سورة الاعراف :

(يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ . فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .) ٢٧ - ٣٠

وجاء في سياق آية سورة مريم :

(أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا . أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا . كَلَّا سَكَتُكَ مَا يَقُولُ وَوَدَّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا . وَتَرَاهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا . وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا . أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا . فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ

٧ - ومن تمحلات صادق العظم قوله : (إن المسلمين المعاصرين ينسون ظروف حث القرآن على العلم واستعمال العقل ، وكون ذلك إنما هو لعلم الدين ، واستكشاف آلاء الله من الكون وحسب ، وإن المعرفة الدينية تختلف كل اختلاف عن المعرفة العقلية والعلمية ، وإن معرفة المسلمين الأولين إنما كانت في المجال الديني ، وينسب الى الغزالي قوله : إن المراد بالعلم في القرآن هو العلم الديني) .

وهذه الاقوال مرسله على عواهنها من نواح عديدة ، وناجئة عن عدم استيعاب العظم للقرآن وإغفاله أو غفلته عما كان من جولات المسلمين الأولين في مختلف مجالات العلوم العقلية والمادية المذهلة التي لا يمكن أن يكون العظم لم يقرأ عنها. فقد يكون في القرآن آيات معنى العلم فيها هو علم الدين ، ومدى الحث على استعمال العقل فيها هو لاستكشاف آلاء الله ، غير أن فيه آيات عديدة لا يخفى كون العلم فيها ، والحث على استعمال العقل فيها هما في صدد شؤون الحياة الدنيا على اختلاف أنواعها .

ففي سورة النساء هذه الآية :

(وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) . (٨٣)

وهذا الأمر هو في صدد الحرب وسياسة الحرب وظروفها ، والعلم به علم بشأن من شؤون الدنيا ، واستنباطه هو عمل عقلي وعلمي معاً ، وفي سورة الروم هذه الآية :

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَاوِيكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ) . (٢٢)

(١) ومثل هذا التوكيد والتوضيح في سياق آيتي فصلت والزخرف أيضا فاقرا آيات سورة فصلت ١٩ - ٢٩ وآيات سورة الزخرف ١٥ - ٤٥ وقد اكتفينا بما أوردناه لأن فيه الكفاية للدلالة .

والمتبادر أن العالمين (بكسر اللام) هم العالمون بسنن الخلق والاجتماع لأن هذا هو الذي يمكن أن يصح في مدى الآية ، فالعلماء في ذلك هم الذين يفهمون مدى هذه السنن في اختلاف الألوان والالسننة . ومعنى هذا أن القرآن يفرض وجود علماء من هذا النوع ويطلب منهم استكشاف آلاء الله بعلمهم هذا ، ولكنه لا يجعل هذا الاستكشاف هو عملهم وهدفهم وحسب ، ومعنى هذا كذلك أن القرآن يبحث على مثل هذا العلم لذاته أيضاً ، والمسلمون مخاطبون بذلك بطبيعة الحال ، ومن هذا الباب آيات سورة فاطر هذه :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يُخَشِئُ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ .) ٢٧ و ٢٨

فالمتبادر أن العلماء في الآية هم العلماء في سنن الخلق والكون والطبيعة الأرضية والسماوية الذين يستطيعون لمح أسرار الابداع الرباني فيها أكثر من غيرهم فيمتمثلون إيماناً وخشية ، وهذا ما يقع كل يوم من عظماء كثيرين في علوم الفلك والطب والكيمياء والحياة والحيوان والنبات والفسيولوجيا والمبيولوجيا والذرة الخ الخ .

ونقول ما قلناه قبل : إن القرآن يفرض وجود مثل هؤلاء العلماء ، ولا يجعل عملهم وهدفهم هو استكشاف آلاء الله وحسب ، وفي التنويه القرآني بهم حث للمسلمين على أن يكون فيهم مثل هؤلاء العلماء للعلم ذاته أيضاً . وفي سورة العنكبوت هذه الآيات :

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِيتَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ .) ٤١ - ٤٣

والمثل المضروب هو من مشاهد الخلق الحيوانية فيكون المقصود بالعلماء الذين يعقلون

أمثال الله في القرآن هم علماء دنيويون ، وليسوا علماء دينيين ، وفي التنويه القرآني حث على أن يكون بين المسلمين علماء من هذا النوع . وفي سورة البقرة هذه الآية :

(وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ...) ١٠٢

فالعلم والتعلم والتعليم في الآية في أمر دنيوي ، وليس في أمر ديني ، وآيات سورة العلق هذه :

(إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ..)
عامة شاملة لشؤون الدين والدنيا معاً كما هو المتبادر ، فيكون فيها حث للإنسان ، وبالتالي للمسلم على التحقق بذلك .

هذا في صدد العلم ومعناه في القرآن ، وفي صدد العقل ورد في القرآن آيات عديدة منها آيات سورة الحج هذه :

(فَكَأَيُّ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ . أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ...) ٤٥ و ٤٦

فالمراد أن يعقله المخاطبون المندد بهم ليس استكشاف آلاء الله ، وإنما استكشاف أحوال الأمم وأخبارها ومصائرهما ، ومثل ذلك آية سورة العنكبوت هذه :

(وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ...) ٣٥

وآيات سورة الصافات هذه :

(وَإِنَّ لَوْطًا لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ . وَإِنَّكُمْ لَتَمُوتُونَ عَلَيْهِمْ مُمْسِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .) ١٣٣ -

٣٨ وفي سور البقرة هذه الآية :

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .) ٤٤

وليست هذه الآية في صدد الحث على استكشاف آلاء الله ، وإنما هي في صدد الحث على إدراك النقيصة الأخلاقية المندب بها ، ومثل ذلك آية سورة آل عمران هذه :

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحَاجُّونَ فِي أَبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .) ٦٥

وفي القرآن آيات عديدة من باب ما أوردناه في صدد العلم والعقل من التطويل إيرادها جميعها ، وكفى بما أوردناه ، فانه يكفي لاثبات عدم استيعاب صادق العظم ، وإرساله الكلام على عواهنه . ويحسن أن ننبه على أمر هام في هذا الصدد ، فالقرآن أمر الناس والمسلمين بأمر كثيرة في شؤون الدنيا من حرب وجهاد وإعداد واستعداد وزكاة ومعاهدات واستخلاف في الأرض ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وكتابة الديون ، والاعمال التجارية الخ الخ من مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمعاشية والفكرية . والله يعلم أن القيام بذلك وممارسته لا يمكن أن يتما إلا بالعلم ، واستعمال العقل بطبيعة الحال ، فيكون القرآن والحالة هذه قد حث عبر ذلك على العلم ، واستعمال العقل في شؤون الحياة الدنيا .

وقد يكون قول صادق العظم : إن المعرفة الدينية تختلف عن المعرفة الدنيوية صحيحاً موضوعياً . غير أن المسلمين الاولين لم تقتصر معرفتهم على الناحية الدينية كما هو ثابت يقيناً حيث كان منهم العلماء في أمور الدين والعلماء في أمور الدنيا ، ومنهم من جمع بين

ذلك ، وكل منهم جال في علمه جولات عظيمة آثارها مدونة في الكتب ، وقائمة في ممارسات الانسانية ، ولا يكابر في هذا إلا أحمق ، وهؤلاء إنما كان ذلك منهم ، لأنهم فهموا من القرآن أنه حث على العلم والعقل في شؤون الدنيا ، وفي شؤون الدين معاً .

وما عزاه العظم الى الغزالي لا يتحمل القرآن والحالة هذه مسؤوليته ، على أن للغزالي في (الاحياء) فصلاً طويلاً عن العلم ، قرر فيه أن طلب المسلمين لعلوم الدنيا من طب وهندسة وحساب وصناعة الخ فرض كفاية إذا لم يقيم به جماعة منهم أثم جميعهم ، ولا يمكن أن يكون ذلك من الغزالي إلا وهو يعلم أن القرآن حث على علوم الدنيا والدين معاً ، وهذا سيسغ القبول : إن صادق العظم لم يستوعب كل أقوال الغزالي أيضاً .

٨ - إن كثيراً من المسلمين يوردون الجملة القرآنية :

(وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ .)

في آية سورة آل عمران (٧٢) على انها أمر رباني للمسلمين ، مع أنها جزء من كلام فريق من أهل الكتاب يوصي به بعضهم بعضاً كما ترى فيما يلي :

(وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ أَهْدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ..) ٧٢ - ٧٤

وفي الآيات موقف تأمري يهودي ضد المسلمين والنبي ﷺ حيث تواصلوا على أن يتظاهروا بالايان ، ثم يعودوا فيكفروا ليشككوا المسلمين بالرسالة النبوية ، وحيث تواصلوا أن لا يركنوا إلا لبعضهم ، وأن لا يطلعوا أحداً من المسلمين على ما عندهم من شواهد مصدقة لرسالة النبي ﷺ حتى لا يحاجوهم بها . وفي الجملتين : (قُلْ إِنَّ أَهْدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ) و (قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ) أمر رباني للنبي ﷺ فيه تعقيب على موقفهم التأمري وفضح لهم

أما المسلمون ، ففي القرآن آيات أخرى تنظم الحالة بينهم وبين غيرهم ، من أهمها وأحسمها ومحكمها آيات سورة الممتحنة هذه :

(عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ .) (١) ٧ - ٩

٩ - إن كثيراً من الناس يأخذون جملة (وقاتلوا المشركين كافة) في آية سورة التوبة (٣٦) منفردة ، ويصفونها بأنها آية السيف ، ويقولون : إنها نسخت كل ما جاء في القرآن من عدم قتال غير المعتدين ، وغير المقاتلين من المشركين ، وبذلك ينسفون آيات محكمة في هذا الصدد ، ومع أن في الآية فقرة أخرى مرتبطة بها أشد الارتباط ، ومحتوية لتعليل رائع معقول متسق مع طبيعة الأمر الذي تضمنته بقتال المشركين كافة وهي : (كما يقاتلونكم كافة) فلو لوحظ ذلك ولم تجزأ لما كان محل لذلك التفسير والوصف والقول حيث يبدو واضحاً أنها في معرض حث المسلمين على قتال المشركين المحاربين مجتمعين وإلباً واحداً كما يقاتلونهم كذلك ، ولزال الاشكال الذي ينشأ عن هذا لتفسير ، ويؤدي الى نسخ احكام وآيات محكمة متسقة مع مبادئ القرآن ومثله السامية ، ومع طبائع الامور ووقائع السيرة النبوية المؤيدة بالآيات من جهة ، وبالأحاديث من جهة أخرى ، ونعني حصر القتال في الاعداء المقاتلين والمعتدين على الاسلام والمسلمين بأي شكل دون المشركين والكفار

(١) في آيات سورة : ١٩١ و ١٩٤ و ٢٥٦ ، وال عمران ٢٨ ، والنساء ٨٨ - ٩١ - ٩٤ ، والمائدة ٥١ - ٥٨ ، والنوبة ١ - ١٦ ، والممتحنة ١ - ٣ ضوابط أخرى ، ونذكر بما ذكرناه قبل من أن القرآن قد جعل الدعوة الى الاسلام في نطاق الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وترك غير المسلمين وشأنهم في أديانهم إذا ما كانوا مسلمين موادين للمسلمين كافين عنهم ألسنتهم وأيديهم . وكل هذه ضوابط عامة أيضاً .

والمعاهدين الموفين بعدهم والمحايدين والمسالين والعاجزين والنساء والاطفال مما يقتضي قتالهم جميعا حسب ذلك التفسير .

وبعضهم ويصفها بآية السيف ، سورة التوبة الى هذه الجملة ، ويصفها بآياته السيف ، ويذهب الى انها مثل تلك نسخت كل ما عداها ، وأوجبت قتال المشركين بدون استثناء الى أن يسلموا . وهي هذه :

(فَإِذَا أَسْلَحَ الْأَشْهُرُ الْحَرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَقَعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

ومنهم من يستند في رأيه هذا الى آيات سورة براءة الاولى هذه :
(بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي الْكَافِرِينَ . وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (١ - ٣)
في حين أنه جاء بعد هذه آية تستثني الذين بينهم وبين المسلمين عهد لم ينقضوه بآية صورة وهي :

(إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) .

ثم جاءت بعدها بقليل آية فيها استثناء آخر غير محدد بمدة وهي :
(كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧)
فلو لوحظ السياق جميعه من الآية الاولى الى الآية الخامسة عشرة من السورة وهو

متربط منسجم لظهر القصد منه وهو أن البراءة هي من المشركين الناكثين لعهدهم وإيجاب القتال هو بالنسبة لهؤلاء وحسب ، ثم للمعتدين منهم بدءاً دون غيرهم إذا كانوا كافين السننهم وأيديهم عن الاسلام والمسلمين ولظهر التساوق التام بين التقريرات والمبادئ القرآنية .

١٠ - إن بعض المبشرين والمستشرقين يستندون الى بعض آيات القرآن التي فيها تقرير كون الله أنزل القرآن على النبي ﷺ لينذر أم القرى ومن حولها كما جاء في آية سورة الانعام هذه :

(وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ...)

٩٢

وآية سورة الشورى هذه :

(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ..) ٧

أو التي فيها خطاب لقوم النبي ﷺ مثل هذه الآيات :

١ - (وَهَذَا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ

الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ .) الانعام : ١٥٥ و ١٥٦

٢ - (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

رَؤُوفٌ رَحِيمٌ .) التوبة : ١٢٨

٣ - (فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَأَنْتَ لَذِكْرَ لَكَ

وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ .) الزخرف : ٤٣ و ٤٤

٥ - (فَإِنَّمَا يَسِرَّتْهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .) الدخان : ٥٨

أو التي فيها تنبيه الى أن الله أنزل القرآن بلغة عربية وإنه حكم عربي مثل هذه

الآيات :

١ - (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .) يوسف : ٢

- ٢ - (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا .) الرعد : ٣٧
- ٣ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .) ابراهيم : ٤
- ٤ - (وَلَوْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ .) الشعراء : ١٩٤ و ٢٠٠
- ٥ - (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .) فصلت : ٤٤
- ٦ - (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ..) الزخرف : ٣
- ٧ - (فَإِنَّمَا يَسِرَّنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ .) الدخان : ٥٨
- ٨ - وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ .) الاحقاف : ١٢

ويقولون : إن رسالة النبي محمد ﷺ رسالة لأهل الحجاز أو للعرب وحسب . والآيات التي يستندون إليها وردت في سياق حجاج وحوار بين النبي ﷺ وقومه الذين نانو أول المخاطبين بالقرآن والدعوة ، ولو استوعب القائلون ما في القرآن من نصوص أخرى وربطوا بعضه ببعض كما هو الحق والواجب على الناظر في القرآن كما نبهنا قبل من حيث إنه كل متكامل لوجدوا في سور كثيرة أخرى آيات كثيرة تذكر بأسلوب لا يتحمل ريباً ولا تمحلاً ولا مكابرة أن هذه الرسالة عامة إنسانية للعالمين ، ولأهل الكتاب وغيرهم وللعرب وغيرهم كما ترى في هذه الآيات مثلاً :

- ١ - (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ . وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ..) البقرة : ٤٠ و ٤١
- ٢ - يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ

سُبِّلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .
المائدة : ١٥ و ١٦

٣ - (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .) المائدة : ١٩
٤ - (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .)
الأعراف : ١٥٧ و ١٥٨

٥ (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .) النحل : ٦٣ و ٦٤

٦ - (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ .) الأنبياء : ١٠٧

٧ - (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا .) الفرقان : ١

٨ - (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .)

سبأ : ٢٨

يضاف الى هذا آيات سورة التوبة والفتح والصف التي تذكر أن الله أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله مما يعني أن الله قد اقتضت حكمته أن يظهر هذا الدين على سائر الأديان ليكون دين الانسانية العام ، وهذا يعني الشمول والعمومية وهي هذه :

١ - (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .) التوبة : ٣٣

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً .) افتح : ٢٨

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ .) الصف : ٦

١١ - إن بعض المسلمين يوردون جملة (ما فرطنا في الكتاب من شيء) الواردة في آية سورة الأنعام هذه

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ .) ٣٨

ويفسرون كلمة (الكتاب) بالقرآن ويقولون : إن الآية تعني والحالة هذه أن القرآن احتوى كل شيء من شؤون الخلق والكون ، ويوردون آية النحل هذه (وَتَزِيلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ .) ٨٩

سندا مؤيدا لقولهم . بل منهم من استند إلى الآيتين وحاول أن يستخرج من آيات القرآن نظريات علمية وفلكية ، وهناك من غلا أكثر فحاول أن يستخرج من آيات القرآن وحروفه أسراراً مغيبة ، وتمسك الملحدون بأقوال هؤلاء فانبروا ينتقدون ويسخرون ويكذبون ، وفي كتاب صادق العظم (نقد الفكر الديني) نماذج من ذلك .

وقد يكون الانتقاد في محله موضوعياً ، ولكن القرآن لا يتحمل مسؤولية إساءة الفهم والتأويل ، والغلو في التخمين والتزيد ، وكلمة (الكتاب) في آية الانعام تعني علم الله المحيط بكل شيء بدلالة آيات أخرى كما ترى فيما يلي :

١ - (وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ

مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابَسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (. الانعام : ٥٩

٢ - (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (. يونس : ٦١

٣ - (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (. هود : ٦

٤ - (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى . قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (. طه : ٥١ و ٥٢

٥ - (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (. الحج : ٧٠

٦ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (. فاطر : ١١

٧ - (وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (. النبأ : ٢٩

والكتاب في الآيات رمز لعلم الله على الاسلوب المألوف عند البشر من أن ما يكون مكتوباً في كتاب لا ينسى ولا يجهل ، ولوانته القائلون الى هذه الآيات وما فيها من مماثلة لآية الأنعام (٣٨) موضوع النبذة لما قالوا ما قالوه .

أما آية النحل (٨٩) فإنها بسبيل تقرير كون القرآن أحتوى تبياناً لكل أمر ضروري من أمور الدين والدنيا وحسب دليل حاسم هو أن القرآن سكت عن تفصيل كثير من هذه الامور ، وسكت عن كفيات الصلاة والزكاة والحج والحكم والقضاء والمسائل المالية ، وعن كثير من جزئيات الموارث والاطعمة والاشربة والملابس مما تكفلت ببيانه السنة النبوية . وحتى لو سلمنا جديلاً أن كلمة (الكتاب) في آية الانعام تعني (القرآن) فبأن يجعل تأويلها

بكونها أريد بها تقرير كون الله ما فرط في الكتاب من شيء مما هو ضروري للدين والدنيا هو الأولى المتسق مع هذا الدليل الحاسم .

ولا نفرد بما نقول ، فإن اعلام المفسرين قديماً وحديثاً قرروه ايضاً مثل الطبري وابن كثير والقرطبي والزنجشري والبغوي والطبرسي والقاسمي ورشيد رضا وغيرهم ، وقد حمل الاخير بخاصة على من يزعم ان القرآن أحتوى علوم الأكوان وقال : إن هذا لا يقبله عقل ، ولا يهدي إليه نقل ، ولم يقل به أحد من الصحابة ، ولا علماء التابعين ولا غيرهم من علماء السلف الصالحين .

١٢ - إن الملحدين يسوقون ما في القرآن من آيات فيها نعي على الدنيا ومتاعها ، وتزهيد بها ، ويقولون : إن الاسلام يأمر بنفض اليد من الحياة الدنيا ، والاستغراق في أمور الآخرة ، وإن هذا مؤد إلى الاستكانة والاستسلام والتخلف ، ويشيرون الى واقع المسلمين المتخلف حقاً كدليل على ما يقولون .

وهذا من سوء الفهم والتأويل ، وعدم استيعاب المدى القرآني ، والأسباب الأخرى التي أدت إلى تخلف المسلمين مما لا يتحمل القرآن مسؤوليته .

وفي سياق كل آية في القرآن من ذلك الباب حض على الجهاد والتضحية والاقدام والتقوى والمكرمات والاعمال الصالحة ، وبكلمة ثانية تدعيم للدعوة الاسلامية ، وعزة الاسلام والمسلمين وقوتهم وصلاتهم ، وتحذير من جعل حب الحياة والشهوات سبباً مانعاً للاقدام على بذل النفس والنفيس في سبيل ذلك . وفيما يلي أمثلة مؤيدة وموضحة :

١ - (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ آتَقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ . . . الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ . الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ

وَالْقَانَتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ .) آل عمران : ١٤ - ١٧

٢ - (الَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ..) النساء : ٧٧

٣ - (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .) التوبة : ٢٤

٤ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَثَأَقَلْتُكُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .) التوبة : ٣٨ و ٣٩

٥ - (وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا . الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا .) الكهف : ٤٥ و ٤٦ .

٦ - (فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا عَلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكُمُ أَعْمَالَكُمْ . إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ . إِنْ يَسْأَلْكُمْ فِي خُفْيَةٍ^(١) تَبَخَّلُوا وَيَخْرُجْ أَصْغَانَكُمْ . هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ

(١) لا يسألكم جميع أموالكم لانه يعلم أن ذلك صعب عليكم ولكنه يأمركم أن تنفقوا منها في سبيل الله .

اللَّهُ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ..) محمد : ٣٥ - ٣٨ .

٧ - (إِنَّ الْمُصْذِقِينَ وَالْمُصْذَقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ . أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ . سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ . مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .) الحديد : ١٨ - ٢٤ .

ومدى التقوى التي حثت عليها بعض الآيات هو الحرص على التزام أوامر الله ، واجتناب نواهيه اتقاء لغضبه ، وأوامر الله ونواهيه شاملة لكل ما هو صالح وفيه صلاح للانسان من أمور الدنيا والدين .

وجملة (الباقيات الصالحات) في آية الكهف ذات مغزى عظيم حيث تنبه السامع إلى أن الذي يبقى أثره ونفعه للانسان في الدنيا والآخرة هو الأعمال الصالحة ، وهذه تشمل كل ما هو خير ونافع من أمور الدنيا والدين .

والأمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ، يعني : الأمر بالحرص على التزام أوامر الله ونواهيه الشاملة لكل ما هو صالح وصلاح للانسان من أمور الدنيا والدين .

ويغفل الملحدون عما في القرآن من آيات كثيرة فيها إباحة للطيبات وزينة الحياة الدنيا والاستمتاع بها ، ومنها آية في سورة الاعراف ذات مغزى عظيم تنكر تحريم ذلك وهي :
 (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ تَفْصِلُ آيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .) ٣٢
 وتفيد الآية والله اعلم أن الله أباح للمؤمنين الزينة وطيبات الحياة مع الناس وفي الآخرة لهم خالصة وقد جاء بعدها بيان لما حرم الله .

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .) ٣٣
 ومن ذلك آية سورة الاعراف هذه :

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .) ١٥٧ .
 ومن ذلك آية سورة النور هذه :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ .)

٥٥

وهذا منتهى ما يمكن من توثيق رابطة المسلمين بالحياة الدنيا ، وشغلهم بها ، ومن ذلك آية سورة لقمان هذه :

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .) ٢٠

وفيها حث على الانتفاع بكل ما سخر الله ، وأسبغه من مظاهر الطبيعة والنعم ، ويغفلون الى هذا عما في الآيات الواردة في صدد وجود الانسان في الحياة ، وخلافته لله في الأرض ، واعماله واخلاقه الشخصية والاجتماعية. وتكرمه وعلاقته بالمجتمع والأفراد . تلك العلاقة المتتابعة المتعددة النواحي التي تقتضي منه سعياً وجهداً وتفكيراً وعملاً حيث لا يلبث الذين يمعنون فيها أن يمتثلوا بالحقيقة الكبرى ، وهي أن تعاليم القرآن تجعل هذه الخلافة والأعمال والأخلاق والعلاقة ، وبالتالي هذه الحياة موضوعاً جوهرياً من مواضيعها ، وتعتبر اصلاح الانسان في أخلاقه الشخصية والاجتماعية وإصلاح المجتمع الانساني ، وتوجيهها الى الخير والكمال هدفاً رئيسياً من أهدافها ، وتتخذ الحياة الأخروية وما فيها من حساب وثواب وعقاب وازعاً للانسان يزعه عن الشر والاثم ، وحافزاً يحفزه على الخير والبر والعدل والحق والاحسان والتعاون والاصلاح بالاضافة الى حقيقتها الايمانية ، وما في ذلك من حكمة ربانية في أن تكون هذه الحياة تنمة للحياة الدنيا يوفى فيها الناس جزاء أعمالهم في الدنيا خيراً كانت أم شراً .

ولقد سمع نفر من أصحاب رسول الله ﷺ ثناء القرآن على القسيسين والرهبان في آية في سورة المائدة جاء فيها (ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَسِيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ .) ٨٢ فعزموا على الحذو حذوهم ، وتحريم الطيبات على أنفسهم ، ومواصلة الصيام ، وقيام الليل ، فانكر ذلك عليهم رسول الله ﷺ كما جاء في حديث صحيح . حيث روي أنه قال لهم «إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وإني لأقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وانكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو من أمتي ، ومن رغب عن سنتي فليس مني .» ثم انكر القرآن ذلك في هذه الآيات :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ، وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ .) ٨٧ -

١٣ - في كتب التفسير روايات كثيرة تورّد كأسباب لنزول آيات أو آية أو جزء من آية في سياق في حين أن السياق وفحواه لا يتفقان مع الرواية كسبب للنزول ، أو قد لا يتطابقان تطابقاً تاماً مع الرواية ، أو قد يلهان أن الآيات أو الآية أو جزء الآية التي تروي الرواية كسبب لنزولها منسجمة انسجماً تاماً في السياق الذي قبله أو الذي بعده ، وكل ما يمكن فرضه في أمر الرواية في حال وثوقها وتطابقها مع فحوى ما ذكر أنها نزلت بسببه أن تكون أوردت على سبيل الاستشهاد على حادث ما وقع بعد نزولها أو يكون الحادث قد وقع قبل نزولها بمدة ما ، فجاءت الإشارة إليه في السياق العام الذي أتت فيه الآيات أو الآية أو جزء الآية على سبيل التشريع أو التذكير أو التنديد أو التنبيه أو العظة الخ فالتبس الأمر على الراوي ، وظن أن الحادث هو سبب النزول .

فقد روي مثلاً عن أبي مسعود قوله : (كنا أمرنا بالصدقة ، فكنا نتحامل) (١) ، فجاء أبو عقيل بنصف صاع ، وجاء إنسان باكثر منه . فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة أبي عقيل ، وإن ما فعله الآخر ليس إلا رياء . فنزلت آية التوبة هذه :

(الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .) ٧٩

فالرواية توهم أن الآية نزلت منفردة بسبب هذا الموقف ، مع أنها متصلة بسياق عام سابق ولاحق أشد الاتصال ، ومنسجمة فيه أقوى انسجام ، وهو سلسلة لمواقف المنافقين ، وفيه قرائن تدل على أن الفصل الطويل الذي تقع فيه الآية والمؤلف من الآيات (٣٨ - ٩١) من سورة التوبة نزل كله أو جلّه في أثناء غزوة تبوك وظروفها وسببها وبعد ذلك المشهد الساخر للمنافقين بمدة ما ، فأشير إليه كمثّل من مواقفهم .

(١) أي : يحمل بعضنا لبعض بالاجرة ، وفي رواية : نحامل ، أي : نؤاجر أنفسنا في الحمل .

وروى البخاري عن أبي مسعود (أن رجلين من قريش وختناً لهما من ثقيف كانوا في بيت ، فقال بعضهم لبعض : أترون أن الله يسمع حديثنا ؟ قال بعضهم : يسمع بعضه . وقال بعضهم : لئن كان يسمع بعضه لقد يسمعه كله . فنزلت هذه الآية :

· (وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ .) فصلت : ٢٢

مع أن الآية متصلة بسياق يحكي فيه محاورة في الآخرة بين الكفار ، وبين أعضاء أبدانهم التي شهدت عليهم أشد الاتصال ، وليس هناك أي تطابق بين مفهوم الرواية ، وعبرة الآية وهذا هو السياق .

· (وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّىٰ ذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَقَالُوا لِمَ لَجَلْدُكُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ .) ١٩ - ٢٣

والفصول الأولى من سورة النساء من موارث وأنكحة مترابطة ومنسجمة ، والآية الأولى في السورة بمثابة براعة استهلال لما تضمنته من هذه الفصول ، وروح آيات الفصول تلهم أنها وحدة تشريعية متسلسلة في حين أن هناك روايات تكاد تجعل لكل آية مناسبة نزول مستقلة ، وتوهم أنها نزلت منفردة بسببها . ويقال هذا كله في فصول سورة الحجرات أيضاً .

ولقد روى الشيخان والترمذي أن رجلاً من اليهود قال لعمر رضي الله عنه يا أمير المؤمنين لو علينا نزلت هذه الآية (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ) لاتخذنا ذلك اليوم عيداً فقال

عمر : إني أعلم أي يوم أنزلت هذه الآية ، إنها أنزلت يوم عرفة ، في يوم الجمعة .. والنبي ﷺ لم يحج بعد الهجرة إلا حجة واحدة هي حجة الوداع في آخر سني حياته في حين أن هذه الجملة جزء من آية طويلة ، ثم جزء من سياق تكرر فيه كلمة اليوم كما ترى فيه !! .

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقُ الْيَوْمِ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .) المائدة : ٣ - ٥

بل إن المتمعن ليرى أن السياق متصل ببعضه من أول السورة ، ثم بعد الآية الخامسة أيضاً ، وفي فحوى الآيتين الأوليين من السورة قرينة قوية على أنها نزلنا بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة ، فيكون هذا واردا بقوة بالنسبة لجميع السياق ، والمتبادر أن الجملة أسلوبية يراد بها والله أعلم إكمال الله عز وجل بالوحي القرآني مسألة محرمات الذبائح التي ذكرت في أول آيات المائدة (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم) ... لأن ما جاء في الآية التي وردت فيها الجملة من تفصيل في أنواع الميتات التي لا يجوز أكلها ، وفي تحريم الاستقسام بالأزلام لم يرد قبل . لأن الذي ورد هو (تحريم الميتة إطلاقاً) والدم ولحم

وثيقة ، وفحوى الآيات وسياقها يثيران الشك القوي في صحتها ، وكل ما يمكن حسب ترجيحنا أن يكون صحيحاً من الآيات المدنية في السور المكية هو آيات سورة الاعراف (١٦٣ - ١٧٠) في حق بني إسرائيل . فقد سبقها سياق في تاريخ بني إسرائيل ومواقفهم ، فلما اقتضت حكمة التنزيل نزولها في المدينة على سبيل التشديد بمواقف بني إسرائيل إزاء الدعوة النبوية والتذكير بما كان من مواقف اسلافهم صار من المناسب وضعها في السياق . ثم الآيتان الاخيرتان من سورتي الشعراء والمزمل . فالآيات السابقة للآية الاخيرة من سورة الشعراء فيها ذم للشعراء ، فلما اقتضت حكمة التنزيل استثناء شعراء المسلمين الذين طلب منهم مقابلة شعر المشركين الهجوي ضد المسلمين ، نزلت الآية في المدينة لاستثنائهم فوضعت بعد تلك الآيات . والآيات الأولى من سورة المزمل احتوت أوامر النبي ﷺ بكثرة التهجد في الليل ، واستمر يقوم بما أمر به وتابعه في ذلك أصحابه الى العهد المدني . وقد اقتضت حكمة التنزيل التخفيف عن النبي ﷺ والمسلمين في هذا العهد ، فنزلت الآية الأخيرة ، فالحقت بالسورة للمناسبة .

أما عدا ذلك فلا يثبت على تمحيص سواء من ناحية الفحوى أم من ناحية السياق فضلاً عن سند الروايات ، ويلمح في بعضها رائحة الهوى الحزبي ، ومثالاً على ذلك آيات سورة الشورى هذه :

(ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ . أَمْ يَقُولُونَ أَفَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ .) ٢٣ - ٢٥ .

الخنزير وما أهل لغير الله به ، كما جاء في آيات البقرة (١٧٣) والانعام (١٤٥) والنحل (١١٥) والدليل على ذلك الجملة الواردة بعد ذلك وهي : (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لاثم فإن الله غفور رحيم) وقد جاءت تنمة للآية .

ولقد نزل بعد ظرف نزول هذه الآية تشريعات ووصايا كثيرة هامة وجوهرية حيث يكون شمول عبارة (اليوم أكملت لكم دينكم) لجميع امور الدين غير وارد حينما نزلت في الظرف المذكور ، وكل ما يمكن أن يكون أن النبي ﷺ تلا الجملة في خطبة الوداع ، فالتبس الامر على السامعين .

وهناك أمثلة كثيرة جداً منها ما لا يتطابق مع فحوى الآيات ، ومنها ما يكون فيه قطع لسياق متصل منسجم ، وقد نبهنا عليها في تفسيرنا (التفسير الحديث) بقدر ما استطعنا .
١٤ - ويتناسب مع هذا مسألة أخرى ، وهي أن هناك آيات في سور مكية يروى أنها مدنية ، وآيات في سور مدنية يروى أنها مكية في حين أن معظم هذه الروايات لا يثبت على تمحيص لا من حيث الفحوى ، ولا من حيث السياق ، ولا من حيث ظرف النزول ، وقد نبهنا على ذلك في التفسير الحديث أيضاً .

وعدد الآيات المدنية في السور المكية حسب ما جاء في رؤوس سور المصحف المخطوط بخط مصطفى نظيف قذوري أو غلي المطبوع من قبل عبد الحميد أحمد حنفي ، والمصدق عليه بتاريخ ربيع الثاني (١٣٥٣) من قبل اللجنة المعنية بأمر الملك فؤاد هو (١٤٧) وعدد الآيات المكية في السور المدنية سبع (١) . وفي كتب التفسير روايات كثيرة . منها ما يؤيد ما جاء في هذا المصحف ، ومنها ما ينقص منه ومنها ما يزيد عليه . ومعظم الروايات غير

(١) في سورة الحج آيات عديدة عليها طابع العهد المكي ، وبعض الروايات تسلك السورة في سلك السور المدنية ، وبعضها تسلكها في سلك السور المكية ، وقد شرحنا ذلك في التفسير ، والآيات المكية في السور المدنية ، والآيات المدنية في السور المكية التي ذكرنا عددها هي غير ما يحتمل أن يكون مكية أو مدنية في سورة الحج .

فهناك رواية في مصادر عديدة بأن هذه الآيات الثلاث مدنيات . وروى الطبرسي وهو مفسر شيعي في «مجمع البيان» نقلاً عن تفسير أبي حمزة الثمالي عن ابن عباس (أن الأنصار جاؤوا إلى النبي ﷺ بعد أن استحكم الإسلام في المدينة ، فقالوا له : إن تعرك الأمور فهذه أموالنا تحكم فيها في غير حرج ولا محذور عليك .. فنزلت الآية الأولى فقرأها عليهم ، وقالوا : تودون قرابتي من بعدي ، فخرجوا من عنده مسلمين ، فقال المنافقون : إن هذا لشيء افتراء في مجلسه أراد أن يذلنا لقرابته من بعده ، فأنزل الله الآية الثانية ، فتلاها عليهم ، فبكوا واشتد عليهم ، فأنزل الله الآية الثالثة .. هذا في حين أن الآيات الثلاث متصلة أوثق اتصال بما قبلها ما بعدها نظماً وموضوعاً ، والسياق جميعه في صدد مواقف المشركين من قوم النبي ﷺ وجحودهم وإنذارهم والتنويه بالمؤمنين بالمقابلة ، وكل ذلك ظروف مكية ، ويبدو هذا واضحاً لكل من يقرأ السياق من أول سورة الشورى . وجملة (لا أسألكم عليه أجراً) وجملة أخرى من بابها مما ورد في السور المكية ، وبسبيل إفحام المشركين والزامهم مثل آية سورة الأنعام هذه :

(أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمِ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِلْعَالَمِينَ .) ٩٠

وآية سورة يوسف هذه :

(وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ .) ١٠٤

وآية سورة الفرقان هذه :

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا .) ٤٧ ، ٥٦

وآية سورة سبأ هذه :

(قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .)

٤٧

والرواية التي يرويها الطبرسي تناقض هذه النصوص القرآنية من جهة ولا تتسق مع علو شأن النبوة ، ومصدرها الرباني من جهة أخرى . وهي في الوقت نفسه غريبة ومتهافئة ، ويلمح فيها قصد التلفيق والتطبيق ، ولقد كان أكثر أقارب رسول الله ﷺ في العهد المكي ، ومنهم عمه العباس وأبو لهب كفاراً ، ولم يكن علي وفاطمة رضي الله عنهما

قد تزوجا ، وانجبا الحسن والحسين ، فلم يكن صرف الآية الأولى إلى أقارب رسول الله ﷺ وبخاصة اخصائه ممكناً إذا أخذت على حقيقة كونها مكية ، فلفقت رواية مدنيتهما بالصيغة الغربية المروية ، ولفقت رواية أخرى عن ابن عباس في صدد الآية الأولى من الآيات الثلاث حيث روى أنها نزلت في المدينة ، وأنها حينما نزلت قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودتهم فقال : هم علي وفاطمة ولدهما . هذا في حين أن الطبري يروي عن ابن عباس أنه سئل عن الآية في حضرة ابن جبير فقال هذا : «القربى فيها ، قربى آل محمد» فقال ابن عباس : «عجلت . إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة ، فنزلت الآية تذكر ذلك ، وتقول لقريش : إلا أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم» وقد روى هذه الرواية البخاري والترمذي أيضاً . ومقتضاها أن الآية مكية وهو الحق . ولقد روى الطبري أيضاً عن ابن عباس تأويلين آخرين جاء في أحدهما (كان لرسول الله قرابة في جميع قريش ، فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه قال يا قوم : إذا أبيتم أن تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم ، لا يكن غيركم من العرب أولى بحفظي منكم) وجاء في ثانيهما (قل لا أسألكم إلا أن لا تؤذوني لقرابة ما بيني وبينكم فإنكم قومي ، وأحق من أطاعني وأجابني) ومقتضى هذه الروايات أن الآية مكية كما هو واضح وهو الحق مع إضافة كونها جزءاً من سياق طويل مترابط في صدد مواقف المشركين في مكة من الدعوة النبوية .

ونذكر مثلاً آخر ، فقد روى أن آيتي سورة الزمر هاتين :

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ .) ٥٣ - ٥٤ .

مدنيتان . وروى المفسرون أن أولاهما نزلت في حق وحشي الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وعم رسول الله ﷺ في وقعة أحد ، ومما رواه المفسرون أن وحشياً استعظم ذنبه ورأى أن إسلامه لن ينجيه من غضب الله ورسوله ، فأنزل الله آية الفرقان هذه :

(إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا .) ٧٠

فقال وحشي : هذا شرط شديد ، فأنزل الله آية سورة النساء هذه :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) ٤٨ فقال وحشي : أراني بعد في شبهة . فأنزل الله آية الزمر (٥٣) إحدى الآيتين اللتين هما موضوع الكلام فقال هذا نعم . ثم جاء وأسلم ، وروى المفسرون إلى هذه الروايات رواية أخرى تفيد أنها نزلت في حق أناس أسلموا فأوذوا فارتدوا وكبر عليهم ذنبهم فأنزلها الله لتفتح لهم الباب ، ورواية ثالثة تفيد أنها نزلت في حق أناس اقترفوا أثاماً كبيرة ، وكانوا يتسألون عن حالهم إذا أسلموا ... والروايات الواردة في صدد وحشي غريبة وعجيبة في مناسبتها وظرفها ثم في تدرجها لأجل اقناعه وجعله يسلم ! هذا في حين أن الآيتين (٥٣ و٥٤) منسجمتان انسجاماً تاماً نظماً وموضوعاً مع ما قبلها ومع ما بعدهما ، والسياق جميعه في مواقف المشركين وإنذارهم ، والأسلوب أسلوب مكبي ، وكل هذا ملموح فيه إذا تمنع فيه القارىء .
ومثالاً آخر آيات سورة النحل الأخيرة هذه :

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .) ١٢٤ - ١٢٨ .

فهناك رواية تذكر أن الآيات الثلاث الأخيرة مدنية ، ولم ترد الرواية في الكتب المعتمدة . غير أن الترمذي روى عن أبي بن كعب حديثاً وصف بأنه بسند حسن جاء فيه : (لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة ، فمثلوا فيهم . فقالت الأنصار : إن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لئربن عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ) فقال رجل : لا قريش بعد اليوم . فقال رسول الله ﷺ : كفوا عن القوم إلا أربعة ..) وأورد ابن كثير حديثاً ، عن عطاء بن يسار جاء فيه : (إن الآيات الثلاث نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة ومثل به . فقال رسول الله ﷺ : «لئن أظهري الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . فلما سمع المسلمون ذلك ، قالوا والله : لئن أظهري الله لنمثلن بهم مثله لم يمثله أحد من العرب بأحد قط . فأنزل الله الآيات الثلاث ...) ، وأورد ابن كثير حديثاً آخر عن أبي هريرة ، أخرجه الحافظ أبو بكر الدارقطني ، أنه النبي ﷺ لما نظر إلى حمزة ومثلته

قال : رحمة الله عليك إن كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، والله لولا حزن من بعدك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ، أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك ، فنزل جبريل بالآيات . فكفر النبي ﷺ عن يمينه ، وقال : نصبر ولا نعاقب ، والأحاديث تذكر أن آية :

(وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ .)

فقد أنزلت في حادث أحد ، مع أن الروايات تذكر أن الآيات الثلاث معاً مدنيات ، والآيات منسجمة مع بعضها ومع الآية السابقة لها في معنى واحد رائع ، وفيها خطة للنبي ﷺ في دعوته إلى سبيل الله . فعليه أن يدعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن فإذا وقف أحد تجاهها موقفاً يستوجب المقابلة فيجب أن يكون ذلك في نطاق المماثلة . والآية قبل الأخيرة احتوت أمراً للنبي ﷺ بأن لا يضيق صدره بمكرهم ولا يحزنه ذلك ، وتسلية له ، بأن الله مع المتقين المحسنين ، وروح الآيات الأربع وفحواها من روح وفحوى الآيات المكية .

وفي سورة العنكبوت آية مماثلة لم يقل أحد إنها مدنية :

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ .) ٤٦

وفي سورة النمل آيات مماثلة أيضاً ولم يقل أحد إنها مدنية :

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ .) ٦٩ و ٧٠

ومن المحتمل أن يكون النبي ﷺ في ظروف حزنه على حمزة خطر له ما ذكرته الروايات أو أن يكون ذلك مما خطر لأصحابه في ظروف حزنهم على شهدائهم ، فتلا النبي ﷺ الآية وتم التراجع والقول (نصبر ولا نعاقب) فالتبس الأمر على الرواة ، وتنبه على أن الآيات الأربع منسجمة مع سياقها السابق انسجاماً قوياً ، وكأنها نتيجة له أو تعقيب عليه ، والطابع المكي قوي البروز على هذا السياق . وقد ورد ما احتواه من الأمر باتباع

للنبي ﷺ ملة ابراهيم ، وبما هو حلال وحرام من الذبائح في آيات أخرى في سورة الأنعام المكية ، وإقرأ مثلاً الآيات (١١٦ و ١٦١ و ١٦٢) من هذه السورة ، وقابلها مع آيات سورة النحل السابقة للآيات الاربع .

ولقد قلنا : إن عدد المروي من الآيات المكية في السور المدنية قليل ، ومن ذلك آيات سورة الأنفال هذه :

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ . وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .) ٣٠ - ٣٤

والرواية التي تروي مدينتها غير وثيقة . والآيات منسجمة مع ما قبلها ومع ما بعدها ، وفيها تذكير بموقف المشركين من النبي ﷺ في أواخر العهد المكي ، والمعقول أن يكون هذا التذكير بعد ذلك الموقف الذي كانت الهجرة النبوية على أثره . وفحوى الآيات يفيد بقوة أنها مدنية . ومن ذلك الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة . والرواية التي تروي مكيتها غير وثيقة ، وفحواها وفحوى سياقها يفيدان أنها جاءت كتعقيب على موقف للمنافقين ، وهذا من مشاهد العهد المدني .

ونكتفي بما تقدم لنقول في صدد الموضوع الذي عقدنا عليه النبتين (١٣ و ١٤) إن ملاحظة السياق والتناسب والترابط بين الفصول والمجموعات القرآنية ضرورية ومفيدة جداً في فهم القرآن ومواضيعه وأهدافه من جهة ، وفي لمس ناحية من نواحي الروعة والاعجاز والاتقان فيه ، لأنهما تظهران للناظر في القرآن على ما هو عليه من ترتيب وأنسجام وترابط نظماً وموضوعاً من جهة ، وتزيلان ما هو عالق بالأذهان من خطأ بأن الفصول القرآنية فوضى لا ترتيب ولا انسجام بينها ، وأنها كانت توضع حذاء بعضها كيفما

اتفق من جهة ، وتجعلان القارئ يلمح ضعف روايات كثيرة وردت في سياق الآيات القرآنية كسبب لنزولها ، وفي بعضها قلب لمعنى السياق القرآني وهدفه ، وفي بعضها ما يوهم التفكك وعدم الترابط في هذا السياق من جهة .

وكتعقيب أخير على الفصل كله نقول : إنه لا يجوز للناظر في القرآن أن تكون نظرتة فيه اعتباطية جزافية ، وأن عليه أن يستوعبه إذا أراد أن يفهمه فهماً صحيحاً ، وأن يتكلم في شيء وارد فيه سواء أكان مسلماً أم غير مسلم ، وأن يتمعن في آياته وفصوله ، ويربط بعضها ببعض ، ويرجع بعضها إلى بعض ، ويفسر بعضها ببعض ، ولا يبتتر آية أو جزء آية من آية ، ويبني حكمه عليها بقطع النظر عن سياقها أو ما في السور أو الفصول الأخرى من تنمات واستدراكات وتوضيحات ، وأن لا يأخذ الروايات والأقوال على علاتها وبخاصة إذا لم تكن متطابقة مع فحوى ومدى النص القرآني ، ويستند إليها في الحكم والفهم والتأويل ، وأن يظل يلاحظ صلة التنزيل القرآني بالسيرة النبوية والبيئة النبوية ، وصلة اللغة القرآنية والأساليب القرآنية بلغة وأساليب العرب الذين وجهت إليهم لأول مرة ، ونزلت بلغتهم وأساليبهم ، وأن يظل يلاحظ كذلك أن في الآيات آيات محكمات ، وأخر متشابهات ، وأن المحكمات هن أم الكتاب ، وأن عليه أن يلتزم الضابط القرآني في المتشابهات التي هي وسائل تدعيم للمحكمات والتي منها القصص والملائكة والجن والمشاهد الأخروية ومظاهر الكون وذات الله ، وأن يقف منها عند ما اقتضت حكمة التنزيل إيجاء منها بالأسلوب الذي جاءت به لتحقيق الهدف الذي استهدفته بدون تزييد ولا تخمين حتى لا يخرج عن ذلك الضابط الذي فيه بصراحة على أن من لا يتمسك به يكون ذا قلب زائع قاصداً الفتنة في التأويل الاعتباطي ، فإذا التزم بكل هذا وهو واجب لا يستطيع أن يتحلل منه إذا كان راغباً في الحق والمعرفة ، عصم نفسه من التورط والتمحل ، وسوء الفهم والتأويل والأدب .

ثاني عشر :

وهناك مسائل قرآنية أخرى يختلف فيها العلماء والباحثون المسلمون ، ويتناولها الاغيار وذوو النيات السيئة لابراز ما ظنوه ثغرات ، ومآخذ فيها ضد القرآن . وقد رأينا أن نلم بها أيضاً على رجاء أن نضع الأمر في نصابه الحق فيها إن شاء الله . ولقد تناولنا هذه المسائل فيما تناولناه من شرح مسائل قرآنية عديدة أخرى في كتابنا (القرآن المجيد) الذي طبع عام (١٣٨٠هـ - ١٩٥٢م) في صيدا ، وقد رأينا أن نكتفي هنا بالايجاز ، وأن نطلب ممن يجب الاسناد والتفصيل أن يرجع إلى كتابنا المذكور .

أولاً : جمع القرآن وتدوينه وترتيبه

- ١ -

إن الناظر في كتب علماء القرآن والحديث والتفسير يجد أحاديث وروايات كثيرة في هذا الموضوع مختلفة اختلافاً غير يسير ومتعارضة أيضاً ، حيث يجد أولاً أن هناك أحاديث وروايات تفيد أن النبي ﷺ توفي ولم يكن القرآن قد جمع في شيء ، وأن جمعه وتدوينه إنما كان بعد وفاته . وإن ما كان يدون منه في حياته كان يدون على الأكثر على الوسائل البدائية مثل أضلاع النخيل ، ورقائق الحجارة وأكتاف العظم ، وقطع الأديم والنسيج ، وأن المدونات منه على هذه المواد لم تكن مضبوطة ولا مجموعة . وكانت على الأكثر متفرقة على المسلمين ، وإن المعول في القرآن إنما كان على القراء وصدور الرجال وحفظهم ، وإن آيات القرآن في السور والسور في المصحف إنما تم ترتيبها كما هي في المصحف بعد وفاة النبي ﷺ .

وحيث يجد ثانياً : أن هناك أحاديث وروايات تذكر أنه كان خلاف في ترتيب مصاحف بعض أصحاب رسول الله ﷺ وكلمات وآيات كانت تكتب في بعض المصاحف ، أو يحفظها الحفاظ ويقرؤونها لم تكتب في المصحف المتداول ، وسور زائدة أو ناقصة عما في هذا المصحف .

وحيث يجد ثالثاً : أحاديث وروايات تذكر أن القرآن كان حين نزوله يكتب على رقاع ، ثم ينقل منها الى القراطيس والصحف ، وترتب آياته في سور ، وسوره في تسلسل بأمر النبي ﷺ وأن أجسام كل السور المكية الصغيرة والكبيرة كانت تامة مرتبة قبل الهجرة ، وأنها كانت تنزل متلاحقة ، وكانت تبدأ السورة بالبسملة ، وتستمر متلاحقة حتى نهايتها ، ثم تبدأ سورة جديدة بالبسملة ، وأن ذلك استمر على هذا المنوال بعد الهجرة ، وأن السور الطويلة المدنية ذات المواضيع العديدة قد رتبت في آخر حياة النبي ﷺ وبأمره ، وأن القرآن كان تام الترتيب آياته في السور وسوره في تسلسل في آخر حياة النبي ﷺ كذلك ، وأن هذا الترتيب هو الذي كان عليه المصحف الذي حرر في زمن أبي بكر رضي الله عنه ليكون إماماً ، ثم المصاحف التي نسخت عنه بأمر عثمان رضي الله عنه ، والتي هي أصل المصاحف المتداولة ، وأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا في حياة النبي ﷺ يكتبون مصاحف مثله ، ويحفظون القرآن ، ويقرؤونه ، ويختمونه مرتباً بنفس الترتيب المتداول .

وهناك تعليقات لعلماء المسلمين على الأحاديث والروايات الواردة في كل مجموعة من المجموعات الثلاث . منها المعلل ، ومنها المتحفظ ، ومنها الموضح ، ومنها المنكر المعترض . وقد أورد الامام السيوطي في كتابه «اللاتقان» كل الأحاديث والروايات والأقوال أو جلها ، وأوردنا طائفة كبيرة منها في كتابنا القرآن المجيد ، فلم نر ضرورة لبرادها هنا .

- ٢ -

ومن الحق أن نقول : إن كثيراً من الأحاديث المروية عن النبي ﷺ وأصحابه في المجموعات الثلاث غير واردة في كتب الأحاديث الصحيحة ، وإن كثيراً منها يتحمل النظر والتوقف موضوعياً ، غير أن من الحق أن نقول أيضاً : إن ما جاء في المجموعة الثالثة إجمالاً أكثر وثاقة من جهة ، وأنها مع الأقوال المؤيدة لها الصادرة عن كثير من علماء المسلمين وائمتهم أكثر اتساقاً مع طبائع الامور والظروف من جهة أخرى .

فالقرآن أعظم مظاهر النبوة ، ومعجزتها الخالدة ، وكان مدار الاحتجاج والدعوة مع العرب والكتّابيين الذين كانت لهم كتبهم المتداولة في أيديهم المكتوبة على قراطيس وورق ومواد لينة تنشر وتطوى بسهولة ، وقد تكرر في القرآن كثيراً الإشارة إلى كتب الكتّابيين من جهة وذكر (الكتاب) في القرآن بمعنى (القرآن) من جهة أخرى . فلا يعقل في حال أن يهمل النبي ﷺ تدوين ما كان ينزل عليه من الوحي القرآني ، وأن لا تكون عنايته بذلك فائقة ، وأن لا يحرص على تدوينه في وسائل لينة تطوى وتكرر كالصحف والقراطيس وورق الحرير ، ثم على حفظ مدوناته حرصاً شديداً مرتبة منسقة . بل والمعقول أن يكون ذلك من أمهات مشاغله المستمرة . وكل هذا مما تفيد أحاديث وروايات المجموعة الثالثة ، وما تفيد قرائن قرآنية كثيرة أوردناها في كتابنا القرآن المجيد (١) ، وما يؤيده تعليقات جم غفير من علماء المسلمين .

وما روي من أن القرآن كان يكتب على الوسائل البدائية الثقيلة الحجم والصعبة الحفظ والنقل كأضلاع النخيل وقطع الخشب والحجارة واكتاف العظام لا يصح أن يقبل على علاته بناء على ما تقدم وإن كان ورد في حديث يعد من الصحاح ، وكل ما يحتمل أن يكون أن النبي ﷺ إذ يستدعي أحد كتابه لاملأ ما يكون نزل عليه من وحي فور نزوله ، وهو ما كان يفعله دائماً على ما تفيد الأحاديث والقرائن القرآنية أن لا يكون متيسراً إلا شيء من هذه الوسائل البدائية ، فيكتب الكاتب عليها ما يمليه النبي ﷺ مؤقتاً ريثما ينقل إلى مكانه من سجلات القرآن مما عبر عنه زيد بن ثابت كاتب وحي رسول الله في قوله في حديث ماثور له (كنا نؤلف القرآن في عهد رسول الله ﷺ من الرقاع) ومن المحتمل كذلك أن أصحاب رسول الله ﷺ من أهل المدن أو البادية ، كانوا يكتبون بعض الآيات التي كانوا يتلقونها من النبي ﷺ على قطع من تلك الوسائل للتبرك والحفظ

(١) انظر ص ٥٢ - ١١٥ وبنوع خاص ص ٩١ وما بعدها .

والنقل على اعتبار أنها أبقي على الزمن ، وأقل تعرضاً للفناء والتمزيق على نحو ما اعتاد المسلمون أن يفعلوا في مختلف أدوارهم في كتابة اللوحات القرآنية مع بعض التعديل . فلما دعي المسلمون إلى الاتيان بما عندهم من قرآن حينما عزم أبو بكر ، وكبار أصحاب رسول الله ﷺ على تحرير المصحف الامام بعد وفاة النبي ﷺ بقصد زيادة الاستيثاق والضبط والتحري أتوا فيما أتوا به بهذه القطع . فحفظت الروايات هذه الصورة .

ولقد كان في مكة والمدينة جاليات نصرانية ويهودية تتداول كتباً مكتوبة على قراطيس تطوى وتشر كما قلنا قبل . ولقد كانت كل من مكة والمدينة مدينة تجارية متصلة بالبلاد المجاورة المتحضرة التي يكثر فيها وسائل الكتابة اللينة مما لا يعقل إلا أن يكون أهل هذه البيئة قد اقتبسوا ذلك .

ولقد احتوى القرآن أوامر بتدوين المعاملات التجارية النقدية وغير النقدية صغيرة كانت أم كبيرة ، ولقد تعددت الآيات القرآنية التي تذكر (المصحف) في صدد القرآن والكتب الأخرى ، ولم يقل أحد أنها كانت تعني تلك الوسائل البدائية ، بل إن المفهوم القرآني هو في جانب كونها وسائل تطوى تنشر ، ولقد سميت مجموعة القرآن التي حررت في عهد أبي بكر بعد وفاة النبي لتكون الامام والمرجع باسم المصحف والمصحف لأنها كتبت على صحف من ورق على الأرجح أو من رقوق ناعمة مسواة . ولقد كان في ايدي أصحاب رسول الله ﷺ كثير من المصاحف والصحف القرآنية المكتوبة بخطوط متنوعة وهي التي أمر عثمان باحراقها حينما نسخ مصاحفه عن مصحف أبي بكر لتكون موحدة الرسم ، وأمر الناس بكتابة مصاحف جديدة عنها . وهذا العهد متصل بعهد رسول الله ﷺ ، حيث يفيد كل هذا أن وسائل الكتابة اللينة السهلة الطي والنشر والحفظ متيسرة في هذا العهد .

وهناك ما يمكن أن يعتبر حقائق لا خلاف فيها تؤيد كون المصحف المتداول هو مرتب

وفق ترتيب النبي ﷺ ، واحتوى كل ما كان ثابتاً قرآنًا غير مرفوع وغير منسوخ حين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، منها أن المصاحف المتداولة اليوم بين المسلمين هي نسخ متطابقة نصاً وترتيباً ورسم كتابة ، وإن اختلفت خطوطها ، وليس هناك مصحف متداول بين المسلمين متباين معها في الألفاظ والترتيب ، ومنها أن التواتر الذي لم ينقطع هو أن هذه المصاحف نسخة طبق الأصل في نصها وترتيبها ورسمها للمصاحف التي نسخت بآمر عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأريد بها أن تكون جميع المصاحف موحدة الرسم حتى يمتنع الخلاف في القراءة ، ومنها أن المصاحف العثمانية منسوخة نصاً وترتيباً عن المصحف الذي حرر في زمن أبي بكر رضي الله عنه على ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتوى كل ما ثبت أنه قرآن لم يرفع ولم ينسخ حين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها أنه ليس هناك رواية أو حديث ما وثيق أو غير وثيق منسوب إلى أحد أصحاب رسول الله الذين أشرفوا أو باثروا كتابة المصحف الأول في زمن أبي بكر أو المصاحف العثمانية فيه أي إشارة ، إلى أن ترتيباً جديداً طرأ على القرآن آيات في سور وسوراً في تسلسل أو أريد به ذلك ، حيث يصح القول بجزء : أن المصحف الأول الذي نسخت عنه المصاحف العثمانية ، قد حرر حسب ما كان مرتباً مدوناً في القراطيس والمصاحف ، ومحفوظاً في الصدور في حياة النبي ﷺ ، وإن كبار وعلماء أصحاب رسول الله ﷺ قد حرصوا كل الحرص ، واهتموا أشد الاهتمام لتحرير القرآن وضبطه على أحسن وجه وأقومه ، وأنهم تضامنوا في ذلك كل التضامن حتى كان مصحف أبي بكر الامام الذي لا يتحمل أي شك في أنه كان مطابقاً لما مات عنه النبي ﷺ نصاً وترتيباً والذي كان مصحف عثمان نسخة مطابقة له نصاً وترتيباً كذلك ، وأنهم كانوا مسوفين في حرصهم واهتمامهم بسائق ديني إيماني ملك عليهم مشاعرهم رهبة وهيبة وتقديساً وتعظيماً ولم يكن عملهم هذا شخصياً أو سياسياً بل هو متصل بأقوى عمد الدين والايمان وأعظم مظاهر النبوة وأكبر تراث خلفه النبي ﷺ ، وبحيث يمكن القول بجزء بناء على ذلك إن ما ورد في الروايات التي جلتها أو كلها

غير وثيق السند مع ذلك من زيادات أو نقص في الكلمات والآيات والسور ، ومن مخالفة للترتيب لم يثبت عند الملأ من أصحاب رسول الله ونتاج عن وهم وخطأ ، ولبس وعدم تثبت فأهمل ، ومنه ما يصح القول بقوة : إنه مخترع ومدسوس بنية سيئة وقصد مغرض .
وجمهور العلماء والمؤلفين مجمعون على هذه الحقائق بدون خلاف ، ومن جملة ذلك علماء ومؤلفوا الشيعة الامامية (١) .

وهناك الحقيقة الكبرى ، وهي كون القرآن المتداول سوره وفصوله ومجموعاته وآياته وكلماته ونظمه كل ذلك متصل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وصادر عنه مباشرة بوحى رباني نزل على قلبه ، وكون هذا لم يكن في وقت من الأوقات محل أخذ ورد وشك وتوقف من قبل المسلمين على اختلاف نحلهم وفرقهم وأهوائهم . ومن لدن شاهدي العيان لأعلام النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم الى الآن ، كما أن صدره مباشرة عنه لم يكن محل ريب من قبل غير المسلمين أيضاً ، وكون القرآن ، وظل ولن يزال معجزة النبي العظمى الخالدة ، وكونه أصفى منبع إسلامي للاحكام والعقائد والتشريع والالهام والفيض والتوجيه والتلقين فيه الحق والهدى والصدق والرشد ، وفيه المبادئ السامية والشفاء للصدور ، والعلاج للنفوس والحلول لمتنوع المشاكل الايمانية والروحية والسلوكية للناس كافة ، وخلفه النبي ﷺ في المسلمين بل وللانسانية فلا يضلون أبداً إذا ما اتبعوه وتمسكو به ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم . ولقد وعد الله بحفظه في آية سورة الحجر هذه :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ .) ٩

فحقق الله وعده في حفظه من أي تبديل وتغيير وتحريف وزيادة ونقص ، مجمعاً في رسم

(١) ذكرنا هذا لأن هناك روايات يسوقها غلاة من الشيعة يزعمون بها وقوع تحريفات واختلالات في القرآن مما يتصل بوصاينه وولاية علي بن أبي طالب وأولاده رضي الله عنهم يبرز عليها طابع الافتعال والاختراع قويا .

واحد ، ونص واحد ، ومصحف واحد ، وترتيب واحد في مشارق الأرض ومغاربها ، محتفظاً بكل إشراقه وسنائه وروحانيته ، وألفاظه وحروفه وأسلوب تلاوته وترتيله كما تلاه ورتله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبترتيبه الذي رتبته مما لم يتيسر لأي كتاب سماوي (١) ليظل مرجع كل خلاف ، وحكما في كل نزاع ، والقول الفصل في كل مذهب ، وعند كل نحلة ، منذ وفاة النبي ﷺ الى اليوم وإلى ما شاء الله هذه الدنيا أن تدوم ، ويكفي لتبين خطورة المعجزة الربانية العظمى في حفظه أن يذكر المرء ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب ، وتنافس في سبيل الحكم والسلطان منذ صدر الاسلام الأول ، وما كان من اجتراء أصحاب الأهواء في ذلك العهد وبعده على رسول الله ﷺ والكذب عليه في وضع الأحاديث المتضمنة تأييد فئة على فئة ، ورأي على رأي ودعوة على دعوة ، وما كان من وضع الأحاديث والروايات لصرف آيات القرآن الى غير وجهها الحق ، وتأويلها بغير وجهها الحق بسبيل ذلك ، وما كان من استعلاء قوم على قوم وشيعة على شيعة استعلاء القوة والسلطان مع اشتداد العداء والتجريح ، واشتداد تيار الأحاديث المفتراة ، وكان ممن صار له السلطان القوي الواسع المديد فئات كانت تقيم دعوتها على صرف الآيات الى هواها ، وتأويلها على غير وجهها الحق والاجتراء على رسول الله ﷺ وأصحابه بسبيل ذلك ، وأن يذكر أن هذا كان في وقت لم يكن القرآن فيه مطبوعاً ولا مصوراً ، ولم يكن من المستحيل فيه أن يجراً الذين اجتروا على رسول الله وأصحابه ، وكذبوا عليهم ، وصرفوا الآيات على غير وجهها الحق على كتاب الله فيغيروا ويبدلوا ويزيدوا وينقصوا تبديلاً جوهرياً سائفاً على المسلمين مؤيداً لأهوائهم ، وينشروا به مصاحف عديدة ، وبخاصة في

(١) ليس في أيدي اليهود والنصارى ما يجوز تسميته تورا موسى وانجيل عيسى عليها السلام . فقد كان فعلاً تورا لموسى ، وانجيل لعيسى على ما ذكر بصراحة في اسفار العهد القديم والجديد ، ولكنها فقدت ، وهذه الأسفار مكتوبة بأفلام مختلفة بعد موت موسى وعيسى عليها السلام وما جاء فيها من تبليغات معزوة الى الله بلسان موسى وعيسى قد جاء رواية وحكاية ، وليس منها شيء باملانها (اقرأ كتابنا القرآن والمبشرون) فان فيه فصلاً في التوراة والانجيل في القرآن والواقع فيه وضع للامر في نصابه الحق .

الايات التي حاولوا صرفها عن وجهها الحق الى تأييد أهوائهم ودعوتهم ، أو إضعافها لتكون أكثر مطابقة مع الوجوه التي أريد صرفها إليها سلبا وإيجابا ونفيا وإثباتا ، وفي وقت كانت الكتابة العربية فيها سقيمة ، وكان التشابه بين الحروف كثيرا ، واحتمال اللبس قويا . وما كان من محاولات قليلة في صدد ذلك كان غثا وتافها ومرفوضا كل الرفض ، ومنكرا أشد الانكار فلم يكتب له حياة ولا دوام .

وتحقق هذه المعجزة القرآنية الربانية الحاسم المذهل دليل مقنع في حد ذاته لا يتحمل أي مكابرة ولا توقف لكل ذي نية حسنة من غير المتدينين والمسلمين ، ومخرس مفحم لكل ذي نية سيئة في الوقت نفسه على صحة وصدق الوحي الرباني القرآني ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد حفظت بركة هذه المعجزة الربانية اللغة العربية التي نزل بها القرآن قوية مشرقة بكل ما كانت بلغت إليه من شأو عظيم فريد قصرت وما تزال تقصر عنه معظم لغات الأرض من سعة وبلاغة ودقة نفوذ وعمق ونصاعة وقواعد وضوابط لتظل لغة الأمة العربية الفصحى في كل صقع وفي كل دور وزمان وهو ما لم يتيسر للغة أمة من أمم الأرض ، ولتكون الى ذلك لغة عبادة الله لجميع الأمم الاسلامية المنتشرة في أنحاء الأرض خلال الأربعة عشر قرنا ، ثم خلال القرون الآتية الى ما شاء الله بل لتترشح لتكون لغة العالم الاسلامي ، بل لغة الانسانية حينما يأذن الله بتحقيق وعده ، وإظهار الاسلام على الدين كله ، ولن يخلف الله وعده ، وذلك رغم ما يبذله الملحدون والمبشرون والمستعمرون من ورائهم ضدها من جهود مستميتة يائسة تظهر حينما وتخبو حينما سواء فيما يقترحونه ، ويسعون فيه من اصطناع العامية في الكتابة والتأليف أم في استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتشيويه محاسن الأداء فيها وتبديد ما تمثله من تراث عربي إسلامي عريق مجيد .

ولقد حفظت الأمة العربية ببركتها موحدة قوية الحيوية ضامدة أمام ما وقع عليها من نكبات ، وتسلل إليها من عناصر غريبة محتفظة بمواهبها العظيمة وخصائصها القومية التي

كان من مظاهرها اصطفاء الله لخاتم أنبيائه ورسله منها ، وإنزاله آخر كتبه بلغتها ، وأن غدت ذات رسالة عالمية خالدة بما حملها القرآن من عبء الدعوة الى الله ، ونشر رسالته السامية المتممة لما سبقها والتي بقيت نقية صافية كما هي في منبعها الأول الذي حفظه الله ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وأن ترشحت بذلك لتكون خير أمة أخرجت للناس إن هي قامت بحملها إياه القرآن من ذلك العبء ودعت الى الخير وأمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وتحققت بالأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها .

والروايات تذكر أن عثمان أرسل نسخاً من المصحف المنسوخ بالاملاء القرشي إلى الأقطار ، وأمر بالنسخ عنه ، وإحراق ما عداه ، وتم ذلك في هذه الأقطار وفي المدينة العاصمة ، ولو كان في أيدي المسلمين في المدينة ، وفي ما انتشروا فيها من المشارق والمغرب مصاحف مبينة في الآيات والترتيب والكلمات لمصحف عثمان المذكور ، لظهرت . فعمال عثمان لا يمكن أن يكونوا قد مشطوا كل بيت في كل بادية وقرية ومدينة ، فأحرقوا ما كان فيه من مصاحف ، وما دام لم يظهر مصاحف مبينة فيكون المسلمون قد أطاعوا أمر الخليفة طوعاً ورغبة وتديناً ، ولا يمكن أن يكون هذا إلا إذا لم يكن في أمره خلاف ، أي : لم يكن بين مصحف عثمان والمصاحف التي كانت متداولة في أيديهم مبيانات في غير الاملاء والكتابة ، لأن الاحتفاظ بذلك يكون منهم تديناً أيضاً ، ولا سيما أن فريقاً غير يسير من أهل الأمصار بل ومن المدينة ، قد نقموا على عثمان ، وثاروا عليه وقتلوه ، وصارت بسبب ذلك حروب دامية امتدت آثارها إلى أمد بعيد بعد قتله . وهذا الشرح يظهر تفاهة ما يقوله بعض المستشرقين والمبشرين من وجود مبيانات بين مصحف عثمان والمصاحف المتداولة قبله ، ومن أنه لو لم يأمر عثمان بإحراق هذه المصاحف لتسنى للناس الوقوف على هذه المبيانات ...

وهناك رواية تذكر أن المصحف المتداول هو مصحف الحجاج ، وأنه مابين لمصحف

عشان ، والرواية أولاً غير وثيقة ، وثانياً إن كل ما روى أن الحجاج أمر أو وافق على وضع نقاط للحروف وتصحيح كتابة بعض الالفاظ دون تبديل وتغيير في مصحف عشان وثالثاً أن جمهرة علماء القرآن قد كذبوها وفندوها من جهة النقل ومن جهة العقل (١) ويمكن أن يقال إضافة الى ماذكروه : إنه ناقمون ومحاربون كثيرون منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها للحجاج والدولة الاموية ، ولا يمكن قطعاً أن يكون الحجاج وعماله وعمال الدولة الأموية قد تتبعوا كل ما في أيدي المسلمين بما فيهم هؤلاء الناقمون المحاربون من مصاحف وأبادوها وحملوهم على مصحف جديد ، فلو كان للرواية أصل ما لكان بقي مصاحف كثيرة جداً في أيدي الخصوم والناقمين والمحاربين مباينة للمصحف المتداول المزعوم إنه مصحف الحجاج ، ولقد قامت بعد دولة الأمويين الشامية الدولتان العباسية والفاطمية ، وشمل سلطانها القسم الأعظم مما كان تحت حكم الأمويين في المشرق والمغرب ، وكانت كلتاها ناقتين حاقتين على الدولة الأموية والحجاج ومجتهدتين في تشويه سيرتها وهدم ما أسسوه ، وكان من أهم ما يقتضي أن يفعلوه نفس ما زعم أن الحجاج فعله ، وإعادة الأمر الى نصابه ، ولم ترو الروايات شيئاً ما في هذا الصدد ، وفي هذا تكذيب حاسم لذلك الزعم .

ثانياً : احاديث نزول القرآن على سبعة أحرف

- ١ -

لقد أثرت أحاديث نبوية عديدة مختلفة الرتب في صدد نزول القرآن على سبعة أحرف ، وقد اختلف علماء المسلمين وباحثوهم في مدى هذه الاحاديث ، ورويت في صدد ذلك أقوال كثيرة عن بعض أصحاب رسول الله ﷺ وتابعيهم فيها بعض الخلاف ، واستغل ذلك المبشرون والملحدون ، فحاولوا أن يجردوا المآخذ والثغرات في القرآن عبره ، ووصل

(١) انظر الاتقان للسيوطي والبرهان في علوم القرآن . وقرأ كتابنا القرآن والمبشرون فان فيه بحثاً وافياً في ذلك فندنا فيه قول

المبشرين .

الأمر في بعضهم الى زعم أنه كان للقرآن صيغ عديدة اسقطت عدا واحدة هي التي كتب بها مصحف عثمان رضي الله عنه ، بل ووصل التخريف في بعضهم الى القول : إن المسلمين أضاعوا على الناس معرفة ما كان في الحروف والصيغ الأخرى من مبانى ومناقضات واختلاف بالنسبة للحرف الذي اثبتوه ، واقتصروا عليه في حين أن الانجيل نزل على أربعة أحرف تمثلت في أناجيل : متى ، ومرقس ، ولوقا ، ويوحنا ، ولم يكن فيها ما يخشاه النصارى من تناقض وتباين فاحتفظوا بها كما نزلت كشهادات متعددة على صحة الانجيل ووحدة جوهرة واتفاق معانيه مع اختلاف الفاظه . والشرع العالمي الديني والمدني لا تقوم صحته على شهادة واحدة ، وهكذا يكون لصحة الانجيل اربع شهادات بينما ليس للقرآن إلا شهادة واحدة (١) ، وهكذا تبلغ الصفاقة والمفارقة في الزاعم الى الزعم صراحة انه كان للقرآن سبع نسخ مختلفة في العبارات والترتيب والسياق والسور والألفاظ مثل الأناجيل الاربعة . وينسي الهوى قائل ذلك أن الاناجيل ليست إلا ترجمة لحياة عيسى عليه السلام كتبها أناس بعده سماعاً ورواية وليس فيها ما يدل على أن فيها شيئاً من إملائه مثل القرآن الذي هو إملاء النبي مباشرة بوحى الله ، وأنها ليست بأربعة بل أضعاف هذا العدد بحيث يكون في هذا الزعم سخرية بالعقل والحقيقة وجراً عليها وعلى الحق والمنطق . وهذا فضلاً عن أنه لم يقل أحد من المسلمين أن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف اختلاف وتعدد في النصوص ، وأن الذي أجمع عليه أئمتهم أن ذلك إنما كان لتيسير قراءة القرآن بأداء ولهجة مختلفة حسب استطاعة وإداء ولهجة القراء المختلفين منازل وقبائل وثقافات ولهجات ، وأن ما كان من كتابة مصحف عثمان هو قصد كتابته بهجاء موحد لمنع اختلاف المسلمين في القراءة بسبب اختلاف طرق الكتابة والاملاء التي كتبوا

(١) جاء هذا في ملحق لجريدة النهار البيروتية المؤرخ في ١٩٦٥/١/١ بامضاء الاب يوسف دره ، وجاء شيء من ذلك بتفصيل أوسع في الكتاب رقم (٢) المعنون بعنوان (الكتاب والقرآن) لمؤلف سعى نفسه (الاستاذ حداد) ، وعلمنا أن اسمه يوسف . ولعله هو نفسه كاتب ذلك الملحق .

بها مصاحفهم .

ولقد شرحنا هذا الأمر هذا الأمر في فصل التوراة والانجيل في القرآن والواقع الذي كتباه في مطلع كتابنا (القرآن والمبشرون) فرأينا أن نشرحه هنا أيضاً لأن المحتمل أن لا يقرأ جميع الناس ذلك الكتاب أو أن يكون هذا الموضوع تكأة للملحدين فيكون شرحه هنا مناسباً .

- ٢ -

والاحاديث الواردة كلها تدعم ذلك ، فمما ورد منها في كتب الحديث الصحيح هذا الحديث الذي رواه مسلم وأبوداود ، عن أبي بن كعب قال : «إن جبريل أتى النبي ﷺ فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال له : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك . ثم جاءه الرابعة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف . فأما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا» . ومنها حديث رواه البخاري ، عن عبد الله بن عباس «أن رسول الله ﷺ قال : اقرأني جبريل عليه السلام على حرف فراجعته فلم أزل استزيد ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف» ومنها حديث رواه الترمذي عن أبي جاء فيه «أن النبي ﷺ قال يا جبريل : إني بعثت إلى أمة أميين فيهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والمجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قط . قال يا محمد : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف»

وهناك أحاديث وردت في كتب الحديث الصحيح فيها أحداث تطبيقية ، منها حديث رواه مسلم عن أبي قال «كنت في المسجد فدخل رجل يصلي فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم

دخل آخر فقراً قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على النبي ﷺ فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقراً سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما رسول الله ﷺ فقراً ، فحسن النبي شأنهما فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذا كنت في الجاهلية ، فلما رأى رسول الله ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري ، ففضضت عرقاً ، وكأنما أنظر الى الله عز وجل فرقاً ، فقال لي يا أبي : ارسل الله إلي أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت اليه أن هون على أمتي ، فرد الى الثانية : إقراه على حرفين فرددت عليه أن هون على أمتي ، فرد علي الثالثة : إقراه على سبعة أحرف» ومنها حديث رواه الاربعة عن عمر بن الخطاب قال : «سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها . فأردت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف - أي انتهى من صلاته - ثم لبيبته بردائه ، فجئت به رسول الله ﷺ ، فقلت : يا رسول الله : سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأنيها . فقال رسول ﷺ : أرسله . ثم قال : أقرأ يا هشام ، فقراً القراءة التي سمعته يقرأ . قال رسول الله ﷺ : هكذا نزلت ، ثم قال لي أقرأ فقرأت فقال : هكذا انزلت ثم قال : إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه» .

وهناك أحاديث أقل رتبة من الاحاديث الواردة في كتب الصحاح فيها أصل وتطبيق ، وفيها بعض الخلاف ، وليس فيها أي معنى يؤيد ذلك الزعم . من ذلك حديث رواه أبو عبيد القاسم بن سلام عن أبي بن كعب قال «ما حك في صدري شيء منذ أسلمت إلا أنني قرأت آية ، وقرأها آخر غير قراءتي فقلت اقرأنيها رسول الله ﷺ فقال : اقرأنيها رسول الله ، فأتينا رسول الله فقلت : يا رسول الله : اقرأني آية كذا وكذا قال نعم ، وقال الآخر : أليس تقرؤني آية كذا وكذا ؟ قال : نعم ، فقال : إن جبريل وميكائيل أتاني ، فقعد جبريل عن يميني ، وميكائيل عن يساري ، فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف

فقال ميكائيل : استزده ، حتى بلغ سبعة أحرف ، وكل حرف كاف شاف» ، وقد قال ابن كثير الذي أورد هذا الحديث في كتابه «فضائل القرآن» : إن هذا الحديث رواه النسائي أيضاً ، ومن ذلك حديث ابن جرير ، عن أبي بن كعب قال «قال رسول الله ﷺ : إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على حرف واحد ، فقلت : خفف عن أمتي ، فقال : اقرأه على حرفين ، فقلت : خفف عن أمتي ، فأمرني أن أقرأ على سبعة أحرف كلها شاف كاف» ومن ذلك حديث رواه الامام أحمد عن حذيفة قال «لقي النبي جبريل عند أحجار المراء فقال : إن أمتك يقرؤون القرآن على سبعة أحرف فمن قرأ على حرف فلا يتحول عنه الى غيره رغبة عنه» وحديث رواه الامام أحمد عن عمرو بن العاص «أن رسول الله ﷺ قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف ، على أي حرف قرأتم أصبتم ، فلا تماروا : إن المراء فيه كفر(١)» وحديث رواه الامام نفسه عن طلحة قال : «قرأ رجل عند عمر ، فغير عليه فقال : قرأت على رسول الله ﷺ فلم يغير عليّ . قال : فاجتمعا عند رسول الله ﷺ ، فقرأ الرجل على النبي ﷺ فقال له : أحسنت . قال : فكان عمر قد وجد في نفسه من ذلك ، فقال له النبي ﷺ : إن القرآن كله صواب ، ما لم تجعل مغفرة عذاباً ، وعذاباً مغفرة» وحديث رواه أبو يعلى ، عن المنهال ، قال : «بلغنا أن عثمان قال يوماً وهو على المنبر : اذكر الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال : أنزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف أن قام فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا أن رسول الله ﷺ قال : ذلك ، فقال : عثمان : وأنا أشهد معهم» وحديث رواه الامام أحمد عن أبي هريرة قال النبي ﷺ : «انزل القرآن على سبعة أحرف ، المراء في القرآن كفر ثلاث مرات ، فما علمتم فافعلوا به ، وما جهلتم فردوه الى عالمه» وفي رواية «أنزل القرآن على سبعة أحرف علياً حلياً غفوراً

(١) المتبادر أن كلمة المراء والنهي عنه تعني عدم المجادلة والقول بقراءتي أحسن أو أصوب من قراءتك اذا ما كانت القراءتان لا تغيران نصاً أو معنى .

رحيماً» وحديث أورده ابن كثير في فضائل القرآن لفظ أبي داود ، عن أبي قال : «قال رسول الله ﷺ : إني أقرئت القرآن ف قيل لي على حرف أو حرفين ؟ فقال الملك الذي معي : قل على حرفين ، ف قيل : لي على حرفين أو ثلاثة ؟ فقال الملك الذي معي : قل على ثلاثة ، حتى بلغ سبعة أحرف ، قال : ليس منها إلا شاف كاف ، إن قلت سمياً علياً ، أو عزيزاً حكماً ، ما لم تخط آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب» وحديث رواه الامام أحمد ، عن أم أيوب الانصارية أن رسول الله ﷺ قال : «انزل القرآن على سبعة حرف أيها قرأت أجزأك» .

وواضح من هذه الاحاديث أن الكلام يدور على كيفية أداء القراءة ولهجتها كما هو شأن الاحاديث الصحيحة التي سبق إيرادها ، ووسع ما فيها من ترخيص هو التساهل في أن يخطيء القارئ ، فيقول علياً بدل حلياً وغفوراً بدل رحيماً .

ولقد تعددت تحريجات العلماء لمعنى الاحرف السبعة ، حتى قال السيوطي : إنها بلغت خمسة وثلاثين ، وأورد في كتابه «الاتقان» منها اثنين وعشرين ، منها ما لا يبدو صلة بينه وبين قراءة النص القرآني (١) ، ومما له صلة بقراءة النص القرآني «أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بل التيسير والتسهيل والسعة ، ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد كما يطلق لفظ السبعين في العشرات والسبعمئة في المئات وهو المقصود بما جاء في القرآن من ذلك» ومنه «أن المراد وجوه قراءات الكلمة التي تحمل كتابتها قراءات عديدة

١ . من هذا النوع مثلاً أن المراد بها سبعة علوم علم الانشاء والايجاد ، وعلم التوحيد ، وعلم صفات الذات والافعال وعلم صفات العفو والعذاب ، وعلم الحشر والحساب ، وعلم النبوات ، ومن ذلك ما احتواه القرآن من زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، أو من حلال وحرام وأمر ونهي وزجر وخبر ما هو كائن بعد وأمثال ، أو أمر ونهي وحد وعلم وسر وظهر وبطن ، أو من أمر حتم وأمر ندب ونهي حتم ونهي ندب وأخبار وإباحات ، أو سبع معاملات من زهد وقناعة مع اليقين وجزم وخدمة مع الحياء ، وكرم وفتوة مع الفقر ومجاهدة مع الخوف ، ورجاء مع الشكر ، وصبر مع المحاسنة ، ومحبة وتشوق مع المشاهدة ، وهذا تخريج من الصوفيين ، ومنها أمر ونهي وبشارة ونذارة وأخبار وأمثال ، ومنها محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص وعموم ومنها مقدم ومؤخر وفرائض وحدود ومواظ ومتشابه وأمثال ..

مثل جملة (أو عبد الطاغوت) التي يمكن ويصح قراءتها (عابد الطاغوت) ومثل جملة (مالك يوم الدين) التي يمكن ويصح قراءتها (ملك يوم الدين) ومنه «المراد بذلك إجازة تقديم وتأخير في الجملة مثل (وجاءت سكرة الموت بالحق) التي يصح أن تقرأ ، (وجاء سكرة الحق بالموت) و (إن الله لا يهدي من هو كافر كذاب) التي يصح أن تقرأ (إن الله لا يهدي م هو كاذب كفار) ومنه (ان الرخصة قد كانت في زمن النبي ﷺ لأن أكثر الناس لم يكونوا يقرؤون ويكتبون أو يحسنون ذلك ، ولم يكونوا يعرفون رسم الحروف ومخارجها معرفة جيدة) ومنه (ما يقع من اختلاف القراءة للأفراد والتشنية والجمع والتذكير والتأنيث ، وتصريف الافعال من ماض وحاضر وأمر ومخاطب وغائب واختلاف الاعراب باختلاف المواقع) ومنه (إن المقصود هو الاداء الصوتي من إمالة وترقيق وتشديد وتخفيف وتكين دون تغيير في المعنى والصورة واللفظ) ومنه (إن المقصود هو الترخيص بقراءة الكلمة على وجهين أو ثلاثة أو سبعة تيسيراً وتهويناً) .

وقد أورد السيوطي الى هذا تقريرات عديدة لبعض العلماء في صدد ذلك . منها (إن المسلمين أجمعوا على تحريم إبدال آية بآية) و (إن جماهير العلماء من السلف والخلف ، وائمة المسلمين قالوا : إن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من القراءات السبع ، وإنها جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ على جبريل متضمنة لها لم تترك حرفاً منها) و (إن أصحاب الرسول الله ﷺ لما رأوا الناس يختلفون في قراءة الكلمات أجمعوا على كتابتها على ما جاء في المصحف العثماني ، وعلى ما تحققوا انه القرآن المستقر في العرضة الأخيرة ، وتركوا سوى ذلك ، وإن ما يقرؤه المسلمون فيه هو الذي كان يقرأ في العام الذي قبض النبي ﷺ فيه ، وإن زيد بن ثابت الذي كتب مصحف أبي بكر كان كاتب وحي رسول الله وشهد العرضة الأخيرة ، وكتبها لرسول الله ﷺ ، وقرأها عليه ، وكان يقرئ الناس عليها ، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في كتب المصحف ، وولاه عثمان خه ثانية فنسخه عن نسخة أبي بكر) .

وواضح من هذه الأقوال التي هي التي يصح سوقها في معرض شرح مدى أحاديث الأحرف السبعة ، ومن الأحاديث السبعة نفسها على اختلاف رتبها انها ليس فيها ما يفيد أنه كان للألفاظ القرآنية صيغ متعددة أو أنه كان يقرأ قراءات مختلفة في الألفاظ ، وكل ما تفيده أن بعض كلماته كانت تكتب وتقرأ بشيء من الاختلاف الأدائي ، وكل زعم أو وهم خلاف ذلك مردود بفحوى وروح الأحاديث على اختلاف رتبها ، وبفحوى تقارير العلماء لمداها من جهة ، وبناء على ما شرحناه شرحاً وافياً مقنعاً فيما نعتقد من ظروف ووقائع تدوين القرآن وترتيبه في حياة النبي ﷺ ، وتداوله بعده على نفس الترتيب من جهة أخرى .

ومن الجدير بالتنبيه أن الأحاديث المروية ، وتقارير العلماء المتصلة بقراءة النص القرآني والمفسرة لمدى الأحاديث هي على المتبادر القوي في صدد تلاوة القرآن غيباً ، وليست في صدد كتابته أو تلاوته من الصحف حاضراً من حيث الأصل والمدة وفي الحديث الذي يرويه الترمذي ما يدعم ذلك ، فقد جاء فيه أن النبي ﷺ قال لجبريل : إنه بعث إلى أمة أميين ، أي : لا يقرؤون ، وإنما يسمعون فيحفظون فيقرؤون من حفظهم حيث يبدو بارزاً أن التيسير الرباني النبوي إنما كان لمن يتلو القرآن غيباً من حفظه لأن احتمال التقديم والتأخير ، وإبدال كلمة بكلمة هو الوارد في مثل ذلك .

وليس هناك أي قول بتجويد كتابة كلمة ما في مصحف بدل كلمة في المصحف العثماني المنسوخ يقيناً عن مصحف أبي بكر المأثور يقيناً عن النبي ﷺ ، ولا بتجويد قراءة كلمة ما حاضراً من المصحف مغايرة لما في ذلك المصحف ولو كانت الكلمتان مترادفتين ، أو في معنى واحد ، ولا قراءة من مصحف مع تقديم أو تأخير في كلمة أو إغفال حرف ما حتى ولو لم يختلف المعنى .

وتنبه على أمر مهم آخر وهو أن ما هنالك من تعدد القراءات مما يسمى بالقراءات السبع أو العشر ليس هو في صدد اختلاف في الألفاظ أو نقص أو زيادة فيها ، وإنما هو في صدد

اختلاف الأداء في القراءة بسبب طريقة كتابتها وإملائها ونطقها وحسب مما سوف نزيده شرحاً في نبذة آتية .

ثالثاً : القراءات القرآنية :

إن بعض المتحليين يلتزمون فيما يسمى بالقراءات السبع أو العشر أو الأربع عشر ثغرات في القرآن ، فصار من المناسب إيراد نبذة وجيزة في ذلك لوضع الامر في نصابه الحق إن شاء الله .

وأئمة القراءات المشهورة سبعة وهم : ابن عامر عبد الله اليحصبي وكان مقامه في دمشق وهو تابعي توفي سنة (١١٨) ، وأبو سعيد عبد الله بن كثير الدارمي وهو تابعي ، وكان مقامه في مكة وتوفي سنة (١٢٠) وأبو بكر عاصم بن أبي النجود وهو تابعي مقامه في الكوفة وتوفي سنة (١٢٧) وحمزة أبو عمار بن حبيب الزيات وكان مقامه الكوفة وتوفي سنة (١٥٦) وأبو رويم نافع بن عبد الرحمن وكان مقامه المدينة وتوفي سنة (١٦٩) وأبو الحسن الكسائي ، وكان مقامه الكوفة وتوفي سنة (١٨٩) وأبو عمرو زيان بن العلاء وكان مقامه في البصرة وتوفي سنة (١٥٤) .

ويضيف بعضهم إلى هؤلاء ثلاثة أئمة للقراءة هم أبو جعفر بن زيد في المدينة وتوفي سنة (١٦٠) ويعقوب بن الحضرمي في البصرة وتوفي سنة (٢٠٦) وخلف البزار في الكوفة وتوفي سنة (٢٢٩) فتصبح القراءات عشراً .

ويضيف بعضهم أربعة أئمة آخرين هم الحسن البصري المتوفى سنة (١١٠) وابن محيصة المكي المتوفى سنة (١٢٣) ويحيى اليزيدي البصري المتوفى سنة (٢٠٢) ومحمد بن ابراهيم الشنبوذي البغدادي المتوفى سنة (٣٨٨) فتصبح القراءات أربع عشرة .

مع التنبيه على أن بين علماء القرآن خلافاً في صدد إمامة المضافين على السبعة الأولين ولاأخذ بقراءاتهم حيث يميزها بعضهم ويقصر بعضهم وجوب الأخذ بقراءات الأئمة السبعة الأولين .

وتدور خلافات القراءة في النطاق التالي :

- ١ - مخارج الحروف كالترقيق والتفخيم .
- ٢ - الامالة أي : الميل إلى المخارج المجاورة كنطق الألف المقصورة أقرب إلى الياء .
- ٣ - الاشمام وهو جعل الشفتين على صورة الحركة أو الإشارة إليها من غير تصويت .
- ٤ - الأداء كالمد والقصر والوقف والوصل والتسكين والنقل ومواضعها وما يجوز وما لايجوز منها .

٥ - الرسم كالتشديد والتخفيف .

٦ - الادغام والاظهار .

٧ - الابدال .

٨ - قراءة المهموز والهمزات .

٩ - اجسام الكلمات مثل ملك ومالك ، ومسجد ومساجد ، ويخدعون ويخادعون .

١٠ - التنقيط والحركات الاعرابية مثل يفعلون وتفعلون ، ونشرها ونشرها .

ولقد وضع علماء القراءة شروطاً أربعة لصحة القراءة الخلافية وهي :

١ - التواتر بحيث لاتصح قراءة غير القراءة المتواترة المشهورة .

٢ - موافقة العربية بوجه ما بحيث لاتصح قراءة لاتتفق مع قواعد اللغة .

٣ - رسم المصحف العثماني بحيث لاتصح قراءة مغايرة للرسم المذكورة .

٤ - صحة سند القراءة بحيث لاتصح قراءة خلافية لاتستند إلى سند وثيق يتصل

بأحد قراء أصحاب رسول الله ﷺ .

واجتماع الشروط الأربعة شرط لازم بحيث لاتصح قراءة لاتجتمع فيها .

وواضح من كل ما تقدم أن القراءات الخلافية هي اختلاف في قراءة كلمات

المصحف العثماني في نطاق اللفظ والأداء والحركات والتنقيط ورسم الكتابة مما

يتحمله كتابة مصحف عثمان ، ومما هو مسموع من أصحاب رسول الله ﷺ

المفروض أنهم تلقوا عن رسول الله ﷺ أو رخص لهم رسول الله وفيه تسهيل وتيسير وحسب ، وليس على كل حال في ألفاظ وكلمات وآيات ...
(٤) النسخ والتبديل والتعديل في القرآن .

- ١ -

وهذه مسألة أخرى يحاول المتمحلون أن يجدوا فيها ثغرة ضد الوحي الرباني القرآني ، فصار من المناسب إيراد نبذة وجيزة يوضع بها الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .
والثغرة التي يثير المتمحلون الكلام حولها هي في صدد ما تفيده بعض نصوص القرآن من وقوع نسخ وتبديل وتعديل في القرآن حيث يتساءلون تسأول المنكر عما إذا كان يصح أن يكون القرآن وحياً من الله تعالى المحيط علمه وقدرته بكل ما كان ويكون عند المؤمنين ، ثم يكون منه بداء وتراجع عن موقف أو حكم أو أمر أوحى به أو تعديله أو إلغائه أو تبديله بغيره (١) .

- ٢ -

ولعلماء المسلمين بحوث سديدة قوية في دفع وتفنيد اعتراضات المعارضين وشبهاتهم ، وإثبات كون النسخ والتبديل في القرآن جائزاً عقلاً ، وليس من شأنه أن يخل بكمال صفات الله وقدرته وعلمه وحكمته . ونقول على طريقتنا بالاضافة الى ذلك : إن القرآن قد أجاب على الاعتراض من ناحية المعنى والمدى إجابة قوية حيث قرر أن الله إذا شاءت حكمته شيئاً ما من ذلك ، فإنه لا حرج عليه لأنه يحوماً يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ولأنه إذا نسخ آية أو أنساها يأتي بآية خير منها أو مثلها في نطاق حكمته وقدرته ، ولأنه إذا

(١) يقصد بالبداء ظهور أمر في موقف ما كان خافياً على صاحب الموقف ، فيجئ الى تعديل موقفه أو العدول عنه نتيجة لذلك ، وفي القرآن آيات فيها هذا الفعل بهذا المعنى مثل آية سورة يوسف هذه : (ثم بداهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ..)

بدل آية بآية فإن ذلك يكون لتثبيت الذين آمنوا وهدى وبشرى لهم كما جاء في هذه الآيات :

١ - (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .) البقرة ١٠٦ - ١٠٩

٢ - (يَحْوَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ .) الرعد : ٣٩

٣ - (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ .) النحل : ١٠١ ١٠٢

ومن الجدير بالتنبيه أن كلا من آيات السور الثلاث نزلت في مواقف اعتراضية على ما شاءت حكمة الله أن يكون من تبديل ونسخ لتجيب على الاعتراض ، وتضع الامر في نصابه الحق حسب ما شرحناه . فأيات البقرة من سلسلة في مواقف اليهود ، وتفيد أن اليهود حاولوا تشكيك المسلمين فيما كان من حكمة الله من نسخ أو إنساء لبعض الآيات ، وآيات النحل في صدد موقف اعتراض وتهوئش من ناحية المشركين في ذلك أيضاً .

وهناك ما يصح أن يقال بالاضافة الى ما في الآيات من أجوبة قوية تضع الامر في نصابه الحق ، وتوجب على من يريد أن يتكلم في صدد ما قد تفيده نصوص القرآن من نسخ وتبديل وتعديل أن يلتزم بما يقرره القرآن ، ويعتبره ضابطاً في هذه المسألة كما هو الشأن في المسائل الأخرى دون تيهان في متاهات الجدل والمماحكة .

فالقرآن دار ويدور على دعوة الناس وإنذارهم وتبشيرهم وحكاية مواقفهم وتصرفاتهم وما يجب وما يصلح لهم وما لا يجوز ولا يصلح لهم ، وكل هذا بطبيعته عرضة للتطور والتبدل والتفاوت بين حال وحال وظرف وظرف وفئة وفئة فلا غرو أن يتسق القرآن مع ذلك . ولقد نبهنا في النبتين (أولاً) و (ثانياً) من الفصل الثالث على الصلة الوثيقة بين التنزيل القرآني والبيئة النبوية والسيرة النبوية ، وما كان فيهما من صور ومواقف متنوعة ومتبدلة ومتفاوتة فعلاً ، وما كان من تساوق هذا التنزيل معها ، وأوردنا شواهد عديدة عليه من القرآن .

والنسخ والتبديل والتعديل مما يمثل هذا التساوق ، أو يعبر عنه كما هو المتبادر . ونعتقد أن فيما تقدم سداً لباب أي تحمل من غير المسلم إذا لم يرد المكابرة والمحاكة . وليس في اعتقاد المؤمن بالنسخ والتعديل والتبديل في القرآن على هذا المدى ما يصح أن ينقض إيمانه بقدرة الله وعلمه المحيطين بكل ما كان ويكون . ويستطيع المؤمن أن يلمح هذا الاتساق في سنن الله الكونية والاجتماعية فيزداد إيماناً على إيمان . ففي مشاهد الكون والاجتماع البشري وأدواره التي تجري وفق النواميس الربانية تطور وتفاوت وتكيف وتبدل ونمو وتكاثر وتوقف وتراجع ، وتقلب من حال إلى حال ، مع أن الله تعالى قادر على خلق كل شيء دفعة واحدة في صورته النهائية .

- ٣ -

ومن الحق أن نذكر أن فريقاً من علماء المسلمين ينكرون النسخ في القرآن انطلاقاً من استحالة البدء على الله ويسوقون آية سورة فصلت هذه :

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ .) ٤٢

وليس في هذه الآية الحجة التي يريدون ، فليس النسخ ابطالاً ، وكل أمره هو تبديل أمر رباني بأمر آخر كلاهما حق في ظرفيهما ، وكلاهما في علم الله ، ونطاق قدرته وحكمته .

والنصوص التي تقرر وقوع النسخ والتبديل أقوى من أن تؤول تأويلاً يؤول إلى إنكار ذلك .

ولقد جرت عادة الله على إرسال رسله فترة بعد أخرى ، وفي رسالات بعضهم تبديل وتغيير ونسخ مما نص عليه القرآن ، ومما يثله هذه الآيات :

١ - وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . (آل عمران : ٥٠ و ٥١)

٢ - (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ . يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .)
المائدة : ١٥ و ١٦

٣ - فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . (المائدة : ٤٨)

٤ - (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .) (الأعراف : ١٥٧)

- ٤ -

وعلماء القرآن يقسمون النسخ في القرآن الى ثلاثة أنواع : نسخ تلاوة وحكم ، ونسخ تلاوة مع بقاء حكم ، ونسخ حكم مع بقاء تلاوة .

وفي آيات البقرة والنحل التي أوردناها أنفاً دليل قرآني على صحة وقوع النوع الاول فيما هو المتبادر وإن لم يكن في القرآن ما يوضح كنهه ما وقع .

وهناك روايات عديدة مختلفة الرتب تفيد أن نصوصاً قرآنية عديدة نزلت ثم رفعت في حياة النبي ﷺ ، وليس في وقوع هذا النوع من النسخ خلاف ، وقد انقضى في حياة النبي ﷺ والخلاف هو في صحة ورتب الروايات .

أما النوع الثاني ، أي : المنسوخ تلاوة ، والباقي حكماً فلا يورد الذين يقولون به إلا الآية المسماة بآية الرجم ، وقد روي لها نصان ، وهما هذان :

١ - (إذا زنى الشيخ والشيخة فارجهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم .)

٢ - (الشيخ والشيخة فارجهما إذا زنيا البتة بما قضيا من اللذة .) ونحن نتوقف في التسليم بهذا النوع ونعتقد أن الاولى ، والله اعلم أن تكون هذه الآية نسخت حكماً وتلاوة إذا كانت حقاً مما نزل ورفع ، وأن الرجم في الاسلام للزاني المحصن هو حكم نبوي غير مستند الى هذه الآية ، بدليل ما بين مدى الآية ومدى التشريع النبوي من فرق واضح ، فليس في الآية تفريق بين محصن وغير محصن ، وقد اختصت بالشيخ والشيخة دون سائر الزناة ...

بقي النوع الثالث ، وهو النسخ حكماً ، والباقي تلاوة ، ونحن وإن كنا نذكر النسخ فقط ، فإن الكلام يشمل التبديل والتعديل أيضاً لأنه نوع من النسخ .

وبعض العلماء ينكرون هذا النوع ، ويحاولون أن يجدوا لكل ما يبدو أنه ناسخ أو منسوخ أو مبدل أو معدل تعليلاً يخرجهم من هذا النطاق ، وهناك من ألف كتباً في الناسخ والمنسوخ ، وأورد شواهد كثيرة عليه ، وبعضهم يقتصد ويقتصر على ما هو بارز مشهور من نصوص فيها نسخ أو تعديل أو تبديل مع خلاف بينهم فيما يساق من شواهد أيضاً ،

وبعضهم يورد أمثله كثيرة .

وإذا كان كثير من الشواهد التي تساق مما يتحمل توقفاً ، فإن في القرآن شواهد تجعل القول بواقع هذا النوع صواباً مع بروز كون ذلك قد جرى في نطاق ما كان من تطور ، وتبدل في المواقف والظروف .

ويبرز هذا بصورة عامة من المقارنة بين مدى وأسلوب القرآن المكي ، والقرآن المدني ، وفيما يلي أمثلة موضحة :

(١) إن القرآن المكي أمر النبي ﷺ والمؤمنين مراراً بالصبر ، وعدم الاستجابة لاستفزاز الكفار وأذاهم مما يمثله هذه الآيات :

١ - (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخْفِينَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ .) الروم : ٦٠

٢ - (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا

يَكْسِبُونَ .) الجاثية : ١٤

وآية الجاثية نزلت في موقف شتم فيها مشرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أو غيره من المسلمين ، فاستاذن النبي بالمقابلة ، فاقتضت حكمة الله بنصيحهم بالصبر والغفران .

وظل هذا الى أوائل العهد المدني أيضاً ، ويمثل ذلك آية البقرة هذه :

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حُسَدَاءَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .) ١٠٩

وآية النساء التذكيرية بذلك هذه :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ

ثم أخذت تنزل آيات الاذن بالقتال مما يمثله هذه الآيات :

١ - (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الصَّوَامِعُ وَبِيعُ وَصَلَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ .) الحج : ٣٩ و ٤٠

٢ - (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) البقرة : ١٩٠

٣ - (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .) البقرة : ٢١٦

٤ - (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ . فَمَا تَتَّقِفْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ . وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ .) الانفال (١) : ٥٥ - ٥٨

٥ - (قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ .) (٢) التوبة : ٢٩

والمتبادر أن في هذه النصوص شواهد على تعديل وتبديل في الموقف حسب تبدل الظروف .

(١) هذه الآيات في حق يهود بني قينقاع في المدينة على ما ذكرته الروايات .

(٢) هذه الآية نزلت بين يدي غزوة تبوك التي قادها النبي ﷺ ضد قبائل مشركي الشام النصرانية .

(٢) والقرآن المكي نهى عن الزنا ، وانهذار فاعليه بالعذاب الاخروي كما جاء في هاتين الآيتين :

- ١ - (وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا .) ١ الله : ٣٢
٢ - (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا .) الفرقان : ٦٨ - ٦٩

فلما كان العهد المدني نزل أولا هذه الآيات :

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا . وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ..)
النساء : ١٥ و ١٦

ثم نزلت آية النور الثانية هذه :

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .) (النور : ٢

والتعديل والتبديل واضحان في هذه الآيات أيضاً .

(٣) ومثل هذا يقال في الربا ، فقد قرر القرآن المكي كراهية الله للربا في هذه الآية :

(وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا لِيَرْبُوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ..) الروم : ٣٩

فلما كان العهد المدني نزل أولا نهى عن أكل الربا اضعافاً مضاعفة في آية سورة آل

عمران هذه :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ..)

آل عمران : ١٣٠

ثم نزلت هذه الآيات في النهي عن الربا مطلقاً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ .) البقرة : ٢٧٧ و ٢٧٨

وهذه أمثلة للنسخ والتعديل في نصوص وظروف مدنية .

(١) لقد نبه القرآن في أول العد المدني على ما في الخمر والميسر من الاثم في هذه

الآية :

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ .) البقرة : ٢١٨

ثم نزلت هذه الآية عن الصلاة في حالة السكر فقط :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .)

النساء : ٤٣

ثم نزلت هذه الآيات بالنهي الحازم عنهما :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُمْ مُنْتَهُونَ .)

المائدة : ٩٠ و ٩١

وفي سورة البقرة إيجاب بالوصية للوالدين والاقربين .

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَلَدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ
بِالْعُرْفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ..) البقرة : ١٨٠

ثم نزلت آية النساء هذه التي تعين للوالدين والأقربين أنصبة في التركات .

(يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَتَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ لِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ..) النساء : ١١

وبعد هذه الآية وما بعدها تنمة لها قال النبي ﷺ : (إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) (١) .

والجمهور على أن آية النساء قد نسخت آية البقرة في صدد الوصية لمن له نصيب مفروض .

(٣) وفي سورة المجادلة هاتان الآيتان :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَاجَيْتُمْ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ
لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . أَلَسَفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ
صَدَقَاتٍ فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ..) المجادلة : ١٢ - ١٣

والمتبادر أن الآية الثانية قد نزلت بعد مدة ما من الآية السابقة لها واحتوت نسخاً لما في
هذه الآية من إيجاب اقتضته حكمة الله وظروف المؤمنين فوضعت بعدها .

(١) رواه الترمذی والحديث من أحاديث النبي ﷺ في حجة الوداع .

(٤) وفي سورة الأنفال هاتان الآيتان

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا
مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ . الْآنَ
خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ
يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . (الأنفال : ٦٥ و ٦٦)

والمتبادر أن الآية الثانية نزلت كذلك بعد الآية الأولى بمدة ما ، واحتوت تعديلا لها
اقتضته حكمة الله ، وحالة مجموع المؤمنين ، فوضعت بعدها للمناسبة .

(٥) في سورة البقرة هذه للآية :

(أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ هُنَّ عَلِمَ اللَّهُ
أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَقَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا
كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ
الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . (البقرة : ١٨٧)

وقد روي أن الصيام كان عند أول فرضه يبدأ عند النوم بحيث لا يجوز لمن يستيقظ من
نومه قبل الفجر أن يأكل أو يجامع ، وأن الآية قد احتوت نسخاً أو تعديلا لذلك ، ونص
الآية قد يفيد هذا حقاً ، ومن المحتمل أن يكون الترتيب الأول ترتيباً من النبي ﷺ
يوحى غير قرآني ، ثم اقتضت حكمة الله وحالة المسلمين تعديل ذلك ، فنزلت الآية
بالتعديل .

(٦) - في سورة البقرة هاتان الآيتان :

١ - (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . (٢٣٤)

٢ - (وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .) ٢٤٠ البقرة

ولقد كانت عدة حداد المتوفى زوجها سنة كاملة ، وهذا ما قد تفيده الآية الثانية أيضاً ، فاحتوت الآية الاولى تعديلاً للمدة ، واعتبرها الجمهور ناسخة أو معدلة ، واستند القائلون الى حديث رواه البخاري ، عن عبد الله بن الزبير يفيد أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يعتبرونها كذلك . ونص الحديث هو : «عن عبد الله بن الزبير قلت لعثمان : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهن مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ) قد نسختها الآية الاخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا ابن أخي : لا أغير شيئاً من مكانه» .

وهناك أمثلة وشواهد عديدة اخرى ، فنكتفي بما تقدم حيث يتضح منه ما نبهنا عليه من مقتضى حكمة الله من نسخ وتبديل تساوقاً مع الظروف ، ومن كون ذلك غير متناقض مع وحي القرآن الرباني ، وفيه سد الباب التحمل لمن يريد التماس الثغرات مكابرة ومماحكة .



الفصل الرابع

وجه الجهر مع محكمات القرآن

- ١ -

بعدما تقدم في الفصل السابق من شروح وبيانات وعواصم من النظرة الاعتبارية الجزافية في القرآن التي ينسبها باب التمحل والمحاكة والتحريف والافتراء وسوء التأويل والفهم والادب ، ونصبح وجهاً لوجه أمام المحكمات القرآنية التي وصفها القرآن بأنها (أم الكتاب) والتي انطوى فيها مبادئ وأسس الدعوة الإسلامية وأحكامها وقواعدها وتشريعاتها وتلقيناتها في مختلف الشؤون على ما نبهنا عليه في النبذة الرابعة من الفصل السابق المعقود على موضوع الاسس والوسائل ، او المحكمات والمتشابهات في القرآن . نقول بكل جزم وبأقوى صوت وأعمق إيمان : إن في هذه المحكمات كل ما هو متوافق مع الحق والعقل والعدل والمنطق والعلم ، ومصلحة الإنسانية في مختلف نواحي الحياة الروحية والعقلية والمعاشية والسياسية والحضارية والثقافية ، وأنها ليس فيها أي شيء يمكن أن يتناقض ، أو لا يتفق ويتسق مع كل ذلك ، وأنها ليس في تشريعاتها وتلقيناتها ومبادئها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية والشخصية ما لا يمكن تطبيقه مع كل ظرف ، وما يمكن أن يؤدي تطبيقه الى غير صالح المجتمع الاسلامي وخيره ، وأن فيها من المرونة ما يجعلها قابلة للانطباق والتطبيق على كل ظرف ، وفي ظل أي تطور مما فيه الدليل القوي على كونها حياً من الله الحكيم الخبير المدبر المحيط ، وبكلمة أخرى نقول : ان من مقتضى هذه المحكمات أن الدين الاسلامي دين متكامل ، أي : دين عقيدة ونظام ودنيا وآخره وسياسة وقضاء واجتماع وسلوك ، وأنه دين إنساني عالمي رشح ليكون دين الإنسانية جميعها أبيضها وأحمرها وأسودها وأصفرها وعربها وعجمها ، وليظهره على الدين كله كما جاء في آيات قرآنية عديدة منها آية سورة الفتح هذه :

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً .) ٢٨

ورشح معتنقيه إذا عملوا الصالحات التي تعني كل ما فيه خير ومصلحة وحق وعدل وعزة وكرامة للاستخلاف في الأرض ، وتمكين دينهم فيها كما جاء في آية سورة النور هذه :

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .) ٥٥ النور

وقرر أنهم بذلك يكونون خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن الكمنكر ، وأن ذلك يتحقق منهم حينما يمكنهم الله بالايان والاعمال الصالحة في الارض .

وقد قام على الدعوة الى الله وحده المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن كل نقص ومماثلة ، وعلى تقرير ربوبيته للعالمين جميعاً دون اختصاص ، واستغنائه وتنزهه عن الشريك والمساعد والولد بأي معنى كان ، وسواء أكان ذلك تأويلاً أم وسيلة أم شفاعاة ، وقد حارب القرآن بكل قوة ودوناً هواة كل أنواع ومظاهر الشرك التي تمثل انحطاط الانسانية وتسخيرها لقوى وأفكار وعقائد سخيفة مغايرة للعقل والمنطق والحق ، كما تمثل نظاماً جاهلياً فيه التقاليد الجائرة ، والعادات المنكرة ، والعصبية المقنونة ، وهدف الى القضاء على ما طرأ على الديانات السماوية ، وبخاصة الديانتين المعروف يقيناً مصدريتهما من الله الممارستين أي : اليهودية والنصرانية من سوء تأويل وانحراف وانقسام واختلاف وتهاتر ، والى تحرير الانسانية من الخضوع لآية قوة خفية وظاهرة غير الله ، وفتح آفاق الحياة للمؤمنين بهذا الدين على مصراعيها في نطاق أسنى المبادئ ، وأكرم الاخلاق ، وأفضل المناهج ، والخطط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفردية والانسانية ، وأشدها مرونة للنهوض الى ذرى الكمال في كل مجال من مجالات الحياة ، وتوجيهها نحو أحسن

السبل وأشرفها وأنزهها وأعدّها وأتمّها صفاء وسناء ، شاملة للناس جميعهم على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، ليكونوا تحت رأيته أخوة متساوين في الحقوق والواجبات على اختلاف مناحيها وليقوم في ظله عالم واحد ، ونظام واحد ، ودين واحد ، ولغة واحدة وبكلمة واحدة مجتمع انساني واحد ، يتولى الامر فيه الصالحون خلقاً وديناً الاكفاء الحريصون على المصلحة العامة ، لاطاعة فيه لسلطان بمعصية وضرر ، ولا سند لحاكم فيه إلا كتاب الله وسنة رسوله ومصلحة العباد والبلاد المتسقة معها ، ولا مكان فيه لظالم جبار ، وطاغية مسيطر والشورى فيه صفة أساسية لاهله ، وواجب ملزم لحكامه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أي : الأمر بكل ما فيه خير وصلاح ونفع ، والنهي عن كل ما فيه شر وفساد وضرر - الدعوة الى الخير والسلام ، والتواد والتراحم والتواصي بالصبر والحق والرحمة من واجبات كل فئة فيه حاکمة ومحكومة وصفة أساسية ، وخصائص ذاتية لأهله نتيجة لاسلامهم وإيمانهم ، لا يسمح فيه باستقطاب الثروة في جانب ، والفقر في جانب ، ويؤخذ فيه من الغني للفقير ، ويمنع فيه القوي من ظلم الضعيف ، ويساعد فيه القادر العاجز ، ويتواصون جميعاً بالصبر والرحمة والتعاون والتعاطف ، ويستمتعون جميعاً بكل طيب حلال من طيبات الحياة وزينتها بدون تفريط ولا إفراط ولا إسراف ولا اعتداء ، وتنع فيه الفواحش والمنكرات والمضرات والموبقات والاثم والبغي ، في ظل سلام شامل يعرف الناس عبره أنهم إنما وجدوا ليتعارفوا ويتفاهموا ويتعاشوا ويتعارفوا على البر والتقوى دون الاثم والعدوان ، ويتسابقوا في الخيرات ، وفي ظل شرائع وتعاليم وخطوط ومبادئ قابلة للانطباق في كل زمن ومكان ومستجابة لمختلف مطالب البشر المادية والروحية ، ومخاطبة للعقل والقلب معاً وموفقة في ذلك كله بين سعادة الدنيا والآخرة بأسلوب لا تعقيد فيه ولا التواء ولا أصار ولا أغلال وتكاليف شاقة ، ونافذ الى اعماق النفس ، مع الامر بالدعوة الى سبيل الله أي : الدعوة الى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وعدم

الأكراه والاجبار في الدين ، وسعة الصدر لمن أراد الاحتفاظ بدينه وعقيدته إذا وادّ المسلمين وسالمهم ولم يتآمر عليهم وعلى دينهم مع الأمر بمعاملة هؤلاء بالقسط والبر وحسن التعايش والتعامل ، وبعدم القتال إلا للدفاع ودفع العدوان والمقابلة بالمثل ، وتأمين حرية الدعوة ، وإرغام الظالمين ، وقد وصف معتقوا هذا الدين في القرآن بصفة (الوسط) التي تعني الخيرية والاعتدال في كل شيء ، وعدم الافراط والتفريط ، وعدم الغلو والتقصير ، وعدم الاقتصار على ناحية والتقصير في ناحية مما فيه خير دنيا ودين ، والتمسك بكل ما هو الافضل والاصلح والانفع والاحسن من كل أمر وصفة وخلق وعمل وموقف ، ووصف هذا الدين بأنه مصدق لما بين يديه من الرسالات التوحيدية التي جاء بها أنبياء الله ، ومتمم لها ، وقد جاء كتابه مصدقاً كذلك لما بين يديه من كتب الله ومهيماً عليها ، لأنه آخر كتب الله وليبين لأهل الكتاب السابقين كثيراً مما كانوا يخفون ويعفو عن كثير ، ويحل لهم كثيراً مما كانوا يختلفون فيه ، ويضع الامور في كل ذلك في نصابها الحق .

ولقد اختص الدين الاسلامي الانثى بعناية خاصة ، فجعلها صنوا للذكر وقسماً له في الانسانية والحقوق والواجبات والتكاليف والحياة العامة ، وبنیان الدولة والمجتمع سواء بسواء ، كما اسبغ على الحياة الزوجية رعاية عظيمة ، كفل فيها حق المرأة من مختلف النواحي مما لم يكن له مثيل في سابق الاسلام . ومما لم تلحق به الى الآن .

ولتقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها معنى عظيم آخر هو أن ما احتوته من ذلك أمراً كان أم نهياً ، وإيجابياً كان أم سلبياً ، وفي مختلف المواقف والظروف والاعتبارات، مما يجب على المسلم الالتزام به عبادة وتديناً وعقيدة وإيماناً ، وليس من قبيل التنظيم القانوني والاجتماعي البشري الذي يمكن أن يستبجح المرء التحلل منه وعدم الالتزام به ، بل ومخالفته إذا شاءت له المنفعة والهوى .

ونرى قبل البدء في التفصيل أن ننبه على أن الملحدین واعداء الاسلام من النحل الاخرى يوردون مغامز وشبهات وانتقادات متنوعة ضد المبادئ والبوادر الاسلامية الاساسية التي تنبثق عن المحكمات أيضاً مما يتصل بالجوانب العقائدية والسياسية والجهادية والاجتماعية والاقتصادية والحياة الزوجية والسلوكية الخ ... كما فعلوا بالنسبة للجوانب الثانوية أوردنا كثيراً منه وفندناه في الفصول السابقة . وكما أن ما أورده بالنسبة للجوانب الثانوية ناتج عن غباء وجهل وقصد مباحكة ومماارة وعدم استيعاب نصوص مع سوء قصد وحقد وروح عدوانية فان ما يوردونه بالنسبة للجوانب الاساسية ناتج عن ذلك كله من جهة وعن بعض وقائع تاريخ الاسلام في بعض الظروف وواقع المسلمين من جهة وعن اتكاء على بعض أقوال واجتهادات غير سليمة من جهة . ولا تتحمل منابع الاسلام الصافية (القرآن والسنة النبوية) مسؤوليته وهما المنبعان الاصيلان للذان وصلا اليها سليمين من عهد النبوة والذان هما في متناول كل الناس اطلاعاً وفهماً . ونعتقد أن فيما سوف نورد من تفصيل لمقتضيات المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتها الرد الكافي لسد كل تمحل واسقاط كل شبهة وتفنيد كل مغمز وقد اكتفينا بذلك دون ذكر شبهات ومغامز معينة لأن ما أوردناه في التفصيل الآتي جامع شامل لكل شيء ولا سيما اننا أوردنا كثيراً من ذلك في كتابنا (القرآن والمبشرون) وفندناه وأن علماء وباحثين اسلاميين كثيرين انبروا قديماً وحديثاً الى تفنيد ذلك ورده في كتب كتبوها وبخاصة في هذا القرن وأواخر القرن الفائت .

ولقد اشدت انتباه كثير من رجال العلم والعقل في بلاد الغرب الى الاسلام في هذا القرن والقرن الفائت ، فدرسوه في منابعه الصافية ومحصوه وتبينوا ما في كتب المبشرين والمستعمرين والحاquدين من سوء فهم وجهل وقصد وتخريف وتشويه وحقد وفندوه وعقدوا المقارنات بين الاسلام وبين غيره وكتبوا كتباً كثيرة نوهوا فيها بكل ذلك وبما ينطوي في

الاسلام من عقائد ومبادئ وتشريعات وخطوط وتلقينات بلغت الذروة في السمو والحكمة والحق والصدق والاستجابة لكل مطلب والحل لكل مشكلة ايمانياً وانسانياً اجتماعياً وسياسياً وسلوكياً واخلاقياً واقتصادياً وكان من نتيجة ذلك أن صاروا وصار كثيرون آخرون من بلادهم يقبلون على اعتناق الاسلام والانضواء اليه وما يزال هذا واقعاً مستمراً في كل بلد من بلاد الغرب الاوربية والامريكية . وهذا فضلاً عن ما كان من أهل العلم والكتاب والعقل من مثل ذلك من عهد النبوة والقرون العديدة التي تلتها وكان من نتيجته اقبال الآلاف المؤلفة على اعتناقه والانضواء اليه . وكل هذا بسبب قوة عناصر الاستجابة التي انطوت في الدعوة الاسلامية واهدافها عقائدياً واجتماعياً واقتصادياً وانسانياً وسلوكياً وعجز كل المحاولات الحاقدة العدائية عن اطفاء نورها . ولقد كانت هذه العناصر كفيلة باستمرار ذلك ليس فقط في عهود قوة السلطان الاسلامي بل في عهود ضعفه بل ولقد كان معتقو الاسلام والمنضوون اليه في هذه العهود أكثر منهم في عهود قوة السلطان الاسلامي . ويتمثل ذلك فيما هو جار الى اليوم في القارتين الاخيرين (آسيا وافريقية) وفي الملونين وفي الامريكيين يكاد يكون سيلاً متدفقاً حيث يجد هؤلاء في الاسلام الذي لا يفرق بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وعظيم وصعلوك وغني وفقير وفي الاخوة والمساواة والكرامة الطمأنينة التي لم تمنحهم إياها المسيحية حيث ظلوا في ظلها يقاسون الاضطهاد والحيف والتأيز العنصري والطبقي . وكل هذا على ضعف وسائل التبشير في الاسلام وعدم تنظيمه . ولسوف يظل مستمراً كذلك حتى يعم نوره ويتحقق وعد الله عز وجل باظهاره على الدين كله (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كرهه المشركون) . صدق الله العظيم .

ونأتي الآن الى التفصيل :

١ - إن أولى المحكمات القرآنية تقرر وجوب الايمان بوجوب وجود الله تعالى الأزلي

الأبدي العليم الحكيم القادر المبدع الخالق الرازق ، المتصف بصفات الكمال ، المنزه عن المماثلة والشريك والولد والمساعد بأي اعتبار وتأويل ، وعبادته وحده ، والاتجاه إليه وحده .

وهذا الايمان أول اركان الايمان في العقيدة الاسلامية ، وعقيدة الاسلام بالله عز وجل بهذه الصفات مع ربوبيته الشاملة للعالمين التي قررها القرآن ، تمتاز عن أي عقيدة بالله في أي نحلة أخرى كتابية أم غير كتابية ، من حيث التنزيه والشمول والبساطة والصفاء والنقاء .

ونقول من باب المساجلة : إن الملحدّين مهما تمحلوا فلن يستطيعوا أن يقدموا بديلا لهذا الركن يبعث للنفس الرضى والأمن والطمأنينة ، وقد شرحنا هذه النقطة ، وسقنا عليها من الدلائل والشواهد والشهادات في الفقرة (٩) من الفصل الاول ما يغني عن التكرار .

٢ - والايمان بأنبياء الله ركن من أركان الاسلام المحكمة ، والمؤمن بالله وحكمته لا يمكن أن يرى أن من غير المعقول أن يصطفي الله من يعلم أهليته من بني آدم ، ليوحى إليه بدعوة الناس إليه وعبادته وحده ، وبيان ما يصلح لهم ويصلحهم من مختلف النواحي ، والحث على السير فيه ، وبيان ما يضرهم من مختلف النواحي والتحذير منه ، ورسم ما يقتضي من حدود مما لا يستطيع العقل البشري وحده الاهتداء إليه على الوجه الأفضل ، ومما يكون فيه تأييد يجعل المؤمن يلتزم به إيمانا واحتسابا أكثر مما يمكن أن يلتزم به لو كان وضعاً بشرياً ، وقد شرحنا ذلك ، وسقنا عليه من الدلائل كذلك في الفصل الأول في الفقرة التاسعة منه مما يغني عن الاسهاب مرة أخرى .

٣ - والصلاة ركن من اركان الاسلام المحكمة ، وبالإضافة الى ما في الصلاة في حد ذاتها من معنى واجب الشكر لله ، والاعتراف بعظمته والخضوع له ، وما في ذلك من رياضة روحية ، تمنح القائم بها قوة ونشاطا واملا ، وليست مما يتعارض مع عقل ، فإن من شأنها أن تعصم المسلم عن الفحشاء والمنكر ، وتحفزه على القيام بواجباته نحو الله والناس ،

وتساعده على تحمل التضحيات ، وتهذب نفسه ، وتركي اخلاقه مما لا يستطيع عاقل أن يكابر فيه ، ومما احتوت آيات عديدة تقريره والتنبيه عليه . ومما لا ريب فيه أن الصلاة بإيمان وقلب وذكر تحمل المصلي على التفكير في الله ، وتقواه بالتزام ما امر به ونهي عنه ، وعلى الاستحياء من التلبس بالنفاق والكذب إذا ما خالف بين باطنه وظاهره ، وقوله وعمله ، واقتربا منها أو عزم عليه بينما هو يتهاى من وقت لآخر للوقوف بين يدي الله ، وفي ذلك من قوة الزجر والاصلاح ما يكفي لتهذيب أخلاقه وتطهيرها . ومجتمع يفرض على جميع أفرادها من رجال ونساء ، ومنذ البلوغ بل وقبيل البلوغ أن تكون لهم هذه الوسيلة الروحية خمس مرات كل يوم جدير بأن تسود فيه الاخلاق الفاضلة ، وتتغني فيه الفواحش والمنكرات إذا مورست بقلب وجد وإخلاص ، وفي هذا تبرز غاية صلاح الافراد والمجتمع وطهارتهم وإبعادهم عن مواطن الزلل والخبائث والمنكرات في الصلاة . والصلاة فوق أنها واجب لا يجوز أن يعطل القيام به أي اعتبار آخر ، فإنها لا تأخذ من وقت المسلم أكثر من ساعة في جميع اليوم ، وممارستها تقع في وقت توقفه عن عمله اليومي ، فليس فيها ما يتوهمه بعضهم من مصاعب واشغال ، وإذا كانت هذه الوسيلة ضعيفة الأثر في كثير من المسلمين اليوم ، فلا يتحمل القرآن والاسلام مسؤولية ذلك ، ولا يضعف ذلك قوة هذه الوسيلة وصلاحها في الوقت نفسه ، ولقد أثر عن رسول الله ﷺ حديثان عظيمي المغزى جاء أحدهما «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له» وفي ثانيهما «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعدا» ووسيلة الصلاة الاولى طهارة البدن والثياب ، وحسن الزي والمنظر ، وقد أوجب القرآن ذلك على المسلمين كلما قاموا الى الصلاة ، ووقفوا أمام الله في آيات عديدة .

وهكذا تبرز غاية الصلاح الدنيوي في ذلك بروزا قويا أيضا ، حيث يفرض على المجتمع الاسلامي الطهارة والنظافة وحسن المنظر والمظهر ، والعيوف عن القذارة

والمستكرهات ، ويصبح هذا خلقا من أخلاق أفراده رجالا ونساء بالممارسة اليومية المتكررة ، والتيمم رمز للطهارة ، وتنبيه على وجوب الاهتمام بها ، وهناك مآثرات نبوية توجب على المسلم أن يغتسل في الاسبوع مرة ، أو كل يوم جمعة ، ولولم يكن جنبا مع لبس ثوب نظيف غير ثوب المهنة في هذا اليوم للصلاة الجامعة ، وفي هذا إتمام ودعم للهدف . ومن اركان الصلاة الاتجاه فيها نحو المسجد الحرام في مكة ، وفي هذا معنى رمزي عظيم حيث يكون المسلمون في جميع اقطار الأرض منتظمين في صلاتهم المحددة الأوقات نحو وجهة واحدة فضلا عما فيها من وسيلة تعلق المسلم بمهبط وحي الله على رسوله ، ونشأة هذا الرسول وجهاده في سبيل نشر دين الله في تلك البلدة المكرمة .

٤ - والزكاة من أركان الاسلام المحكمة ، وهي واجبة كل سنة على كل من يملك قدرا من المال حال عليه الحول وزاد عن حاجته المعاشية الراهنة ، يقدر اليوم بنحو خمسمائة ليرة سورية أو سبعين جنيها مصريا ، وهو قدر زهيد ونطاق حيازته واسع جدا ، وللسلطان أن يجبيها من المستحقة عليهم لانفاق حصيلتها على شؤون الدولة المتنوعة ، ثم لسد عوز الفئات العاجزة ، كما جاء ذلك نصا في آية سورة التوبة هذه :

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ^(١) .

(١) الفقراء : هم المحتاجون السائلون ، والمساكين : هم المحتاجون التعففون عن السؤال ، والعاملين : هم الموظفون الذين يتولون جباية الزكاة وتوزيعها ، والمؤلفة قلوبهم : هم الفئات التي في تقوية روابطها بالاسلام ، وترسيخ الاسلام فيها تقوية للبنیان الاسلامي ، والرقاب : تعني شراء العبيد وعتقهم ، والغارمين : هم الذين تلم بهم جوانح اقتصادية مدمرة أو يفرقون في ديون كبيرة من غير تقصير أو يتحملون عبئا ماليا فادحا في سبيل الغير إصلاحا أو مساعدة أو غرامة ، وينوؤون بحمله وحدهم وابن السبيل : من انقطعت به الطريق ولم يبق معه ما يقوم بأوده ولو كان في بلاده غنيا ، وسبيل الله : هو الدعوة الاسلامية ونشرها والدفاع عنها وعن المسلمين .

أي : إن الزكاة جزء من نظام الدولة الاقتصادي في الاسلام لهذا وذاك ، ومساعدة الفئات المعوزة العاجزة من صلب هذا النظام مما لا يكاد يكون له مثيل ، وبما لو طبق تطبيقاً صالحاً لما كان في المسلمين فقر ولا عوز .

والزكاة ليست على النقد فقط ، بل هي على عروض التجارة ، وغلات الأرض وكنوزها والمواشي بحيث يتسع بذلك نطاق حياة النصاب حتى يعم أهل المدن والريف معا .

وفي جعل الزكاة ركناً من أركان الايمان الاسلامي ، وعلامة من علاماته الملازمة له التي لا يصدق مدعيه إلا بها مع الصلاة على ما جاء في آيات قرآنية كثيرة فيها مغزى عظيم من حيث اعتبار أدائها عبادة ، وليس بمعنى الضريبة التي كثيراً ما تشق على النفس ، ويتهرب منها المفروضة عليهم ، وهي بهذا الاعتبار من أعظم مظاهر ودعائم التكافل الاجتماعي في الاسلام .

وننبه على أن الزكاة ليست وحدها مورد المال في الدولة ، ففي القرآن موارد أخرى ومسوغات لفرض ضرائب ، وأخذ أموال من القادرين إذا ما اقتضت المصلحة ذلك ، وكل الموارد المذكورة في القرآن قد نص فيها على أن تكون لشؤون الدولة والفئات العاجزة المحتاجة معاً ، وبذلك يتأكد التزام الدولة في الاسلام بمساعدة هذه الفئات بمقياس واسع جداً ، وهذا ما يجعل نظام الاسلام المالي في هذا الصدد فريداً رائعاً .

وننبه على أن القرآن بالاضافة إلى ما أوجبه من التزام الدولة بمساعدة هذه الفئات ، قد حث المسلمين على التبرع والتصدق لمساعدة هذه الفئات حثاً متلاحقاً ، حتى ليصح القول : إن الزكاة المفروضة على سعة تناولها على مانبها عليه هي الحد الأدنى لما يجب أدائه على جميع المسلمين الحائزين لذلك النصاب الزهيد .

وفي القرآن والسنة ما يلهم أن الذين تستحق عليهم الزكاة يستطيعون أن يوزعوا زكاتهم بالاضافة إلى تبرعاتهم الأخرى الزائدة عنها على مصارفها ، فيكون في ذلك ما يؤكد معنى

التكافل الحميم بين المسلمين مباشرة بعيداً عن الشكليات الرسمية وصعوباتها وحساسيتها .

ومن الجدير بالذكر والتنبيه أن القرآن في صدد أوامره بالانفاق زكاة وغير زكاة ينبه في مواضع كثيرة على أن المال الذي في أيدي الناس هو مال الله ومما رزقهم الله وأن الناس هم وكلاء الله مستخلفين منه فيه ، ويندد تنديداً شديداً بالمسكين الباخلين ، وبالمنانين بصدقاتهم على المحتاجين حيث يبلغ ذلك الذروة السامية .

ولقد نبهت السنة على أن المساعدات يجب أن تكون لمستحقها والمحتاج إليها حقاً ، ولمن لا تسعفه قوته وظروفه وحالته على الاستغناء عنها وحسب ، ونددت بالذين يسألون الناس وهم أقوياء ، وأمرت فقراء المسلمين بالتكسب والاستغناء عن السؤال ما قدروا ، وأن نظام الدولة في مساعدة الفقراء المحتاجين العاجزين أو الغارمين والحالة هذه في نطاق هذا التوجه النبوي لا يؤدي الى تواكل وكسل .

٥ - والصيام من أركان الاسلام المحكمة ، وقد فرضه الله على المسلمين ليكون وسيلة لتقواهم الله ، أي وسيلة تساعدكم على التزام ما أمرهم به من أمور الخير والصلاح والعزة ، واجتناب ما نهاهم عنه من المنكرات والآثام والبغي والفواحش ، وفي الصيام ترويض للنفس على الصبر عن المباحات البدنية ، والمرء الذي يروض نفسه على ذلك يكون مروضاً من باب أولى على الامتناع عن المحرمات والفواحش والآثام ، وفي الصيام تضحية للذات ، والمرء الذي يروض نفسه على ذلك يكون من باب أولى قادراً على التضحية بشيء من أنانيته وعلى التفكير بغيره ، والصيام يشعر الانسان بألم الجوع والحرمان ، ويجعله يفكر بالجائعتين والمحرومين ، ويعمل على تخفيض الآلام عنهم ، ومجتمع تكون له هذه الرياضة الروحية شهراً كاملاً في كل سنة يكون له فضلى الوسائل الى الاصلاح والصلاح والتهديب النفسي والخلقي والاجتماعي ، وهكذا تبرز غاية من غايات الصيام في الحياة فضلاً عما

فيها من تعبد لله وشكر له . وهتاك مآثورات عن النبي ذات مغزى عظيم منها قوله ﷺ : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه» وقوله «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل : إني امرؤ صائم» وقوله «من فطر مسلماً كان له مثل أجره» وقد روى ابن عباس «ان رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين» وهي واجبة على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير ، وليست متوقفة على نصاب ، وهي زهيدة يستطيع معظم الناس أن يؤدوها ، فتكون نعم الوسيلة العاجلة في آخر رمضان لمساعدة المعوز العاجز .

٦ - والحج على المستطيع من اركان الاسلام المحكمة ، وقد كان قبل الاسلام لمقاصد اجتماعية عديدة مفيدة فيها منافع للناس ، فاقترضت حكمة الله الابقاء عليه بعد تجريده مما علق به من شوائب الشرك والقبح ، لأن تلك المقاصد مستمرة ، ومن منافع شهود الحج تيسير اجتماع المسلمين من كل صوب وحذب على اختلاف الانحاء والأجناس ، وتعارفهم وتواثقهم ، وتناجيهم بالبر والتقوى ومصلحة المسلمين ، وفي هذا من الغايات الاجتماعية النافعة الجليلة ما لا يخفى ، وبالإضافة الى ذلك ، فإن في فرض الحج على المستطيعين من المسلمين من رجال ونساء ، وفي جعل الكعبة قبلة ومطافاً غايات جليلة متصلة بصلاح المسلمين في الدنيا بالإضافة الى الفكرة التعبدية ونعني ربط قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بالبقعة المقدسة من بلاد العرب مبعث رسول الله ﷺ ، ومهبط وحي الله لتكون لهم مهوى أفئدة باستمرار ، فتبت فيهم روح القوة والاتحاد والأخوة ، ووحدرة الاتجاه والهدف ، وما لوقوف حجاج المسلمين جميعاً في عرفات في زي واحد لا يمتاز به ملك عن صعلوك ، ولا أمير عن خادم ، ولا غني عن فقير ، ولا أبيض عن أسود ، متجهين جميعهم إلى الله وحده ، لا يخشون غيره ، ولا يعترفون بالربوبية والقوة والعظمة لسواه ، ولا

يطلبون ما يتمنون إلا منه ، ولا يستعيذون مما يخافون إلا به . وجميعهم يشعرون بفقرهم إليه من المعاني السامية ما هو جدير بأن يرتفع بالمسلم الى أعلى ذرى الشعور بالقوة والشجاعة والكرامة ، وطهارة النفس والضمير .

٧ - ومن أركان الاسلام المحكمة الايمان باليوم الآخر ، وقد شرحنا هذا الركن في الفقرة الثامنة من الفصل السابق شرحاً وافياً نبهنا فيها الى ما في هذا الركن من مقاصد إصلاحية وأخلاقية وروحية ونفسية دنيوية بالإضافة الى حقيقته الايمانية ، وكونه غير خارج عن نطاق قدرة الله . ومما لا بد من أنه من مقتضى حكمته السامية التي لا يصح أن تخفى على عاقل منصف ، وفندنا ما يقوله الملحدون بأن فيه تعطيلاً لقوى المسلمين ، وصرفاً لهم عن الحياة الدنيا ، بل وأثبتنا أن فيه حفزاً لهذه القوى ، ولاقدام المسلم على التضحية كما أن فيه بثاً للطمأنينة والأمن في نفسه فنكتفي بهذا التنبيه .

٨ - وبالإضافة الى ما انطوى في الأمور السابقة الذكر من مقاصد سامية متصلة بوجود الانسان في الحياة الدنيا ، فإن من مقتضى تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة بالنسبة للانسان وحياته في الدنيا :

أ - إن القرآن قد أعار الانسان اهتماماً عظيماً سواء في تمييزه عن سائر مخلوقاته ، وبخاصة الحيوانية التي يتاثل معها في أطوار الخلق يجعله خلقاً آخر ، وخلق في أحسن تقويم أم في تفضيله على كثير مما خلق ، أم في التنويه بكون الله قد سخر له ما في السموات والأرض وأسبغ عليه نعمة ظاهرة وباطنة أم بكونه حمله الأمانة والتكليف ومسؤوليتها دون سائر خلقه ، أو بكون الله اصطفاه ليكون خليفة في الأرض ، وجعله مدار اختباره في الدنيا ، ليتسابق أفراده في الخيرات ، وليبلوهم أيهم أحسن عملاً أو بكون ذكره في مجال التشريف أنه سواءً بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه البيان ، وعلمه القلم ، وعلمه ما لم يعلم ، وميز جده الأعلى بذلك على ملائكته ، واختصه بالحياة الأخروية وحسابها ونعيمها وعذابها

نتيجة لذلك بحيث يمكن القول : إن الانسان هو الموضوع الرئيسي الذي دار عليه القرآن .
ب - إن صلاح الانسان في أخلاقه الشخصية والاجتماعية ، وصلاح المجتمع البشري ،
وتوجيه الفرد والمجتمع الى الخير والحق والكمال في الحياة الدنيا هدف رئيسي من أهداف
القرآن .

ت - إن ما احتواه القرآن من آيات وفصول كثيرة ومتنوعة في صدد حياة الانسان
الدنيوية من شتى نواحيها الشخصية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية
ينطوي على دلالة حاسمة على اهتمام القرآن بشؤون حياة الانسان الدنيوية اهتماماً بالغاً ،
واعتباره إياها موضوعاً جوهرياً .

ث - إن القرآن لم يهدف إلى منع المسلمين من الاستمتاع بطيب الحياة وخيراتها
وزينتها والانتفاع بما فيها ولا الى حملهم على نفض أيديهم مما خلق الله فيها ، ولا الى
تعطيل مواهبهم عن الاستفادة من سننه فيها ، بل إنه حث على ذلك كله ، واستنكر تحريمه
والانكماش عنه ، ونهى عن ذلك بصراحة وقوة ، وكل ما هنالك أنه أوجب أن يكون في
نطاق الحلال والحق والقصد والاعتدال والايمان بالله وحده ورسالة رسوله واليوم الآخر .

ج - إن الله قد وعد المؤمنين الذين يعملون الصالحات في القرآن بتيوتهم في الدنيا المبوأ
الحسن ، وتمكينهم في الأرض واستخلافهم فيها ، وتوريثهم إياها .

ح - إن ما جاء في القرآن من آيات احتوت تهويناً بشأن الحياة الدنيا ومتاعها إنما جاء
في سياق أو بنصوص تدل على أنها استهدفت مقاصد سامية أخرى لا تمت إلى قصد منع
المسلمين من أخذهم بنصيهم من الدنيا واستمتاعهم بطيباتها وانتفاعهم بقوى الله ،
وسننه في أنفسهم وفيها أو عدم الاشتغال بها وهي حفرهم على التضحية بالنفس والنفيس
في سبيل الدفاع عن الاسلام والمسلمين ، والحيلولة دون استغراقهم في شهوات النفس
وأهوائها التي تعطل تلك المقاصد السامية .

خ - إن المسلمين مدعوون للاهتمام بالحياة الدنيا والانتفاع بخيراتها وطيباتها وقواها وسننها وإعمال مواهبهم وعقولهم بسبب ذلك ، مع الملازمة بين الايمان والعمل الصالح الذي من أعظمه خطورة العمل على إعلاء كلمة الله وشريعته ، والتزام العدل والحق والبر والخير ، واجتناب الاثم والشر والمنكر والبغي ، والتعاون على البر والتقوى ، فيحققوا معنى الانسانية الفاضلة والمجتمع الفاضل في أنفسهم وفي كيانهم .

د - إن من واجب المخلصين من نبهاء المسلمين وصالحهم أن يتعاونوا على إشاعة تعاليم القرآن في صدد الحياة الدنيا على وجهها الحق ، ومكافحة ما تركته عصور التردى والجمود والجهل والظلم والتغلب في سواد المسلمين من آثار ، أو ما بثه أعداء المسلمين في عقول الناشئة من أكاذيب وأوهام جعلتهم يسيئون هدى القرآن .

ذ - ليس في القرآن ما يوحى بالتعصب المذموم والجمود الضار تجاه أي أحد ، وتجاه أي شيء أو يقف عثرة في سبيل أي أمر نافع وخير ومفيد من الإصلاح والصلاح والتجديد والتجديد والاقتباس ، وليس فيه تحديد لمجريات حياة الناس وأشكالها وكيفياتها سياسية كانت أم اجتماعية ، أم سلوكية ، بل فيها ما يوحى بالمرونة ، وسعة الأفق والتجديد ، والثورة ضد كل قديم ضار ، مما فيه ضمان لكل تقدم ، ونهوض في مختلف المجالات ، وكل ما هنالك أنه أوجب أن يكون ذلك في نطاق الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والتزام الحق والعدل والمصلحة والمعروف ، واجتناب الاثم والبغي والعدوان ، والموبقات والميوعة في الأخلاق ، والسلوك العام والخاص ، وبعضهم يصف هذا تعصباً مذموماً ، وهذا افتراء على الحق والحقيقة والفضائل الأخلاقية .

ر - وختاماً لهذه النبذة نقول : إن القرآن قد قرن بين الايمان والعمل الصالح في معظم الآيات حيث يلهم هذا أن العمل الصالح الذي يشمل كل ما فيه بر وعدل وخير وطاعة وحق ومعروف هو المسجد لايمان المؤمن الذي يظل في حيز الخفاء والغيب ، فيكون العمل

الصالح دليلاً حسيّاً عليه ، وبكلمة أخرى : إن العمل الصالح مظهر ممارسة لايمان المؤمن ومصدق له . وفي هذا ما فيه من مغزى خطير بعيد المدى .

وفي القرآن قرارات في صدد كون الانسان إلى خسران وشؤم وضياح ، وارتداد إلى أسفل السافلين أخلاقاً وسلوكاً ، إذا لم يكن مؤمناً عاملاً للصالحات متواصياً بالصبر والحق والرحمة حيث تتضمن ذلك تقرير ما للايمان من قوة الوازع عن الآثم والمنكر الحافز على الخير والحق .

٩ - ومن مقتضى تلقيناته المحكمة في صدد نظام الدولة الأساسي :

أ - إقرار فكرة الدولة والسلطان على أساس الايمان بالله وحده ، وعبادته وحده ، ونشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقامة القسط بين الناس ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدفاع عن الاسلام والمسلمين .

ب - إن القرآن يلهم أن يتولى الدولة والسلطان الصالحون من المسلمين برضاء وموافقة أهل الحل والعقد والشأن ، وأوجب على المسلمين طاعتهم والنصيحة لهم ، والتضامن معهم في الخطط والأعمال التي تستهدف خير الاسلام والمسلمين ومصلحتهم .

ت - إنه يقيد الطاعة على المسلمين لأولي الأمر بأن يكون هؤلاء منهم ، ومعنى هذا أن من الواجب أن يكون الذين يتولون السلطان من المسلمين ، وأنه ليس على المسلمين واجب الطاعة والرضوخ والخضوع لسلطان غير مسلم .

ث - إنه يلهم وجوب توفر الصفات الصالحة في أولي الأمر كالرفق واللين والتسامح والبعد عن الغلظة والفظاظة والاعنات ، والحرص على صالح المسلمين ، والشعور معهم في سرانهم وضرائهم ، والاعضاء عن هفواتهم والعفو عن جاهليهم ، والسعة لتأبييهم ونادميهم ، والقدرة على النهوض بواجباتهم ، ومشاورة أولي الحل والعقد والعلم في شؤون الدولة .

ج - إنه يقيد واجب طاعة المسلمين لأولي أمرهم بالمعروف ، أي : فيما هو صالح نافع ، وفيه خير وبر ومصلحة وحق وعدل ، وما هو متعارف بين العارفين أنه كذلك ، وفي نطاق أوامر القرآن والسنة النبوية ونواهيها ، فلا تجب عليهم الطاعة لهم في إثم ومعصية ومنكر .

ح - إنه يقيد ما لأولي الأمر أن يدعوا المسلمين إليه ، ويطلبوا طاعتهم فيه ، والتضامن معهم عليه بما فيه للمسلمين مصلحة وفائدة وخير وحياة ، فليس لأولي الأمر أن ينحرفوا عن ذلك ، وليس على المسلمين الاستجابة إليهم إذا انحرفوا عنه .

خ - إنه يوجب على أولي الأمر مشاورة أهل الرأي والشأن والحل والعقد والعلم في شؤون الدولة ومهامها وعزائمها ، وليس فيه ولا في السنة تحديد لكيفية المشاورة وظروفها مما يلهم أن هذا متروك للمسلمين ليتدبر أولو العلم والحل والعقد والأمر فيه ، ويضعوا قواعد له حسب ما تقتضيه المصلحة والظروف مع إمكان تطور ذلك حسب المصلحة والظروف كذلك .

د - إنه يوجب توسيد أعمال الحكومة إلى الأمناء الأكفيا ، ويعتبر غير ذلك خيانة للامانة .

ذ - إن القرآن والسنة النبوية هما مرجع المسلمين في أمورهم ، سواء في ذلك أفرادهم ، والقائمون بالأمر فيهم ، فما كان فيه نص وحكم صريحان قطعان يعمل به دون أي اجتهاد وتبديل ، وما لم يكن فيه ذلك يجتهد فيه من أولي الأمر ، وبالتشاور مع أهل العقد والعلم والخبرة ، وفي نطاق توجيهات القرآن والسنة وخطوطها ومبادئها العامة ، ومصلحة المسلمين ، وليس ما يمنع أن يؤخذ ما سار عليه المسلمون السابقون ، وغيرهم ، أو يقاس عليه ، أو يقتبس منه في ذلك النطاق .

ر - إن شرط طاعة المسلمين لأولي الأمر أن تكون في معروف لا يعني أن يكون لكل فرد حق الاجتهاد فيما هو المعروف والمنكر ، والنافع والضار ، أو حق التمرد على كل أمر لا يظنه أولاً يراه نافعاً معروفاً ، إذا لم يكن هناك وقائع وشواهد ونصوص صريحة وصحيحة ، وما

ليس فيه هذا يكون التقدير فيه إلى أولى الأمر بمشورة أهل الحل والعقد والعلم والبصيرة ، وعلى الأفراد رد الأمور إلى هؤلاء ، والاستجابة والطاعة لما يقدرونه ويقررونه ، وخلاف ذلك هو خروج عن سبيل المسلمين ، ومستحق للعقاب والتكيل .

ز - إن السلطة في الدولة الإسلامية واحدة ، ومرجعها الأعلى رئيسها ، ولا فصل فيها بين الدين والدنيا ، وفكرة العلمانية وفصل الدين عن الدولة غير واردة بالنسبة للإسلام ، لأنه دين ونظام معاً ، وقياس ذلك مع ماتم في الحكومات الأجنبية قياس مع الفارق ، فالمسيحية التي كان يدين بها معظم هذه الحكومات ليست دين نظام وعقيدة حقاً أولاً . ولقد تكون فيها كهنوت وتحالف مع الحكام ، واضطهدت الحريات المتنوعة للأفراد والجماعات في ظل ذلك ، فأدى هذا فيما يسمى عصر النهضة إلى التمرد حتى وصل إلى فصل الدولة عن الدين . ومع ذلك فإن هذا الفصل لم يمنع كثيراً ممن تسلطوا على الحكم بعده ، وإلى اليوم من الطغيان والظلم والاستبداد والارهاب ، فليس في الجنوح إليه والحالة هذه ضمان . هذا في حين أن قرارات المحاكمات القرآنية وتلقيناتها التي لاتفصل مبدئياً بين الدولة والدين ، تتضمن كل الضمانات لحرية الأفراد والجماعات من مختلف نواحيها في نطاق المبادئ والأركان الإسلامية السامية ، ولنزع الطغيان والعدوان والاستبداد ، ولتحقيق كل عدل وحق وبر ورحمة وتعاون وتكافل ونهضة وعلم وتقدم استعداد في كل المجالات ، ولنزع المسلمين حق الرقابة والشورى ، ومخالفة ذلك تفقد الحكم المستبد شرعيته ، وتسقط عن المسلمين واجب الطاعة له على ما مر ويأتي شرحه ، وفي هذا ما يجعل أي تفكير لفصل الدولة عن الدين بلا أي معنى ولا مسوغ ، وإذا كان حكام مسلمون تسلطوا واستبدوا في ظل ذلك ، فإن هذا وقع أيضاً من حكام بلاد علمانية ولا دينية ، ومع ذلك فإن الوازع الإسلامي يظل أقوى إلهاماً وإلزاماً وضماناً .

س - إن رئيس الدولة هو صاحب العزيمة والأمر المنفذ لما يتم عليه رأي أهل الحل واعقد

والعلم والشأن نتيجة لتشاورهم وهذا ما يسمى اليوم بالنظام الرئاسي .

ش - إن الدولة الإسلامية هي كيان المسلمين جميعهم ، ومصليحتها هي مصلحتهم ، وعليهم واجب التضامن فيما يعتزمه القائمون عليها من عزائم ، ويقررونه من خطط كما عليهم واجب التضامن معهم في رد العدوان ، وقمع الفتن واتقائها ، وواجب التعاون على البر والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة الى الخير في نطاق الدولة ، والقيام بواجبهم نحوها من الطاعة فيما فيه معروف ومصلحة ، وأداء الزكاة والنفرة الى الجهاد ، واعتبار أنفسهم جزءاً لا يتجزأ منها .

ص - إن بنيان الدولة في الاسلام يقوم على الرجل والمرأة معاً على قدم المساواة ، ودليل ذلك اتصافهما بصفة (الانسان) الذي هو ذكر وأنثى ، وتكليفهما معاً بالأمانة وحملهما (١) إياها ، وكون ما كلف به الرجل من تكاليف دينية وأخروية وسياسية واجتماعية وبدنية ومالية وفكرية قد كلفت به المرأة ، وجميع ما منحه الرجل من حقوق سياسية واجتماعية ومدنية وفكرية قد منحت للمرأة بدون تمييز ونقص وزيادة ، وقد رتب عليها تبعات كل موقف في الدنيا والآخرة نفس التبعات المترتبة على الرجل بدون نقص وزيادة ، وقد اعترف القرآن بشخصيتها المستقلة حينما أمر النبي ﷺ بأخذ البيعة منها استقلالاً عن الرجل (٢).

وقد قرر أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويطيعون الله ورسوله .

وقد اعترف بمواقف المؤمنات المماثلة في كل ذلك لمواقف المؤمنين في قوله :

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ۚ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ

(١) آيات سورة الأحزاب الأخيرة .

(٢) آية سورة المتحنة (١٢) .

عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دُخْلَنَّهُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. آل عمران : ١٩٥

ونتيجة لذلك يكون لها من حيث المبدأ الحق والمجال في مشاركة الرجل في مختلف المسائل العامة وشؤون الدولة والحكم بما في ذلك المؤسسات والمجالس باستثناء رئاسة الدولة ، لأن هناك حديثاً يشجب ذلك ، وما في القرآن من نصوص يتميز فيها الرجل عنها ، إنما هو في شؤون خاصة ، ومحدودة متصلة بالحياة الزوجية وبطبيعة كل منها ، وليس من شأنه نقض ذلك^(١) وما يورده بعضهم من حجج وأقوال لا تركز على منطق وعقل ، وهذا كله يقال من حيث المبدأ ، مع واجب القول : إن مكان المرأة وعملها الطبيعيين الرئيسيين في الدرجة الاولى اللذين قررها لها الله ورسوله ، بل واللذين يعتبرهما السواد الأعظم من النساء كذلك على اختلاف ثقافاتهن وعقولهن وبلادهن وأجناسهن وتقاليدهن هو البيت والزوجية والأمومة ، وهما مكان وعمل خطيران لا تقل خطورتهما^(٢) عن مكان وعمل

(١) ومع ذلك فالقرآن قرّر أن للزوجة في هذه الحياة من الحقوق على زوجها مثل التي له عليها مما سوف نزيده شرحاً بعد ، ويذكر بعضهم آية سورة البقرة (فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداها فتذكر احداها الأخرى) البقرة : ٢٨٢ ، التي تفيد أن شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين ، ويذكر بعضهم ما تفيد آيات المواريت (للذكر مثل حظ الأنثيين) آل عمران : (١) . كناقض للمساواة التامة بين الرجل والمرأة ، والنصوص التي تسوي بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات والمركز والمواقف والتبعات والتكاليف أشمل وأقوى من أن ينقضها هذان الامران الثانويان جدا بالنسبة الى ذلك من جهة ، وهناك ما يصحح أن يورد في صدها من جهة أخرى . ففي آيات سورة النساء (١٥) والمائدة (١٠٦) والنور (٣) والطلاق (٢) ذكر للشهادات والشهود في معرض اثبات الفاحشة والزنا والوصية وعدة الطلاق ، ولا تذكر صفة الشاهد ، والمتعارف المسلم به هو أن كل ما ذكر المؤمنون اطلاقاً في القرآن بدون قرينة يشمل المؤمنات أيضاً . بحيث يمكن ان يكون في ذلك تعديل ، وآية البقرة الى هذا في صدد إحضار شهود للشهادة وليس في صدد شهادة شهود واقعة حادثة ، وقد احتوت تعليلاً يفيد أن ذلك سببه احتمال النسيان من جراء مشاغل المرأة بشؤونها فلا يصح أن يكون حكماً عاماً لكل المواقف والحالات ، أما مسألة نصيب المرأة في الارث فهي مسألة معاشية روعي فيها الحاجة ، والنصيب المعين لها هو أكثر من كاف لذلك ، لأنها غير ملتزمة في الاعم والاغلب بغير نفسها وهناك من يقول : ان المرأة لا تقبل شهادتها في الجرائم وليس لهذا القول سند وثيق من كتاب وسنة .

(٢) هناك حديث مشهور رواه النجادي ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ قال «ألا كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته» وما جاء «والمرأة راعية في بيت زوجها وولده وهي مسؤولة عنهم» .

الرجل الطبيعيين الرئيسيين اللذين قررهما الله ورسوله في خارج البيت ، وفي مختلف وجوه النشاط الخاص والعام . وإن مشاركة المرأة في شؤون الدولة والحكم وحققها في العمل والكسب يجب أن لا تتخل في ذلك ، ولا تتجاوز حدود المصلحة والضرورة ، ومع واجب الاحتشام عليها ، والبعد عن مواقف ومزالق الريب والفتنة وكل هذا في حيز الامكان ولا منافاة بينه .

ويجب أن لا يغرب عن البال أن عمل المرأة يفقدها قليلا أو كثيرا أنوثتها ، ويخل بمسؤوليتها الرئيسية الأولى في البيت والأمومة ، وهو ضرورة ، والضرورة تقدر بقدرها ، وبذلك كله يكون التوازن المعقول الانساني المفيد للرجل والمرأة معاً ، وهذا فضلا عن الحقيقة التي لا يجوز تجاهلها ، وهي ما حملته الطبيعة لها دون الرجل من مشاق الدورات والحمل والنفاس والرضاع والأمومة والحضانة والتربية ورعاية المنزل ، فليس من مصلحتها ولا من مصلحة الأسرة والمجتمع معاً أن ترهق نفسها بما يتجاوز حدود المصلحة والضرورة والامكان الزمني والقدرة من العمل خارج البيت وفي سبيل الكسب .

هذا ومن واجبنا أن ننبه على أن هناك حديثا نبويا من الصحاح رواه اصحاب السنن جاء فيه «سئل رسول الله ﷺ أي النساء خير ؟ قال : التي تسره إذا نظر ، وتطيعه إذا امر ، ولا تخالفه في نفسها وفي ماله» والحديث ليس ناقضا لما تقدم ، وقد يكون ناظما له حيث يمكن أن يقال في ضوئه : إن على الزوجة أن يكون نشاطها خارج البيت سياسيا كان أم اجتماعيا أو تكسبيا مقترنا برضى زوجها ، وأن تكون تصرفاتها المالية كذلك مقترنة برضاه ، لأن عدم رضاه قد يؤدي الى النزاع والشقاق بين الزوجين ، وعلى الزوج العاقل الذي لا بد من أنه يدرك من نصوص كتاب الله أن المرأة مؤهلة لذلك النشاط ، وأنه غير مخالف لكتاب الله ، وأن فيه مصلحة وفائدة عامة وخاصة أن يرضى عنه ويباركه ولا يضع العراقيل في طريقه إذا كان ضروريا ومفيدا ، وغير صارف للزوجة حقا وصدقا عن

واجباتها الاساسية ، وإذا لم يكن في تصرفاتها المالية ضررا أكيد ، ومن حق الزوجة إذا رأت في موقف زوجها تعسفا وتعنتا أن تدافع عن نفسها وحققها ، وأن ترفع أمرها الى الحاكم ليحل الخلاف ، ويقرر الامر في نصابه الحق استنادا الى آية النساء هذه :

(وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا) ٣٥

ض - إن القرآن يلهم أنه أفر للعرب شأنا خاصا سياسيا وغير سياسي في الدولة ، وأوجب عليهم أن يقوموا بحقه ، ويلهم أن على سائر المسلمين أن يعترفوا لهم به ، ولا يعني هذا تغلبا ولا استعلاء ولا استغلالا ، وإنما يكون في نطاق مبادئ القرآن والسنة وتوجيهها وقائما على معنى الاخوة الاسلامية والمساواة التامة في الحقوق والواجبات .

ط - إن القرآن لم يعين شكلا لرئاسة الدولة ، ولم يثبت عن النبي ﷺ مثل ذلك على الأصح مما يلهم أنه ترك للمسلمين يتدبر فيه أهل الحل والعقد والشأن فيهم ، ومن السائع أن يكون ملكيا وراثيا بموافقة وبيعة أهل الحل والعقد ، ومن السائع أن يكون جمهوريا مؤقتا أو مدى الحياة . غير أن اختيار خاصة رسول الله ﷺ ومستشاريه وأشدهم لصوقا به الشكل الجمهوري مدى الحياة على اساس الكفاءة والاهلية دون التقيد بأسرة واحدة قد يجعل الرجحان له . وألقاب (الخليفة) و(امير المؤمنين) و(الامام) التي تلقب بها الخلفاء الراشدون ومن جاء بعدهم لم تكن تعني أكثر من الدلالة على رئاسة الدولة العليا .

ظ - إنه لم يحدد أعمال الدولة وتشكيلاتها ، ولم يثبت عن النبي ﷺ تحديد ، مما يلهم أنه ترك للمسلمين ليتدبره أولوا الأمر والحل والعقد والشأن بما تمليه المصلحة والظروف .

ع - ليس في القرآن نص صريح بأن الدولة في الاسلام واحدة شاملة ! على أنها كانت كذلك في عهد النبي ﷺ وخلفائه ، ومن مصلحة المسلمين أن يكون ذلك دائما وقائما . غير أن هناك ملهات قرآنية باحتمال قيام دول وحكومات اسلامية متعددة ، وتلقينات بما

يجب أن تكون عليه الصلات بينها إذا قامت فعلا ، ومن هذه التلقينات ان تقوم الصلات على اساس الاخوة الاسلامية والمصلحة المشتركة ، والحق والبر والتعاون والسلام ، واذا قام نزاع وقتال بين حكومتين ، فيجب على الحكومات الاخرى التدخل للاصلاح على ذلك الاساس ، فاذا أبت إحداها وبغت اجتمعت سائر الحكومات الاسلامية على قتالها وارغامها على الرضا بحكم الله وشرعه .

غ - لأعمال المسلمين وتصرفاتهم ضابطان (١) الابتعاد عن كل ما هو منكرا وإثم وفاحشة وخبيث وباطل وفتنة ورجس وبغي وغش وخيانة وغدر ونكث (٢) التزام كل ما هو معروف وحق وخير وطيب وعدل واعتدال وأمانة ووفاء وبر ، ويدخل في نطاق الضابطين بطبيعة الحال كل ما نص القرآن والسنة النبوية على إباحته وحله والامر والتنويه به والحث عليه ، أو على تحريمه وحظره والنهي عنه . وهم في نطاق هذين الضابطين متمتعون بكامل حرياتهم في اعمالهم وتصرفاتهم ، شخصية كانت أم اجتماعية ، أم سياسية أم فكرية أم سلوكية ، وليس للدولة أن تحد شيئا أو تنقص شيئا من حرياتهم ما دامت في نطاق هذين الضابطين .

ف - إن التلقينات القرآنية تخول الدولة وضع الأنظمة ضد كل خبيث وشر وفسق وإثم وضرر ومنكر وفتنة ، والميسرة لأسباب ما هو حق وعدل وخير وبر وصالح ونافع ومعروف .
ق - وهي تقتضيها التسوية بين جميع المسلمين في كل موقف ومطلب وفرصة ورخصة بقطع النظر عن الغنى والفقر والمركز الاجتماعي والجنس واللون والاحساب ، ولا تعترف لأي طائفة على أخرى بحق التميز والتفاوت في أي حق وواجب وبكلمة أخرى : إن النظام في الاسلام لا يعترف بطبقة فوق طبقة ، أو طبقة تحت طبقة في أي حق وواجب ومظهر ، ويقرر ضابطا عاما قرآنيا وهو (إنما المؤمنون إخوة) .

ك - وهي تحوّلها منع الاقوياء والاغنياء والزعماء من ظلم الضعفاء والفقراء والسود ، واسترداد ما دخل في ايدي الاولين بغير حق وشرع من مال منقول وغير منقول ،

وتوزيعه على الآخرين ، وتيسير العمل والحياة الانسانية لهم حيث يؤدي هذا الى ذوبان الطبقة ، وتحقيق التسوية في الحياة الاجتماعية ..

ل - وهي توجب عليها ضمان حق العمال والصناع والزراع قبل أصحاب الأعمال الى حد يكفل لهم الحياة المعقولة الكريمة ، لأن هذا من مقتضيات العدل الاجتماعي ، والعدل في مختلف أشكاله من غايات الدولة في الاسلام ، وقد أوجبت السنة على العامل التزام الامانة والاتقان في عمله .

م - وهي توجب عليها تيسير أسباب العمل للقادرين عليه ، ومساعدة العاجزين ، لأن ذلك من مقتضيات العدل الاجتماعي كذلك .

ن - وهي توجب عليها حماية دماء الناس وأعراضهم واموالهم ، ورعاية حقهم في الحياة والكسب ، وتوريث ما يتركونه لذوي قرباهم .

هـ - وهي تحوها الحد من التبذير والاسراف ، وحمل الناس على القصد والاعتدال ، ومنع الغش والاحتيال بمختلف الأساليب .

و - وهي تحوها أخذ ما تقتضيه مصالح المسلمين والشؤون العامة من الأموال من الاغنياء

لا - وهي تلهم أن الله تعالى لا يحب اكتناز الناس للذهب والفضة واستغراقهم في جمع المال والاكتثار منه ، وحبسه عن سبيل الله التي منها وجوه البر المختلفة ، وحماية الاسلام والمسلمين ، ونشر دين الله ، وتلهم انه لا يجب أن ينحصر تداول الثروة ، واستقطابها في أيدي فئة قليلة من الناس ، وأن انبساط الرزق والمال لأناس أكثر من حدود الاعتدال يؤدي بهم الى البغي (١) الاسراف والترف والفساد ، وتلهم أنها تحول الدولة الحيلولة دون

(١) ي سورة الشورى هذه الآية (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض) وفي سورة العلق هذه الآيات (كلا إن الانسان ليطغى ان رآه استغنى ..)

ذلك بمختلف الاساليب لمصلحة الاسلام وجمهور المسلمين .

ي - ليس من مانع شرعي من استملاك الدولة الاسلامية ما يكون في استملاكه مصلحة للدولة من منشآت وأراضي ومصانع إذا عوضت أصحابها تعويضا عادلا ، وليس من مانع شرعي من أن يكون لهذه الدولة حق التوجيه الاقتصادي ، وحق الاشراف على المرافق العامة وإدارتها إذا ما كان في ذلك مصلحة للمسلمين ، وهناك آثار نبوية وراشدية تفيد وقوع مثل ذلك وسواغه منذ ذلك العهد الصالح ، وما تقدم في الفقرات الثمان يصح فيما نعتقد أن يسمى في مجمله بالاشتراكية الاسلامية ، والبديلة الفضلى للرأسمالية والاقطاعية الكبرى المحتكرة المستغلة التي تستقطب الثروة فيها فئة قليلة ، والفقر والحرمان في الجمهور الاعظم ، وتؤدي الى الظلم والبغي والبدخ والترف والسفه والفساد .

أ - من تلقينات القرآن أنه لا يجوز للدولة أن تكلف أحدا بأي تكليف لا يطيقه ، ولا أخذ أحد بذنب أحد وبجريرته ، ولا يجوز لها مؤاخذه أحد بما يصدر منه بسائق الخطأ والنسيان والأكره والاضطرار باستثناء ما فيه أحكام قرآنية ونبوية ، ويكون منه إضرار بالغير كالقتل الخطأ مثلا ، وعليها أن تعامل رعاياها ^(١) وبالاغضاء والتسامح .

ب - من تلقينات القرآن أن صلات الدولة الاسلامية بغير المسلمين تكون في حالات أربع :

الاولى : حالة العداء ، وهي الحالة التي يبدأ الغير فيها المسلمين بالأذى والعدوان مما يدخل فيه الطعن في دينهم ، وعرقلة الدعوة إليه ، ومظاهرة أعدائهم عليهم ، واضطهاد أفرادهم ، وفتنتهم عن دينهم ، والتآمر عليهم .

وواجب المسلمين هو مجاهدة المعتدي الباغي دون هودة ولا ضعف ما أمكنهم ذلك ، وبكل ما يملكون من وسائل ، وفي كل ظرف الى أن ينتهي عن موقفه بالاسلام أو بعهد أو خضوع ، أو توبة ، وبعبارة أخرى بما يرى فيه أولوا الأمر طمأنينة وأمنا .

الثانية : حالة العهد ، وهي الحالة التي ارتبط بها المسلمون بغيرهم بعهد بدءا أو بعد حرب وقامت بينهم حالة سلم وأمن .

فواجب المسلمين هو احترام العهد والوفاء به ما احترمه الغير ووفى به ، ولم يبد منه نقض أو نكث أو خيانة أو سوء نية أو مظاهرة عدو أو طعن في الاسلام ، أو صد عنه ، فاذا بدا منه شيء من ذلك انقلب الموقف الى حالة العداء ، وعلى المسلمين إعلام العدو عزيمتهم على ذلك حتى يكونوا معه على سواء .

الثالثة : حالة المسألة وهي حالة الفريق الذي كف يده ولسانه عن الاسلام والمسلمين ، ولم يقاتلهم ، ولم يتحرش بهم ، ولم يظهر عليهم عدوا ، ولم يصد عن دينهم احدا ، فواجب المسلمين مقابلته بمثل موقفه والبر به والاقساط له . ويدخل في ذلك التعايش والتعامل والتعاون (١)

الرابعة : حالة الخضوع ، وهي حالة الفريق الذي خضع للمسلمين ، وأدى إليهم الجزية بدءا أو بعد حرب فواجب المسلمين أن يوفوا له بما اشترطوا له من حماية وذمة ما دام محافظاً على حالته وشروطه .

ت - من تلقينات القرآن أن كل غير كل غير مسلم يعتنق الاسلام يصبح اخا لسائر

(١) ناك اصطلاح فقهي ممتد من القرون الاسلامية الاولى وهو (دار الاسلام) و (دار الحرب) حيث اعتبر الفقهاء القدماء كل ما في حوزة السلطان الاسلامي (دار اسلام) وكل ما هو خارج عنها (دار حرب وأعداء) ووضعوا قواعد للتعامل بين الدارين واهلها وتجارتها على اساس هذا التقسيم الثنائي . وظل هذا معتبرا بعدهم فقهاء . ونعتقد ان ذلك كان في أصله نتيجة لواقع الامر حيث لم يكن أمام الفقهاء القدماء الا بلاد الدولة الاسلامية الممتدة من اواسط آسيا الى المحيط الاطلسي العابرة من الغرب الى اوروبا . ثم البلاد المجاورة لبلاد الدولة الاسلامية التي كانت في حالة حرب مع هذه الدولة ساخنة او متوقفة بموجب عهود هدنة مع انه كان وراء هذه البلاد بلاد اخرى لم يكن بينها وبين الدولة الاسلامية والمسلمين حالة حرب وعداء . ولم يبد منها موقف عدواني على الاسلام والمسلمين وبلادهم . فتقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها تجعل اعتبار هذه البلاد ايضا دار حرب واعداء غير سليم . وهي بمقتضى هذه التقريرات دار سلم وحياد ، وتعامل وفق هذه التقريرات بالبر والاقساط وحسن التعامل والتعايش ما دامت كافة يدها ولسانها عن الاسلام والمسلمين وبلادهم .

المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وإسلامه يجب كل ما صدر عنه قبله .

ث - من تلقينات القرآن وتقريراته أنه لا يجوز للمسلمين ودولتهم ان يتبادلوا الولاء والنصر والمواودة مع اعدائهم الموصوفين في الفقرة الاولى بأي عذر كان ، ومهما تكن الظروف ، كما أنه لا يجوز لهم أن يخلطوا فيهم من ظهرت بوادر المكر والكيد والبغض منه لهم ، ولا يتخذوه بطانة لهم ، وعليهم أن يكونوا منه على حذر ، ومن يخالف ذلك فليس من الله في شيء ، ويعتبر كالمترد عن دين الله .

ج - من تلقينات القرآن أنه يجوز للمسلمين ودولتهم أن يسايروا ظروفهم بحيث يسوغ لهم أن يتقوا عدوا ويدافعوه بالتتي هي أحسن إذا كان ذلك في مصلحة المسلمين أو فيه دفع ضرر عنهم ، على أن لا يكون خضوعا ولا ولاء وتحالفا وتناصرا ولا ذلا ، ولا يكون فيه تواطؤ وغض عن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم .

ح - ان القرآن قد أولى الموائيق والعهود عناية عظيمة ، فيجب على المسلمين ودولتهم أن يلتزموا ما يبرمونه من عهود وموائيق ما دام الطرف الآخر ملتزما بها ، وعليهم اذا شعروا منه خيانة وغدرا أن يعلنوه بشعورهم وأن لا يأخذوه على غرة .

ح - إن القرآن كرر أوامره ببذل النصيح للأعداء ودعوتهم إلى الحق ، وإشعارهم بأن باب السلم والتوبة مفتوح لهم دوما ، وبالجنوح الى السلم حال ما يجنحون إليها . فعلى المسلمين ودولتهم التزام هذه الأوامر (١)

د - إن سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ومأثوراتهم تنطوي على التلقين بأن لغير المسلمين من رعايا الدولة والعرب - والمستعربون منهم من باب أولى - ما للمسلمين فيها من الحقوق والحريات المتنوعة المشروعة ، وعليهم ما عليهم من الطاعة والاخلاص

(١) ان الواجب أن تنبه على أن هذا لا يشمل الدولة اليهودية في فلسطين ، لأنها قامت على أرض العرب التي اغتسبتها بالحديد والنار والبغي والعدوان ، ونكلت بأهلها أقسى تنكيل وطردهم ونهبت أموالهم وأماكنهم ، ومن واجب المسلمين ودولهم ان يبقوا معها في حالة حرب وكفاح الى أن تزول وتعود فلسطين جميعها الى راية الاسلام والعروبة .

والامانة والتضامن والتكاليف .

ذ - إن القرآن استهدف التأنيس بين أهل الكتاب والمسلمين بخاصة ، وحسن التواصل والتعايش والتفاهم لما يجمع بينهم من وحدة المصدر ، وان على المسلمين ودولتهم أن يستلهموا ذلك إذا كان أهل الكتاب مسلمين غير معتدين مباشرة أو مظهرة .

وفي القرآن ملهات بأن تعبير أهل الكتاب هو أوسع شمولاً من اليهود والنصارى ، فإذا كان عند ملة كتاب تقول تقاليداً : إنه أوحى به من خالق الأكوان ومبدعها ومديرها إلى بعض رجالها أو أنبيائها القدماء ، وفيه شرائع ووصايا ومبادئ وعليها سمة كتب الله المعروفة فيصح أن تعتبر كتابية .

ر - إن القرآن يقرر أن اليهود من أشد الناس عداوة للمسلمين ، وأن النصارى أقربهم مودة إليهم ، وعلى المسلمين ودولتهم أن يستلهموا هذا في نطاق مصالحهم وأمنهم وطمأنينتهم وكرامتهم .

١٠ - ومن مقتضى تقارير محكمات القرآن وتلقيناته في صدد العدل والقضاء :

أ - إن فكرة العدل والحق والانصاف هي التي يجب أن تكون ضابط المسلمين ورائدهم في تعاملهم مع الناس مسلمين كانوا أو غير مسلمين .

ب - إن التزام العدل والحق والانصاف واجب لا يجوز أن يتأثر بكرهية وبغضاء ، ولا بعاطفة غضب ، أو لحمة قرى ونسب ، وعصبية دين ومذهب وجنس .

ت - إن الواجبين المذكورين يترتبان على المسلمين عامة ، وعلى من يتولى القضاء منهم

خاصة ز

ث - إن على قضاة المسلمين بنوع خاص الحذر والتنبيه تجاه ما يعمد إليه المتقاضون أحياناً من كيد ومكر وتدليس وإغراء وذلاقة لسان ، كما أن عليهم أن لا يتأثروا بالمظاهر الزائفة والايان الكاذبة ، وأن يكون همهم تحري الحق والعدل والانصاف والحكم به مجرداً عن كل شائبة واعتبار .

ج - إن على لمسلم أن يعتقد أن مخالفته لمقتضى الحق والعدل والانصاف ، ومحاولته أكل مال غيره بأي أسلوب ولو عن طريق المحاكمات والقوانين مع علمه ذلك إثم ديني يعاقب عليه من الله ، ولا يكون له حلالا ، وإن الله رقيب عليه ولو استطاع إخفاء إثمه عن الناس ، وإن عليه أن يتجنب البغي والعدوان والاحتيال والاثم على مال أي إنسان وعرضه وسائر حقوقه بأي أسلوب ، ومن جملة ذلك الغش والتغريب وأن لا يظهر غيره على ذلك مهما كانت الرابطة التي تربطه به ، ومهما كان بينه وبين ذلك الانسان من بغضاء وكراهية ، وأن يسرع إلى التوبة والاصلاح إذا بدا منه شيء من ذلك ورد الحق إلى صاحبه .

ح - إن قلب الحق باطلا والباطل حقا ، وإلصاق الاثم والتهمة بالأبرياء من الجرائم الدينية الكبرى التي يستحق مقترفها سخط الله وغضبه وعذابه .

ح - لا يجوز لمسلم أن يتهرب من التقاضي امام القضاء الاسلامي ، أو يفضل عليه غيره ، وعليه أن يدعن له سواء أكان الحكم له أم عليه .

د - إن القضاء الاسلامي يستمد أحكامه وأساليبه من القرآن والسنة وتلقيناتها وملهماتها وخطوطها العامة ، وليس ما يمنع من الاقتباس والسير على السوابق الصالحة فيما ليس فيه نصوص صريحة في نطاق تلقينات القرآن والسنة ، وخطوطها العامة .

ذ - يجب على المسلمين أن يوثقوا معاملاتهم المالية والتجارية وخاصة ديونهم بوثائق وسندات ، منعا للشك والنزاع ، وعلى الكتاب أن يؤدوا مهمتهم بكل أمانة وصدق وعدل .
ر - يجب على الذي عليه الحق أن يتقي الله فيعترف بما عليه بتمامه ، ويسجله ويوقع عليه ، ويجب على الذين يتولون مقام غيرهم وكالة أو وصاية أو ولاية أن يفعلوا ذلك أيضا .

ز - يجب توثيق المعاملات والوقائع والقضايا بالشهود العدول ، ويجب على الشهود أن يلبوا الدعوة للشهادة ، وأن يؤدوا شهاداتهم بكل أمانة وصدق .

س - إن للكتاب والشاهد حق الحماية والصيانة والحرمة ، فلا يجوز مضارتهما في أي حال

وعلى القضاء ردع من يضارهما ، أو يخل بواجب الامانة والصدق منهما .

ش - إن القضاء الاسلامي مرجع لحل وتنظيم الشؤون والمشاكل والخلافات المدنية والاحوال الشخصية ، كالديون والوصايا والهبات ، وإثبات الرشد والنكاح والطلاق والارث وما شاكلها بالاضافة إلى الجرائم الدموية والبدنية والمالية العدوانية والبدنية والمالية العدوانية .

ص - في القرآن أمر بالاشهاد والاستشهاد ، وتوثيق المعاملات بالكتابة حيث يكون كل هذا من وسائل إثبات الحقوق وحل الخلافات أمام القضاء ، وليس فيه ما يمنع إثبات الحقوق ، وحل الخلافات بأي وسيلة معقولة وشرعية اخرى .

ض - في القرآن ما يفيد أن العدالة في المخبر والراوي والشاهد شرط ، وأن من حق القضاء أن يرد شهادة الفاسق ، وهو الذي عرف بالانحراف عن أوامر الله ونواهيه ومن ذلك الكذب والغش والخيانة والرشوة .

ط - ليس للقضاء الاسلامي أن يجبر الكتائبين الذين يعيشون في كنف السلطان الاسلامي على التقاضي أمامه في أمورهم الخاصة ، وإذا رغبوا في التقاضي أمامه ، فالقضاء يكون وفقا للشرع الاسلامي . ولهم أن يتقاضوا في أمورهم الخاصة أمام قضاتهم على شرط أن يكون قضاؤهم مستمدا من كتبهم الدينية .

ظ - ليس في القرآن عقوبات محددة إلا للجرائم القتل العمد والقتل الخطأ والزنا والقذف (١) السرقة ، وحكمة ذلك كما هو المتبادر أنها جرائم تهدد أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم في كل ظرف ومكان .

وعقوبات الجرائم الخمس المذكورة رادعة ، وليس فيها ما يتحمل تمحلا جادا ، وتمحل بعض الناس بعقوبة قطع اليد للسارق واه ، والتجارب تثبت أن البلاد التي تطبق فيها

(١) لقذف : هو اتهام رجل وامرأة بالزنى دون أن يقدم المتهم أربعة شهود عيان على صحة التهمة .

هذه العقوبة تقل فيها هذه الجريمة عن غيرها ، وهناك اجتهادات تستند إلى قرائن قرآنية أن السارق إذا تاب وأصلح قبل الحكم عليه يعفى من القطع ، وهناك آثار راشدية تسبغ إعفاء السارق إذا سرق لسد رمقه ، ولم تكن السرقة مهنة له .

ع - أما غير الجرائم الخمس المحدودة عقوباتها في القرآن ، فالمتبادر أن حكمة الله اقتضت ترك التدبير فيها للمسلمين بما يتناسب ويتلاءم مع الظروف والمصلحة ، ويمكن استلهاهم القرآن في ذلك . ففي القرآن نهي عن كثير من الافعال الشخصية والاجتماعية والسلوكية ، وتثديد بفاعليها ، وإنذارهم بعذاب الله وغضبه ونقمته . مثل الكذب ، وشهادة الزور ، والاحتيال لأكل أموال الناس بالباطل ، وخداع الناس والحكام ، والأخبار والاشاعات الكاذبة ، ونقض العهد ، وخيانة الامانة ، ونبز الناس ولزهم والسخرية بهم وغيبتهم ، والتجسس عليهم ، وإخلاف الوعد الخ الخ ...

فليس ما يمنع الدولة أن تضع عقوبات على هذه الافعال بمشورة أهل الحل والعقد بما يتناسب مع أثر كل فعل وخطورته ومداه ، ويكون فيها صيانة للأفراد والمجتمع ، وهناك ماثورات نبوية وراشدية بترتيب عقوبات على مثل هذه الافعال فيكون ذلك ملهما مسوغا .

ع - لقد حرم القرآن الخمر والميسر ، ونبه على ما فيهما من إثم وفساد ، مما صار أمرا مسلما به في جميع انحاء الأرض والمجتمعات ، فعلى الدولة منعها ، وترتيب العقوبات الرادعة على فاعليها ، وقد رتب النبي ﷺ وخلفاؤه حدا على شاربي الخمر ، وفي ذلك قدوة وأسوة .

غ - لقد حرم القرآن الربا ، ونبه على ما فيه من ظلم وإثم ، والاشتغال بالربا مما يشل النشاط الاقتصادي ويعقد نفسية الناس إزاء بعضهم . فعلى الدولة ان تمنع تعاطيه وتجدد مع أهل الرأي والعلم أساليب مشروعة أخرى بديلة عنه .

ف - والتأمر مع الاعداء وموالاتهم والتجسس لهم ، وخيانة الدولة ، والمجتمع الاسلامي وإقلاق أمنه وطمأنينته وإشاعة الفاحشة فيه ، والعيث في الارض فسادا من أفظع الجرائم

المستنكرة في القرآن التي ندد بمقترفيها ، وأنذر بعذاب الله وسخطه ، وليس ما يمنع الدولة كذلك من ترتيب عقوبات زاجرة عليهم بمشورة أهل الحل والعقد .

ق - إن استغلال الفرص لتأمين المنافع الخاصة على حساب المجتمع والأفراد وضررهم ، والاحتتيال عليهم وغشهم والتغريب بهم ، وعدم التضامن مع المسلمين في الازمات والنضال ، واللعب على الحبلين مع الدولة وأعدائها والامساك عن البذل وبخاصة في سبيل الله ، والتشبيط عنه ، والتهرب من القتال والتبطيء عنه ، وبث الدعايات والاشاعات المضارة والتهوئش على القائمين بالمصالح العامة بسائق الغرض والحقد من الجرائم التي استنكرها القرآن ، وأنذر مقترفيها ، وليس ما يمنع الدولة من ترتيب عقوبات رادعة عليها .

ك - لا يجوز التسرع في توجيه تهمة الكفر والفسق والظلم والخيانة والانحراف عن أحكام الله وسنة رسوله للناس والحكام إذا كانوا يظهرون الاسلام ، ويقومون بأركانه فضلا عن استحلال دمائهم أو العدوان عليهم فهذا من الفساد المؤدي إلى الفتنة والمستحق للعقوبة (١)

(١) من الجدير بالذكر وله مغزى عظيم في هذا الصدد أن القرآن احتوى آيات عديدة فيها تنديد شديد ببعض المسلمين ومواقفهم التي كان بعضها خطيرا جدا ، وفي بعض الآيات صراحة بأن منهم من خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، ومع ذلك فإنه لم ينف عنهم صفة الايمان وخاطبهم بها . اقرأ آيات آل عمران (١٥١) - (١٥٦) والنساء (٧٢ - ٨٣) و (١٤٠ - ١٤٤) والمائدة (٥٧) والانفال (٢٠ - ٢٨) والتوبة (٢٣ و ٢٨ - ٣٠ و ١٠١ - ١٠٦ و ١١٩ و ١٢٠) والنور (١١) والحديد (٨ و ١ و ١٦) والمنحنة (١ - ٣) والصف (٢ و ٣) ، والذين هم موضوع هذه الآيات ليسوا منافقين على ما يفيد فحواها بكل قوة ، ومع ذلك فإن من الجدير بالذكر وله مغزى عظيم في هذا الصدد أنه لم يرو أن النبي امر بقتل منافق رغم ما احتواه القرآن من آيات كثيرة تقرر بأن المنافقين كفروا بعد ايمانهم وتذكر مواقف خطيرة لهم ضد رسول الله ﷺ والاسلام وفي حالات الحرب فضلا عن حالات السلم ، وأمر النبي بإندازهم وبجاهدتهم والاعلاظ عليهم كالكفار وتحمل عليهم حملات قارعة قاصمة . وذلك على أمل أن يرجعوا ويستجيبوا لهتاف التوبة التي دعا اليها ولأنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام دعوى ويقومون بأركانه ولو كرها ورياء .. اقرأ آيات البقرة (٨ و ١ و ٢٠٣ - ٢٠٦) والنساء (٨٨ و ٨٩ و ١٣٧ - ١٤٦) والمائدة (٥٢ و ٥٣) والتوبة (٤٣ - ٨٧ و ١٠١ و ١٠٧ - ١١٠ و ١٢٣ - ١٢٧) والاحزاب (١٢ - ٢٤ و ٥٧ و ٦٢) والحشر (١١ - ١٧) والمنافقون (١) والتحريم (٩) .

١١ - ومن تقارير المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد أسباب القتال والجهاد مما يتصل بالامور الاجرائية فيها .

أ - ليس الجهاد هو الحرب والقتال وحسب ، بل هو أوسع ، فكل خدمة للاسلام والمسلمين تعد جهادا في سبيل الله ، سواء أكانت بالحرب أو بالمال أو بجهد آخر غيرهما .
ب - القتال في الاسلام فرض على القادرين كلما دعت إليه الحاجة ، وفرضيته تشمل الجهاد بالمال والنفوس معا ، وإذا كفى ان يقوم به بعضهم فلا بأس ، وإذا دعت الحاجة إليه فتقاعس عنه المسلمون ، أو لم يكف أن يقوم به من قام به منهم أثم القاعدون ، ولا يؤاخذ الله العاجزين عنه ، ويسيع التسامح لمن لهم أعذار معقولة مع إيجابه عليهم القيام بأي عمل مفيد لمصلحة الاسلام والمسلمين في ظروف القتال بخاصة .

ت - إن القتال قد استهدف غايتين ، الأولى : دفع الظلم والعدوان والبغي والاضطهاد عن المسلمين ، ومقابلة من باداهم العدوان والأذى . والثانية : تأمين حرية الدعوة إلى دين الله حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

ث - إن الخيانة والغدر ونكث العهد وفتنة المسلمين عن دينهم أي : إجبارهم بالقهر على الارتداد ، والصد عن سبيل الله ، والحيلولة دون حرية الدعوة إليه والطعن في الدين ، ومظاهرة أعداء المسلمين عليهم وخيانتهم والكيد لهم من موجبات القتال ، ولا قتال ضد المسالين والحياديين والموادين ، والكافرين أيديهم وألسنتهم عن المسلمين .

ج - ليس القتال لاجبار الناس على الاسلام ، لأن الدعوة الى الاسلام تقوم على الحكمة والمواظاة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وقد قرر القرآن أن لا إكراه في الدين ، فمن استجاب برضاه صار مسلما ، ومن أبى وكف يده ولسانه عن الاسلام والمسلمين ، يترك وشأنه ولا سبيل للمسلمين عليه .

ح - في البلاد التي استقر كيانه ، وتوطد السلطان الاسلامي فيها يكون القتال بدعوة أولى الأمر حينما يرون ذلك ضروريا وملائما ، أما البلاد التي لا سلطان للمسلمين عليها ،

ولا كيانا مستقرا لها والتي تسلط عليها الغير ، وسيم فيها المسلمون الخسف والظلم ، فالجهاد بالمال والنفس واجب على الجميع دون حاجة إلى دعوة من سلطان . حيث يتقدم أولوا العزم والشأن ، ويدعون المسلمين إليه ، فينفروا أفرادا وجماعات إلى الجهاد بالنفس والمال ، ويتوسلون إلى إرغام الظالمين ، وتقويض سلطانهم بكل وسيلة ، فإن تقاعسوا مع استطاعتهم أثموا .

خ - على المتمتعين بالأمن والسلطان من المسلمين أن لا يتوانوا في الجهاد في سبيل نصرة وإنقاذ من يقع من إخوانهم تحت تسلط الأعداء وبغيهم وظلمهم ، وأن يتوسلوا إلى ذلك بكل وسيلة ، فإذا قصرُوا أثموا .

د - يجب بذل الجهد قبل القتال في النصيحة والدعوة إلى الكف عن البغي والظلم والأذى والغدر والانحراف عن طريق الله والتوبة إلى الله ، فإن لم تفد النصيحة ، وجب الجهاد بالمال والنفس .

ذ - ليس القتال للإبادة ، وإنما هو لدفع العدوان والبغي والأذى ، وتأمين حرية الدعوة إلى الله وحقوق المسلمين وأمنهم ، وخضد شوكة العدو ، ولا يجوز أن يتجاوز الانتقام والمقابلة بالمثل الحد المعقول والمماثل ، ويجب ترك الباب مفتوحاً دائماً لمن ينتهي عن موقفه الباغي ، ويجنح إلى الإسلام أو إلى أو السلام يلقي السلاح ، ويعلن خضوعه ، فإذا وقع هذا وجب الكف عن القتال إذا أمنت الخيانة والغدر وسوء النية ، ومقابلة الجنوح إلى السلم بالمثل وقبول ما يظهره العدو من أمارات الاستسلام والسلام والإسلام .

ر - إذا انعقد بين المسلمين والأعداء صلح ، فعلى المسلمين أن يوفوا للمؤمنين منهم ما استقاموا على عهدهم ، وليس لهم أن يقاتلوا إلا الناكثين منهم ، وإذا استشعروا بنية نكث أو خيانة من معاهديهم ، فعليهم أن يعلنوا بما شعروا حتى يكونوا على بينة ، ويكونوا وإياهم في موقف متساو ، ولا يباغتهم مباغته بينما يكونون يظنون أنهم على عهد معهم .

ز - ليست الغنائم هدفاً من أهداف القتال ، ولا يجوز أن تجعل كذلك ، كما لا يجوز

التشدد مع الناس لهذا القصد ، ويجب قبول ظواهرهم إذا ما جنحوا الى الخضوع والسلم ، وأظهروا الاسلام وتابوا ، وأمنت الخيانة والغدر وسوء النية .

س - من واجب المسلمين إعداد ما استطاعوا من قوة بكل أنواعها لارهاب العدو ، وعمل كل ما يمكن في سبيل دفع أذاه ، وإحباط كيده ، وتوطيد هيبة المسلمين وحریتهم ، وبذل المال خاصة بدون بخل في سبيل ذلك ، فإذا تقاعس المسلمون عن ذلك أو قصرُوا أثموا فضلا عن تعريضهم أنفسهم للهلاك والدمار .

ش - إن أمر الأسرى الذين يقعون في يد المسلمين في حروبهم مع أعدائهم بعد خضد شوكتهم منوط بما يراه أولوا الأمر ، والتشريع القرآني الصريح هو المنّ أي : التسريح بدون مقابل أو الفداء أي : التسريح بمقابل فدية ، والقتل والاسترقاق للأعداء مما فعله النبي ﷺ وأقره القرآن ، وقد جرى في نطاق ضيق ، فيكون ذلك كذلك حسب مصلحة المسلمين وأمنهم وسلامتهم .

ص - ليس للأفراد أن يتدخلوا في سياسة الحرب العليا ، أو يتناولوها بالجدل والاذاعة ، وإنما عليهم رفع ما يتصل بهم منها لأولي الأمر ، والطاعة لهؤلاء فيما يصدر عنه من أوامر ، ويرونه من تدابير ، ويشدد واجبهم في ظروف الحرب خاصة باجتناب النزاع والخلاف والتمرد والتهویش والتشويش .

ض - للمسلمين أن يتوسلوا بكل وسيلة ، وأن يغتنموا كل فرصة لقهر أعدائهم وقتالهم وأن يقاتلوهم في كل ظرف ، وأن لا يتخرجوا من مقابلتهم بالمثل عملا وظرفا ، وعليهم أن لا يهنوا في تعقبهم وإرهابهم ومقاتلتهم ، والاستعداد لهم والحذر منهم ، والاحتفاظ بنظامهم وقواهم المعنوية مهما طرأ عليهم من الطوارئ حتى ولو دارت عليهم الدائرة في موقف ما ، وقتل قائدهم الأعلى . ولا يجوز للمسلمين أن يضعفوا ويطلبوا من عدوهم الصلح . وعليهم أن يصدقوا في الاستعداد والقتال والصمود ويتيقنوا بنصر الله وإنهم الجانب الأعلى بايمانهم و يقينهم عملاً بهذه الآية (وَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ

يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ .) سورة محمد ٣٥ .

ط - إذا أبدى العدو رغبة في مفاوضة المسلمين ، أو معرفة شروطهم ، فيجب على أولى الأمر قبول ذلك ومنح رسله الأمان والحماية .

ظ - إن التقصير في واجب الجهاد بالمال والنفس والاستعداد والمرابطة ، وإرهاب العدو عدا أنه إخلال بواجب ديني مستوجب لغضب الله ، فهو مؤد إلى التهلكة والفساد والذل ، واختلال نظام الاسلام والمسلمين . ومسوغ لوقوف أولى الأمر تجاه من يبدو منهم ذلك موقف التأديب والتنكيل .

ع - إن التشبيط والتعويق والتخلف والتقايس عن الجهاد بالمال والنفس ، والسعي في الفتنة والفساد والتمرد في ظروف الحرب بنوع خاص عدا أنه من الجرائم الدينية التي تستوجب غضب الله وسخطه وعقوبته ، فإنه من الجرائم السياسية التي تسوغ لأولى الأمر أن يقفوا من أصحابها كذلك موقف التأديب والتنكيل .

غ - إن لأولى الأمر أن ينظموا طريقة النفرة إلى الجهاد بالمال ومباشرته وإعداد العدة له ، والاستعداد له على الوجه الذي يرويه صالحا وكفيلا بالقصد . ولهم أن يأخذوا من القادرين من المال ما يسد الحاجة ويندبوا القادرين على القتال والنافعين في مختلف مجالات الحرب بالقدر الذي يسد الحاجة أيضا .

ف - إن لأولى الأمر أن يفرغوا فريقا للجهاد والمرابطة بصورة دائمة كما أن لجماعات المسلمين أن يفعلوا ذلك حينما تمس الحاجة وتقضي المصلحة ، وعليهم أن يكفلوا لهم نفقاتهم ويكفوهم وأسرهم .

ق - ليس بين المسلمين قتال ، فإذا وقع فهو شاذ ، ويجب على الفرقاء الذين ليسوا طرفا في النزاع أن يتدخلوا في وقفه وحل النزاع على أساس الحق والعدل والأخوة ، فإذا لم يقبل أحد الطرفين ، واستمر فيكون باغيا ، وعلى الفرقاء الذين ليسوا طرفا في النزاع أن ينصروا

الفريق المبغي عليه بالسلاح الى أن يذعن الباغي للحق ، وتبعا لهذا فليس بين المسلمين أسرى حرب واسترقاق أسرى وقتلهم ومن وفداء في صددهم .

وهذه تلقينات وتقريرات المحكمات القرآنية في صدد ما يمكن أن يوصف بالمبادة
الايمانية :

آ - إن المسلم باسلامه يكون قد عقد عقداً مع الله بأنه باع نفسه للجهاد بالمال والنفس في سبيله ، واشترى الله منه ذلك بالجنة ، فيجب عليه كعقيدة إيمانية أن يوفي بما عاهد الله عليه ، وينفر الى الجهاد كلما دعا الداعي إليه ، وأن يعتقد بأن الله تعالى موف له بوعده الحق .

ب - يجب على المسلم أن يعتقد أن الله قد كتب على نفسه نصر المؤمنين ، وأنه ناصر من ينصره حقاً فيما يباشره من جهاد في سبيله بما هو نفسه من أجل الدفاع عن الحق ومكافحة الظلم ، وضمان الحرية للدعوة الى سبيل الله مع واجب الاستعداد بكل وسيلة ، وإعداد كل قوة مستطاعة لذلك .

ت - يجب على المسلم أن يعتقد انه فائز ورابح في جهاده على كل حال ، فإن بقي حيا فتكون له حسنى الجهاد وثوابه وكرامته ، وإن قتل فتكون له حسنى الشهادة ، وإن كتب للمسلمين النصر ، فيكون الفتح والعزة بالاضافة الى إحدى الحسينيين المذكورتين للأفراد الذين يتألون إحداها . وإن لم يكن النصر فيكون ابتلاء واختباراً ربانيين يشاب الصابرون عليهما ، ولا يجوز أن يهنوا ويحزنوا ويقنضوا وينفضوا يدهم من عدوهم ، أو ييأسوا من نصر الله .

ث - يجب على المسلم أن يعتقد أن إيمانه وصدقه وصبره تحت الاختبار ، وأن الله قد يتتليه بالخوف والجوع والنقص في الأموال والأنفس والثمرات في سبيل الجهاد ، وعليه أن يقابل ذلك بالصبر والتسليم ، وأن لا يضعف في طلب العدو وإرغامه ، ولا أن يتهاون في جهاده ، وعليه أن يعتقد أنه لا يصيبه ظمأ ولا نصب ولا جوع ، ولا يطأ موطناً جهادياً يغيظ

به عدوا ، ولا ينفق نفقة صغيرة ولا كبيرة ، إلا كتبها الله وأثابه عليها بأحسن الثواب .

ج - يجب على المسلم أن يعتقد أن شهداء الجهاد هم أحياء عند ربهم مكرمون بكل مجالي التكريم ، ومتمتعون بكل أسباب النعيم .

ح - يجب على المسلم أن تعتقد أن الأجل لا يتقدم لحظة ولا يتأخر لحظة مما هو مقرر في علم الله ، وأنه حينما يدركه أجله يموت ، سواء أكان في بيته أم في عمله ، أم في ساحة القتال ، أم في برج مشيد ، وأن الجهاد لا يقدم من أجله ، وأن تجنب الجهاد لا يؤخر هذا الأجل .

خ - إن المسلم لا يكون مسلما حقا صادق الايمان إلا إذا كان الله ورسوله والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله أحب إليه من كل شيء حتى من أبيه وابنه وأخيه وزوجته وعشيرته ووماله وتجارته ومسكنه ، وإلا إذا جاهد بماله ونفسه برضا وطيب نفس وإقدام .

د - إن الذي يسارع الى تلبية داعي الجهاد بالمال والنفس في أوقات الشدة والحرَج والخطر أعظم درجة ممن يجاهد في أوقات السعة وتباشير النصر ، وأن المجاهد بنفسه على كل حال أفضل من القاعد ولو كان قعوده بسبب كون دوره لم يأت ولم تكن إليه حاجة .

ذ - إن الذي يفر من أمام العدو لغير غاية حربية يكون قد ارتكب جريمة دينية عظيمة .

ر - إن المسلم حينما ينزل الى ميدان القتال يكون أمام الله وأمام عدوه وعدو الله ، ويكون قد وضع نفسه في ميزان الاجتبار بالخشية من الله أو من عدوه ، ومن الواجب عليه دينا أن يختار الخشية من الله والاستئانة في سبيله .

ز - يجب على المسلم أن يعتقد أن جهاده في سبيل الله والحق ، وأن الله وليه وناصره ، وأن عدوه باغ مبطل ، وأن الله خاذله ومنكسه ، وأن له التفوق على عدوه بالمدد الرباني ، وأنه يستطيع بهذا أن يقاتل ويغلب عددا أكثر من عدده إذا صدق في جهاده ، وأخلص في نيته .

س - إن التثبيط عن الجهاد بالمال والنفس ، والتخلف عنه عند الدعوة إليه والتقصير فيه ، وعرقلة سيرة ووسائله ، وابتغاء الفتنة ، وإشاعة الوسائس والدسائس والاشاعات الموهنة في ظروفه ووضع العقبات في طريقة وعدم التضامن التام فيه ، والاكتفاء بالتبجح وعدم قرن القول بالعمل فيه جرائم دينية عظيمة يستحق مقترفوها والمندمجون فيها عقوبة الله وغضبه بالاضافة الى كونها جرائم سياسية يستحق مقترفوها عقوبات زاجرة عليها .

ش - وهناك أحاديث نبوية في مبادئ الجهاد من المفيد التنويه بها بخاصة في البحث الخطير :

(١) منها حديث جاء فيه « الجهاد واجب مع كل أمير براً كان أو فاجراً » حيث يفيد أنه ليس لأحد من المسلمين أن يتعلل عن الاستجابة الى دعوة أولى الأمر الى الجهاد بالمال والنفس بحجة كرهه لهم ، أو ظنه أنهم منحرفون ، وعليه أن يلبي دعوتهم الى الجهاد على كل حال ، لأن الأمر يتعلق بمصالح الاسلام والمسلمين وحياتهم وكرامتهم .

(٢) ومنها ما يسوغ قتل الجاسوس ، ومنها ما يحض على بث العيون لاستطلاع أخبار العدو ، ومنها ما ينهى عن المثلة - أي تشويه الأجسام - في قتلى الأعداء ، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ والعاجزين عن القتلا ، ومنها ما يأمر بحقن دماء رسل الأعداء ، وبإجازة جوار أي مسلم لأحد الأعداء إذا كان مستسلماً مأمون الغدر ، ومنها ما يحرم الغلول أي : سرقة شيء من الغنائم وإخفائه ، ويقضي بمعاقة الغالين ، ومنها ما يسوغ اغتيال من يكون شديد الأذى للاسلام والمسلمين .

١٢ - ومن تقارير القرآن المحكمة وتلقيقاتها في صدد الدعوة الى سبيل الله أي :

الاسلام والتبشير به :

أ- إن سبيل الله هي تعاليم الله ورسوله وبعبارة ثانية هي الدعوة الاسلامية .

ب - إن الدعوة الى الاسلام ، ونشر تعاليمه اليمانية والأخلاقية الاجتماعية والسلوكية والانسانية بين المسلمين وغيرهم مما يجب على الدولة والمسلمين عامة ، والتقصير في ذلك هو

تقصير في واجب ديني خطير .

ت - إن خطة الدعوة الى سبيل الله هي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن دون إكراه ولا عنف .

ث - إن من حق الدولة والمسلمين أن يقفوا من الذين يشذون في الجدل ، ويتجاوزون الحسنى فيه من غيرهم الى البغي والظلم موقف المثل .

ج - إن الوقوف في وجه الدعوة الى الله وسبيله ، وصد الناس عنها وتعطيلها ، والحيلولة دون حريتها والظعن فيها ، والعدوان على دعائها والمستجيبين إليها مما يسوغ للدولة والمسلمين عامة الجهاد ، والنضال حتى ينتهي الباغون عن موقفهم، وتضمن للدعوة ودعائها والمستجيبين إليها الحرية والصيانة والأمن والانطلاق .

ح - إن على الدولة واجب الانفاق على نشر الدعوة الاسلامية ومبادئها ، وإعلاء شأنها وضمان الصيانة والحرية لها وردّ البغاة عليها ، والطاغين فيها ، والصادقين عنها مما يدخل في بيت المال من موارد .

خ - إن على الدولة تنظيم الدعوة واساليبها ونشر مبادئها تنظيماً يضمن لها النجاح .
د - إن على المسلمين أيضاً بالاضافة إلى الدولة أن يبذلوا جهدهم في نشر الدعوة وتنظيمها وحمايتها وكفالة حريتها ، والانفاق على ذلك من أموالهم بالاضافة إلى ما يؤدونه إلى بيت المال ، وتقصيرهم في ذلك هو تقصير في واجب ديني خطير .

ذ - إن القرآن بوصفه المسلمين أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس كما جاء في آية سورة البقرة (١٤٢) قد أمرهم بأن يحققوا مدى هذا الوصف في أنفسهم وهو أن يكونوا عدولا خيرين دائماً بعيدين عن التفريط والافراط والغلو والتقصير ، متمسكين بالاحسن والافضل والأصح والأأنفع من كل أمر وخلق وعمل وموقف ليكونوا قدوة للناس ، وليحملوا مشعل الهداية لهم ، ودعوتهم إلى دينهم الذي ارتضاه الله لهم ، ووعد بإظهاره على الدين كله ، وأوجب على كل مسلم بالتالي كل ذلك ، وحملهم مسؤولية التقصير فيه .

ولقد حقق السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان هذا الوصف في أنفسهم فكانوا هداة الناس والدعاة إلى الله فيهم ، واستجاب لهم الناس والوصف مطلق شامل لكل المسلمين في كل ظرف ومكان .

ر - إن من أهم أركان الدعوة الاسلامية عموم الرسالة المحمدية وإنسانيتها وعالميتها .

ز - إن عناية القرآن بأهل الكتاب - وبخاصة اليهود والنصارى تنطوي على تقرير كون ذلك من الأركان المهمة للدعوة الى سبيل الله ، لاتحاد الاسلام مع أهل الديانتين في المصدر والاساس ، ولما يترتب على اتحاد أهل الديانات الثلاث تحت راية القرآن ، ورسالة النبي محمد ﷺ من نجاح الدعوة إلى سبيل الله واكتساحها غيرها ، واختصاص اليهود والنصارى بالذكر هو بسبب كون ديانتهم الكتابية الالهية المصدر هو الأمر المعروف اليقيني لدى جميع الناس .

س - إن عناية القرآن بالعقل ودعوته المخاطبين والسماعين إلى التفكير والتدبر وحسن الاختيار تنطويان على تقرير كون ذلك ركنا مهما من اركان الدعوة الى سبيل الله .

ش - إن اسلوب القرآن في دعوة الناس إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والبرهان والاشفاق ، وتوجيه الخطاب إلى العقل والقلب معا ينطويان على تقرير كون ذلك ركنا من أركان الدعوة إلى سبيل الله .

ص - إن بساطة الرسالة الاسلامية وصفاءها وخلوها من التعقيد ، وعدم وجود ما ينافي فطرة الله التي فطر الناس عليها فيها ، واحتواءها أشرف المثل ، وأقوى الحوافز للخير والحق والعدل والبر والكرامة والانطلاق ، وإنسانيتها وعالميتها واعتبارها الناس جميعا سواسية إخوة في نطاقها بقطع النظر عن الجنس واللون والأحساب والثروات ، واستهدافها إقامة اخاء إنساني عام يقوم على الحرية والمساواة ، وبنیان اجتماعي عام يقوم على التعاون والتضامن ، وكيان سياسي عام يقوم على المصلحة العامة ، وكل هذا من تقريرات القرآن مما يؤهل الدين الاسلامي للظهور على الدين كله ، وغدوه دين الانسانية العام ، كما ذكر

القرآن (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً .) الفتح : ٢٨

ض - إن في معنى الاسلام ما يفسح المجال بسهولة ويسر لانضواء الناس تحت راية القرآن على اختلاف الأقطار والأجناس والألوان والنحل ، لأن المطلوب هو إسلام أنفسهم لله وحده .

ط - وبالإضافة الى ما تقدم (١) إن قدسية اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والسنة والعبادات مما يؤهلها للانتشار بين المسلمين على اختلاف الأقطار والاجناس ، وغدوها لغة المسلمين العامة ، ووسيلة من وسائل توطيد الوحدة والأخوة بينهم (٢) إن سير التاريخ والحوادث في عهد النبي ﷺ وبعده مما أيد نجاح الدعوة إلى سبيل الله في صورتها الأخيرة وهي الرسالة الاسلامية في مختلف الأقطار ، وبين مختلف الاجناس والنحل بما في ذلك أهل الكتاب وبخاصة من نصارى ويهود . وما كان من شذوذ ، فمرده إلى أسباب ليست من عناصر الدعوة والرسالة . (٣) إن التنظيم والجهد والبذل مما يترتب على الدولة والمسلمين كفيل بتحقيق ما وعد القرآن به من إظهار الاسلام على الدين كله (٤) إن الحروب النبوية والفتوحات الاسلامية لم تستهدف فرض الدعوة وإنما استهدفت رد العدوان والأذى ، وضمان حرية الدعوة ، وإن بقاء جماعات من أصحاب الأديان الأخرى على مدى الأحقاب بين ظهرائي المسلمين ، وفي ظروف قوة السلطان الاسلامي العظمى يمارسون طقوسهم ، ويحتفظون بمعابدهم وتقاليدهم لدليل حاسم على أن الدعوة الاسلامية كانت وسارت وفق الخطة القرآنية المثلى وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال والتي هي أحسن ، وترك المسالمين والحياديين والمعاهدين والخاضعين من اهل الملل الأخرى وشأنهم مع البر بهم والاقساط إليهم . وإذا كان التاريخ سجل شذوذاً ، فإنه لا يمت بسبب إلى هدى القرآن والسنة . (٥) إن الدعوة الاسلامية لم تنتشر في ظروف قوة السلطان العربي الاسلامي فحسب ، بل انتشرت وكسبت مئات الملايين في مختلف أنحاء الأرض في ظروف

ضعفه أيضا ، مما ينطوي فيه دليل حاسم على قوة عناصر الدعوة وعظمتها لذاتها . (٦)
إن حالة المسلمين الحاضرة من ضعف وجهل وتخلف واستخذاء وضعف تعاون لا يمكن أن
تمت إلى هدي القرآن والسنة الذي ينطوي على كل أسباب الخير والحق والقوة والكرامة
والتعاون والسؤدد والحرية والتقدم ، بدليل أن المسلمين الأولين حققوا كل ذلك ، وعاشوا في
ظله ، وإنما هي راجعة إلى أسباب وعوامل طارئة متنوعة ، ومنها ما كان من سوء فهم وتأويل
لذلك الهدي وانحراف عنه . (٧) إن واجب الدعوة الى سبيل الله في صورتها الأخيرة
أي : الرسالة الاسلامية لا يقتصر على نشرها في غير المسلمين ، بل يشمل نشر حقائق
الاسلام ومبادئه بين المسلمين حتى يتحقق وعد الله لهم بالقوة والتكمين والبركات والخيرية
والوسطية حينما يؤمنون حق الايمان ، ويفهمون حقائق دينهم ، ويتحققون بها ويعملون
الاعمال الصالحة التي تشمل كل ما فيه خير وصلاح وبر وتعاون وتقدم وحتى يمكن بنوع
خاص حماية الناشئة الاسلامية من التيارات الهدامة .

١٣ - ومن تقارير محكمات القرآن وتلقيناتها في الشؤون الاجتماعية .

آ - إن على المسلمين كافة أفرادهم وجماعاتهم - وكل في نطاق قدرته وإمكانه - أن
يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتضامن فيه ، بالاضافة الى واجب
الدولة والقائمين بأمرها بذلك .

ب - إن التقصير في هذا الواجب إثم ديني يستحق سخط الله فضلا عن أنه مؤد إلى
اهمال المعروف واستشراء المنكر مما فيه ضرر كلي للمجتمع .

ولقد أثرت عن النبي ﷺ أحاديث عديدة فيها تشديد بوجوب القيام بهذا الواجب
الخطير ، وإنذار بعقاب الله العام ولعنته للمجتمع الذي يقصر فيه . وهناك حديث يوجب
على كل مسلم المبادرة إلى تغيير أي منكر يراه بيده أو لسانه أو قلبه على أدنى حال .

ت - إن المعروف : هو كل ما ورد في القرآن والسنة حث عليه ، واستحباب له ، وتنويه
بفاعليه من مكارم الاخلاق والعادات والافعال الشخصية والاجتماعية والسلوكية والانسانية

النافعة المستحبة والحسنة . وما تعارف أهل الحل والعقد والعلم والرأي في ظرف وعصر على أنه من هذا الباب مما لم يرد فيه قرآن وسنة ، والمنكر : هو كل ما ورد في القرآن والسنة نهى عنه ، وتنديد بفاعليه ، واستكراه له من آثام وشُرور وسيئات أخلاق وعادات وأفعال شخصية واجتماعية وسلوكية وإنسانية ، وما تعارف أهل الحل والعقد والعلم والرأي في ظرف وعصر على أنه كذلك مما لم يرد فيه قرآن وسنة .

ث - ليس في القرآن والسنة تحديد لكيفية القيام بهذا الواجب مما يلهم أن ذلك ترك للمسلمين حسب المصلحة والظروف ، والمتبادر أن قيام الجماعات على شكل جمعيات متعددة ومتنوعة الأهداف من سلبية مانعة محذرة أو ايجابية داعية محبذة ، كمكافحة المسكرات والميسر والبغاء والربا والظلم والبغي والباطل وفساد الأخلاق والاسراف والخلاعة والمجون والميوعة ، وكمساعدة الفقراء والعاجزين ، وإنشاء الملاجئ والمشافي ، وتنظيم الدعوة إلى سبيل الله ومكارم الاخلاق والاصلاح بين الناس هو الأجدى والأضمن للنجاح في هذا الواجب .

ج - ان ما يحتاج إلى الهيمنة والتنفيذ ، وبذل القوة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يترتب على الدولة ، وماله صلة بحياة المجتمع الذي لا يكفل النجاح فيه إلا بالتضامن وحسن الاضطلاع والتقدير مما لا يحتاج إلى بذل القوة يترتب على الجماعات ، وما لا يخفي وجه الصواب فيه ، ولا ينجم عن القيام به فوضى ومفسدة هو مجال الافراد .

ح - في حالة ما إذا لم يكن للمسلمين دولة عادلة ، ووقعوا تحت سيطرة الأغيار والمتغلبين والطغاة ، فإن هذا الواجب يترتب على جماعاتهم وافرادهم بلزوم أشد .

خ - إن على المسلمين كل في نطاق إمكانه أن يدعوا إلى الخير ، ويفعلوه ويتضامنوا فيه ، والخير : هو كل واجب وعمل فيه مكربة وبر للآخرين ، ونفع ومساعدة لهم .

د - إن المسلم المقصر في فعل الخير والدعوة إليه والتضامن فيه يعد مقصرا في واجب

ديني .

ذ - إن تقصير مجتمع من المجتمعات الإسلامية في الدعوة إلى الخير وفعله إثم يشمل جميع أفرادها ، ويستحق سخط الله فضلا عن إيرائه الوهن والضعف في البنيان الاجتماعي .
ر - ليس في القرآن ولا في السنة تحديد للكيفية والاساليب في فعل الخير والدعوة إليه مما يلهم أنه ترك للمسلمين حسب ما يرون فيه المصلحة والحكمة في مختلف ظروفهم ، على أن قيام الجماعات بذلك بشكل جمعيات ومنظمات هو أجدى وأضمن للنجاح .

ز - إن من صفات المسلمين وواجبهم التعاون على كل ما فيه مكرمة ومصلحة وفائدة عامة ، وتجنب كل ما فيه إثم وشر وبغي ومعصية وضرر .

س - إن على المسلمين أن يحققوا في انفسهم تلك الصفات ، ويتمسكوا بها بحيث لا يبيحون لأنفسهم مغايرتها والانحراف عنها بسبب أي اعتبار وعاطفة .

ش - إن الانحراف عن تلك الصفات والتقصير بذلك الواجب ، أو الاندماج في مؤامرة فيها إثم ومعصية وعدوان ، كل ذلك مستوجب لسخط الله ، ومحل بصفة الاسلام ، ومؤد إلى وهن المجتمع الاسلامي الذي يجب دعمه على كل مسلم .

ص - إن من صفات المسلمين وواجبهم أن يتواصوا بالحق والصبر والرحمة . أي : أن يوصي بعضهم بعضا بذلك ويبشوه فيما بينهم ، ويتضامنوا فيه .

ض - إن الانحراف عن هذه الصفات والتقصير بهذا الواجب مخلان بصفة الاسلام ، ومستوجبان لسخط الله ، ومؤديان إلى وهن المجتمع الذي يجب دعمه على كل مسلم .

ط - إن القرآن استهدف قيام مجتمع إسلامي صالح قوي عزيز متضامن متقدم ، وأوجب على المسلمين تحقيق هذا الهدف .

ظ - إن موالاة الأعداء وموادتهم بأي شكل وسبب محظورتان على المسلمين ، ومنافيتان للاخلاص الواجب للمجتمع الاسلامي ، وبالتالي على عدم الاخلاص في الدين والصدق في الايمان ، وإثمان دينيان مستوجبان لسخط الله .

ع - إن على المسلمين واجب التضامن حتى لا يبقى أي ثغرة في صفوفهم ينفذ منها

العدو إلى كيانهم .

غ - إن على المسلمين واجب تبادل الولاء والاخلاص فيما بينهم على أي حال .

ف - إن التنازع والخلاف والفرقة والقتال فيما بين المسلمين مؤد إلى وهن الكيان الاسلامي ، وتشتيت صفوف المسلمين وتعاطفهم وذهاب ريحهم وفشلهم ، وهو محظور عليهم ، وإثم ديني مستوجب لسخط الله . وعليهم واجب التضامن في منع ذلك ، وإصلاح ما بين المتنازعين منهم بالحق والعدل ورد الباغي عن بغيه .

ق - إن إثارة الفتنة والدس والكيد بين المسلمين افرادهم وجماعاتهم من اشد الآثام الدينية المستوجبة لسخط الله ، والمؤدية إلى وهن المجتمع الاسلامي .

ك - إن على المسلمين واجب التضامن في الوقوف موقف الشدة والحزم تجاه الفئات الخبيثة المفسدة المثيرة للفتن ، وقمع شرها وخطرها دون أي ساهل ، أو تأثر برحم أو مصلحة خاصة ، وهو مقياس إخلاص المسلم لدينه وملتته والتقصير فيه مستوجب لسخط الله فضلاً عن ضرره الشديد في الكيان الاجتماعي الاسلامي العام ، وعدم اقتصار ضرره على رؤوس الفتنة ومثيريها وحسب .

ولقد نبهت السنة على واجب المجتمع الاسلامي بالضرب على يد الظالم منهم ومنعه ، وانذرت بعموم عقاب الله للمجتمع الذي يتساهل بذلك ، وهناك حديث جاء فيه «أعظم الجهاد عند الله كلمة حق عند حاكم جائر» .

ل - إن القرآن أوجب على المسلمين الإصلاح فيما بينهم .

م - إن توطيد الصلح بين المسلمين واجب لذاته ، وواجب لانه يؤدي إلى طمأنينة المجتمع الاسلامي ، وبقية القلق والاضطراب والاحقاد والضغائن التي تؤدي إلى النزاع والخلاف .

ن - إن الأخوة بين المؤمنين مما يجب أن يكون مانعاً للشقاق والنزاع والقتال فيما بينهم .

هـ - إن القرآن يأمر المسلمين بالمبادرة إلى التدخل ، وإزالة ما يقع بين المسلمين من

اسباب الشقاق والنزاع .

و- إن القرآن يحظر على المسلمين أن يحلفوا على عدم البر والتقوى والاصلاح والصلح ، واتخاذ اليمين ذريعة إلى ذلك ، والسنة النبوية توجب على الذي يحلف مثل ذلك ، أو الذي يحلف على فعل معصية أن يرجع ويكفر عن يمينه .

ي - إن القرآن يأمر المسلمين الذين لا يكونون طرفا في قتال ونزاع بين مسلمين وآخرين بأن يتدخلوا للصلح بينهم ، وأن ينصروا المبغي عليه إذا لم يخضع الطرف الثاني إلى الحق والصلح .

آ - إن القرآن يوجب على المسلمين أن يتعاملوا فيما بينهم بالحسنى والتسامح والعفو وكظم الغيظ .

ب - إن هذا الواجب هو واجب لذاته ، وواجب اجتماعي ، لأنه يؤدي إلى تقوية البنيان الاجتماعي الاسلامي من حيث إنه يقيه أسباب الأحقاد والمهاترات التي يؤدي إليها عدم التعامل بالحسنى والعفو والتسامح وكظم الغيظ ، ويجعل التضامن والتواد والمحبة هي السائدة في المجتمع الاسلامي .

ت - إن القرآن يأمر المسلمين بالانضواء إلى السلم والمسالمة كشعار عام .

ث - إن القرآن يأمر بحسن التعامل مع كل الفئات ، من أقارب وأباعد وجيران ، ومساكين وفقراء وأبناء سبيل وارقاء وخدم ، ويعتبر مخالفة هذا الأمر من الكبر والاختيال اللذين يكرههما الله .

ج - إن القرآن يأمر بعدم الجهر بالسوء إذا لم يكن ظلم واقع ، ويحذ العفو عن المساءة .

ح - إن القرآن يأمر بالقول الأحسن ، وينبه على أن خلاف ذلك من نزغات الشيطان .

ح - إن القرآن يحث على درء السيئة بالحسنة ، ودفع السيئة بالتي هي أحسن ، وينبه

على أن ذلك هو الطريقة المثلى التي تؤدي إلى توطيد المحبة والولاء الحميم بين المسلمين وتزيل العداء من القلوب .

والواجبات والتلقينات القرآنية الأربع المذكورة آنفاً ، هي واجبة الاتباع لذاتها كأخلاق شخصية إسلامية كريمة ، ويؤدي اتباعها في الوقت نفسه إلى تقوية البنيان الاجتماعي الاسلامي من حيث إنها تقيه أسباب النزاع والأحقاد والضغائن الناتجة عن مخالفتها .
د - إن القرآن يأمر بحسن التعايش والتعامل مع المسلمين من غيرهم فضلاً عن إيجابه ذلك فيما بين المسلمين .

ذ - إن البر بالفقراء والضعفاء والمساكين والمحتاجين والتصدق عليهم ، ومنع الاذى عنهم ، والاخذ بيدهم ، ومعاملتهم بالرفق والحسنى في كل ظرف واجب مترتب على المسلمين بقطع النظر عن أي اعتبار ، ومؤد إلى قوة بنيانهم الاجتماعي .

ز - لا يجوز لمسلم أن يقصر في هذا الواجب بسبب ما قد يبدو من الفقير والضعيف من أعمال ومواقف مثيرة ، والقرآن يسبق للمسلمين أن يتصدقوا على المحتاجين الفقراء من غير ملتهم .

وهذا الواجب هو واجب لذاته باعتباره خلقاً إسلامياً شخصياً كريماً ، وهو في نفس الوقت اجتماعي ، لأنه من شأنه أن ينفخ الروح في هذه الفئات ، ويشعرهم بقيمة الحياة وكرامتهم الانسانية والتضامن الاسلامي ، ويجعلهم أعضاء نافعين في المجتمع ، ويكون علامة على مظاهر التعاطف والتراحم التي لا تتم الوحدة الاجتماعية والاخوة الاسلامية إلا بها ، ومن شأن التقصير في ذلك أن يثير شعور الحقد والبغض والنقمة في هذه الفئات مما يكون مما يكون فيه تهديد لأمن المجتمع وطمأنينته .

س - من قرارات القرآن الاجتماعية أن صلاح أي مجتمع وفساده منوطان بالدرجة الاولى بما يكون عليه أخلاق أفراده ونفوسهم من صلاح وفساد .

ش - ومن هذه التقارير أن فساد المجتمعات وصلاحيها كثيراً ما يكونان نتيجة لسلوك أكابرها وزعمائها الذين هم في العادة القدوة للأفراد ، وهم يتحملون القسط الأكبر من فساد المجتمعات إذا كانوا فاسدين شخصياً .

ص - ومن هذه التقارير أن الغزاة الأجانب يفسدون أخلاق أهل البلاد التي يتغلبون عليها ، ويوهنون من قوتها ، ويدلون أعزتها ، ويفصمون روابطها ، وأن الخير كل الخير والواجب كل الواجب هو الحيلولة دون وقوع النكبة بكل وسيلة ممكنة .

ض - ومن التقارير أن الباطل مهما لمع وظهر ، فلن يلبث أن يزهد ويضمحل ، وأن الثبات والنفع إنما هما للحق ، وأن من واجب المسلمين ومصلحتهم تأييد الحق ونيل الباطل .

ط - يحظر القرآن على المجتمع وأفراده أن يتمسكوا بتقديم لقدمه ، أو يناوئوا الجديد لجده ، والضابط الذي يوجب القرآن على المسلمين أن يستلهموه في عاداتهم وتقاليدهم وأعمالهم وخططهم وعرائمهم ، وما يعرض لهم وما هم عليه هو الحق والخير والعدل والمصلحة والافضلية والفائدة العامة يقطع النظر عن القدم والجدة .

ظ - إن القرآن يوجب على المسلمين التروي والناة في رواية الانباء والاستماع اليها لاحتمال القصد السيئ والنية الخبيثة ، والتسرع والرعونة فيها .

ع - إن القرآن يوجب على جماعات المسلمين وذوي الشأن والأمر فيهم بذل الجهد والتوسل بكل وسيلة للإصلاح بين المسلمين ، والقضاء على الانقسامات والفرقة والخلافات الدينية .

١٤ - ومن تقارير المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد علاقة الناس ببعضهم وحياتهم ومسأولاتهم .

آ - إن القرآن قد توحى أن يتمتع المسلمون كافة بالحرية والمساواة والأخوة بصورة عامة ضمن نطاق الحق والعدل والقصد .

ب - ليس لحرية المسلم حدود إلا المحرمات والواجبات القرآنية والنبوية التي تتناول أولها الخبائث والفواحش والمنكرات والعدوان وسيئ العادات والأعمال والأخلاق ومكروهااتها ، وتتناول ثانياتها القيام بأركان الاسلام والدعوة الى الله ، وطاعة أوامره ، وأوامر رسوله ، وأولي الامر بما فيه المصلحة والحياة والمعروف وليس فيه معصية ومنكر (١) ، والتزام العدل والبر وصالح العادات والأعمال والأخلاق ومستحباتها ضمن وسع النفس وطاقاتها مع عدم مؤاخذة المسلم بما يقع فيه من محظورات بسائق الخطأ والنسيان والاكراه والاضطرار .

ت - وفي القرآن ما يلهم أن الله يسيع للمسلمين حرية الاعتراض على ما لا يؤخذ فيه رأيهم من العزائم التي ينفذها أولوا مع أمر هؤلاء بتوسيع صدورهم لذلك الاعتراض ، ومشاورة المسلمين في مختلف العزائم التي يعترضونها (٢) .

ث - إن القرآن قد وطد الأخوة بين المسلمين بكل قوة دون فرق ولا اعتبار للجنس أو لون أو حسب أو مال ، وجعلها من صفات الاسلام، ونتائجه الطبيعية ، وأوجب الإصلاح بين المتنازعين من المسلمين منعاً لكل تصدع ، والاجتماع على رد الباغي على غيره دفعاً لكل ظلم يتنافى مع هذه الأخوة .

ج - إن القرآن قد وطد المساواة التامة في الحقوق والتكاليف والمباحات والمحظورات والثواب والعقاب بين جميع المسلمين ذكورهم وإناثهم وعربهم وعجمهم وغنيهم وفقيرهم ،

(١) الكلام عائد لأولي الامر وأوامرهم التي يمكن أن يكون فيها منكر ومعصية .

(٢) اقرأ آيات سورة آل عمران (١٥٣ - ١٥٩)

وملكهم وصعلوكهم دون تمييز أحد على أحد ، وقضى على كل تمايز بسبب اللون والجنس والحسب والملل والمركز الاجتماعي .

ح - إن ما منح القرآن للرجل من منح قليلة دون المرأة كمضاعفة الارث ، وحق القوامة في الحياة الزوجية ، وواجب الانفاق ، وجعل شهادتها في بعض الظروف دون شهادته ، وحق تأديبها في حالة النشوز والانحراف هي خصوصيات متصلة بطبيعة كل منهما وواجباته ولا تنقص ولا تخل في مساواتها التامة معه في الانسانية والتكاليف والحقوق والواجبات والمباحات والمحظورات ، والاهلية المدنية مما أقره القرآن بكل قوة وصراحة .

خ - إن ما جاء في القرآن من التنبيه على أن الله رفع بعض الناس على بعض درجات وفضل بعضهم على بعض في الرزق هو بسبيل تقرير واقع ومظهر اجتماعي عام ، وليس هو بسبيل تقرير وإقرار دوام هذا الواقع ، وعدم احتمال التبدل فيه ، فهذا لا يصح وروده ، لأن ذلك مظهر لتفاوت الناس في المواهب والاستعداد والنشاط ، وهذا التفاوت متحول ومتبدل ومتطور ، وتكون نتائجه كذلك متحولة متبدلة متطورة ، ولهذا فنرى أناساً في يوم مرتفعين على غيرهم متمتعين بسعة رزق أكثر من غيرهم ، ونرى في يوم آخر غيرهم قد ارتفع بعد ضعة ، وأتسع رزقه بعد ضيق ، ونرى المرتفع قد نزل ، والموسع في الرزق قد ضاق وهكذا . وهذه سنة الحياة التي هي سنة الله ونظامه في الحياة الاجتماعية والبشرية ، ولقد خطب المسلمون عامة بدون فرق بين غني وفقير وضعيف وقوي بكل الواجبات والحقوق على قدم المساواة ، ومع ذلك فاذا سارت الدولة وفق تلقينات القرآن وحالت دون استقطاب الثروة والاستعلاء لفئة محدودة ، ونظمت تداول الثروة بين مختلف الفئات ، وجعلت كل الناس سواسية أمام الحق والعدل والفرص تزعزع الركن الاساسي لهذا التفاوت وخف حتى يزول .

د - إن القرآن في إقراره الرق إنما نظم نظاماً واقعاً شائعاً في الدنيا ، ولم ينشئه ، ولم

يقصد إقراره كنظام اجتماعي واجب الاستمرار ، أو إيجاب التمايز الطبقي به ، وقد أوجب إطلاق سراح الاسرى الذين هم المادة الرئيسية للرق بالنّ أو الفداء ، واحتوى أوامر وتوصيات وتلقينات وتشريعات في صدد ما أجاز بقاءه رقيقاً تؤدي الى تحريره سواء في الحض على عتق الرقاب ، وتحميل بيت المال واجباً في ذلك ، أم في اجازته شراء الرقيق نفسه (١) ، أم تحرير الامة التي تلد من سيدها ، أم في تقرير كون أولاد الاحرار من الامة أحراراً (١) . هذا فضلاً عن إيجاب معاملته بالحسنى ، وقد وطد المساواة التامة بينه وبين الحر في التكاليف والعبادات والثواب والعقاب ، وليس في القرآن والسنة تسويق باسترقاق المحايدين والمسلمين والمعاهدين من غير المسلمين ، أو إيجاب لاسترقاق المحاربين من غير المسلمين كما أن استرقاق الحر المسلم ممتنع البتة .

١٥ - ومن قرارات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد بينان الاسرة والحياة الزوجية في الاسلام :

آ - إن هذا البنيان قد قام على أحسن الاسس ، وأبعدها عن أسباب الانهيار خلقياً واجتماعياً واقتصادياً وسلوكياً وإن في ما انطوى في تلك التقارير ما يفقده الغرب وما أدى فقده له من خطر الانهيار والتفكك وما جعل علماء الاجتماعيين يضحجون منه وينذرون مجتمعهم بأوخم عواقبه . وتيار الاتحاد الذي يهدد كيانتنا يهدد هذه الاسس الفضلى ، ويجعل المجتمع الاسلامي على حافة الهاوية التي وصلت اليها الأسرة في المجتمع الغربي .

ب - ولقد حض القرآن المسلمين عامة على الزواج ، وأمر بالتساهل فيه ، والمساعدة عليه بالنسبة للطبقات الفقيرة والأرقاء خاصة مما فيه تلقين بوجوب عدم المغالاة في الشروط والمهمور .

(١) هذا يسمى المكاتب ، وبمجرد الاتفاق بينه وبين مالكة يصبح كسبه له ، ويصح أن يأخذ الزكاة ليستعين بذلك على شراء نفسه .

(١) تحرر الامة التي تلد من سيدها باب واسع جداً للتحرر كما هو واضح .

ت - إنه استهدف من الزواج إنشاء كيان للأسرة يقوم على المودة والرحمة والوفاق والاستقرار والواجبات والحقوق المتقابلة ، وندد بالزواج الذي لا يهدف إلا إلى إشباع الشهوة ، ولا يكفل الاستقرار والاستمرار وقرة العين في الذرية .

ث - إنه عظم من شأن الرابطة الزوجية تعظيماً كبيراً ، وحث على الوفاق والصلح وتفادي النزاع بكل وسيلة .

ج - إنه أوجب على الزوج حسن المعاشرة ، وكظم الغيظ ، وعدم الاستجابة الى عاطفة الكراهية ، والنزوات العابرة ، وأوجب على الزوجة الاخلاص والطاعة والامانة ، وعدم الانحراف والشذوذ ، وحفظ الزوج في ماله وعرضه وكرامته في حالتي الغياب والحضور .

ح - إن المحكمات القرآنية وتلقيناتها تحظر أمر الزوج لزوجته بمنكر ومعصية ، وتعطيها حق عدم طاعته في ذلك ، وتمنحها حق الاهلية المدنية التامة ، وليس في الحديث النبوي الذي أوردناه قبل في حرف ص من الفقرة : (١٠) وجاء فيه تنبيه على أن خير النساء من لم تخالف زوجها في نفسها وفي مالها ، ما ينقض هذا ، وإنما فيه تنظيم له ، وما أوردناه في الفقرة المذكورة من تعليق وتوضيح يورد هنا بتمامه بطبيعة الحال (١) .

خ - إنه أوجب على الزوج مهراً لزوجته كما أوجب عليه نفقتها بالمعروف وحسب قدرته سعة وضيقاً ، وجعل له مقابل ما امتاز به الرجل من ميزات حق القوامة عليها ، وتأديبها في حالة شذوذها وإخلالها بالواجبات التي أوجبت عليها مستهدفاً بذلك ضمان إصلاحها وارعائها ، وتفادي الطلاق والكوارث الأخرى ، ومنبهاً على تجاوز الضرورة ، وجعل لها مع ذلك عليه حقوقاً مثل التي له عليها ، ويدخل في ذلك الامانة الزوجية والبر والتكريم

(١) هناك حديث رواه الطبراني عن وائلة بن الاسقع قال : (قال رسول الله ﷺ « ليس لامرأة أن تنتهك من مالها شيئاً إلا بإذن زوجها إذا ملك عصمتها » وقد قال الطبراني : إن بين رواته من لا يعرفهم ، فيصبح التوقف فيه واعتماد الحديث الذي أوردناه في الفقرة المذكورة وحده مع تعليقنا عليه) .

ومراعاة المزاج والترفيه ، واعتبارها شريكته في مختلف نواحي الحياة ومعاملتها على هذا الأساس ، وقضاء مالا تستطيع قضاءه من حاجات ، وعدم الاعنات والغلظة والقسوة في المعاملة والتضييق عليها في المعاش واللباس ، وعدم الاستجابة لنزوات النفس والكراهية ، وليس للزوج أن يتقاضى حقوقه على الزوجة إلا بوفائه بحقوقها عليه ، وقد شدد القرآن في رعاية هذه الحقوق ، وفي عدم مضاررتها ، وابتزاز أموالها بأي أسلوب ، وقد منحه درجة هي في معنى رآسة الأسرة دون أن يكون من شأنها حق الانتقاص من حقوقها عليه وتقصيره فيها مع جعل عقدة النكاح في يده وإيجاب الانفاق عليها كسبب أو مظهر من مظاهر تلك الدرجة ، وأوجب القرآن في حالة التنازع بين الزوجين في صدد موقف أحدهما من الآخر ، أو حقوق أحدهما تجاه الآخر تدخل ولي الامر والشأن في الاصلاح ، وإيجاد الحل الملائم للنزاع ، وهذا يعني أن للزوجة حق الاعتراض على ما قد يحاوله الزوج من شذوذ عن حقوقه وواجباته نحوها ، ووقفه عند حده الحق الشرعي .

د - إنه أباح للرجل جمع أربع زوجات في عصمته إذا أنس في نفسه القدرة على الانفاق والعدل بين الزوجات ، وأمر بالاقتصار على واحدة في حالة احتمال عدم القدرة والعدل مع تقريره صعوبة استظامه العدل معها حرص الزوج عليه مما ينطوي في هذا التوجيه للوحدة الزوجية ، وقصر رخصة التعدد على الظروف الضرورية الموجبة .

ويغمر البعض بهذه الرخصة ، ومع أن الوقائع وحقائق الحياة ، والتجارب وما ارتكس فيه الغامزون تجعلها نعمة في شريعة ترشحت لتكون شريعة البشر أبد الدهر بعد أن أحيطت بكل التحفظات الضرورية ، وجعلت للضرورة القصوى التي لا تخلو حياة الناس من مواجهتها . وإذا كان بعض المسلمين أسأوا استعماله ، فلا يتحمل الاسلام مسؤولية ذلك .

ذ - إنه أباح الطلاق الذي يقصد به الفراق بعد أن تخفّق الجهود التي أوجب بذلها في سبيل التوفيق ، ويصبح الفراق لا ندحة منه لمصلحة وحياة كل من الزوجين . ورسم للطلاق خطة حكيمة متسقة مع هدف الإبقاء على الرابطة الزوجية ما أمكن ذلك ، ومنح الفرصة في مراجعة المطلق للمطقة إذا ما تراضيا وتوافقا على الحياة المنسجمة ، وقد أساغت السنة تفويض الزوج وزوجته بتطبيق نفسها منه إذا ما انحرف عن جادة الحق والاستقامة ، وصارت حياتها معه شاقة عسيرة ، وقد قررت السنة أن الطلاق مما يبغضه الله ، وأوجبت تفادية ما أمكن ، ولعنت من تسعى في طلاق نفسها بدون سبب صحيح ، ولعنت الذواقين والذواقات أي المكثارين من الطلاق والزواج .

ر - إنه قرر مبدءاً أساسياً لدوام الحياة الزوجية ، وهو الإمساك بالمعروف والحسنى أو الفراق والتسريح بالمعروف والحسنى ، ونهى عن إمساك الزوج وزوجته بنية ضررها وابتزاز مالها ، وجعل للزوجة المطلقة التي يريد الزوج مراجعتها أن لا تقبل إذا لم تتيقن من حسن نيته ورغبته في الصلاح ، كما نهى أهل الزوجة من منعها من العودة الى زوجها إذا تراضى الزوجان ، والتلقين القرآني يخول القضاء التدخل في حال مخالفة هذه المبادئ والوامر ، والمبدأ الأساسي يتناقض مع إكراه الزوجة على الحياة مع زوجها وهي تعتقد انه غير ملتزم به .

ز - ليس في القرآن طلاق لم يقصد به فراق ، ولا طلاق بات مرة واحدة ، وفي السنة ما يفيد أن هذا الطلاق منوط بنية الزوج إن كان أراد الفراق البات أمضي عليه وإلا لا .

س - إنه حظر التزواج بين المسلمين وغير الكتابيين ، وأجاز تزوج المسلم بالكتابية دون المسلمة بالكتابي ، وحكمة ذلك قائمة في كون الزوج المسلم يؤمن ويحترم أنبياء الزوجة الكتابية وكتبها خلافاً للزوج الكتابي بالنسبة للمسلمة .

ش - إن أهل المذهب الجعفري أي : الشيعة - من المسلمين يجيزون نكاح المتعة الذي يكون بأجر وعقد لمدة معينة ، أما أهل السنة فإنهم يحرمونه ، والآيات والآثار تجعل النفس مطمئنة بالتحريم أكثر ، والخلاف في نكاح المتعة جعل السنين لا يرونها زنى صريحاً يستحق العقوبة المحددة على الزنى .

ص - إن القرآن حث على تزويج العبيد والاماء الصالحين ، وأباح لمالك الاماء استفراس من شاء منهن بدون عقد ومهر ، والامة والعبد هما من كان رقيقاً أو من نسل رقيق قبل الاسلام ، أو استرق في حرب شرعية وقعت بين المسلمين وأعدائهم . وقد نبهنا على أن الحياديين والمسلمين والمعاهدين والخاضعين من غير المسلمين لا يسترقون ، فيكون خطف الاناث من هؤلاء ، وبيعهن على اعتبار أنهن إماء ، واستفراسهن على هذا الاعتبار غير شرعي ، وإذا ولدت الامة من سيدها لا يجوز عليها بيع ولا هبة ، وتحرر بعد موته ، وابنها منه حر .

وأباح القرآن زواج الحر بالامة بإذن أهلها . وبعقد ومهر ، وليس في القرآن ما يمنع زواج الحرة بعبد ليس ملكها ، لأن عبدها محرم عليها ، والقرآن عالج أنكحة الرقيق كحالة قائمة لتنظيمها وحسب .

ض - إن القرآن اعتبر المرأة في حالات الزواج ونتائجها طرفاً ثانياً نافذاً الاجراء ، فلا تتزوج إلا برضاها وموافقتها بدءاً وبكراً وثيباً ، وهي تقبض مهرها ، وتتصرف فيه كما تشاء ، وقد قيدت السنة زواج البكر بموافقة أبيها مع إيجاب موافقتها على كل حال ، وأجازت موافقة الاب على نكاح ابنته القاصرة مع منحها الخيار حينئذ تبلغ إذا لم يكن زوجها دخل عليها .

ط - إن نصوص القرآن وروحه تلهمان أن الزواج وحالاته ونتائجه هي ذات طابع مدني ، ولا تتوقف على مراسم دينية كهنوتية كما هو الشأن في الاديان الاخرى ، والمأذون

الشرعي هو مسجل وحسب ، والأذن الشرعي هو تنظيم وحسب .

ظ - إن القرآن قد وطد حق الرجال والنساء على السواء في إرث الشخص الذي لهم به صلات قرابة معينة تخولهم حق إرثه ، وليس لرجل قوي أن يحول دون حق امرأة أو ضعيف أو قاصر أو يتيم فيه .

ع - إنه قرر أن الارث الواجب توزيعه هو ما فضل من التركة بعد اداء دين المورث ، وتنفيذ وصيته ، واداء الدين ، وتنفيذ الوصية واجبان محتان ، على أن لا يكون فيها قصد الاضرار والحيف ، وأتمت السنة التشريع ، فمنعت الوصية لوارث ، وحظرت أن يوصي المورث بأكثر من ثلث ثروته الفاضلة عن دينه تفادياً للحيف بالورثة وتعريضهم للعوز .

غ - إنه قرر كمبدأ عام أن يكون نصيب الذكر ضعف نصيب الانثى ، إلا بعض استثناءات محددة ، وليس في هذا المبدأ حيف على المرأة كما يتمحل به المتمحلون ، بل هو عادل جداً ، فالمرأة قلما تكون مكلفة بغير نفسها إذا لم يكن لها معيل ، ولها على الاغلب معيل تجب نفقتها عليه . والرجل والحالة هذه هو أشد حاجة الى المال منها بنسبة كبيرة . لأنه المنفق على زوجته وأسرته بما فيها أمه وأخته على الأعم الاغلب ، ومع ما ذكرناه ، فإن المرأة تأخذ في بعض الحالات نصف التركة أو ثلثها ...

ف - في القرآن توزيعات للأنصبة المهمة للتركات على الورثة ، والسنة قد تكفلت بإيضاح ما سكت عنه القرآن من التوزيعات الثانوية .

ق - إن القرآن قد حث على الوصية ، والسنة نصت على أن لا وصية لوارث ، فتكون الوصية لمن لا يكون له نصيب في التركة ، ووجب القرآن تنفيذها ، وحددت السنة أن لا تزيد عن ثلث التركة ، والوصية على هذا الاعتبار بر بالاقارب الذين لا تكون قرابتهم مخولة لهم بالارث ، وقد حث القرآن الورثة على البر بالايتام والمساكين وذوي القربى

المعوزين حين قسمة التركة . وفي هذا تلقين بالوصية لليتام والمساكين ووجوه البر أيضاً بالاضافة الى الاقارب غير الوارثين ، وفي القرآن تنبيه على أن لا يكون في الوصية جنف ، ولا إضرار ، ويدخل في ذلك قصد حرمان المستحقين من إرثهم الشرعي أو تحويره أو تقليله .

ك - إن في القرآن نصوصاً وعبارات تلهم أن القضاء في الدولة الاسلامية مرجع لمختلف الشؤون الشخصية من نكاح وطلاق وعدة وإرضاع ومهر وشقاق وتعويض ونفقة وإصلاح وتوفيق ووصية وحل مشاكلها ، وتنظيمها . ونعتقد أن ذلك يشمل الطلاق والتعدد ، والاشراف عليها وعدم تركهما للنزوات .

ولقد أثرت أحاديث كثيرة عن مراجعات المسلمين رجالهم ونسائهم وأزواجهم وزوجاتهم للنبي ﷺ وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم في صدد مختلف شؤون النكاح والطلاق والنفقة والعدة والارث والوصية والمهر والرضاع والظهار والايلاء والايان والخلاف والشقاق الخ . وعما كانوا يقررونه من حلول لذلك يلتزم بها المراجعون مما فيه توكيد وتدعيم .

١٦ - ومن تقارير المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد توطيد أواصر الاسرة والآداب السلوكية :

آ - إن القرآن قد أسبغ على كيان الاسرة حفاوة بالغة ، واستهدف تقويته بتقوية الاواصر بين أفرادها .

ب - إنه أوجب البر بالوالدين والاقارب ومساعدتهم في كل حال ، غير أنه قيد هذا الواجب بقيد الحق والعدل ، ودين الله ، ومصلحة المسلمين العامة .

ت - إن القرآن أوجب على المسلمين الاستئناس والاستئذان والاذن قبل دخولهم على بيوت غيرهم ، وجعل هذا عاماً للرجال والنساء والاقارب والاباعد .

ث - ليس في القرآن ما يمنع دخول الرجال على النساء ، والنساء على الرجال بعد

الاستئناس والاستئذان والأذن ، وكل ما أمر به ولقنه وهو حسن النية وطهارة القصد والادب وعدم ابداء المرأة لزينتها ومفاتن جسدها أمام غير محارمها .

ج - إن وجه المرأة ويديها ليست عورة عند جمهور العلماء والمفسرين ، وهذا مستأنس من جملة (إلا ما ظهر منها) في آية سورة النور (٣٢) التي تأمرها بستر المفاتن والزينة عن غير المحارم ، وهناك حديث نبوي بعدم جوازشتر المرأة وجهها ويديها أثناء إحرامها في الحج ، وفي هذا تأييد لذلك ، وليس في القرآن ، ولا في السنة حظر على خروجها من بيتها لشؤونها المباحة والمشروعة ، وعلى هذا فليس عليها بأس إذا احتشمت في لباسها وسترت مفاتنها أن تخرج من بيتها سافرة الوجه واليدين لممارسة ما أباحه لها القرآن ، وللقيام بالتكاليف والواجبات والاهلية التي خاطبها بها القرآن أسوة بالرجل ، وكل ذلك في حدود المعروف والبعد عن دواعي الفتنة والاغراء ومواطن الريب والتتهتك والاماكن العامة غير البريئة ، وتعاطي المنكرات .

ح - قد يلهم القرآن أولوية التفرق في المسكن بحيث يكون للآباء بيوت وللأبناء بيوت ، وللأخوان بيوت ، وللأعمام بيوت ، وللأخوال بيوت ، وللعوانس بيوت والارمل من الامهات والاخوات والعلمات والخالات بيوت ، والمتبادر أن الحكمة في ذلك تفادي النزاع والشقاق .

خ - قد يلهم القرآن أنه ليس على المسلمين رجالهم ونسائهم وأقاربهم وأباعدتهم حرج في أن يتناولوا الطعام معاً بالاضافة الى الجلوس معاً .

د - ليس في القرآن حداد على ميت ، والزوجة المتوفى عنها زوجها تتربص بنفسها دون زواج أربعة أشهر وعشراً ، وليس ما يمنع خروجها من بيتها أثناء ذلك إذا اقتضت الضرورة واجتماعها بالناس ، والسنة نصت على عدم تزينها ولبسها المفرحات أثناء ذلك ، ونصت على أن لا حداد على ميت غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام .

ذ - ولقد نددت السنة النبوية بالرجال المشبهين بالنساء ، والنساء المشبهات بالرجال ، ونهت على عدم خلوة امرأة باجنبي عنها بدون حضور محرم ، وعدم بيتوته رجل

أجنبي عند امرأة ليست محرمة عليه بدون محرم ، وعدم دخول رجل أجنبي على امرأة زوجها غائب ، وعدم إذن المرأة لمن يكرهه زوجها ، وعدم استقباله ، وعدم سفر امرأة سراً طويلاً بدون محرم ، وعدم تبرج المرأة بشباب شفاقة خليعة .

وكل هذه الآداب الرفيعة ، والأخلاق الفاضلة المتساوقة مع تلقينات القرآن التي توجب على المرأة الاحتشام ، وترمي الى صيانتها من الريبة والانزلاق وأذى الفساق . وليس في التزامها الواجب إلا الخير والسمو والكرامة والصيانة .

ر- في سورة النور آية تأمر النساء بضرب خمرهن على جيوبهن . وفي سورة الأحزاب آية تأمر النساء بادناء جلابيهن عليهن . وفحوى آية النور يفيد أن الأمر لأجل ستر مفاتن الجسد التي تظهر من شقوق الثوب وأن ذلك آت من أن الخمار كان ممارسة . وليس الأمر القرآني انشاء جديداً ملزماً له . فاذا تحقق الهدف بطريقة أخرى حصل المقصود . ولقد درج المسلمات على التخمير أي وضع خمار على رؤوسهن وليس فيه بأس ولا حرج ، بل هو عنوان الاحتشام المحمود . وفحوى آية الأحزاب يفيد أن الأمر لتمييز المسلمة حتى لا يؤذيها الفساق . والأمر بادناء الجلابب آت من أنه كان زياً ممارسة وليس الأمر القرآني انشاء جديداً ملزماً له . فاذا تحقق الهدف بطريقة أخرى حصل المقصود . ومع ذلك فليس من حرج على المسلمة اذا أرادت أن تتجلبب بعباءة أو ملاءة وما يماثلها والله أعلم .

ز- ويقول بعضهم . أن اختلاط الرجال بالنساء حرام . والحق في هذا هو أن الاختلاط الحرام ما فيه شذوذ عن الرسوم والآداب المحددة في القرآن والسنة . أي أن تكون المرأة فيه بادية الزينة مكشوفة المفاتن أمام غير محارمها وفي خلوة منفردة مع اجنبي دون محرم وفي مشهد ويجلس فيه منكر ومعصية وفي الدخول على بعضهم بدون استئذان وإذن . وهناك احاديث كثيرة يفيد أن النساء كن يشهدن مجالس النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ويراجعنهم في شؤونهن على ملأ من أصحاب رسول الله وكن يذهبن الى المساجد فيصلين

مع المسلمين ويذهب إلى الجهاد وينشطن فيه ويحضرن الطعام مع الرجال ويؤدين مناسك الحج كتفا إلى كتف مع الرجال ويدخلن على الرجال ويدخل عليهن الرجال ويسعين في مصالحهن وحاجاتهن ويجتمعن ويتشاركن ويتعاون مع الرجال بسبيل ذلك سافرات الوجوه والأيدي . وإن كل ذلك استمر بعد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بغير إنكار ما دام أنه يجري في نطاق الرسوم والآداب القرآنية والنبوية ومن الحقائق المشاهدة المتواترة أن الاختلاط والتشارك في النشاط ومختلف الأعمال يتم على أوسع نطاق بين الرجال والنساء أقارب وأبعد في أرياف المسلمين وبادياتهم والمرأة سافرة الوجه واليدين بدون أي استثناء وإنكار ..

وكل هذا متسق مع حكمة الله التي جعلت كيان المجتمع الانساني قائما على الذكر والأنثى وساوت بينهم في الانسانية والحقوق والتكاليف والخطاب في كل أمر ديني ودنيوي وجعلت كلا منهما في حاجة إلى الآخر في نطاق تلقينات كتاب الله وسنة رسوله والله أعلم .
١٧ - ومن قرارات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد الأخلاق والتربية الشخصية :

آ - إن القرآن قد حفل أعظم احتفال بأخلاق المسلم وتكوينها وتربيتها بحيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يتصل بالأخلاق الحسنة والسيئة إلا نبه عليها موجبا التزام الأولى ، محذراً من الأخرى ، متوخياً إثارة مقتها ، مندداً بمن تكون فيهم ، هادفاً بذلك إلى أن يكون المسلم في أخلاقه نموذجاً للكمال الانساني ، وأن يكون الاتساق تاماً بين التربية القرآنية الأخلاقية ، والتلقينات السياسية والاجتماعية .

ب - إنه خاطب العقل والقلب معاً فيما توخاه من هذه الحفاوة ، فوعد وأوعد من ناحية ، وبين ما للأخلاق من آثار في حياة الإنسان صلاحاً وفساداً من ناحية .

ت - إنه احتوى مجموعات رائعة جاء بعضها بأسلوب الأمر والتنويه ، وبعضها بأسلوب النهي والتنديد والتنبيه ، ويصح أن يكون كل منها دستوراً أخلاقياً خالداً نافذاً إلى أعماق

وقد نوه فيها بكل خلق كريم وأمر به ، واتى على المتخلقين به ، وندد بكل خلق سيء ، ونهى عنه وندد بالمتخلقين به .

ث - إنه اهتم لبيان كون الأخلاق الحسنة فضيلة لذاتها ، ودعا الى الاهتمام للجواهر أكثر من العرض ، وذاتية الفضائل أكثر من الأشكال والمظاهر .

ج - إنه أكد على المسلمين التزامهم بمبدأ محاسبة الناس على اختلاف فئاتهم من أقارب وأباعد وجيران ، ومن جملتهم الفئات الضعيفة ، والتسامح معهم والعفو والصفح عنهم ، وبمبدأ القول الأحسن والفعل الأحسن ، ودرء السيئة بالحسنة ، وبمبدأ عدم مخاشنة الناس في عمل أو قول .

ح - إنه اشتد في الحملة على الظلم ، وحذر منه ودعا الى الوقوف منه موقف المنكر المقاوم .

خ - إنه اشتد في الحملة على الكذب والكاذبين كما حفل بالصدق والصادقين ، وهدف الى مقت الكذب والتحلي بالصدق في نفس المسلم .

د - إنه احتفى كثيرا بفضيلة الصبر في الشدائد والخطوب ، ومعالجة الأمور ، وحث على التحلي به ، وهدف الى تربية المسلم عليه ، وليس فيما جاء في هذا الصدد ما يفيد تسويق الصبر على الذل والظلم والهوان والتفاهة والرضا بذلك .

ذ - إنه أكثر من الدعوة الى تقوى الله في مختلف الأعمال والتصرفات ، هادفا بذلك الى جعل المسلم رقيبا على نفسه في أعماله وتصرفاته ومراقبا لله فيما يفعل ويقول حتى يتجنب

(١) نكتفي بالإشارة الى أرقام وسور هذه المجموعات التي يحسن بالقارى أن يقرأها دائما . فان فيها غذاء للقلوب والعقول والسلوك . وفيها رد على المتحلين والملحدين مفعم ملزم : البقرة (١ - ١٦ و ١٧٧ و ٢٠٣ - ٢٠٧) والنساء (٣٦ - ٣٨) والأنعام (١٥١ - ١٥٣) والرعد (١١ - ٢٥) والنحل (٩٠ - ٩٧) والاسراء (٢٣ - ٣٩) والمؤمنون (١ - ١١) والفرقان (٦٣ - ٧٦) والشورى (٣٦ - ٤٣) والماعز (١٩ - ٣٥) .

السيء والمنكر ، ويقدم على الصالح المعروف ، متوخيا تنمية الضمير الوازع فيه .
ر - إنه نهى عن اتباع الهوى ، وندد بالذين يتبعون أهواءهم ، ويقفون من الحق موقف
المكابر ، متوخيا بذلك النأي بالمسلم عن هذا الخلق ، وبث روح الحق والحقيقة واحترامها
في نفسه .

ز - انه انفرد في تحذير الخمر والميسر ، وتقرير ما انطوى فيها من ضرر وشر ، متوخيا
بذلك إبعاد المسلم عن هذين الشرين الضارين بكرامته وصحته وماله ودينه .
س - إنه انفرد في تحذير الربا إطلاقا ، واشتد في الحملة على المرايين ، وخاصة الذين
يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ، ويستغلون عسر الناس وعوزهم ، ويعاملونهم بالقسوة ودعا
الى التسامح والتساهل مع المعسرين والمعوذين .

ش - إنه اشتد في التنديد بالمتكبرين والمختالين ، والمتفاخرين بأنسابهم وثرواتهم
ومراكزهم وقوتهم ، ونهى عن السخرية بالناس ، ونبزههم بالألقاب وغمزهم ولزهم ، وعن
تتبع أعمال الغير والتدخل فيها والتجسس على الناس وغيباتهم ، وكثرة الظنون في الناس
وبث الأنباء الكاذبة أو المريبة ، وأكل أموال الناس بالباطل والتحايل عليهم ، وغشهم
والتغريب بهم ، واستغلال الضعفاء والفقراء والمحتاجين وانتقاص حقوقهم ، ومناصرة
الأقارب بالباطل فضلا عن غيرهم من الناس ، وأوجب على الناس التزام الحق والقسط ولو
على أنفسهم هادفا بذلك النأي بالمسلم عن هذه الأخلاق والتصرفات المكروهة ، وبث
احترام الناس وحقوقهم وكراماتهم في نفسه .

ص - إنه اشتد في التنديد بالرياء والمرائين والمناقضين بأفعالهم لأقوالهم ، والمخادعين في
مظاهرهم وحقائقهم ، والذين بغضبون من كلمة الحق والنصيحة بالحق ، ويأمرون الناس
بالبر ، وينسون أنفسهم ، ويتخذون اسم الله واليمين به ذريعة الى الامتناع عن الخير والبر
 والمعروف ، متوخيا بذلك تحلي المسلم بالصدق والحق في سيرته وسريته وعلمه وجعله بفعل
الخير والمعروف مع الناس بقطع النظر عن أي اعتبار .

ولقد نبهت السنة على أن الكذب في الحديث ، والاخلاف في الوعد ، وخيانة الأمانة ، والغدر بالعهد ، والفجور في الخصومة من شعب النفاق ، وآيات المنافقين ، وأن من فيه صفة من هذه الصفات يكون فيه خلة من النفاق حتى يدعها .

ض - إنه ندد بالتبذير والاسراف والترف والمبذرين والمُسرفين والمترفين ، ونبه على ما في ذلك من انحراف خلقي وديني وسلوكي ، وأوجب أن يكون المسلم وسطاً دون تقتير ولا تبذير مبتعداً عن الترف الذي يحرفه عن مقتضيات الحق والدين القويم .

- إنه جعل الاحسان والصدق والعدل والانصاف والحسنى والبر بالضعفاء والفقراء والأرقاء والخدم ومعاملتهم بالحسنى ، ودرء السيئة بالحسنة ، وقول التي هي أحسن ، والدفع بالتي هي أحسن ، وكظم الغيظ ، والعفو ، والتسامح مما يجب أن يكون من صفات المسلمين وأخلاقهم وضوابط صلاتهم ببعضهم وبالناس عامة .

ظ - إنه أمر أن يكون الحق والانصاف والعدل والقيام بالقسط قولاً وفعلًا من صفات المسلمين في تعاملهم فيما بينهم ، وسواء أكان ذلك بالنسبة لأشخاصهم أم أقاربهم أم الآخرين ، أم بالنسبة لمن يحبون ويكرهون ، وحذر من أن يكون للهوى والعاطفة والقربة وحب الذات والفقر والغنى والحب والبغض أي تأثير في ذلك .

ع - إنه أمر المسلمين بأن يكونوا أوفياء بعهودهم نحو الله ونحو الناس ، وأمناء لأماناتهم وشهاداتهم دون تأثر بالهوى ، وحب الذات والقربى ، والحب والكراهية .

غ - إنه احتفى بالعقل حفاوة عظيمة ، سواء فيما احتوته الآيات القرآنية من تقرير كون الله ينزل آياته للناس ليعقلوها ويتدبروها ، ولتكون عبرة لأولي الألباب وأولي الابصار ، أم فيما احتوته من تنديد بمن لا يستعملون عقولهم لفهم ما ينزل الله من آيات ، وإدراك ما في كون الله من مشاهد ومظاهر حتى بلغت الآيات نحو الخمسين فضلاً عما في القرآن من آيات فيها إهابة بالناس للتفكير والتدبر والتروي فيما يسمعون من آيات ، ويشاهدونه من مظاهر

قدرة الله في أنفسهم وفي الاكوان ، مما فيه إيجاء للمسلم بأن يتفكر ويتدبر ويتروى ويمحص ويبحث ويقارن ويقايس ويستنبط ويستنتج ويحسن التأويل والتلقي ، ويكون كل ذلك رائدة فيما يسمعه من أخبار وكلام ويعتزمه من عزائم ، ويلتزمه من التزامات دون الهوى والعواطف والنوات الجارحة (١) .

ف - لقد انطوى في لفت القرآن النظر الى نعم الله ، وما أودعه الله في الكون من منافع ونواميس قصد الحث على الاقبال على الانتفاع بذلك والجد والداب والسعي للرزق الحلال ، وتقرير كون ذلك من حق جميع الناس دون ما تميز ولا تفاضل هادفاً بذلك بث الهمة ، وحفز الجهد في سبيل الكسب الحلال ، والانتفاع بنواميس الله الكونية ، وعدم منع أحد من مثل ذلك ، وعدم بقاء أحد عالة على غيره ، وكلاً على مجتمعه ، وهناك أحاديث نبوية عديدة تحض الناس والفقراء على التكسب والعمل على إتقان العمل .

ق - إنه استهدف فيما احتواه من بيان للسيئات والحسنات من آثار ، ونتائج في الحياة جعل المسلم يدرك بالعقل والامثال أن اجتناب الأولى ، والتزام الثانية هما من مصلحته .

ك - إنه احتفى حفاوة عظيمة بالعلم والعلماء والتعلم والقراءة والكتابة حتى بلغت الآيات في كل ذلك المئات في مختلف الاساليب والمناسبات ، وحمل العلماء مسؤولية عظمى مما يسوغ القول : إنه يقرر أن العلم والتعلم والقراءة والكتابة من الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلمون ، وأن عليهم وهم أن يتوصلوا بكل وسيلة الى ذلك بما في ذلك الاقتباس من الغير ليتمكنوا من القيام بواجباتهم المتنوعة ضمن مبادئ القرآن والسنة وتلقيناتها .

(١) زعم صادق العظم في كتابه «نقد الفكر الديني» أن حث القرآن على استعمال العقل هو في صدد استكشاف آلاء الله ، وقد فندنا قوله ، وأثبتنا أنه في صدد الدين والدنيا معاً في الفقرة (٧) من الفصل السابق .

ل - إنه ألزم العلماء تمحيص الحق وبيانہ للناس والتزامه ، وعدم اتخاذ العلم وسيلة للتلزف والاحتيال . وينطوي في ذلك تقرير كون دعوي العلم لاتصدق إلا إذا صار له في نفس صاحبه أثر للممارسة مقتضياته وسلوكه من صدق وإنصاف وتسليم بالحق ، ونزول عنده وبعد عن الهوى والتهویش والمكابرة .

م - ليس في القرآن ولا في السنة ما يمنع أي مسلم في أي وقت إذا كان مؤهلاً من الاستنباط من القرآن والسنة والاجتهاد والقياس والتمحيص في مختلف شؤون الدين والدنيا في نطاقهما . وهذا لا يعني إهمال ما كان من اجتهادات الأئمة والعلماء السابقين واستنباطهم والتزام ما فيها من سداد وصواب وحق والاخذ به .

ن - ليس في القرآن ولا في السنة تحديد لمجال العلم والفكر ولا تخصيص ذلك للرجل دون المرأة ، وكل ماورد من خطاب قرآني في هذا الشأن شامل للرجل والمرأة على السواء مما يسوغ القول : إن ذلك المجال مطلق على أوسع مداه خلافاً لما يزعمه الملحدون على ما جاء في كتاب صادق العظم (١) . وأنه مباح للرجل والمرأة على السواء ، وليس من حد له إلا واجب التزام العقائد ، وما تقتضيه مبادئ القرآن والسنة وتعاليمهما وتلقيناتها السامية من الآداب والأخلاق الحسنة .

هـ - ليس في القرآن ، ولا في السنة ما يمنع المسلم والدول الإسلامية من الاقتباس من غير المسلمين لمختلف صور ووسائل الحياة والعلم والفن ، والتنظييات المتنوعة المعيشية وغير المعيشية والحكومية وغير الحكومية في نطاق التزام عقائد الاسلام وأركانها ومبادئه وتلقيناته

(١) زعم العظم أن العلم في القرآن هو في صدد العلم الديني وحسب وأن معرفة المسلمين الاولين اقتصرت على المعرفة الدينية . وقد فندنا قوله في الفقرة (٧) من الفصل السابق . وأثبتنا من نصوص القرآن أن العلم فيه قد تناول شؤون الدين والدنيا معاً . وإن المسلمين الاولين فهموا ذلك كذلك وكان لهم حظ عظيم في علوم الدنيا كما كان لهم مثل هذا الحظ في علوم الدين .

الأخلاقية والاجتماعية والأدبية والسلوكية والاقتصادية .

و- إن في الآيات الواردة في الأمور الإيمانية ، وأركان الاسلام ، والوعد والوعيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والحض على الأعمال الصالحة ، والزجر عن الأعمال السيئة والقصص والأمثال أهدافاً أخلاقية تربوية تهدف إلى جعل المسلم إنساناً فاضلاً في الدنيا أيضاً .

لا - في القرآن والسنة نصوص كثيرة تقرر أن كل ما يقع من الناس ويقع عليهم هو بمشيئة الله وعلمه ، وتوجب الايمان بذلك ، وفيهما نصوص كثيرة أخرى تقرر قابلية الناس للكسب والعمل والتميز والاختيار ، وتنسب إليهم أعمالهم المتنوعة ، وترتب عليهم عواقب هذه الأعمال وفقاً لها في الحياة الدنيا والآخرة ، غير أن فيهما نصوصاً كثيرة فيها ضوابط تزيل وهم التناقض ، وتجعل القول : إن الانسان يفعل ما يفعله بمشيئته وقابلياته التي شاء الله أن يودعها فيه هو الأوجه والمتسق مع حكمة إرسال الرسل ودعوة الناس بواسطتهم إلى الله ، ومكارم الأخلاق ، وتحذيرهم من الانحراف عن الله والأعمال السيئة ، وترتب عليهم ولهم الثواب والعقاب وفق مواقفهم من ذلك ، وتسوغ القول : إن النصوص الأولى هي أسلوبية متشابهة قد تتحمل وجوهاً أخرى للتأويل ، وقد تكون بسبيل تقرير إحاطة وشمول علم الله وقدرته الأزلية الأبدية ، وتكون تلك الضوابط هي المحكمة التي يجب الوقوف عندها ، ومع أن مسألة القدر التي يدور الكلام عليها في هذه النبذة ليست إسلامية وحسب ، وإنما هي عالمية مللية ، فإن القرآن والسنة قد عالجاها أفضل معالجة وأحكمها بنهيها عن التنازع فيها ، وأمر الناس بالدأب والعمل والنشاط والتسابق في الخيرات ، وتقريرها كون الله إنما خلقهم ليعملوا ويرى الله عملهم ورسوله وإن كلا منهم ميسر لما خلق له وإنما خلقهم ليبلوهم ايهم أحسن عملاً مما ينطوي فيه ما هو الأولى أن يعلمه المسلمون من حكمة الله في خلقه . وليس ما فيه المسلمون اليوم من ضعف وخمول هو كما يقول الملحدون . أثر عقيدة القدر فيهم . وقد كان الأولون من المسلمين أعظم الأمم قوة

وسلطاناً وحيوية وعلماً بتلقينات كتاب الله وسنة ورسوله . وإذا فهمت عقيدة القدر بمداهها الصحيح تجعل المسلم أكثر إقداماً على العمل والنشاط والتضحية بعكس ما يتوهمه المتوهمون .

ي - وفي المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتها تنبيه للناس إلى كون واجبهم في الحياة الدنيا هو العمل الصالح المفيد ، وإلى كون ذلك هو حكمة الله المتوخاة في خلقهم وتسخير ما في الكون لهم ، وإلى كون الله قد جعل حياتهم الدنيوية اختباراً لهم في ذلك ، ودعاهم إلى التسابق في الخيرات . وفي هذا ردّ على سؤال قد يتوَّاقح عليه ملحد وهو الحكمة الالهية في خلق الناس وإماتهم ، ثم إحيائهم وثوابهم وعقابهم . فالله تعالى لا يسأل عما يفعل ، ولكنه خاطب الناس من واقع الحياة ، فالكون قائم والناس موجودون يسعون وينشطون ما داموا أحياء كسنة من سنن الخلق ، وما دام الأمر كذلك ، فيجب عليهم أن يأخذوا الأمر على واقعه ، وأن يعتبروا أنفسهم أنهم أمام اختبار الله بالعمل الصالح المفيد الضامن لهم سعادة الدنيا والآخرة وكفى .

١٨ - ومن يقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد إصلاح المسلم ومعالجته أخلاقياً وروحياً :

- ت - إنه سمح للمضطر بالمحذور عليه ضمن نطاق الضرورة وظروفها .
- ث - إنه رفع عن المسلم الحرج والمسؤولية عما يصدر منه بسائق النسيان والخطأ والاكراه من أعمال محظورة بشرط توفر حسن النية وطهارة القصد ، وباستثناء ما يسبب ضرراً بليغاً كالقتل الخطأ حيث أوجب التعويض مع حض المتضرر على العفو .
- ج - إنه نهى عن جعل اليمين وسيلة لعدم البر والاصلاح والتقوى ، ومساعدة المحتاجين ، وحرمان النفس من الطيب الحلال ، ورفع حرج اليمين اللغوالتى لانية للضرر ولا عزيمة فيها ، وأمر بالكفارة عن اليمين التي فيها عزيمة وتحريم لما أحل الله ، أو أذى أو ضرر أو مجانبة بر وتقوى وإصلاح والتي يكون الأفضل والأنفع عدم الالتزام بها ، وعمل

ما هو خير ومفيد .

ح - إنه قرر عدم تكليف الانسان بما لا يطيق سواء فيما يتصل بالعبادات أو الشؤون الدنيوية الأخرى ، وينطوي في هذا عدم مسؤوليته عما لا يطيق .

خ - إنه لم يقيده في مأكله ومشربه ومعاشرته للناس إلا بالحلال الطيب وحسن النية واللفظ والتسامح .

د - إنه قرر عدم أخذ أحد بجريرة أحد ، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله دون غيره .

ذ - إنه أنكر التحليل والتحریم لأي شيء من مأكّل ومشرب وعمل بغير سند وعلم وحق .

ر - إنه دعا إلى الاهتمام بجوهر الأعمال والفضائل وذاتيتها أكثر من أشكالها ومظاهرها .

ز - إنه طمأن الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش بالتجاوز عما قد يلمون به من هفوات وذنوب صغيرة عابرة .

س - إنه قرر أن الرسالة المحمدية أستهدفّت تحليل الطيبات ، وتحريم الخبائث ، وتخفيف التكاليف الشديدة السابقة .

ش - إنه دعا إلى التوبة ، وقد شملت دعوته إلى التوبة عن جميع ما يصدر من الانسان بصورة عامة ، ومن المسلم بصورة خاصة من مواقف وأعمال وآثام ، ومعنى التوبة الندم على عمل الذنب والعزم على التراجع عنه وعدم فعله .

آ - إن القرآن توخى بصورة عامة التوسعة ، وعدم الاحراج ، سواء أكان ذلك في تكاليف العبادة أم التعامل والمعيشة ، وسائر شؤون الحياة .

ب - إنه نهى عن حرمان النفس من الاستمتاع بطيبات الرزق وزينة الحياة ، واستنكر التقشف والتزمت ، ولم يقيد المسلمين إلا بالطيب الحلال ، والقصد والاعتدال ، والبعد عن

ماهو خبيث ورجس وفسق .

ص - إن الدعوة القرآنية إلى التوبة قد انطوت على مقاصد إصلاحية وتربوية جليلة للانسان بصورة عامة ، والمسلم بصورة خاصة بحيث تهىء للمذنب والمخطيء مجالاً لاستئناف حياة جديدة مملوءة بالرجاء .

ض - إنه شرط في التوبة أن يرافقها عزيمة صادقة على رجوع التائب إلى الله والحق والصواب والصلاح ، وتجنب الاثم والمنكر ، والانحراف والضرر ، وتلافي ما كان من فساد ، وأن يتوب التائب وهو في متسع من العمر والعاقبة والقوة ليتحقق بذلك قصدها الاصلاحى .

ط - إن الفرق بين التوبة في الاسلام والاعتراف في النصرانية هو أن الأولى تتم بين الله والانسان ضمن الشروط المذكورة في الفقرة السابقة بدون وساطة كهنوتية ، لأنه ليس في الاسلام سلطة كهنوتية ، تحدد للمسلم ما يفعل وما لايفعل ، وما يجوز وما لا يجوز ، ولا تكون عقوده وحركاته شرعية إلا بموافقتها وتوسطها ، فالمسلم حرّ في كل أعماله وعزائمه في حدود الايمان بالله ورسوله وقرآنه واليوم الآخر . وما أمر الله ورسوله به ونهيا عنه ، مما يجعل قوى العقل والفكر والضمير في ظل الاسلام مطلقة تستطيع أن تحلق في كل جو في نطاق تلك الحدود .

ظ - إنه نهى عن القنوط ، واعتبره من نقائص الايمان ، وبث الأمل والرجاء ، واعتبرهما من مظاهر الايمان .

ع - إنه يلهم أن الأمل والرجاء مما يبعث القوة والروح والنشاط في الانسان في حين أن القنوط يفقده ذلك .

غ - إنه توخى تثبيت قلب المسلم وتشجيعه على التضحية والاقدام ، وتحمل الشدائد والمناسق والمكروه بنفس راضية مطمئنة إذا ما واجهها ، وليس من ذلك قبول الذل والظلم والرضوخ لهما .

ف - إن ماورد في القرآن من آيات تضمنت وصف مصائر الناس الأخروية قد انطوت على وسيلة لتعويد المسلم الأمل والرجاء في المستقبل ، وجعله يواجه متنوع الأحداث والحظوظ بدون تدمير ولا اضطراب . بالاضافة إلى ما انطوى فيها من الحقيقة الايمانية .

ق - إن ماورد في القرآن من آيات تعد المؤمن باليسر بعد العسر قد انطوت على وسيلة لتنمية الجلد والصبر والمقاومة في المسلم ، وخاصة في الظروف الصعبة ، والمواقف الحرجة .
ك - إن القرآن حث على تحمل ما قد يشق على النفس ، ويكون فيه خير آجل ، وانطوى في ذلك وسيلة لبث الطمأنينة والهدوء في نفس المسلم وتنمية نوازع الحق والبر والأمل فيه ، والرضا بذلك الشاق العاجل مقابل خيرة الآجل .

ل - إن ماورد في القرآن من آيات تحض على التقوى ، وتعد بالفرج والنصر قد انطوت على وسيلة لبعث الأمل في المسلم ، وعدم الاستسلام لليأس والقنوط أمام النوازل والخطوب .

م - إن القرآن قد دعا إلى التوكل على الله ، وانطوى في هذه الدعوة وسيلة لتطمين نفس المسلم وجعله أقوى على مواجهة الخطوب والأخطار ، وليس فيها أي معنى من معاني الاستسلام ، وعدم الأخذ بالاسباب المؤدية إلى التغلب على تلك الخطوب والأخطار .

ن - ليس في تلقينات القرآن والسنة ما يوحي بالاستسلام للمكروه والبغي والحظر والحرمان والشظف ، والرضا بذلك ، وما يبدو من هذا في سواد المسلمين هو أثر من آثار سوء فهم القرآن والسنة والجهل والتخلف والغفلة والانحطاط اللذين عاشوا فيهما دهرًا طويلاً

...

تعقيب وهاف وتوضيح ١-

وكل ما جاء في النبذ التسع عشرة مستفادة من آيات القرآن في مختلف سوره ، وهناك أحاديث نبوية كثيرة متساوقة مع ذلك كل التساوق ، وفي بعضها شرح وبيان لما جاء في القرآن مقتضباً ، وقد أثبتنا نصوص الآيات والأحاديث وشرحناها في أبواب وفصول جزئي كتابنا «الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة» .

ونهيب بكل مسلم سواء أكان صادق الايمان أم ضعيفه ، أم كان متسماً بالاسلام دون التحقق به قليلاً أو كثيراً ، بل ونيهيب بغير المسلمين والملحدين من الحملة ان يقرؤوا هذا الكتاب وأمثاله الكثيرة لغيرنا التي فيها شرح لما في القرآن والسنة من مبادئ وتعاليم ، ولو على سبيل العلم بالشيء ، ويستوعبونها ليروا مصداق كل ما أوجزناه من تقريرات المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيقاتها .

وإذا كان من كلمة نختم بها كتابنا ، فهي مناشدة ذوي النيات الحسنة ، والمقاصد البريئة من اللامبالين بالدين بدون إلحاد علمي وبخاصة الدين الاسلامي ممارسة أو معرفة ، الراغبين في الحق والحقيقة أن يتمعنوا فيما كتبناه ، وفي مستنداته في كتابنا المذكور ، وكتب غيرنا أمثاله . ثم القول إن من يفعل ذلك سوف يجد ما يقنعه كل القناعة بأن الدعوة إلى القرآن والاسلام ليست دعوة إلى الجمود والتخلف والتمسك بما ديم البالي الذي يحلو للملحدين تسميته بالرجعية ، وإنما هي دعوة إلى تجدد ونهوض وثورة على ما يرتكس المسلمون والعرب فيه اليوم من جمود وتخلف ، وأن الحملة عليه هي حملة ظالمة باغية باطلة فاسدة (١) .

(١) مما يحوله صادق العظم في كتابه «نقد الفكر الديني» (انه يمكن أن يكون في تعاليم الاسلام بورة على القدم السابق ولكن هذا لم يكن بالنسبة للمستقبل المستمر ، وقد نجد قاذي الى تخلف العرب) وهذا كذب كذبه النصوص والوقائع والحقا والمسمره ، وتخلف العرب والمسلمين اليوم لاتتحمل تلك التعاليم مسؤوليته ، لانها تدعو الى سعة الافق والمرونة والنشاط في مختلف

أما ذوو النيات السيئة والمقاصد المريبة الذين صمموا على التصامم والمكابرة حتى صار يصدق عليهم وصف القرآن (حَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) فهم شركاء في العداء للإسلام والعرب مع سائر أعدائهم وعملائهم من حيث يريدون ويدرون أو لا يريدون ولا يدرون ، وفي كل ما يسوقونه تهافت ومجازفة وسوء فهم ، وسوء تأويل وسوء أدب ، وعناد ومكابرة ، وعلى ذوي النيات الحسنة الذين نرجو أن يكونوا قد استجابوا لهتافنا ، وانشرحت صدورهم بحقائق الاسلام ، وسمو مبادئه ومقاصده أن لا يجاروهم ، بل وأن ينبذوهم ويناوؤهم بكل قوة وبدون هوادة ، وأن يتضامنوا في ذلك مع الملتزمين بواجباتهم وإسلامهم قبلهم ممارسة ومعرفة حتى ينحسر شرهم وخطرهم وضررهم الذي أخذ ينتشر بخاصة في أوساط ناشئتنا ومثقفينا ، ويصبح تياراً جارفاً يجرف كل مالنا من قيم وتراث وأجماد ونوازع وحوافز وضمير وحياء ، وخلق حسن ، والتزام للواجبات الدينية والقومية والوطنية والأسرية ، وتصبح أمتنا نتيجة له فاقدة لهويتها وذاتيتها وطمأنينتها وتماسكها ، والعوبة بيد اللاعبين من الاغيار ، وطعمة سائفة للطامعين ، مما يتحمل المثقفون ذوو النيات الحسنة مسؤوليته الأدبية والأخلاقية والدينية إذا هم قصرُوا

المجالات وفي كل دور ، وتمنع النمسك بالقديم لقدمه ، وعدم الاخذ بالجديد لجذته مطلقا ، وضابطها النفع العام والمصلحة والانسجام مع العقل ، والتزام مبادئ الاسلام السامية السمحاء التي ليس فيها الا كل أسباب السعادة والحيوية والصلاح والكرامة . ويقول أيضاً : (ان طبيعة الدين هي أن فيه عفيدة بابتة محددة تعيش في الحقائق الأزلية وتنتظر الى الورا لتستلهم بعده . وان اكتشاف حقائق جوهرية جديدة لاكتساب معارف هامة جديدة أمر لم يكن يعني المسلمين . وكل ما كان من أمرهم الوصول الى نظرة أعمق وفهم أشمل للنصوص المنزلة حتى يتصلوا الى المعارف الكامنة منذ الأزل استنادا الى قول القرآن (مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) مع أن أبرز سمات النشاط العلمي فكرة الاكتشاف الذي يجعل من العلم نشاطاً حركياً يتخطى دأناً منجزاته السابقة) ونقول : ان تقريرات المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيقاتها التي توحى للمسلم بالارتباط بالحياة الدنيا ، وتجديد نشاطه العلمي والفكري والعلمي في مختلف مجالات هذه الحياة باستمرار وتطلع وسعة أفق تجعل هذا القول بالنسبة للإسلام في غير محله . وأن الوقائع والحقائق تثبت أنه كان للمسلمين الأولين جولات واسعة إيجابية متجددة متحركة في مختلف مجالات الحياة العقلية والفكرية والعلمية والعملية استلهاما من تلك التقريرات ، ولقد شرحنا في الفصل السابق مدى العبارة القرآنية (ما فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) وما في تأويل صادق العظم لها من تعسف فنكتفي بهذا التنبيه .

فيه . ونهيب بذوي السلطات الحكومية ، والمراكز الاجتماعية والأدبية منهم بنوع خاص أن يتضامنوا في سبيل نشر الوعي الديني ، والالتزامات الدينية في ناشئة المسلمين ومدارسهم حتى لايجرفها ذلك التيار الرهيب .

ونوجه إلى ذوي النيات الحسنة هتافاً آخر من قبيل المساجلة بأنه لايمكن لأي كان أن يدعي صادقاً بأن أي عصر استطاع أن يتفقت من تأثير المثل العليا والأفكار الفلسفية الإصلاحية الأخلاقية والاجتماعية والانسانية التي اهتمها الأديان والفلاسفة النبهاء منذ القديم ، وجاءت على أقوى وأفضل وأسمى ما يكون في خاتمة رسالات الله ، وبلسان خاتم الرسل والنبیین في ختام كتب الله (القرآن) . وإن مما لايمكن أن ينكر أن ما عند الغرب اليوم من آداب وأفكار ونظريات ومثل وفلسفة بل ونظم وتقالييد يرجع كثير منها إلى ذلك القديم ، وأن الدعوة المستندة إلى ذلك لايمكن أن تكون شاذة أو دعوة إلى القهقري دائماً ، لأن البشرية سلسلة متصلة الحلقات ، وأجيال متواثقة الصلات يد بعضها بعضاً ، ويرث بعضها بعضاً ، وتظل أولاهها ممتزجة بأخراها ، وأخراها مقتبسة من أولاهها ، وإن غير ذلك هو تجاهل للحقائق والوقائع وتحكم لامسوغ له ولا سند ، وأن من الحقائق التي لايمارى فيها أن النظام شيء وتطبيقه شيء آخر ، وأن عدم تطبيق ما لا ينتج عنه دائماً عدم صلاح ذلك النظام ، وأن شذوذ أمة أو جماعة أو حكومة في ظرف ما عن الطريق القويم ، وارتكاسها في الفوضى والعماء والمنكرات لايتأتى دائماً من عدم صلاح ما عندها من نظم وتقالييد وأسس دينية ، وأنه كثيراً ما يتأتى من عوامل متنوعة أخلاقية واجتماعية وسياسية وداخلية وخارجية ونفسية واقتصادية ، وأن هذا ليس محصوراً في بلد دون بلد ، ولا في دولة دون دولة ، ولا في زمن دون زمن ، بل هو شيء ممكن الحدوث في كل بلد ، وفي كل دولة ، وفي كل زمن ، وأن الدعوة التي ندعو إليها إنما ترمي إلى تفهم واستجلاء ما في القرآن والسنة النبوية من أهداف ونظم ومبادئ وقواعد ، والتنبية على ما فيها من سمو وصلاحية ، ولا يماري في فائدة ذلك والرجوع إليه ، والتمسك به وإحيائه إلا جاهل به أو

مكابره أو مغرض ، وأن جذور الدين متأصلة في الناس تأصلاً لا يمكن لأي قوة أو دعوة أن تقتلعها منهم ، وأن وجود واحد في كل مائة ألف يفكر بغير ذلك لا يعني أن الناس يمكن أن يتفكروا من تأثير الدين وقوته ونفوذه ، وما دام القرآن الذي هو كتاب المسلمين المقدس عامة وكتاب أكثرية العرب العظمى خاصة بين أيديهم يتلونه صباح مساء ، ويعتقدون أنه نبراسهم ومرجعهم ، وفيه من النظم والمبادئ والقواعد والأحكام والتلقينات ما يس جميع جوانب حياتهم بمقياس أوسع كثيراً مما في أي كتاب ديني مقدس آخر ، فإن صلتهم به وتأثيره فيهم لا يمكن أن ينقطعاً مهما تقلبت الظروف ، وتطورت الأحوال ، وما دام ما جاء فيه من قرارات محكماته وتلقيناتها قد جاء على أقوى ما يمكن من سعة أفق وإحاطة واستجابة لكل حاجة ومشكلة وعلى أشد ما يكون مرونة تتيح اقتباس كل ما هو صالح نافع من أي كان ، والأخذ بأحسن الوسائل والاستعداد في كل ناحية من نواحي الحياة ، ويساعد على إثارة الهمم ، وإيقاظ الضمائر وتحريك النشاط وبعبارة أخرى يدعو بكل قوة إلى كل ما فيه كمال الإنسانية وخيرها وتقدمها ورفعها ، وما يفتح الطريق واسعاً لقيام بنياتها وكيانها على التفكير الحر والعلم بدون عائق ، فإنه يكون من الخير كل الخير أن يحسن تلقيها وتفهمها والاستبصار بها ، والاستعداد منها ، ويكون من الشر كل الشر أن يترك السواد الأعظم الذي يدين بالقرآن ويقدسه ، ويتأثر به في غفلة وجهل وعمى عما فيه ، يستغلهم المستغلون ويتحكم فيهم الجامدون ، وإن في انتشار هذه الدعوة بين المثقفين خاصة لمن شأنه أن يجعلهم أصحاب التأثير ، وأن يمكنهم من قيادة هذا السواد الأعظم ، وتوجيهه إلى ما في الخير والحق والصلاح والقوة والفوز .

ولقد ارتاع كثير من عقلاء الغرب وحكمائه من تيارات الاتحاد والمجون والتحليل التي تجتاح أوربة وأميركة ، وأخذوا يرفعون أصوات الانذار ينبهون على وجوب الالتزام بالقيم الدينية العاصمة من هذه التيارات ، وليس من دين غير الدين الاسلامي يصلح ليكون هو

العاصم الصحيح الهادي للبشر ، الضامن لسعادة البشرية ، وحل مشاكلها الروحية والاجتماعية والاقتصادية على أفضل وجه مما يقوم الدليل عليه قوياً ساطعاً في تقارير المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتها المشروحة قبل ، وفي المقارنة بينها وبين ما في الأديان الأخرى من معالجات غير وافية وغير شافية ، فمن الغفلة العظمى أن لا ينتبه المسلمون إلى ذلك ، وأن يقصر النبهاء منهم في تجلية هذا الدين ونشره لتحقيق وعد الله تعالى بإظهاره على الدين كله ، وإنه لمن كبريات الجرائم ان يحاول الملحدون العرب سد هذا الطريق بحملاتهم التهديمية الفاجرة .

ولقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يكون رسوله العربي محمد بن عبد الله ﷺ خاتم رسله وأنبيائه ، وأن يكون كتابه العربي المبين مهيمناً على ما سبقه من الكتب ، وأن يكون الدين الذي جاء به خاتم رسله وأنبيائه مرشحاً ليكون دين البشرية جميعها ، وليظهره على الدين كله ، لأنه جاء بالهدى ودين الحق ، وأن تكون صفات هذا الرسول النبي ﷺ مكتوبة في التوراة والانجيل ، وأن تكون دعوته الى الناس جميعاً كتابيين وغير كتابيين ، وعرب وغير عرب ليدعوهم إلى الله وحده ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم ما أثقلهم من تكاليف وأصار وأغلال ، وأن يكون هذا الرسول ورسالته رحمة للعالمين ، فصار من واجب كل مستطيع من المسلمين والعرب بالدرجة الأولى أن يخدم هذا الكتاب الرباني العظيم بالتجلية والشرح ، وبيان ما فيه من قواعد ونظم وتعاليم ومبادئ وتلقينات وتوجيهات فيها صلاح البشرية وسعادتها ، والتمسك به والتزام ما جاء فيه ، وتفنيد كل ما يوجه إليه بسائق الغرض والجهل .

والخوف من إقامة بنيان على تعاليم ونظم مستمدة من الدين ومن استلهاهم هذه التعاليم والنظم إنما يكون صحيحاً حينما تدعو إلى التعصب المذموم ، والجمود الضار ، وتقف عثرة في سبيل الإصلاح والصلاح ، والتجدد والاقتباس ، وتحدد للناس جزئيات حياتهم وأشكالها وكيفياتها ، وتحد من نشاطهم وحيويتهم وتضطرهم إلى البقاء ضمن نطاق جامد ، وكل هذا

منتف كل الانتفاء من التعاليم والنظم والأهداف العامة التي انطوت في القرآن على ما مر شرحه .

وليس في اتكاء جماعة أو حكومة من المسلمين على الاسلام ، واتسامهم بسمته مع انحرافهم عن تعاليمه ومبادئه وتلقيناته ومداه الواسع المرن ، وسوء فهمهم وتأويلهم له ما يصح أن يكون حجة ضد ما ذكرناه .

ولقد طغت المادية والتفكير المادي على المدنية الغربية حتى كاد يكون صبغة عامة لها ، وحتى كاد يعطل في الناس شعور الرحمة والبر والتسامح والوفاء والأخوة الانسانية ، وحتى كاد يمت في الانسان أو هو أماته فعلاً - الضمير الذي يمكن أن يمد صاحبه بنوازع الخير والبر والحق والاحسان والانصاف ، وحتى صار وجه الحياة الانسانية كالحا ، وصارت الحياة جحياً لا يطاق ، لأن ميزانها الوحيد هو المادة وما تنتجه من قسوة وتناحر وأنانية وجشع وضعف شعور ، واستغراق في الشهوات ، وتنافس على السلطان والطغيان ، وما تحله من روابط التقاليد والآداب الكريمة ، والعواطف الانسانية ، وما تبيحه من الوسائل في سبيل تحقيق نزوات النفوس ومطامعها ورغباتها التي تملئها تلك الصبغة مهما كان فيها من إثم وبغي وعدوان وطغيان ، ومخافة للحق والمنطق والبر والعدل ، ولأن التوازن قد انفق بالمرّة تقريباً بين الروح والمادة والقلب والعقل ، والعاطفة والعلم مما أقض مضاجع العلماء والباحثين الاجتماعيين في الغرب نفسه .

فمن الحق والخير أن يحتاط بعض مثقفينا في دعوتهم إلى الانسياق في التيار المادي بدون تبصر ولا روية ، وبدون قيد وشرط ، وبدون حساب للعواقب ، لأن في ذلك بتاً للصلة التي تربطنا بماضيينا اللامع المجيد الوضاء الذي لا يزال يشع نوره من وراء الظلمات التي تراكم بعضها فوق بعض خلال عصور الغفلة والعماء والتغلب الجاهل ، وصرفاً عن أعظم مدد وأقوى هدى يمكن أن يمد المسلمين والعرب والانسانية معاً بأفضل الأسباب ، ويهديهم

الى أقوم الطرق . ومن الحق والخير أن نعمل جميعاً على إيجاد التوازن بين الروح والمادة ، والقلب والعقل ، والعاطفة والعلم ، وأن نعتبر بعثرات الغرب المادية وعيوبه ، وأن نقوي ضمير الانسانية بما فيه من نوازع الخير والبر والرحمة والعفو والتسامح والحق والعدل والاحسان ، وكل هذا يتيسر بالدعوة القرآنية والرسالة الاسلامية .

- ٣ -

ولقد يقول شبابنا القوميون : إن هذه الدعوة تتعارض مع المصالح القومية العربية ، فنحن ندعو إلى مجد قومي عربي ووحدة قومية عربية في حين أن الاسلام قد فتح الباب لغير العرب ، فدخلوا الاسلام إخوة متساويين ، واستغلوا هذه المساواة ، فدحروا العرب ، وتسلطوا عليهم في الكيان الاسلامي العالم الذي تألف من العرب وغير العرب دون أن يجد العرب أوسوادهم في ذلك كبير أمر ، ودون أن يحفزهم الى العمل على استرداد سيادتهم بجد ودافع قوي ، وبعبارة أخرى في حين أن المساواة الاسلامية جعلت العرب يهضمون سلطان غيرهم وسيادتهم عليهم ، وضياح سلطانهم القومي دونما حرج ولا تحفز حقبة طويلة من الدهر ذل العرب فيها وقرقوا .

ولقد يقولون أيضاً : إن هناك إخواناً لنا في القومية ليسوا مسلمين ، وإن اندماجهم فيها ضرورة قومية . في حين أن هذه الدعوة قد تقيم العشرات دون ذلك ، وقد تثير بعض التيارات والنزعات التي لا تساعد على تحقيق هذه الضرورة القومية . ونقول لهؤلاء الاخوان :

أولاً : إنه ليس لأحد أن ينكر أن للأعجاز التاريخية أثراً عظيماً في حياة الأمم وقوة حيويتها ومقاومتها لصروف الدهر وضرباته الموجعة ، وإن الاسلام الذي جاء على يد الرسول العربي ﷺ بقرآن خلدت به اللغة العربية وتقدمت ، وحفظت به الأمة العربية من التمزق أمما وقوميات عديدة ، والذي صار العرب به وحدة أمة ذات رسالة إنسانية

خالدة ، والذي كان له من الأثر العظيم في حياة البشر وحضارتهم وتوجيههم نحو المثل العليا هو من أعظم الأجداد التي تستطيع الأمة العربية أن تفخر وتعز وتزهو بها ، ومن أقوى الحوافز على تحريك الهمم إلى استئناف حياة المجد والقوة بل وأعظمها وأقواها وإن في محاولة إهبال ذلك أو التهوين منه أو تجاهله جحوداً منكراً لتلك الآثار والأجداد ، وتعطيلاً اثياً لهذه الحوافز .

وثانياً : إن الاسلام الذي يمثله القرآن والسنة لم يهمل ناحية التنويه بالعرب ومركزهم وشأنهم في الكيان الاسلامي العام . ولقد انطوى في القرآن والسنة تلقين قوي بحق البروز والشأنية لهم في هذا الكيان ، وحملهم مهمة هداية البشر وترقيتهم ، وإقامة بنيان الانسانية على أقوى الأسس وأعدّها وأفضلها ، ونبها على عظم مسؤوليتهم عن هذه المهمة ، وجعلها الصلة لائحة بين ذل العرب وذلّه ، وعزة العرب وعزته ، على ما جاء في نصوص عديدة منها ما فيه التنبيه على ما في الرسالة المحمدية من علو ذكر لقوم النبي ﷺ ، ومنها ما فيه تقرير غدو العرب بالاسلام الذي كانوا أول المعتنقين له عدولاً شهداء على غيرهم ، ومنها ما فيه الاشارة إلى اصطفاء العرب للمهمة العظمى وتقرير شأنهم العظيم في الكيان الاسلامي ، ومنها ما فيه تقرير كون حبهم من الايمان ، وبغضهم كفر ونفاق ، فليس من تعارض والحالة هذه بين تعاليم القرآن والسنة ، وبين الطموح إلى الاجداد القومية العربية ، والعزة القومية العربية ، والوحدة القومية العربية ، بل وإنه ليصح أن يقال : إن هذا من مقتضى تلك التعاليم لأن في قوة العرب ومجدهم وعزتهم ووحدتهم قوة للاسلام ومجده وعزته ووحدته . يضاف إلى هذا أمر خلود اللغة العربية وتقديسها على اعتبارها لغة القرآن ، ولغة العبادات الاسلامية التي يجب على كل مسلم أن يفقهها ويقدها . وما في هذا من الوسيلة إلى نشر النفوذ العربي ، وسيادة اللغة العربية ، وخفقان رايات العرب الأدبية والروحية والثقافية بل والسياسية في مختلف انحاء الأرض مما تبذل الدول الكبرى في سبيله طائل

الأموال وعظيم الجهود دون أن تناله كما تشتهي في حين أن القرآن قد أوجبه كواجب ديني وجداني يدفع فيه المسلم اندفاعاً دينياً وجدانياً .

وثالثاً : إن الخوف من عودة التاريخ واستغلال المسلمين غير العرب للمساواة الإسلامية للتغلب على العرب كرة أخرى قد أصبح اليوم منتفياً ، ولم يبق منه إلا ذكرى التاريخ . ولقد كان ذلك كنتيجة لظهور الاسلام واستعلائه وزحف العرب وفتوحاتهم في مشارق الأرض ومغاربها حيث قام بالضرورة سلطان عام ، وسياسة عامة ، وكيان سياسي عام وكان ما كان من تناحر على السلطان والسيادة في هذا الكيان ، واستعانة بعض العناصر العربية الطامحة إلى السلطان والحكم بالعناصر المسلمة غير العربية مما فسخ المجال لهذه العناصر بالتدخل ثم بالتغلب . والظروف الراهنة للعرب وغير العرب تجعل تكرر ما وقع غير محتمل البتة . وهذا شيء ، واحتمال قيام تضامن وثيق سياسي واقتصادي وثقافي بين الدول الإسلامية العربية وغير العربية شيء آخر ، وفيه إذا تحقق من الخير العميم للعرب ما يوجب عليهم أن يبذلوا الجهد في سبيل تحقيقه . ومثل هذا مما تبذل الشعوب المتقاربة بل وغير المتقاربة جهداً عظيماً في سبيل تحقيقه ، وتحقيقه بين الدول الإسلامية أكثر إمكاناً بفضل ما قرره القرآن ووطده من الأخوة بين المؤمنين ، وما يعكسه ذلك من آثار إيجابية تظهر قوية في كل موقف وظرف ، ويدعمها حب وتقديس من غير العرب للعرب ، وإذا يسر الله للعرب وحدتهم السياسية - التي هي في الحقيقة وحدة إسلامية ، لأن أكثرية العرب الساحقة مسلمة - وهو مطمئهم الذي هو في نطاق الامكان فيكونون في نطاق ذلك الاحتمال أصحاب الشأن الأعظم والأقوى .

وحتى الوحدة الإسلامية التي يريد البعض أن تكون الدعوة إليها دون الوحدة العربية لا يمكن أن تكون الدعوة إليها صحيحة ومجدية قبل أن تقوم الوحدة العربية .

ورابعاً : إن التنديد أو التحذير الذي ورد ضد الدعوة إلى العصبية مفهوم من حيث النص فهماً خاطئاً ، والحديث الوارد في هذا الضدد رواه أبو داود ، عن جبير بن مطعم قال : قال النبي ﷺ « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية .. » وروى أبو داود ، عن واثلة بن الأسقع قال : قلت يارسول الله ما العصبية ؟ قال : « أن تعين قومك على الظلم » ويظهر أن واثلة كان يسمع الحديث الذي وجه إلى جبير فسأله سؤاله وأخذ الجواب . هذا من حيث النص ومن حيث المدى الاجتماعي ، فإن التحذير قد يكون وارداً صحيحاً ضد الدعوة إلى العصبية القبلية التي كانت تقاليد العرب قائمة عليها ، والتي كانت تعتبر أساساً للوحدة الاجتماعية عندهم ، وحائلة دون تكتل العرب ووحدتهم القومية العامة بحيث يكون بذلك هادفاً إلى

إضعاف هذه العصبية الضيقة وإقامة الوحدة القومية والأخوة القومية العامة مقامها في صدد تكوين الأمة وبناء كيانها العام كما هو معلوم لكل من درس أحوال العرب وتقاليدهم الاجتماعية وسير الدعوة النبوية والسيرة النبوية ، وهو من نوع ما يقوم الآن ، ويشجبه القوميون العرب من الدعوة أو النعرة الاقليمية ، وقد كان هذا التنديد والتحذير قبل انتشار الاسلام إلى خارج جزيرة العرب وإلى أمم غير عربية ، وفي ظرف انحصار الدعوة في العرب وجزيرتهم ، وفي هذا كما هو المتبادر دعامة حاسمة لما نقره .

والدعوة العربية القومية التي يساق التحذير الذي فهم فهماً خاطئاً كما شرحنا في صدها هي في حقيقتها دعوة إلى القضاء على النعرات الاقليمية والتفرقة وإلى ازدهار عربي ، وتكامل عربي ، وكرامة عربية وقوة عربية ونهضة عربية ووحدة عربية تشمل جميع أرجاء الوطن العربي من الخليج إلى المحيط . وكل هذا متفق مع مبادئ الدعوة الاسلامية وتعاليمها وأهدافها ، وحينما يلحظ أن أكثرية العرب الساحقة في هذا الوطن الشاسع هي مسلمة يظهر للملاحظ تلقائياً أن محصل تلك الدعوة عائد في حقيقته إلى المسلمين والمهم في

الأمر هو أن لا تكون الدعوة القومية العربية في أي حال وتصور وموقف منعزلة أو مجردة عن السمة الإسلامية والتحقق بها ، وهي السمة التي لم يكن للقومية العربية شأنها العظيم ، ولن يكون لها شأنها العظيم إلا بها ، والتي لولاها لما كانت الأمة العربية اليوم أمة واحدة تملأ أرجاء الوطن العربي الكبير من الخليج إلى المحيط ، ويستطيع أبناؤها أن يدعوا أن لها رسالة إنسانية خالدة . ونعتقد أن سواد العرب الأعظم لن يكون لهم موقف مجرد أو منعزل عن هذه السمة ، وأن هذه السمة راسخة في ضمائرهم وعقولهم وقلوبهم رسوخاً شديداً لن يؤثر عليه أية محاولة .

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى التجربة التركية ، فقد جهد مصطفى كمال وخلفاؤه لتغيير سمة الأتراك الإسلامية ، وجاء وقت ظن الناس أن الجهد قد نجح ، غير أنهم مالبثوا أن رأوا أن ظنهم خاطيء ، وأن السمة الإسلامية عادت إلى البروز واللمعان ، لأن جذورها قوية في ضمائر الأتراك ، وقلوبهم وعقولهم وتقاليدهم ، ومثل هذا يقال بتمامه بالنسبة للأمم الإسلامية التي تعيش في كنف الاتحاد السوفياتي الشيوعي والصين الشيوعية ، والتلازم بين العروبة والإسلام أشد رسوخاً وأشد قوة وطبيعية من التلازم بين الإسلام والأمم غير العربية .

وقد يقول بعض المتزمتين رغم الخطأ الذي شرحناه في فهم التحضير ، ورغم التلازم القائم المستمر بين الدعوة العربية والسمة الإسلامية : إنه وقد صارت هذه السمة هي سمة العرب فيجب الاكتفاء بها دون الدعوة العربية ، والسمة العربية .

ونعتقد أن في هذا خطأ ومغالطة أيضاً ، فإن سمة الإسلام قد صارت فعلاً سمة العرب ومن الواجب أن تبقى سمة لهم وهي فعلاً سمتهم ، وستبقى كذلك إلى ما شاء الله ، ولكن ذلك لا يعني ولا يمكن أن يعني أن الذاتية العربية قد زالت ، أو يجب أن تزول ، أو يمكن أن تزول بها . فهي مستمدة من واقع ذاتي قائم لا يجوز المكابرة فيه ، وهو تميز الأمة العربية

في اللغة والموطن والخصائص ، وهذا هو شأن كل الأمم التي تدين بالاسلام ، وكما انه لا يعقل ولا يصح في حال أن يكتفي بتسمية هذه الأمم بالأمم الاسلامية دون أبوة لذاتيتها المتميزة بلغاتها وخصائصها ومواطنها ، ودون ملاحظة ذلك في تسميتها القومية وتعريفها وفي ما تنشط في سبيله من ازدهار وتكامل في شتى الميادين ، فإنه لا يعقل أن يكتفي بتسمية الأمة العربية بالمسلمين دون أبوة لذاتيتها المتميزة بلغتها وخصائصها وموطنها ، ودون ملاحظة ذلك في تسميتها القومية ، وفي ما تنشط في سبيله من ازدهار وتكامل في شتى الميادين ، وهذا أمر بديهي إلى درجة أن المكابرة فيه تبدو غريبة جداً . إلا في حالة واحدة هي أن تكون السمة العربية مجردة عن السمة الاسلامية وهو ما نبهنا على رفضه وعدم احتمالها ، وعلى كون العروبة والاسلام سيظلان متلازمين ، ولا يمكن فك أحدهما عن الآخر ، والتنويه القرآني بقوم النبي ﷺ واصطفائهم ومسؤوليتهم ينطوي فيه إقرار بالوجود العربي القومي في نطاق الاسلام ، وهذا الاقرار قائم في حديثين نبويين أيضاً جاء في أحدهما : «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» ، وجاء في ثانيهما : «من أحبّ العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم» .

وخامساً : إن تعاليم القرآن والسنة لا تحتوي أي مانع من اعتبار غير المسلمين من العرب المسلمين المتضامنين مع مسلميهم إخواناً لمسلميهم في القومية ، ومن التعامل معهم على هذا اعتبار في نطاق الدولة والكيان الاجتماعي معاً ، وهذه التعاليم أبعد ما تكون عن إثارة أي بغضاء أو عدااء لغير المسلمين المسلمين عامة ، بل إنها تحت صراحة على البر بهم ، والاقساط إليهم ، وحسن التعايش والتعامل معهم ، وهناك نصوص قرآنية ونبوية في ذلك ، ومما لا ريب فيه أن لغير المسلمين من العرب المندمجين بإخوانهم اندماجاً قومياً والمتضامنين معهم في السراء والضراء والمصالح والمطالح الأولوية في هذا الحث ، هذا إلى

أن الفخر بالاسلام ونبي الاسلام العربي وقرآن الاسلام العربي فخر عام للعرب مسلميهم ومسيحييهم ، ولا نعتقد أن هناك عاقلاً لبيباً من هؤلاء لا يعتز به ولا يندمج فيه .

ولقد فهم المسلمون الأولون الأمر على حقيقته المشروحة ، فكان المسلمون المودون من غير المسلمين يعيشون معهم على وفاق تام ، ويشتركون معهم في شؤون الدولة ووظائفها ، وما يمكن أن يكون شذوذ عن هذا المدى ، إنما كان لأسباب أخرى منها تحريك الدول الاستعمارية الطامعة ببلاد العرب والتي طردها الاسلام من هذه البلاد ، وتظل تطمع بالعودة إليها بإحداث البلبلة والفتنة والوساوس والدسائس .

واتسام الحكومات العربية بسمة الاسلام هو نتيجة لكون أكثرية رعاياها الساحقة مسلمين . وليس من شأن هذه السمة ولا من شأن ذكر بعض الدول العربية في دساتيرها أن دينها الاسلام أو أن دين رئيسها الاسلام أن يحجب ما لغير المسلمين وبخاصة العرب منهم ما لهم فيها من مركز وحقوق . بل من شأن ذلك أن يثبتها لأن هذا المركز والحقوق مما نصت عليه وأكدت تلك المصادر .

والحمد لله رب العالمين

صدر عن دار قتيبة

• المائة الأولى

• شهادات ماسونية

• الأحكام والنسخ في القرآن الكريم

• زحف الطاعون المزمّن

التحركات اليهودية عبر التاريخ

• القرآن والملحدون

• تاريخ الأدب العربي

• آلات التيار المستمر

عقيدة الخلف والسلف

سبعون برهاناً على وجود الذات الإلهية

رَقِبُوا صُدُورَ الْكُتُبِ

عَنْ دَارِ قُتَيْبَةَ

- المنصفُ « عن سرقات المتنبي »
- ديوان المتنبي « شرح الواحدعي »
- ديوان دريد بن الصمة .
- تدابير القادر تأليف اللواء الركن محمود شيت خطاب
- كفاية الأخبار
- الأحاديث القدسية
- الحصون الحميدية
- أقباس روحانية
- فرحة الأديب « للغندجاني »

المحتويات

٣	المقدمة
١٤	الفصل الأول
٢٧٣	الفصل الثاني
١٠٣	الفصل الثالث
١٠٤	النظرة الاعتبارية الجذافية الى القرآن
١١٢	القرآن والسيرة النبوية
٢٤	القرآن والبيئة النبوية
١٥٢	اللغة القرآنية
١٧٤	القصص القرآنية
١١٠	قصة آدم وابلis
٢١٧	الجن في القرآن
٢٢٨	مشاهد الكون ونواميسه في القرآن
٢٤٨	الحياة الاخرية في القرآن
٢٥٧	صفات الله عز وجل وأفعاله وأسمائه في القرآن
٣٤٠	تنبيهات على أخطاء يقع فيها الناظرون في القرآن
٣٤٨	أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف
	القرآات القرآنية
	الفصل الرابع
٣٦٢	وجهها لوجه مع محكمات القرآن
٤٣٣	تعقيب وهتاف وتوضيح
	المحتويات

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com